



مبنى أبي علي أسس جادة عام ١٤١٢ هـ - ١٤١٣ هـ

الأعمال الكاملة

للأديب الأستاذ

محمد حسين زيدان

الجزء الثاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



كتاب الاثنينية

(٢٤)

الأعمال الكاملة

للأديب الأستاذ

محمد حسين زيدان

الجزء الثاني

الناشر

عبد المقصود محمد سعيد خوجه

جدة

ح) عبدالمقصود خوجه ، ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

زيدان ، محمد حسين

الأعمال الكاملة . / محمد حسين زيدان . - جدة ١٤٢٦هـ

(٧ مج ٤٥٧٦ ص) الجزء الثاني ٨٥٢ ص ؛ ١٧×٢٤سم (كتاب الاثنينية ٢٤)

ردمك ٨-٧٣٩-٤٧-٩٩٦٠ (مجموعة)

X-٧٤١-٤٧-٩٩٦٠ (ج ٢)

١ - زيدان ، محمد حسين ٢ - التاريخ الاسلامي

٣- الأدب العربي-مجموعات أ- العنوان

ديوي ٩٥٣ ١٤٢٦/٢٠٣٢

رقم الإيداع : ١٤٢٦/٢٠٣٢

ردمك : ٨-٧٣٩-٤٧-٩٩٦٠ (مجموعة)

X-٧٤١-٤٧-٩٩٦٠ (ج ٢)

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

صدرت هذه الأعمال بمناسبة "مكة المكرمة" عاصمة الثقافة الإسلامية

حقوق الطبع محفوظة

الناشر

عبدالمقصود محمد سعيد خوجه

جكدة

فهرس المحتويات

..... النشر
..... تمر وجمر
..... المقدمة
..... آل سعود
..... تراثيات
..... ملتقى الآراء
..... هذه هي الديمقراطية
..... مهرجان الذهب
..... قمة الجزائر
..... إسلاميات
..... النبات يُسبِّح
..... تقاليد القيادة
..... تأثير المسجد
..... الإسراء والمعراج
..... التقوى
..... لنكن أمة واحدة

.....	خمسة رجال
.....	وللعرب الصحوة
.....	ما فرطنا في الكتاب من شيء
.....	الماضي والحاضر
.....	البنوة
.....	الإمام المنتظر
.....	عبد الله بن أبي بكر
.....	بطولة وإيمان
.....	من مواقف الفاروق
.....	الحج
.....	الكلمة المعجزة
.....	صور جادة
.....	أعلام من التراث
.....	عروة بن أذينة
.....	أحمد بن الفرات
.....	هرثمة بن أعين
.....	وحيد بن الرومي
.....	مع بشار
.....	النخلة
.....	الأدب
.....	العمق في المثل العامي
.....	سَمْن كلبك!
.....	حق الأنثى

جواب سديد... ! ..

أسد عليّ وفي الحروب نعمة ..

بيان من البيان ..

بين الحمية الفردية والجماعية ..

حوار لليوم والأمس ..

البحر ..

عودة إلى كليلة ودمنة ..

مع إبليس والمعري ..

بين الناس والناس ..

حديث الكبار عن الكبار ..

وقالت العرب ..

أسود رأس! ..

تمشية الأمور ..

مع الوزير المهلبى ..

حصافة عبد الملك ..

تاريخيات ..

قصة أصحاب الأخدود ..

التاريخ والحقيقة ..

الرقص حول النار! ..

سياسيات ..

القراصنة...؟! ..

السيخ ..

حجتها.. . وحجتنا..! ..

.....	من أجل فوكلاند
.....	فوكلاند
.....	تحية
.....	سر العبقرية
.....	الأرمادا
.....	ألم يكن ذلك طغياناً؟!
.....	حقوق الإنسان
.....	وحدة الهدف أم وحدة الأشكال
.....	جلد البريطانيين ويجالد الأمريكان
.....	اللهم لا شماتة
.....	الكذب
.....	تفريغ الأرض
.....	الغضب لا يفيد!
.....	موقف
.....	سؤال!
.....	الملونون في بريتوريا
.....	جورج بوش
.....	الخرز الملون
.....	تركيا والعرب
.....	الزعيم المقدس!
.....	يحرفون التعريف
.....	ما هو الإرهاب؟
.....	قوة الولايات المتحدة

تفريغ الأرض
سفن في الجليد
البابا.. مرة أخرى
انتصار السيدة تاتشر
سبخاروف..
الشرق الأوسط
الحرب بين الرأي والرؤية
الهنود الحمر
من غرينادا إلى لبنان
فلسطينيات وإسرائيليات
خطرسة مرفوضة
وأخيراً تكلم!
عقدة لبنان
قرية أم الفحم
عن اليهود
لجنة كاهان.. والاتحاد السوفياتي
ومعنا ألسنتهم
الطائفية والإمبراطور
هل هي مصادفة
السفهاء يضحكون
وإن ذهب مع الريح!
طبع في موسكو وواشنطن!
الافارقة وإسرائيل

العصابة قتلته	
تجارة الأخبار	
سلطان اليهود أضاع أخلاق الرجال	
اليهود .. والتجنيد في أمريكا	
استجداء اليهود	
القرصنة	
لو لم أكن عربياً؟	
مناورة للاسترخاء	
أسلوب اليهود	
كليمنصو واليونان	
المتطرفون اليهود	
انسحاب إسرائيل	
طغيان اليهود قاتلهم	
استرخاء اليهود	
خبر وتعليق	
أمريكا لا تريد	
هتلر واليهود	
صناع السلاح وتجار السلاح	
إسرائيل و «بيرل هاربر» أخرى	
ذنب الضب	
لقد حرّموا الرحمة	
عن اليهود	
اليهود قوم بهت	

وسجل التاريخ النعمة

صناعة الموت

حليب الأمهات ودموعهن

هؤلاء المارونيين

عروبيات

عقيدة.. لا عقدة!!

أمس هو اليوم عن العرب

الوجه الجديد للتاريخ العربي

صهر أم قهر

المشرق

عنجهية العصر الفيكتوري

صور

إسرائيل ما زالت تكابر!

تمتع بكفرك قليلاً

لماذا انقلب القذافي؟!

فتنة الناس

لبنان

بين الضحكة.. والأضحكة

أين الحمية؟!

صياد العصافير

الأرض

النظريات الفلسفية

كلمة عزاء لمصر

الجائع والرغيف
ندوة في الكونجرس

لغويات

الكلمة في السياق
اللغة الشاعرة
اللغة الشاعرة
لغة
أكلوني البراغيث
التوت . . والرتوت
القرمز
أدبيّات

حافظ وشوقي
أبو نواس وأبو العتاهية
كاريكاتير المتنبي
حوار غير ساخن
من الشعر الشعبي عن أنصار الشعر الشعبي
النثر والشعر
الشعر
تطور الهجاء
عن الشعر
عبد الفتاح مصطفى
مراجعة الثقافة يا حملة الشهادات
طه بن حسين والارتجال

..... بيرم التونسي
..... الرواية العربية
..... وذكرني بالراعي
..... أحمد الغزاوي
..... **أعلام**

..... سلطان الأطرش
..... أبو تراب
..... إلى الأستاذ عبد الله بن خميس
..... عبد الحق النقشبندي
..... طاهر زمخشري
..... مع الأستاذ ابن خميس
..... أمين مدني
..... إلى الأستاذ الرفاعي
..... مع عيسى خليل صباغ
..... مع محمد فتحي
..... مشعل السديري
..... السيد أحمد العربي
..... شكيب والآشي
..... عبد الله بن عقيل

..... **تعقيبات**
..... الغوغاء
..... إهمال النصوص
..... المتجردة

ابن هشام	إلى أشياخنا	التفاخر بالأنساب	جزائر ذئبة المهمل	حضري بدوي	إن لله جنوداً	ابن القرية	من هو المهلبى؟
----------------	-------------------	------------------------	-------------------------	-----------------	---------------------	------------------	----------------------

قراءات

رجل وامرأة	«مكيال من البراغيث»	بين «حانا» و «دانا»	مع تركي السديري	حوار مع قارئ	أخي حمد القاضي . . .	رأس الذنب	شريرة وصغيرة
------------------	---------------------------	---------------------------	-----------------------	--------------------	----------------------	-----------------	--------------------

مع القراء

مع الشباب	توضيح لرأي	من الرجعي . . ومن التقدمي؟	حوار مع وزارة الإعلام	إلى عميد كلية الصيدلة بالرياض
-----------------	------------------	----------------------------------	-----------------------------	-------------------------------------

رسالة عن التطبيب

تكاثرت الطبء على خراش

وجدانيات

الحب

الحب والوفاء

عن الغزل

ذات عصر غائم

ما زلت مشغولاً بها

إليها.

هي والزهور

كتمان الحب

الحب الفاشل الخالد

اللذة بالألم

رسالة عاشق

الياسمين

ذكرى

ذاتيات وتجارب

صور

الوداع وإلى اللقاء

نظافة العصر

الصديق والغيبة

الهجاء

الهيئة

..... حوار مع الشيخ	
..... كيف تكون سعيداً	
..... المغتربة	
..... الحب لكل أهلك	
..... الخطاب والأرانب	
..... الازدواجية	
..... كأنما العين كانت أذنًا	
..... السلوك والأسلاك	
..... العقوق	
..... أحلام اليقظة	
..... الأخطر من الأحزاب	
..... فسوق الكلام	
..... الإشفاق	
..... أهلاً يا دكتور	
..... غور الرجال	
..... الاحتقار	
..... الشيخ	
..... الصيحة	
..... لا عتاب ولا ملامة	
..... المتناقضات	
..... عشق الحرف	
..... عن الماضي	
..... ويل للقوي من الضعيف	

غوث التقوى	غوث التقوى
فول وترمس	فول وترمس
الورم	الورم
أمي الغولة	أمي الغولة
اسكت.. اسكت	اسكت.. اسكت
إذا عقلك الأدنى	إذا عقلك الأدنى
أنا وصاحبي	أنا وصاحبي
الريم	الريم
عن العجرفة.. قال وقلت	عن العجرفة.. قال وقلت
مشاعر الغربة	مشاعر الغربة
الشيخوخة	الشيخوخة
وطن الغريب	وطن الغريب
الأخير	الأخير
الردئ يطرد الجيد	الردئ يطرد الجيد
العصا والشمسية.. ..	العصا والشمسية..
صورة	صورة
العشير	العشير
رسالة من ولدي	رسالة من ولدي
الدكتوراه الفخرية	الدكتوراه الفخرية
حيلة الأرناب	حيلة الأرناب
الروية والصبر	الروية والصبر
مسامرات ومساجلات وذكريات	مسامرات ومساجلات وذكريات
حوار	حوار

..... حمزة شحاته وشوقي

..... احماضة

..... حوار

..... أحب معانيها

..... جيل الحمد . . جيل التجربة

..... جيل التجربة

..... مع الأجيال

..... الترف في أيامنا

..... كل الأيام مباركة

..... العملة وانتماؤها

..... التكريم

..... الأسودان

..... الفلاح

..... مُلح

..... اجتماعيات

..... الرجال حصون

..... الشيء بالشيء يذكر

..... التحية لسموه

..... الوفاء ()

..... الضيم

..... جوع المجتمعات

..... الطموح والفراغ

..... الاستعراض

إذلال الأبوة	
ظاهرة حضارية	
لا تعط الصعاليك	
المسؤول والمراجع	
داء السرقة	
حمر مستنفرة	
الكرامة	
ازدواج السلوك	
أعراض الأمهات	
باعها لزوج	
عن الكلاب	
أسماء الشوارع	
قصة التليفون	
الطين والمطر	
الزرع والضرع	
تخيروا لنطفكم	
خدمكم حشمكم!	
انتصار البنة	
إلى عميد شؤون المكتبات بجدة	
فدائية الخدم	
العجوز	
الصفيق	
السعوط	

..... قسوة الضعف

..... عن الحجاب

..... الأمهات مصارعات!

..... عن الكمال

..... الجامعة والطبقية

..... معونة مرافق

..... حماقة أب

..... من غشنا فليس منا

..... ما أرخص الغوالي!

..... مركب النقص

..... بلادة الروتين

..... فضلات العمائر

..... ابن أبيه!

..... خفية!

..... الرقم خطأ!

..... بيع المقلية!

..... الشك

..... نشر الغسيل

..... رحلات

..... في الهند

..... حوار في أمريكا

..... متفرقات

..... التفاؤل والتواكل

أمثلة	1
كلمات هتلرية	2
وعن الفئران !	3
صور كاريكاتيرية !	4
الرهق الأسود	5
المدينة والحضارة	6
المسؤولية	7
الغيث	8
عبقرية الشعوب	9
عن خليل الزباني	10
عن الموسيقى	11
حول القصيم	12
صوتان أعشقهما	13
حرب على الشريط	14
وتشبع النفس والعين	15
نابليون والمرأة	16
قاتل الحضارة	17
اهرعوا إلى الطبيب	18
أعجوبة	19
فهرس المحتويات	20

النشر

تمر وجر

المقدمة

واحترامي للقارئ يدعوني أن لا أثقل عليه بكتابي هذا «تمر وجمر»
فلربما أكثر من قارئ اطلع عليه منشوراً في جريدة «عكاظ». ولكنني
حرصت أن أجمع ذلك لقارئ بعد. فمعدرة، ولا حاجة إلى الإطالة فإن
هذه المجموعة تقدم نفسها لقارئ تعجبه، ولقارئ يرفضها. والإعجاب
عطاء، كما أن الرفض عطاء. ولربما العطاء من الرفض يعطيني أنه لم
يرفض إلا ما قرأ، فالقراءة له هي العطاء. ولن يسلم أي موضوع يعرض
 للقراءة من الذين يعجبهم، أو الذين يغضبهم. والله ولي التوفيق.

آل سعود

تراثيات

ملتقى الآراء

أيها الملك، فهد بن عبد العزيز:

وأنت ميمون النقيبة، عرفناك نجيباً في كل وقت، فإذا ما ازدحمت الأمور، وافيتنا بتفريج الكرب، وهل هناك كرب أكثر من الجهل، فإذا أنت الأمير الوزير، تطارد الجهل في القرية والمدينة وبيت الشعر، فما شقيت بك المعرفة، وإنما الشقوة للجهل. وقد أفاء الله عليك من النعمة، حين لم تبخل أرضك بالعطاء، وحين كسوت أرض شعبك بالوفاء، فما كادت تمضي أيام أربعة من هذا الشهر الكريم (رمضان) حتى منحت أفئدة شعبك أن تنطلق ألسنتها بكلمة الشكر، فالشكر إعراب، لا عن المسرة بالعطاء فحسب، وإنما عن الكفاءة بالوفاء، الوفاء منك أن تعطي، كأنما أنت بهذا العطاء شاكر لله، والوفاء من شعبك، أن يأخذ ما أعطيت، ليكون العطاء الشكر الذي هو العمل، فالواجب علينا جميعاً أن لا نترك اللسان يشكر وحده، بل الفؤاد يواكب اللسان، وإنما أنت قد دعوت عضل الرجال، أن يعمل شكراً، (اعملوا آل داود شكراً).

ولم تكن هذه المنحة، ريات دخلت جيب من يستحقها، وإنما هي الرعاية منك، ملأت أفئدة الشعب كله، إخلاصاً للولاء، فما أشد ما نحتاجه اليوم، إلا أن نكون في الولاء كأسنان المشط سواسية، أسرة واحدة، في ظلال كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة.

إن البسمة التي تشع نورها، على فم من أعطيت، نداء أن الواحد للكل، والكل للواحد، في وقت توزعت أمة العرب، إلى أوزاع، نرجو أن لا يكون الوازع فينا نحن شعبك، إلا أن نكون، الصوانين لما ورثنا، الحافلين بتراثنا، لا نحرم من عق، ونرجو العودة لمن انشق، لا يحملنا الجحود على أن نبخل، وإنما تحملنا أمانة هذا البلد، الكيان الكبير، جزيرة العرب، تراث محمد عليه الصلاة والسلام، المملكة العربية السعودية، على أن نكون الدعامة، ترفض المذلة، وتبني للوفاق، بذلك نطرد اليأس، بذلك لا نعطي المأساة، أن تحدث آثاراً سلبية، بل تدعو إلى أن يكون الإيجاب عملاً، فأنت صاحبه، فما أكثر ما صبرنا، حتى إن الصبر قد سخر من القهر، قهر الظروف التي تحيط بالشعوب العربية الآن.

أيها الملك، لك التحية والتهنئة، لكل موقف تقفه، ولكل عطاء تمنحه، من شعبك، ومن الشعوب التي ما زالت شاكرة غير ناكرة.

عش طويل عمر، سديد رأي، حليفك التوفيق، فالله جلّ جلاله، ناصر من ينصره، ولنعم التوفيق نعمة، حفظك الله، **تجمّع ولا تفرّق**، وتصور ولا تبدد، والله من وراء القصد.

هذه هي الديمقراطية

- وما كنت أود أن أكتب عن موقف تجلت فيه الديمقراطية على صورة ما أجملها. إن هذا الموقف الديمقراطي الذي أود أن أكتب عنه الآن أنعته بالديمقراطية تقليداً لما يجري به التعارف الآن حين يكون الملك مخالطاً لشعبه، كبيرهم الأخ وصغيرهم الابن.. فعل الاسم الصحيح هو الموقف الراحم حين يكون الملك حاكماً عادلاً، مسؤولاً عن الرعية، رائداً لا يكذب أهله.

ولعلّ الذي دعاني أن أكتب بعد تردد هو المواقف التي تنال من قيمة الدولة، المملكة العربية السعودية، لا أقول بداعي الحقد ولا بدافع المرض وإنما هي نزعات شيطان العمالة.. عمالة من نوع جديد.. لم يستأجر عليها وإنما هو يدفع الأجور للذين يقولون له معك حتى كالبهم واستكلب عليهم تعاووا عليه.

إن هذه المواقف السلبية من هؤلاء ما هي إلا عطاء إيجابي لإسرائيل، فالشدوذ عن التضامن والسباب، والفخار بما يسميه التصدي ليس إلا أن تكون الفرقة القوة الأولى في يد اليهود. فكل العرب موضع التعدي من إسرائيل.. تصب عليهم الهلاك جزءاً جزءاً ما دام الكل لا يجتمع.

فالموقف الديمقراطي الذي سقت أمامه هذه المقدمة هو ما كان على

هذه الصورة التي تجلت فيها سعة الصدر.. فبعد مغرب الأربعاء في الأسبوع الماضي وفي الديوان الملكي بجدة وبعد خروج الكثيرين من الضيوف والشعب العربي السعودي من قاعة الطعام بعد العشاء وقف جلالة الملك فهد في الصالة الواسعة ونحن نشرب القهوة العربية كما جرت به العادة.. ووقف عريبان قبلان ومن القرية عفيف التي أصبحت المدينة عفيف.. تقدما أمامه بالشكوى، فسمع لهما وأرشدتهما إلى أن يراجعا إمارة الرياض فأخذا يلحان كل منهما يتكلم، واتسع صدر الملك يسمع وطالت الوقفة وإذا المشاهدون يعجبون من صبر الملك وسعة صدره.. يقف مدة أكثر من ربع ساعة يرشد ولا ينهر.. يسمع ولا يقهر.. فقلت لبعض الأخوان وكلهم قالها معي: إن هذه هي الديمقراطية.. وزاد كرم الملك أن أرسلهما مع مندوب بعد الساعة العاشرة ليلاً إلى سمو أمير الرياض الأمير سلمان بن عبد العزيز يعطيهما الوعد بأنهما لن يظلما في حق. وكان من بين الضيوف مفتي سوريا فلعلّه ذكر مما علم أن الملك فهد قد انتزع إلى عرق فاقتدى حين اهتدى بهدي السلف الصالح. الضعيف عندهم هو القوي حين يعطى حقه.. والقوي هو الضعيف حين يؤخذ الحق منه.

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

مهرجان الذهب

- وافتتح الملك فهد بن عبد العزيز بعزيمة الرجال، وتصميم الإقبال وبأمل كبير هو الحفاظ على أن يتم كل شيء في طريقه المرسوم عمراناً وتقدماً ودفاعاً واندفاعاً.

فعظم المسؤولية حين يشغل بها وجدان الملك منحه الله التوفيق أن يفتتح «منجم خير جديد» رديف لخير قبله. عون لخير بعده..

إن الملك فهد أيده الله وأطال بقاءه حين افتتح منجم المهد الذهبي. تمهرج الشعب به يمتلىء بالتفاؤل ليحتفظ بكل المسؤولية، «ألا يتأخر البناء». حينذاك أنشدت هذا البيت لشوقي يرحمه الله:

في مهرجان هزت الدنيا به أعطافها واختال فيه المشرق

حتى إذا تحدثت مع بعض الصحاب قلت لهم قولة الإمام علي ابن أبي طالب رضي الله عنه: «مهرجون كل يوم هكذا».. وهل الدولة حين تمهرجنا كل يوم بافتتاح مدرسة وسفلة طريق وبناء مصنع وإخراج الذهب الزينة، في كل مهرجان، وعامل البناء سواء كان قيمة ما نستخرج من المنجم أو قيمة برميل النفط أو قلة التمر أو أي ناتج أعطته الدولة كل عون.

هل الدولة حين تفعل ذلك تخلق الشعب من مسؤولية أن يمهّج لنفسه بالعمل الدؤوب والشكر المثوب ليكون الخير المجلوب؟

إن الملك حين أعطى المسؤولية حقها أعطى للشعب حقاً ليؤدي الشعب واجبه فلم نعد شعب اليد السفلى أيام الصدقات والجرايات. وإنما قد أصبحنا الآن بفضل الله ثم بحدب الدولة ورعايتها أصحاب اليد العليا..

لقد أُلحوا من قبل على البطل الملك السلطان الإمام عبد العزيز ابن عبد الرحمن أن يطالب بأوقاف الحرمين، أوقفها الخيرون من المسلمين وحجبتها حكومات ظنت أنها منحة الدولة التي هي صاحبة السلطان فيها. فلم يستجب عبد العزيز لهذا الإلحاح وقال من أول يوم: «رزقي ورزقكم على الله».

- لقد حرص أن يكون وهو في قلة من المال صاحب اليد العليا، فإذا الله سبحانه وتعالى فجر الأرض يبايع يحقق بها الله أن تكون اليد العليا عالية بما نملك من دقة النظر عن كل ما يضعها في موطن اليد السفلى. فالشعب من واجبه أن يعمل حامداً للشظف الذي كان، شاكراً للخير الآن..

قمة الجزائر

- واستأخرت أستاذني.. أستكنه البشائر تزفها الأخبار إلينا عن زيارة جلالة الملك فهد بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية إلى الجزائر. وانتظرت فوجدتني أطرح هذا السؤال.

هل فاجأ الملك فهد بن عبد العزيز دنياه العربية وإنسانها بهذه الزيارة بكل ما فيها من دقة التوقيت يحالفه التوفيق؟ نعم، لقد فاجأ الملك فهد الذين يحبون الصيد في الماء العكر وتقذف أشداقهم السباب الكدر، ويتمنون أن لا يكون لقاء بين الملك فهد والرئيس الشاذلي بن جديد، سواء كانوا من شرق السويس أو غرب السويس.

إن المفاجأة أحدثت أثرها، أسقطت الظنون. فقد كان هؤلاء الذين لا يريدونها يعتقدون ولا أقول يظنون أن علاقة المملكة العربية السعودية الوثيقة بالمملكة المغربية قد تكون حائلاً بين العلاقة الوطيدة بين المملكة وجمهورية الجزائر.

لقد حسبوا لذلك حسابهم وأقنعتهم أحاسيسهم فكذبهم جواسيسهم، ذلك لأن علاقة المملكة العربية السعودية بأي شعب عربي وأي زعيم عربي علاقة يحتمها المكان وما أقدسه! والإمكان وما أجوده! والمكانة التي عرفت مجد ماضيها ونبل حاضرها والتفاؤل بمستقبلها. فالعلية الوارثون لنازع

التاريخ وحتم التاريخ ووازع النضال لا ييخلون بأن يكونوا الحافظين لذمة إسلامهم والعارفين بقيمة عروبتهم والمعترفين بواقع يدعو إلى التضامن، يصرخ في أذن الأصالة يقول لها: كونوا وأنتم الوارثون للأصالة أخوة لأخوانهم، تصبرون على من عق وانشق. لعل الأحداث تهديه إلى رشد، وتصدقون مع الذي أوفى وما جفا حرصاً على أن يكون دائماً في موقف الوفاء وإسقاط الجفاء.

إن الملك فهد يجري في عروقه دم الشهداء، فهو بقية السلف ينمو أثره فعلاً يزين وإسقاطاً لما يشين. والشاذلي بن جديد قد ورث دم المليون شهيد، فمسؤولية الوراثة هذه تجعله في عداد الذين تأصل بهم تاريخهم لأنه لا يمكن لهم أن يتصلوا من دم المليون شهيد.

إن علاقتنا بالمغرب نصنعها الآن ولكن المغرب صنعها قبل الآن، لأن هؤلاء المغاربة أسميهم أهل الحفاظ، حفظوا القرآن وحافظوا على الإسلام وعشقوا المشرق العربي وكانوا أكثر عشقاً إلى الحجاز لأنهم ما زالوا على مذهب مالك بن أنس إمام دار الهجرة، وما زالوا على قراءة نافع مولى أبي نعيم قراءة أهل المدينة. هذا من ناحية، أما الناحية الأخرى فما أكثر حنينهم إلى نجد موطن الذين سعوا إليهم من بني هلال وسليم وزغابة الذين إن قيل إنهم خربوا فقد قال ابن باديس إنهم عربوا. أما علاقتنا بالجزائر، وقلت إنها وطيدة، فكل ما اتصف به المغرب مما سبق كانت الجزائر مثلهم، أعني مثل أهل المغرب في الحفاظ وفي الحنين. إن الجزائر لا تنسى أن المملكة العربية السعودية طوال تاريخها ما كانت إلا للجزائر في ثورتها واستقلالها وبعد استقلالها. فابن باديس قال له عالم من أهل المدينة السيد حسين أحمد: «البقاء هنا ليس جهاداً، فالجهاد في الجزائر» ما

سمعناها من قائلها وإنما من شاكرها سليل الملوك الذي شيع من لغة القرآن وتعاليم القرآن عبد الحميد بن باديس .

في فمي كلام كثير أفطم القلم أن ينطق بشيء . فعلاقتنا مع الجزائر علاقة إذا ما عرفت أنا الكثير منها فكل جزائري يعرفها، ليس أولهم الشاذلي بن جديد وليس آخرهم أحمد طالب الإبراهيمي .

إن الجزائر مركز ثقل في أفريقيا العربية، فتراني الآن أرفع أكف الضراعة أن يكلل الله مساعي الملك فهد برأب الصدع بين الملك الحسن والرئيس الشاذلي بن جديد، فقد كنت أحد الحالمين الذين يأملون أن يتم الاتحاد الكامل على صورة أو بأخرى بين الشعوب والزعماء العرب الأفارقة . لقد وقفت بين أحلام أبي خلدون ساطع الحصري الحلبي اليمني التركي العراقي المصري وبين واقع ابن خلدون عبد الرحمن الحضرمي التونسي المصري فلم أكن في موقف الاستجابة لأبي خلدون ولا في موقف الاسترابة من ابن خلدون، وإنما كان موقفي موقف الأمل في أن يتحقق حلم وأن يطاح بظلم . فالحلم أن يتفق العرب على أقل قدر من الوحدة وأجل قدر من التضامن، والظلم أن لا يبقى طابع ابن خلدون وصمة في تاريخ العرب .

إن الشعوب هي التي تعبر عن الحب وعن التقارب وعن وحدة الأصول، فلدينا أصول خمسة تجمعنا، وحدة الدين وحدة اللغة وحدة الأرض وحدة التاريخ، وحدة المصير، أما السادس من الأصول فهو الجهاد ضد اليهود، فإذا لم يجمعنا ضيم فإننا نصبح وكأننا ننم عن سوء خيم . فمن حب الشعوب هذه الحكاية طالما سمعناها من أصحاب العزوة «شبابه» يتحدث بها حربي أو عتيبي فيطرب لها سامعها من كل قبيل .

قال: إن «هوشة» - أي معركة - شبت بين القبائل في منى فخذف من خندف وشبب من شبب، فإذا الجزائري يخطف عصاة يكون في صف «شبابه» وفي العام القابل جاء جزائري كأنما سمع بخبر المعركة في العام الماضي فأخذ يطوف بين القبائل يقول: «يا مشبب ذا العام شبب ذي السنة» يريد أن تكون معركة يكون الجزائري فيها «شبابيا» من ولد بني هلال وبني سليم الذين لم يرحلوا للنجعة وإنما رحلوا وهم بقايا بني الأخيضر إلى المعز الخليفة الفاطمي في القاهرة، فتناسلوا في مصر وما أكثر أنسالهم في شمال أفريقيا، هم عربوا وإن خربوا.

فالجزائر والشمال العربي الأفريقي كله ذا ما حج أيام الإتاوات وقبل هذا العهد الآمن يمر من مكة إلى المدينة وكأنه في أرضه الشمال الأفريقي. فطريق المدينة «شبابه» والليبي والتونسي والجزائري والمغربي والشنقيطي والصعيدي لا يعترضهم طالب إتاوة.

إسلاميات

النبات يُسَبِّح

- حين يتلو المؤمن هذه الآية: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء: ٤٤) والآيات عن كلمة «النملة» والوحي إلى «النحل» و«النار» التي كانت سلاماً على إبراهيم عليه السلام وما جاء من المعجزات كحنين الجذع يوم بدأ الرسول يخطب على المنبر ولا يركز على الجذع وغير ذلك فإن المؤمن يصدقه والجاحد ينكر.

المؤمن حين يصدق ينشد هذا البيت:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

أكتب ذلك وأنا على يقين بأن اكتشاف العلماء في كل فرع من العلوم فيه الدلالة على الخالق الواحد الأحد. بقي حنين الجذع وما إليه، قد جاء رجال في اليابان وفي ألمانيا، كما هو في المقال الذي نشرته جريدة «البلاد» تحت عنوان «النباتات تلتقط الإشارات من الكواكب الأخرى الأكثر تقدماً» في عددها رقم (٧٢٣٧) الصادر يوم الثلاثاء ٢٧ ربيع الأول ١٤٠٣هـ، يصدقون التسبيح والحنين كمشاعر النبات من كل نوع، ولا يستبعد أن يأتي كشف لعالم أن يعطينا بعض تجاربه عن مشاعر الجماد.

إنّ هذا المقال جاء بالغريب العجيب عن شعور النبات بالخوف والحزن ومن قبل كنا نسمي شجرة «المستحية» ونعرف عن مشاعر النخلة.. كيف

تغضب؟ كيف تمنح؟ تخضع للترضية وتشفى من جنونها بإيقاد النار تحتها، يتعكرش جريدها مجنونة، وحين تشفى يعتدل الجريد ويطول السعف. وفي إندونيسيا شجرة تلتف على كل حي يقرب منها.. تعصره تمصه. وقد جاء في الحديث: «أَكْرُمُوا عَمَّا تَكُمُ النَّخْلُ»، الوجود المشاعر القريبة؟ أم لأن طلع الذكر كماء الرجل أم أن هناك مشاعر أخرى أعطتها أن تكون عمة الإنسان؟

في مقال «البلاد» شجيرة عرفت قاتل الشجيرة التي معها في الحجرة. دخل الحجرة كثيرون فلم تفزع من واحد ولكنها فزعت وارتجفت حين دخل قاتل أختها. ولم يكن هذا جديداً علينا فهواة الشجيرات والأزاهير قد عرفوا ذلك إنما ينقصهم النشر، تفوتهم العناية بتسجيل التجربة. فقبل سنوات وفي بيت أسرة كريمة لنا صداقة معها ولها عناية بالشجيرات مر سيد الأسرة فانتزع فرعاً من الشجيرة بقوة وذهب، وبعد يوم أو يومين رأوا هذه الشجيرة ذابلة كأنها تتلوى عازفة أن تأخذ ما تسقط، فمرت السيدة تنظر إليها وعرفت ما صنع السيد فهداها شعورها المغرم بالنبات أن هذه الشجرة تألمت وحزنت فأطبق عليها اليأس، وكلمت رجلها تقول له: - خذ الطار.. تنقر عليه نقرات، يعني تطبل أمام الشجرة وأزگرد أمامها.. نزفها نسترضيها.. نلبسها قماشاً أحمر ربطه على فرع من فروعها. ولقد فعل السيد والسيدة ذلك فما مر يوم أو يومان حتى انتعشت الشجيرة وازدهرت، كأنما أعطيت حياة جديدة، إن أسراً كثيرة في جدة تعرف ذلك. أو ليس في هذا دعوة إلى الإيمان ولا عجب وإنما العجب أن من يعطينا هذا الفهم أناس من غير المسلمين.

تقاليد القيادة

- الحرب لا يديرها أهوج ولا يكسبها من لا يعبأ برأي صائب، فقد بلغ قتيبة بن مسلم الباهلي فاتح الشرق الذي فقدناه فإذا بالشرق كله تفقده اللغة.. لغة العرب.. بلغه أن بعض من كان تحت سلطانه قد خرج عليه، فأخذ يفكر، يسأل أصحابه الكبار عما يرونه، فقال أحدهم: أبعث إليهم بعثاً، أمر عليهم وكيماً..

فقال قتيبة: أن وكيماً فيه كبر، يحتقر عدوه، فأخشى أن تكون فيه غرة ينال بها العدو فيتسع الخرق..

وكانما قتيبة في هذه قد وضع قانوناً حدد فيه تقاليد القيادة، فأیما قائد قد اغتر فلم يحتط من عدوه سيعطي لعدوه النصر عليه.. ولا بد أن نضرب الأمثال، نحترز أن تكون عربية فأخذها من واقع العرب الذين ابتلوا ببعض القادة الهوج، الذين يخوضون حرباً دون أن يعرفوا عواقبها.. هم كثر في القديم وفي الحديث.. فلم يتح النصر إلا لقائد يصبر على المكروه ولا يرى في نفسه أنه المبرأ الموفور، ولكن المثل عن «نابليون» العظيم.. فقد غره النصر في أكثر من معركة فقاده الغرور أن يجتاح الشرق حتى وصل إلى «عكة» فأرجعته أسوار «عكة» وشجاعة رجالها خاسراً يرمي قبعته داخل «عكة» من فوق الأسوار، كأنما هو قد دخل «عكة» تحت القبة..

غضب الأهوج المغرور.. وهوج الغضب.. بل هي أضحوكة التاريخ..
و حين غزا روسيا جره الغرور لا يغزوها إلا في شهري الثلوج، فهزمه
الجنرالان.. الجنرال يناير والجنرال فبراير!! فلعلّ حسابه أعطاه الظن بأن
الروس لا يتحركون في هذا الشتاء، فيتحرك هو ليكسب.. كأنما هو كل
الجيش، ولم يخطر على باله أن جيشه سيهلك من الثلوج..

و«هتلر» حمله الغرور أن يضرب هنا وهناك، فاجتاح غرب أوروبا حين
سقطت فرنسا وأرسل جيشه إلى الشرق حتى وصل إلى حدود مصر الغربية،
ولم يكتف بذلك بل ذهب بكل الهوج إلى روسيا فلا ينال نصراً وإنما هو
أعطى النصر لغرب أوروبا وللولايات المتحدة.

و«موسى ديان» قاده الغرور أن يجتاح سوريا ومصر، يرى في خط
«بارليف» رؤية الفرنسيين لخط «ماجينو»، يرى في البحر حاجزاً وفي الرمل
معجزاً وفي الجولان مغنماً، فإذا هو والعجوز الشمطاء «جولدا مائير»
يصرخان من الزلزال.. فإذا حبل من الناس مازال باقياً لنصر اليهود يأتيهم
على الجسر الجوي بالموقف المهدد من الولايات المتحدة، وبالموقف
الناكل من الاتحاد السوفياتي..

أما كيف احتلت إسرائيل سيناء وبنت خط «بارليف» على القناة
واجتاحت فلسطين فذلك نرجع به تقاليد قتيبة بن مسلم.

تأثير المسجد

- كنت في الدكان مع والدي فإذا بي أرى رجالاً يجرون.. وجهتهم نحو مسجد الغمامة.. فقامت لأجري معهم، فأمسك بي والدي يأمرني أن أجلس وقال: إياك إذا رأيت من يجري في هذه المدينة المنورة أن تجري وراءه وإياك إذا رأيت جمعاً من الناس يلتمون حول شيء أن تدخل فيهم!! فقلت: وما هو السبب؟! قال: تعلمت من الشيخ في المسجد وكان يرحمه الله أمياً.. تعلمت أن الدجال حين يصل إلى خارج المدينة.. يقف في الحرة الغربية «يعني حرة واقم» فيخرج ألوف من الناس الذين يظلمهم الله به فأخاف عليك أن تكون منهم.. والدخول في اللمة غمة لا فرجة فيها، فالناس لا يلتمون في السوق إلا على شر.. هوشة أو غير ذلك والمرة الثانية هو أنه.. أعني والدي قد خرج متخفياً من المدينة هرباً من الهوجة التي أحدثتها «الجندرمة» أيام فخري باشا.. يمسكون بالرجل.. يرمون به في القطار وإلى الشام ولا يسألون عن أبنائه ونسائه.. وصل إلى القصيم حتى إذا وصل إلى خيبر سار راجلاً إلى قرية «هدية» وهي على السكة الحديد وكان القطار واقفاً في طريقه إلى المدينة فانسرب إلى عربة مليئة بأكياس الحنطة.. أغاث بها فخري باشا جمال باشا.. لم يشعر به أحد فوصل القطار يهدىء سيره فإذا هو أمام بستاننا في «القاضية» فقفز من العربة وكان يحمل في كل «يد عكة» سمن.. ودخل إلى البلاد وقد انتصف

الليل . . ثم سار يتستر في الظلام حتى إذا وصل إلى البيت في زقاق الطيار ولم يطرق الباب لنفتح له . . جلس وراء الباب فلما تنفس الصبح وفتحنا الباب وجدناه وراءه . . فقالت زوجته: لماذا لم تدق الباب، تدخل بدل أن تكون كذا تعباً وسهراناً؟! فقال: لقد سمعت الشيخ يتحدث في المسجد يقول: يكره للرجل إذا ما كان غائباً عن بيته في سفر أن يدخل على أهله ليلاً فامتنعت أن لا أوقظكم من النوم وأن لا أخيفكم.

هذا أثر المسجد في عامة الناس . . ينصحنني أن لا أجري في «الهوجة» وأن لا أدخل بيتي من سفر فإن ذلك قد يزعج النائمين . . أو أن يكون الوضع في البيت على حال لا يرضي . . !!

الإسراء والمعراج

- واستأخرت استأني لأكتب عن الإسراء والمعراج فقد تصورت أن زحاماً من المكتوب تخطه أقلام كثيرة تذكر المسلم بما أنعم الله به على خاتم النبيين والمرسلين المبعوث رحمة للعالمين فلعلني لا أخوض الزحام لأنني عازف عن ذلك وقد مضى التاريخ الذي حدد الليلة التي أسرى الله بها عبده من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فالله تقدر اسمه يعلمنا كيف نقدره بالكلمة (سبحان الله) قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ (الإسراء: ١) ليس ذلك عجباً يستحيل على المؤمن تصديقه وإن كان من السهل أن يصدق الكافر أو يتهرطق به الجاحد فالله هو القادر على كل شيء ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد..

وكلمة أسرى هي الحجة الدامغة التي ينير برهانها حقيقة أنه كان إسراء بالجسد لا بالروح وحدها.. كان بالجسد وبالروح معاً فلو كانت رؤيا لما كانت كلمة أسرى والمعجزة يصدقها المؤمن تزيد إيماناً وينكرها الكافر والمشرک.. وقد وصل إلى بيت المقدس يصلي بالأنبياء إماماً.. فقد سألتني واحد أليس هناك تعارض بين هذين الخبرين فالخبر الأول أنه عليه الصلاة والسلام قد مر على قبر أخيه موسى عند الكتيب الأحمر فوجده قائماً يصلي فإذا هو بعد ذلك يكون مع الأنبياء يصلي بهم الرئيس محمد إماماً.

والخبر الثاني حين فرضت عليه الصلاة خمسين صلاة حتى إذا وصل إلى السماء السابعة يدعوه أن يرجع إلى ربه يسأله التخفيف المرة بعد الأخرى حتى كان الحتم لأن تكون الصلاة خمساً. . موسى عند الكتيب الأحمر. . موسى عند الإمام يصلي موسى يصلي وراءه. . موسى يراه في السماء السابعة. قلت إن هذا السؤال مصدره الريبة منك كل ذلك معلوم نصدقه أما كيف وكيف فهذا أول الزلاّت كأنما أنت بسؤالك هذا تشك في قدرة الله تشك في صحة الحديث فأسأل الله لك أن تبرأ من هذه الريبة وأنت اليوم ترى من مستحدثات العلم والاكتشافات ما هو عجيب ومذهل لكن يدخل تحت قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٨) فلا اختراع ولا إبداع ولا خلق إلا لله وما تراه من عجائب العلم فهو اكتشاف ولا تعجب من المعراج يصعد في ليلة واحدة إلى السموات العلى فقرأ سورة النجم يستنير لك أن الإسراء والمعراج كان بالجسد والروح لا رؤيا منام. . فمعركة الشك والتكذيب التي خاضها المشركون وانتصار التصديق والإيمان لم تكن ولن تقع إذا كان الإسراء والمعراج رؤيا فأبو جهل إنسان قد تكون له رؤيا حلم يراه فلا يمكن أن يكذب الرؤيا ولكن الخبر صدع به رسول الله يخبرهم به فأنكروا وكفروا لأنهم وقد جهلوا استحال في نظرهم أن يكون هذا الإسراء والمعراج في ليلة واحدة فلو كان ذلك رؤيا لما كان تكذيباً ولما امتاز أبو بكر بالتصديق. . إن عجائب العلم والصعود إلى الفضاء قد أصبح صناعة البشر فكيف ينكر أحد الناس أن الله وحده هو القدير على كل شيء فالله سبحانه وتعالى قد طوى الزمن بالسرعة التي أرادها وقدرها ولقد فسرت النظرية العلمية عن البعد الرابع ألا وهو الزمن كيف أن عامل السرعة يقصر به الزمن، كلما زادت السرعة قل الزمن. . فأنت على جمل تصل إلى مكة في ليلتين بالسرعة البطيئة وإلى الرياض في

٣٠ ليلة بينما تصل بالسيارة إلى مكة في أقل من ساعة وتصل إلى الرياض في ساعة وبعضاً من الدقائق ليست البرهان والحجة تقطع عنك دابر الشك وإنما الإيمان والتسليم هو قاطع الشك.

والخاتمة البرهان أن تقرأ هذه الآيات:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ . وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ . ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ . وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ . فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ . مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ . أَفَتَمْنُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ . وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ . عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ . إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ . لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ (النجم ١ - ١٨).

التقوى

- في هذه الآية الكريمة، عظة تعلم الإنسان كيف يرحم نفسه حين يرحم غيره، فالراحمون يرحمهم الله.. هذه الآية الكريمة هي ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُ ضَعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (النساء: ٩).

إن قارئ القرآن قد يمر بآية فلا يدقق في معناها.. ومن هنا حرص «سيدي أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وأرضاه حين قال إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه»..

ولم أكن قد أعربت هذه الآية من قبل، ولكن موقفاً وقفه الدكتور أحمد أمين صاحب «ضحى الإسلام وفجر الإسلام» حينما كان ينظر في وجه اليتيم تلو اليتيم في حفل عشاء أقامته الجامعة المصرية.. جامعة القاهرة.. وجامعة الأزهر حين حج في زمن مضى في الخمسينات. كان يمر على اليتيم تلو اليتيم يمسح رأسه وعيناه تدمعان.. وهو يتلو هذه الآية.. رسخت هذه الومضة منه.. والرحمة منه.. هذه الآية في نفسي.. فأخذتها نبراساً ودليلاً أتعلم منها الكثير.. فأسأل الله أن يرحمني برحمة التقوى. من هنا لعليّ أذكر قصة وقعت في عظة طلبها «أبو جعفر المنصور» من صديقه «عمرو ابن عبيد».. فقد كان أبو جعفر المنصور يعظم من قدر

عمرو بن عبيد الذي بلغ في الزهادة شأواً كبيراً.. وفي الإعتزال أيضاً شأواً كبيراً.. ولكن المنصور كان يحترمه ولعله كان على شاكلته، فالمنصور كان أيضاً إماماً في العلم.. هو عبد الملك لو لم يشغلا بالسلطان لكانا من أكابر العلماء، مرة قال أبو جعفر المنصور.. «كلكم يطلب صيد.. كلكم يمشي رويد.. غير عمرو بن عبيد». واجتمع به مرة وكان عمرو بن عبيد قليل الزيارة للسلطان.. ولكن صداقته للمنصور جعلته يزوره الحين بعد الحين.. إذا ما طلبه المنصور.. إما أن يتبرع هو بالزيادة فلا.. قال أبو جعفر المنصور لعمرو بن عبيد.. عطني.. فقال عمرو: بما رأيت أم بما سمعت؟.. قال: بما رأيت.. قال لقد توفى الله عمر بن عبد العزيز فترك أحد عشر ولداً، ولكنهم لم يجدوا في تركته ميراثاً إلا تسعة عشر ديناراً اشتروا له قبراً وكفونه فما بقيت إلا تسعة دنانير قسمت بين الأحد عشر ولداً فنال كل ولد ثمانية عشر قيراطاً، «يعني ثلاثة أرباع دينار» فإذا بي بعد أرى ولداً لعمر بن عبد العزيز وقد أسرج مائة فرسة تجاهد في سبيل الله.. ثم مات «هشام بن عبد العزيز» وترك أحد عشر ولداً ورث كل منهم ألف ألف دينار.. ومرت أيامهم فإذا بي أرى أحد ولد هشام على سبيل يتكفف الناس يسألهم.. كأنما «عمرو بن عبيد» أراد أن التقوى في عمر بن عبد العزيز قد حفظت بنيه ولم يترك لهم شيئاً.. وأن «هشام بن عبد الملك» وقد انتصر العباسيون على بني أمية، قد سلبوا كل شيء عندهم فافتقر أبناء هشام حتى إن أحدهم ظل يسأل الناس. ولكن التعويض جاء لبني أمية حينما يذهب «صقر قريش» يقطع البر والبحر فأسس الملك العريض الزينة الزخرف في حضارة الإسلام.. حتى إن بغداد في بعض النواحي كادت أن تكون مثل قرطبة عندما تأخر العلم فيها وعندما كثرت الفتن.. جاء التعويض لعبد الرحمن الداخل ملكاً عريضاً وهكذا الأيام «وتلك الأيام نداولها بين الناس».

إن الذي يحفظ التقوى في نفسه ويعامل الناس برحمة «ليس منا من لا يرحم صغيرنا ولا يعظم كبيرنا».. فالإسلام خلق.. الإسلام كما قال رسول الله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» ومن مكارم الأخلاق العون للكل والضعيف والعاجز.. وكما قال ﷺ: «خير بيت فيه يتيم يحسن إليه» وقوله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة».. هكذا..

وأشار بإصبعيه مقترنتين.. اللهم ارحمنا برحمتك يا أرحم الراحمين.

لنكن أمة واحدة

- إن كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة هما ركننا الإسلام. فهذه الكلمة لا تزال جديدة في مشاعري حفظتها كثيراً، وتعلقت بها طويلاً، ونشرتها مرات عديدة. لا لأنها أحسن من غيرها، ولا لأنها أحاطت بالتعريف المسلم لعقيدة التوحيد وتوحيد الجماعة. ولم أستوحش من أن قائلها جعل كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة ركني الإسلام. فهو لم يرد تحديد العقيدة، وإنما أراد بهذين الركنين المعنى الجامع لمفهوم العقيدة وللإسلام الذي تنتصر به.

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٩٢)
فوحدة الأمة تحت راية التوحيد كان بها الانتصار والانتشار وبناء الحضارة. ويزيدني تعلقاً بها التوقيت الذي قيلت فيه والتوقيت الذي أكتبها من أجله. كأنما الوقت لم يأكل جدتها. فقد تسرمد بها الزمن. وتسربل بها الواقع. ومن قالها؟ قالها الإمام الشيعي الذي لم يكن شعوبياً والذي كان إسلامياً بحثاً، يكاتب الشيخ أحمد شاكراً؟ يسعيان لتقريب المذاهب. فمن هو مرة أخرى؟ هو محمد حسين كاشف الغطاء، كان فريد عصره في إمامة الشيعة، وكان وحيد عصره في أنه أحب ولم يبغض.

وأيّن قالها؟ لقد قالها في المسجد الأقصى، على المنبر. لم يخطب جمعاً من الشيعة، وإنما كان الإمام يصلي وراءه ويسمع خطابه أعضاء

المؤتمر الإسلامي الذي عقد في القدس، دعا إليه أمين الحسيني. لقد إئتّم وراءه المسلمون كلهم من مذاهب شتى. سنيون من مذاهب عدة، سلفيون وفيهم رشيد رضا، وأباضيون وفيهم سليمان باشا الباروني والعلامة إبراهيم طقيش. لم يتنكروا لإمامته، فكلمة التوحيد قادتهم، والعمل للوحدة صانت قلوبهم أن تفترق عليهم.

وافتح خطابه على المنبر بهذه الكلمة التي أعشق: «إن كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة هما ركننا الإسلام».

ومضت أيام المؤتمر وإذا التشريد والمطاردة تلاحق أعضاءه من الاستعمار الإنجليزي والتحريض اليهودي، حتى إن عبد الرحمن عزام قد هربوه، لئلا يمسكوا به. يرحم الله الجميع.

وبينما أنا في المدينة، وقد عرفت الكثير عن المؤتمر، فقد كانت ترسل إلى الصحف التي تنشر أخباره، وكنت في دكان خياط في شارع العينية، فإذا المسمى بأسد الله المستشرق النمساوي يقف يسلم علي يقول: «كيف رضي رشيد رضا وكامل القصاب أن يكون إمامهم هذا الشيعي»؟ قلت له غاضباً: «إن هؤلاء المؤتمرين قد فرغوا من أن يختلفوا من أجل فلان وفلان، فامتلات قلوبهم ليتحدوا دفاعاً عن كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله. ليدفعوا مكر قومكم ومكائدهم، فالمعركة اليوم ليست إلا دفاعاً عن الإسلام، أما الخلاف من أجل الحب والبغضاء فقد انصرفوا عنه» فمضى إلى سبيله، ولم أقرئه السلام بعد ذلك، فقد جفوته في لاهور وحتى هنا في جدة، حتى عرفه الخيرون فإذا هو ليس هنا. إن ما نحن فيه الآن يدعونا جميعاً أن نكون الأمة الواحدة.

خمسة رجال

- رجال خمسة.. يهودي اسمه مخيريق ونصراني اسمه أبو زيد الطائي ومنافق اسمه عبد الله بن أبي ابن سلول والرابع اسمه قزمان أنصاري والخامس أنصاري غسلته الملائكة اسمه حنظلة.

فمخيريق يهودي حين قعقع السلاح في أحد أسلم.. أسرع يحارب في الصف المسلم، يقتل شهيداً.. أنعم الله عليه بثناء رسول الله ﷺ، إذ قال: «مخيريق خير يهود» اعتنق الإيمان وجاهد للإيمان فاستشهد فإذا هو في نعيم الجنان.

وأبو زيد الطائي.. نصراني.. فخطاني.. نزع إلى جوار شيان صديقاً للمثنى بن حارثة. وشهد المعركة يقودها المثنى بن حارثة ضد الفرس وعملائهم فقال أبو زيد للمثنى: «أنا امرؤ نصراني فما تراني أصنع؟!» فقال المثنى بصدق الإيمان وشموخ شيان: «قاتل على أحسابك» يعني قاتل عن قومك العرب ولو لم تكن على دين الإسلام.. فقاتل جنباً إلى جنب مع المثنى فقتل، فرضيت عنه العروبة وإن لم يفز بخاتمة الإسلام.

وعبد الله بن أبي بن سلول رأس ضخم، سيد في الأنصار لكن نزوات الشيطان وأنانية الإنسان وشهوة الزعامة جرته إلى النفاق فانخدل بثلاث الناس يوم أحد.. أطمعه نفاقه أن يقل عدد المسلمين لينهزموا وما درى أن

انخداله كان هو أن جنب رسول الله وأصحابه خيانة يغريه الشيطان بها لو
بأشر المعركة ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ (التوبة: ٤٧).

وقزمان فارس قاتل بشجاعة فإذا الصحاب يعجبون من فعاله، وحين
ظهر لرسول الله ما أعجبهم قال إنه في النار.. ذلك أنه قاتل حمية ويعني
أنه رفض أن يكون قتاله للإسلام فاستكبر فإذا هو المستصغر.

وحنظلة.. أقول بملء فمي سيدي حنظلة، شاب مؤمن أبوه من أكفر
الكافرين، فهو أعنى الأب صاحب مسجد الضرار المؤلب على رسول الله
ﷺ الذي كان في أحد يحمس المشركين، فسيدي حنظلة هذا الابن ما
خرج أول الأمر إلى أحد، ولكنه سمع قعقة السلاح قالوا سمع «الهيعة»
أي ضجة الحرب فأسرع يلبس لامته، يقاتل مسلماً، يقتل شهيداً، تغسله
الملائكة لأنه خرج جنباً لما يغتسل، إنه شهيد لا يغسل ولكنه جنب قد
غسلته الملائكة، أبوه في النار وروحه إلى يوم يبعثون في حوصلة طير
أخضر.

وهكذا تصهر المعارك الرجال.. يستبين المعدن النظيف فإذا فريق إلى
الخير وفريق إن اعتز في الدنيا فإنه بعد سيكون من الأخسرين أعمالاً ﴿فَرِيقٌ
فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (الشورى: ٧).

وللعرب الصحوة

- ودمعت عيني «سيبويه» وبكى «أبو نواس» و «مهيار» وتكاثر الباكون، أحفاد الذين تناولوا العلم المعلق بالثريا، وضحك «الخليل بن أحمد»، فإذا هي الغريبة، يبكي الذين تخرجوا من مربد «البصرة» حزناً من فعل أحفادهم، يحرقون «المربد» و «البصرة» فكيف يضحك الأستاذ الأول لـ «مربد البصرة»؟.

فإذا «جابر بن حيان» العربي الصليبية، هو و«الخليل بن أحمد» أزديان، من أزد السراة، وإذا «ابن المقفع» الفارسي الصليبية، عقلاان. فهما ضحكة «الخليل بن أحمد» فقالا: بكى أبناء فارس من فعل فارس. وضحك أبناء العرب، لأنهم يرون أن هذه النكسة، بين الشعبين، اللذين انقادت لهما الحضارة، وأن تناكرا اليوم، فدقوا بينهم «عطر منشم»، فإن العرب ستكون لهم الصحوة بعد هذه النكسة، وستكون لفارس الندامة، أن هدموا ما بنى أبائهم.

وهنا.. تكلم «ابن جرير الطبري» وابن أخته «الخوارزمي» فقالا: دعونا من الأحلام، اسمعوا صادق الكلام، فالصدق كل الصدق، مع الذين بكوا والأمل كل الأمل، للذين ضحكوا.. أليس غريباً أن يكون أحفاد «الملك جلال الدين»، أبو جلنار، وخال الملك المظفر «قطز» الذي صد بقدر ما

استطاع حملات التتار، وابن أخته «قطز» الذي أجهز على «التتار» في «عين جالوت» بالكلمة (وإسلاماه) أن لا تكون كلمة (وإسلاماه) رادعة للشعبيين المسلمين، أن يصونها من الخراب.

إن «فارس» و«الترك» في الأناضول، قد ردوا أكثر من عشرين زحفاً، مغولياً، تترياً، وخزرياً، وسلافياً.. فكيف يصبحون اليوم، الطريق الممهّد، يفتح الطريق للزحف السلفي.

إنها نكسة، قادتها زعامة حمقاء أسود بها وجه الشريعة البيضاء، شريعة محمد رسول الله ﷺ، الشريعة التي انتصر لها «علي بن أبي طالب» والتي حجز عنا الشر «جعفر بن محمد الصادق» يوم رفض «دعوة» أبي مسلم، أن يكون الخليفة ينتزع الخلافة من «المنصور».. فالذين أحبوا علياً وجعفرأ، يجب عليهم أن لا يحرقوا أرض علي، وأرض جعفر.. وإلا فأين الحب؟

وإلا فأين موقف الرضى من «علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق»، يوم ابتسم للقتل، لا يخرج على المأمون بعصيان، حين نكث بيعة العهد له.

إن الحب لا يصنع الخراب، والذين تكبر آمالهم ينبغي أن يكونوا من «العافين عن الناس»!!

ما فرطنا في الكتاب من شيء

- قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (المائدة: ١٤).

إنَّ هذه الآيات الكريمة تُعلِّمنا تاريخ المسيحيين في أوروبا وغيرها، فحين نسوا ما ذكروا به على لسان عبد الله ورسوله المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، وما نقله الحواريون عنه، كتب الله عليهم أن يكونوا وهم أهل دين واحد أعداء ما أشد ما قتلوا أنفسهم في حروب ضارية باسم الوطنية أو باسم الإقليمية أو القومية وحتى باسم الاختلاف على المذهب.. فالكاثوليك أعداء البروتستانت والأرثوذكس تحملوا عداوة الإثنيين، فبادلوا العداوة بالعداوة، فكأنما هذه الآيات التي غفلت عنها بإغراء الآمال التي حملتنا من أن نرجو من النصارى أن يكون بعضهم أصدقاء لنا، بحكم بعض القربى من المودة، لكن واقع التاريخ الآن قد خيب هذه الآمال، لا نلومهم إن خدعنا بهم، حتى ليجعلني سوء الظن أن ما يحتمه واقع اليقين الآن أن الحرب العامة الأولى لم تنته، فهي أم الحرب العامة الثانية وهي الجدة لكل هذه الحروب المحلية. أوليست إسرائيل بوعد بلفور أو ليس الواقع في الشرق الأوسط كله بمؤامرة العهد الخؤون «سايكس بيكو» وما تلى ذلك بعد، بكل

عون لإسرائيل وكل تفريق للأمة العربية إلا حرباً من الحرب العامة الأولى .
فالحصيلة أن الدنيا كلها تعيش وطأة القتل والطغيان بدافع العداوة التي
كتبت على النصارى يتقاتلون ويجرون العالم إلى أن يقتلوا، تلك طبيعة
النصارى عرفها اليهود فاستغلوها لأنهم - أعني اليهود - هم الحرب على
الإنسان كله، كانت توبتهم أن يقتلوا أنفسهم فحسنوا لأنفسهم أن يكون
تراثهم أن يقتلوا الإنسان، كل الإنسان. فلقد مات الضمير فيهم حين اعتنقوا
عقيدة المخلص - بتشديد اللام - فالجريمة مهما كبرت تصنعها يد يهودية لا
يحاسب عليها اليهودي، فالمخلص قد حملها عنه، هذه الكذبة يصدقها
اليهودي، وقد استحالت عند النصارى إلى أن يقتل ضمير النصراني بعقيدة
المخلص على صورة أخرى، القسيس وكرسي الاعتراف وصكوك الغفران .
ولقد صدق الله سبحانه وتعالى فالكتاب (القرآن) لم يفرط في شيء .

الماضي والحاضر

- وكانت عجوز من عليّة قريش تطوف بالكعبة فنظرت فإذا رجل طوال قد بز الناس طولاً، فقالت: من هذا؟ فقالوا لها: هو علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب. فقالت: «كل عام ترذلون». أي لا يأتي عام بعد عام إلا وتحدث من الرذائل ما لم تكن في العام قبله، وما هي الرذيلة التي عبرت عنها هذه المرأة، فلقد قالت: لقد رأيت علياً هذا يطوف بجانب أبيه عبد الله بن العباس ولا يكاد رأس علي يصل إلى كتف أبيه عبد الله، ورأيت عبد الله يطوف بجانب العباس ولا يكاد رأس عبد الله يصل إلى كتفي أبيه العباس، ورأيت العباس يطوف بجانب أبيه عبد المطلب ولا يكاد رأسه يصل إلى كتفي عبد المطلب، لقد صدقت فقد كان عبد المطلب أبيض طوال، كان وجهه هالة بدر.

ولعلّ عمر بن عبد العزيز قد عبر عن ذلك في صورة أخرى. فقال: «ستحدث للناس أقضية، بقدر ما أحدثوا من الفجور» فكلما طال الزمن، دالت دول، وتبدلت أحوال، ولم يكن ذلك إلا بأسباب، تأتي بعدها أحداث. فلئن كانت نتيجة للأسباب التي سبقت، فإنها تصبح في الوقت نفسه أسباباً تتأتى بعدها أحداث جديدة.

وكانما معاوية بن أبي سفيان قد عبر عما قاله عمر بن عبد العزيز، وما

قالته العجوز القرشية بكلمة أحاط بها أسلوب بياني، فأولئك الرجال وأولئك الأمهات كان لسانهم البيان والتبيين.

وهكذا تتبدل الأحوال، حتى ليستخبثوا الطيب ويستطيبون الخبيث.

وجماع كل ذلك كلمة عبد الله بن عمر أنصف بها عثمان بن عفان، فقال: «لقد أنكروا على عثمان أموراً لو فعلها عمر لما أنكروها عليه». وحين طلب عثمان من عبد الله بن مسعود أن يرجع من الكوفة وقد كان الأمير عليها، اجتمع إليه أهلها فقالوا لا تذهب ونحن نحملك منه، فقال رضي الله عنه: «إن علي له حق الطاعة ولن أكون أول من فتح باب فتنة».

وأقبل الوليد بن عقبة بن أبي معيط أميراً على الكوفة من قبل عثمان بن عفان، فلقيه سعد بن أبي وقاص، فقال له: «لا أدري أصلحت بعدنا أم فسد الناس».

البنوة

- وكنا في المجلس الكريم وعلى مائدة العشاء وقد حف بالكريم الأكرمون من أسرته، وكانت الديمقراطية المثل قد أعطتنا الفرصة أن نكون أحد الجالسين على هذه المائدة. وكان على المائدة معنا وفي المعية الكريمة جميل البارودي أيام تمثيله للمملكة العربية السعودية في هيئة الأمم، فتحدث قائلاً:

«وجاءت مريم من الآراميين تحمل عيسى ومعها يوسف النجار، فعيسى ليس إسرائيلياً وإنما هو أرامي عربي».

سمعت ذلك فأجبت:

«إنا لن نستكثر الفخار بأن المسيح عيسى بن مريم عليه السلام عربي، فإن عيسى من بني إسرائيل بنص الآية: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الأنعام: ٨٤ - ٨٥).

فهذا النص القرآني أنبأنا بأن عيسى من ذرية إبراهيم من ذرية إسحاق من ذرية إسرائيل يعقوب عليه السلام، فهو إسرائيلي بنص القرآن. وأما ذكر يوسف النجار فالله طهر السيدة مريم من قذف اليهود وعبث النصارى».

وما أدركت هذا الجواب إلا لأنني تعلمته من قصة الإمام يحيى ابن معمر مع الحجاج، فقد حفظنا عن الإمام الشعبي عامر بن شرحبيل هذا الخبر، قال:

لقد صليت مع الحجاج الصلاة في عيد الأضحى، وخرجت أصحابه، فقال يا شعبي تعال معي، فإني سأضحى بأضحية ما ضحى بها قبلي.. فقال الشعبي:

«ضح كما ضحى رسول الله ﷺ بكبش أملح».

فقال الحجاج: تعال ولما وصلنا إلى المجلس وجدت يحيى بن معمر مقيداً على النطع كأنما هو يعرض على السيف، فقال الحجاج يخدم النزعة الأموية:

بلغني يا يحيى أنك تقول إن الحسن والحسين هما ابنا رسول الله ﷺ فأتني بالحجة وليس حديث القباء حجة أقبلها فإن لم تأتني بذلك قطعت عنقك.

فأجابه يحيى بن معمر بكبرياء العلماء وتقوى الأتقياء:

إن حديث القباء ليس حجتي وإنما حجتي من القرآن وتلا الآية:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الأنعام: ٨٤ - ٨٥).

فالله أخبر في القرآن الكريم أن عيسى بن مريم وليس له أب هو من ذرية إبراهيم لأن مريم من ذرية إبراهيم وما أبعدها عن إبراهيم في الوقت بينما فاطمة أقرب في الوقت، فكيف تنكر أن الحسن والحسين هما ابنا

رسول الله من ابنته فاطمة، فمثلهما مثل عيسى بن مريم.

وخشع الحجاج يتعجب كيف نسي الحجة وهو من الحفاظ، ثم قال:

قم يا يحيى فإنها حجة.

وسلم يحيى بن معمر وفرح الشعبي وفرحت الدنيا المسلمة بالذين

يقولون كلمة الحق..

الإمام المنتظر

- والخميني قد نصب نفسه وكيلاً يأخذ كل السلطان في يده نيابة عن الإمام المنتظر. إن الإمام المنتظر أسأل الخميني عنه.. هل هو محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي يعيش إلى الآن كما هي عقيدة الشيعة الكيسانية، يقيم في رضوى دونه غسل وماء؟!

سيقول الخميني لا، إنه ليس من ولد الحسين بن علي رضي الله عنهما. أم هو ذلك الذي اختفى في جبل المقطم؟ سيقول الخميني لا. فهو وإن كان من ولد الحسين فهو ليس من ولد جعفر بن محمد الصادق. أم هو الحسن العسكري الذي اختفى في السرداب في سامراء «سر من رأى»؟ سيقول الخميني.. قد يكون، فهو الإمام الثاني عشر؟

ونسأله.. لماذا لا يكون غيره إذا صح أن هناك المنتظر؟

تلك أحبولة تذرعوها بها ليحكموا الناس باسمه - أعني هذا المنتظر - مع أنه في تعاليم الإسلام الصحيحة لا ينبغي أن يستبد أحد باسم من غيبتهم القبور ومن لم تلدهم الأمهات. الإسلام يقوم بالعدل وبوحدة العقيدة، والثناء على الماضين من الأخيار بكل الحب دون البغضاء. ثم إن المنتظر، وأحسبني لا أجانِب الحق إذا ما قلت إنها شنشنة أعرفها من أخزم، فتلك عقيدة تعقدت بها الأمور فما أشبهها بعقيدة المخلص - بالتشديد - عند اليهود.

إن الخميني ينتظر المنتظر، واليهود ينتظرون المخلص يحمل عنهم الذنوب والخطايا، فهم يمارسون كل الجرائم على البشر ولا عقاب عليهم، ماتت ضمائرهم لأن المخلص يحمل عنهم هذا العقاب. فهذه من تلك..

ولا يستكثر قارئ هذه المقارنة فإن السبي الفارسي قد أثر في أبناء السبي، فأنحرفوا عن التوراة إلى التلمود، حتى استبد بهم التأثير إلى اللهجة التي ينطقون بها، فاسمعوا مناحيم بيجن إذا ما تكلم فلن تجدوه إلا وقد أخرج ألفاظه بجرس فارسي ورنين إيراني، كأنما الحاخاميون قد غرقوا في هذه اللهجة، يلقنونها لصبيان اليهود إذا ما لقنوهم التلمود والبروتوكولات، وإلا كيف لناشئ في بولندا أو شرق أوروبا كلها لا يتكلم إلا بهذه اللهجة؟ وقد فطن إلى التأثير الفارسي في اليهود إذا انحرفوا عن التوراة أمير المؤمنين في الحديث سيدي سفيان بن عيينة، فقال: «إن أجيال السبي قد انحرفوا عن التوراة بالتأثير حيث رسخوا عقيدة الإمام المنتظر فأشعلها اليهودي عبد الله بن سبأ واشتعلت بالشعبوية التي أتخذت التشيع طريقاً تحارب به العرب.

وهناك فرق بين التشيع العربي حيث قد طرد الشعبوية، وبين التشيع الفارسي الذي اعتنق الشعبوية، فقبل أكثر من خمسة وعشرين عاماً لقيت الأستاذ كامل مروة في فندق «اليمامة» بالرياض، وفي خلال الحديث والحوار قلت له:

- أنت لبناني وشيعي وعربي، لا أخشى على القومية العربية منك، ولكنني أستريب من اتصالك الكثير بالشاه، ألا تخاف أن تنحرف بك الشعبوية؟

- أنا صحافي، عقيدتي في البيت لا آخذها معي إلى إيران.

عبد الله بن أبي بكر

- ولا بد من تمام الصورة لخبر الهجرة المنشور في التراجم أن نكتب عن عبد الله بن أبي بكر الصديق إلحاقاً لما كتبه عن عبد الله ابن أريقط، فأحياناً يقتصر خبر الهجرة على هجرة النبي ﷺ ومعه صاحبه في الغار الصديق أبو بكر، بينما عامر بن فهيرة مولى تيم وعتيق أبي بكر كان معهما ثالثاً حتى إنه هو الذي بخطه كتب العهد لسراقة بن مالك المدلجي . . وإلى أمس ما كنت أعرف أن لعبد الله ابن أبي بكر دوراً في صحبة الغار كما هو الدور الذي لأخته الشقيقة أسماء بنت أبي بكر «ذات النطاقين»، كأنما مولى أبي بكر وابنته وابنه لهم دور كبير في الهجرة.

من هنا أحببت أن أعطي القارئ صورة من ترجمة عبد الله بن أبي بكر. فقد جاء في «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلاني (ط ١. بيروت، دار إحياء التراث العربي) على الصفحة ٢٨٣ نستخرج منه وهو:

إن عبد الله بن أبي بكر كما هي رواية أخته عائشة التي ثبت ذكرها في البخاري عن قصة الهجرة. قالت: «كان عبد الله بن أبي بكر يأتيهما بأخبار قريش وهو غلام شاب فطن، فكان يبيت عندهما ويخرج من السحر فيصبح مع قريش» . . وبعد أن وصل النبي ﷺ وعاد ابن أريقط إلى مكة أدى

الأمانة كاملة يخبر عبد الله ابن أبي بكر بوصول أبيه إلى المدينة فخرج عبد الله بعيال أبي بكر وصحبهم ابن عمهم طلحة بن عبيد الله مهاجراً كأنما هو تأخرت هجرته ليهاجر مع عيال أبي بكر، فقد كان طلحة يحب أبا بكر كثيراً، وكان أبو بكر يحبه، حتى إن طلحة قد تزوج بنت أبي بكر أم كلثوم أمها الأنصارية أسماء بنت خارجة فولدت له أشهر بنينها عائشة بنت طلحة التي كانت مضرب المثل في الجمال، وكانت زوجاً لابن خالتها مصعب بن الزبير، فأمه «ذات النطاقين» أسماء بنت أبي بكر.

ولم يعرف عن عبد الله بن أبي بكر أنه صحب رسول الله في غزواته إلا في الفتح وحنين والطائف، وقتل شهيداً في حصار الطائف أصابه سهم فجرح واندمل الجرح ثم انتقض، ومات من أثر هذا الجرح بعد وفاة رسول الله ﷺ بأربعين ليلة..

وكان عبد الله قد تزوج السيدة عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل أخت سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة، فإذا قيل سعد وسعيد يريدون بسعيد الذي شرحنا ما تفضل الله عليه من قيمة.. وكانت عاتكة جميلة أحبها عبد الله بن أبي بكر حباً أخذ عليه بعض أمره، فأمره أبوه أن يطلقها، فشق عليه ذلك حتى ندم على طلاقها، وقال من شعره فيها:

أعاتكة لا أنساك ما ذر شارق وما لاح نجم في السماء محلق
لها خلق جزل ورأي ومنصب وخلق سوي في الحياء مصدق
ولم أر مثلي طلق اليوم مثلها ولا مثلها في غير شيء تطلق

فرّق له أبوه إذ عرف حاله فأمره أن يراجعها، فعادت إليه يموت وهي زوجته.. أحبها وأحبته.. أعلن شوقه في شعره وأعلنت حزنها في رثائه،

ثم بعد أن اعتدت تزوجها ابن عمها عمر بن الخطاب وهي صاحبة الكلمة:
«لقد كان ذلك يوم كان الناس ناساً!».

قالتها حين امتنعت عن الخروج إلى المسجد في قصة جميلة بطلها
عمر، فقد كان يغار عليها.

وهكذا الحب، زينة الطبيعة في البشر، فلم يكن يوماً ما سمة المعابة
على البشر، بل هو نماء الحياة للإنسان وحياة الأحياء الذين يعيشون للحب
وحب الحب!!

وكما قال شوقي:

الحياة الحب والحب الحياة هما من سرحتها سر النواة
وعلى صحرائها مرت يدها فجرت ماء وظلاً وجني

بطولة وإيمان

- وقد كتبنا في (سيرة بطل) عن هذا الصحابي الجليل، فألح على واقع الأمر مع اليهود اليوم أن أنشرها، تمرّاً ما أحلاه، وجمراً ما أشد حريقه، وهذا نصها:

محبيصة بن مسعود النصارى الخزرجى، شهد أحداً والخندق وما بعدها هو وأخوه حويصة الذى أسلم على يده.. لقد أسلم محبيصة بطلنا قبل أخيه الأكبر حويصة.. وبعث النبى محبيصة إلى أهل فدك (وتسمى الحائط والحويط الآن.. وهما واحتان قرب خيبر).

كان أخوه حويصة أكبر سنّاً منه، ولكن محبيصة الأصغر أنجب وأفضل.. هي العقيدة الصافية أثمرت في قلوب الشباب والمستضعفين فكان منهم جل أصحاب محمد الفاتحين.. ذكروا أنه بعد أن قتل محمد بن مسلمة كعب بن الأشرف اليهودى الشرير، قال رسول الله ﷺ: «من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه» يأمر النبى بتطهير الأرض المسلمة دار الهجرة. الجزيرة كلها. من دنس اليهود وفتن اليهود ومفاسدهم. فوثب محبيصة بن مسعود على ابن سنيه أحد تجار اليهود وقد كان يلبسهم. يخالطهم ويبايعهم، فقتله.. فرأى حويصة الأخ الأكبر عمل أخيه الأصغر فجزع وغضب ولم يكن مسلماً حينذاك. فلقد كان مشركاً لم يسلم بعد.

ولكبر سنه ولجزعه من قتل العشير يقتله أخوه. أخذ يضرب أخاه محيصاً ويقول: أي عدو الله قتله؟ أما والله لرب شحم في بطنك من ماله.. فقال محيصة المؤمن: أما والله لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لضربت عنقك. فقال حويصة - كأنما يستنكر هذا الشيء الجديد الذي طرأ على أخيه: لو أمرك بقتلي لقتلتني؟..

فقال محيصة: نعم والله لو أمرني بقتلك لقتلتك. وعجب حويصة أكثر وأكثر. ثم قال: والله إن ديناً بلغ بك هذا العجب؟ ثم أطرق.. ثم سطع نور الهدى على قلب حويصة فأسلم. كان ذلك أول إسلامه على يد أخيه الأصغر محيصة.. إنها الهداية تنهياً لأسبابها فيشع لها نور على قلب أراد الله له الخير. واهتز محيصة فرحاً وأخذ ينشد:

يلوم ابن أمي لو أمرت بقتله لطبقت ذفراه بأبيض قاضب
حسام كلون الملح أخلص صقله متى ما أصوبه فليس بكاذب
وما سرني أني قتلتك طائعاً وأن لنا ما بين بصري مآربي

هل كان الأمر بقتل اليهودي أين ما وجدناه خاصاً بذلك الوقت.. نعم.. ولا.. نعم لقد كان خاصاً في ذلك الوقت. وقد كان اليهود قوة في الحجاز في المدينة في خيبر، في فدك، في وادي القرى جميعه، فلا بد من الأمر بكسر هذه القوة الشريرة، وقد كان. قتل كعب بن الأشرف وابن أبي الحقيق وابن سنية وأجلت قينقاع والمضير، وقتل صبراً رجال من قريظة. ثم أكمل عمر الأمر فأجلاهم. فلم يبق منهم طابور خامس داخل الوطن وبين أفراد الأمة. ولا جيوب تخرج من أحجارها الأفاعي ولا أسفين يدقه عدو. فلما انقضى هذا السبب لم يحرص المسلمون على تعقب

اليهودي الذمي بسوء. ولكن الحكم فيه باقٍ إلى اليوم. ونحن أشد ما نكون في حاجة إلى تطبيقه الآن. وقد أصبح لليهود شأن في جزيرة العرب وفي الأرض المسلمة. فكلنا محيصة واجب عليه قتل اليهودي أينما ظفر به. بل إن الوضع الآن أشد نكاية من هؤلاء اليهود على الإسلام عن ذي قبل.

وتحدث محيصة فقال: لقد سألت رسول الله عن أجر غلامي الحجام (أبو طيبة) هل أخذه؟ فقال النبي: لا تقربه فلما رددت السؤال قال لي أعلف به الناضح، أيجعله في كرشه يعني خذه به علفاً لبعيرك أو أباعرك التي تسنى عليها.

بطولة وظرف وإيمان. وهدى محمد شع نوره على قوم ذي نفوس قابلة للصقل وعزائم هازمة للباطل وكل ذلك في سبيل الخير، رضي الله عنهم أجمعين.

من مواقف الفاروق

- مواقف ثلاثة وقفها الفاروق أبو حفص عمر مع صاحبه سعد ابن أبي وقاص، فقد كان عمر يحترم السابقين الأول حتى إذا اعتزم أن يختار قائداً لحرب الفرس أخذ يستعرض الرجال فإذا هو يختار سعد بن أبي وقاص.. فحين أقبل سعد عليه قال: «هذا عذيقها المرجب وفارسها المحجب» وانتصر سعد.. فتح عليه الله باب الشرق كله.. خالد في اليرموك.. أجلى الروم عن الشام وسعد أجلى الفرس عن العراق فإذا الأمبراطوريتان تلاحقها الهزيمة أمام نصر الإسلام.. وبلغ عمر أن سعداً قد ابتنى قصرًا بالكوفة فاشتد عزمه فإذا هو يبعث أمينه، سيدي محمد بن مسلمة قاتل كعب بن الأشرف، بعثه يقول له «اذهب إلى الكوفة فحرق على سعد داره» وسار ابن مسلمة حتى إذا وصل شب النار حول القصر يمتثل أمر عمر فأطل سعد عليه كأنما الجليل العظيم يسأل الجليل العظيم: ما هذا يا محمد؟! فقال محمد بن مسلمة: إنها عزمة أمير المؤمنين.. ونزل سعد يعانق ابن مسلمة فالأخيار يتعانقون.. نزع الله ما في صدورهم من غل.. واعتزم ابن مسلمة الرحيل فمد سعد يده بدنانير يهبها لابن مسلمة.. فأبى محمد أن يأخذ حتى إذا رجع إلى المدينة سأل عمر: ماذا صنع سعد؟! قال ابن مسلمة: سمع فأطاع.. قال عمر: ذلك عهدي به.. ثم قال عمر: ثم ماذا كان أمره

معك؟! قال ابن مسلمة: وهبني مالاً فأبيت فقال عمر: بكل الحب والحنان: لماذا لم تأخذ.. إنه أخوك؟!!

واعتزل سعد الإمارة ورحل إلى المدينة.. فدخل في مجلس عمر يتخطى الناس فإذا عمر يرفع الدرة.. فجزع سعد فإذا عمر يخاف أن يدعو عليه سعد، فسعد كان مستجاب الدعاء. فقال عمر: لن تراني بدعاء ربي شقياً.. وما دعا سعد فإذا هو في حظوة الاحترام صديقاً صدوقاً لعمر.. رضي الله عنهم أجمعين..

الحج

- الحج طاعة تتم بالاستطاعة، فلقد فرض الله الحج على الناس كافة وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ (آل عمران: ٩٧). ولكن كيف يحج الناس الذين فرض الله عليهم هذا الحج إلى البيت الحرام؟

إنه يتم أولاً بالإسلام. فالإنسان إذا لم يكن مسلماً ليس مستطيعاً للحج، ولن يقبل منه. فقد حرم الله على المشركين أن يقربوا المسجد الحرام بعد العام الثامن من الهجرة يوم حج بالناس أبو بكر، وتلا على الناس هذه البراءة الإمام علي بن أبي طالب.

فالإسلام هو الاستطاعة الأولى. لأنه الطاعة الأولى فالآية التي فرض بها الحج على كل الناس ﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ (آل عمران: ٩٧) آية محكمة علمنا الله أن حكمها العام قد جاء التخصيص له ﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران: ٩٧) فالفرض هو المطلوب، وجاء التخصيص تعييناً لمن عليه أداء هذا الفرض وهو المستطيع مسلماً. صحيح البدن، لديه الراحلة والزاد، والطمأنينة والأمن، فإذا ما تمت الإستطاعة وهي على صورتين وجب على المسلم أن يؤدي هذه الفريضة الركن الخامس من أركان الإسلام.

ثم إن الحج من فوائده بل أولى فوائده تنظيم الجماعة، لأن الإسلام دين الجماعة ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٩٢) إن تنظيم الجماعة كان في إقامة نظام الحكم في دولة كان أول السلطان تشريعاً وتنفيذاً قد أقامه بنعمة الله رسول الله سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام. فقد كان الحكم والحاكم البشير النذير المبلغ وبعد أن توفاه الله تم سلطان الدولة للخلفاء الراشدين بعده حاكمين بشريعة الله، عملهم سنة يتضح بها بعض التشريع تنفيذاً، ثم كان السلطان دولة بعد دولة. كل ذلك نظام الجماعة.

ولكن كان التنظيم كل التنظيم بسلطان الله فيما فرض من صلاة الجماعة، وصلاة الجمعة، وصلاة العيدين، والجمعة، والحج. فصلاة الجماعة والعيدين، والحج. ما هي إلا أداء الطاعة وتنظيم الجماعة.

إن الجماعة تنتظم بالتعارف وبالحب، وبطرح الفسوق، وبهذا اللباس الواحد، لا فرق بين كبير وصغير، وبين جليل ومسكين، وبين غني وفقير، لباس واحد في صعيد واحد الكلمة فيه «لبيك اللهم لبيك» وكلمة به «غفرانك اللهم».. والكلمة له «الله أكبر».

فلو عرف المسلم الحاج القوة في تنظيم الجماعة لأسقط الضعف، ولتسربل بالعزيمة يستمدّها من الرضى والطمع في مغفرة الله. ويسود بها حينما ينتظم داخل الجماعة.

الكلمة المعجزة

- وقالها رسول الله محمد ﷺ، كانت كلمة معجزة خبراً وعمل الإعجاز إرهاباً. فالإرهاب بشرى بين يدي النبي كأنما هو إعداد للعربي إذا ما توحّد تحت راية الإسلام وفي ظل التوحيد يرتفع بها رأسه إلى السماء، وتفتح الأرض بين يديه، تسود فيه وحدة العقيدة وبيان اللغة وماذن المساجد. فالكلمة المعجزة والإرهاب هي قوله عليه الصلاة والسلام، يخبرك عن يوم (ذي قار): «اليوم انتصف العرب من العجم، وبني نصر» وي كأن النصر بك يا محمد قد أنعم الله به على العربي بعد أن كان العرب مزقاً في أقاليم، يستعمرها الرومان والفرس والأحباش، أما الذين منعتهم صحراؤهم وصانهم حرمهم فقد كانوا الذين أعدّهم الله ليكونوا جيش النصر وقادة النصر، وأباطرة الأرض.

لقد كان العربي قبل الإسلام وقبل ذي قار نهب الرعب، يصنع منه الخوف أن يكون، ولو لبس ثوب الملك، في دمشق والحيرة وصنعاء ومن إليهن، عوناً للمستعمر، سلاماً في يد الرومي والفارسي والحبشي. لكن الصحراء استعصت كأنما بقيت تفصح لغتها، تتكل دون عمد ليكون بعد العربي صانع التاريخ، أعاد لذاته مجد الأيام التي ساد فيها قبل أن تحول إلى شعوب، قوميتها بالإقليم، وإقليمها قومية حصرت نفسها حتى استغول عليها الأجنبي، فالإسلام الدين، والعروبة الوحدة، كانت قد أنشئت يوم

النصر في ذي قار. وتسامت يوم استغول الشيباني الثاني المشنى بن حارثة يقول لابن عمه صاحب يوم ذي قار: «أنا بعدك على الأثر» وقد جاءت وحدة الإسلام، أستغول في ريف العراق، أطارد الفارسي، فأنت الطليعة وأنا بعدك وسيأتي رجال من الصحراء عدنانيون وقحطانيون يكملون ما ابتدأت وما لما أنتهي به بعد.

إن النصر لم يكن إلا بوحدة الجيش وجيش الوحدة، وبالآمال وليست هي إلا أن يكون العربي سيد نفسه، صوّان أرضه وعرضه.

وجاء خالد بن الوليد، مدداً للمثنى يتولى القيادة، وكان هناك عربي من تغلب اسمه عُقَّة، كان له من اسمه نصيب هو العقوق، التحق أولاً هذا العقوق بطليحة الأسدي يوم أعلن طليحة ردّته وكذبتة حين إدّعى النبوة، فانهزم أمام خالد، وهرب عُقَّة إلى الفرس، كأنه يطمع أن يكون خلفاً للمنادرة. وسار خالد قائداً جيشه فارسياً في «ذات الخنافس» وكان الجيش الفارسي يقوده (المرزبان) فدعا عُقَّة يبعثه يواجه ابن الوليد. فقال المرابزة يعترضون لماذا ترسل هذا العربي؟ فقال المرزبان: إنه كلب ينبح لنا، فإن انتصر على خالد كان نصره لنا وإن هُزم فإنه سينال بعض ما يتعب الجيش المسلم، ولكن سيف الله أبا سليمان خالد بن الوليد لم يدعها فرصة لعُقَّة، اقتحم الميدان بالأشقر يختطف عقة من حصانه يخبط به الأرض تتحطم أضلاعه، عربياً خان قومه إلى جهنم وبئس المصير. ولم يصبر خالد، اهتبلها فرصة فأسرع ينيم الفرس على طعامهم، يهجدهم هجدة نال بها النصر. وبعدها يأتي دور الصديق أبي بكر رضي الله عنه تبلغه البشرى فيخرج هذا الوقور هذا التقى النقي الذي لم يكن تيّهاً طول حياته كأنه يزف نفسه بإيمانه، وبفرحة النصر ينادي في المسجد، مسجد محمد يقول: (يا معشر قريش عدا أسدكم على الأسد فأجلاه عن فراذيله، أعجزت النساء أن يلدن مثل خالد).

لم تعجز النساء فقد جاء بعد خالد رجال كانوا الفاتحين الصامدين
ولكن كما قال تعالى: ﴿فَلَفَّ مِنْ بَإِثْمِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾
(مريم: ٥٩).

صور جادة

- قال الإمام علي بن أبي طالب: «حيدرة» البطين أبو تراب الأجلح -
كرم الله وجهه - قال:

«الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعا عاتق
كل ناعق».

كأنه حين قال ذلك وضع أسساً من أسس علم الاجتماع عن «الغوغاء».

* * *

وقال رضي الله عنه:

«إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره، وإن أدبرت عنه سلبته
محاسن نفسه».

وكان أحمد بن أبي دؤاد قد كرهه الناس وأبغضوه أشد البغض حتى أنه
لو ذكر اسمه لنهره أحد العامة أو قتله آخر. واحتترقت مدينة «الكرخ»
فاستأذن المعتصم يوزع عليهم العطايا والعون، فأجزل وأجزل، فإذا الأمر
ينقلب من البغضاء إلى الحب حتى قالوا:

لو أن واحداً من أهل الكرخ سمع من يقول إن زراً من أضرار ثوب ابن
أبي دؤاد متسخ لنهره أو قتله.

أليس هذا عمل الغوغاء؟! كرهوه من أجل السُّنة، ثم أحبوه من أجل الدراهم!

* * *

قال معاوية بن أبي سفيان لأهل المدينة:

«أقبلوا بما فينا فإن معروف زماننا منكر زمان قد مضى، وإن منكر زماننا معروف زمان لم يأت».

كان معاوية عبر عن هذه الصورة التالية:

وكانت سيدة من علية قريش مقاماً وسناً تطوف بالكعبة فرأت طائفاً طوالاً قد بز الناس حوله طولاً، فقالت: من هذا؟! قالوا لها: هو علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنه. فقالت: كل عام تُرذلون، لقد رأيت عبد المطلب بن هاشم يطوف وبجانبه ابنه العباس، وكان رأس العباس لا يكاد يبلغ كتفي عبد المطلب، ورأيت العباس يطوف وبجانبه ابنه عبد الله، ولا يكاد رأس عبد الله يصل إلى كتفي العباس، ورأيت عبد الله بن العباس وبجانبه ابنه هذا علي قد بز الناس طولاً اليوم، ولا يكاد رأس علي بن عبد الله يبلغ كتفي أبيه عبد الله بن العباس.

* * *

ووفدت سيدة من علية قريش سناً ومقاماً على ابن عمها معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه: فسألها معاوية: من رأيت من علية قريش؟

قالت: رأيت عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية.

قال معاوية: صفني كل واحد منهما.

قالت: رأيت عبد المطلب بن هاشم أبيض طوالاً كأن وجهه هالة بدر

يحفه عشرة من بنيه كأنهم أسد غاب. ورأيت حرب بن أمية رجلاً قصيراً
مجدوراً أعمى يقوده عبده «ذكوان».

قال معاوية: هو ابنه أبو عمرو.

قالت: هو عبده وإنما تقولون ذلك أنتم عنه يا بني أمية.

وأريد أن يعرف القارئ أن أبا عمرو هذا «ذكوان» هو والد عقبة ابن
أبي معيط الذي ألقى السلام على رسول الله وشده من عنقه! فإذا أبو بكر
يقصي عقبة، ويقول:

أتقتلون رجلاً نبياً يقول ربي الله؟!

أعلام من التراث

عروة بن أذينة

- وهذا الإمام من أئمة القرن الثاني الهجري فقيه ومحدث، عربي صليبة، قد ذاع صيته شعراً أكثر من كونه عالماً. أعجبت به شاعراً كأنما مسه طائف من العقيق، أو بارقة أبرق بها مقامه في التربة الغزلة «المدينة». فإمام دار الهجرة «مالك» كاد أن يصبح مغنياً، فالبيئة تطبع إنسانها بطابعها، فهي إن لم تبصم جسماً وعضلاً فإنها الباسمة الباصمة له وجداناً وفؤاداً.

إمامنا «عروة بن أذينة» وفد على هشام بن عبد الملك، فإذا هشام يذكره بهذين البيتين قالهما عروة من قبل:

لقد علمت وما الإسراف من خُلقي أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى إليه فيُعِينني تطلبُهُ ولو قعدت أتاني لا يعنِّيني

وكانت العجيبتان، الملك الأمبرطور يحفظ الشعر؟! أدبه أبوه.. والإمام لم يكذ يسمع البيتين حتى خرج، يركب راحلته، يعود إلى المدينة خالي الوفاض.

ويسأل هشام عنه بعد، فحين لم يجده في دمشق أرسل إليه جائزة حفيلة، فإذا الإمام ينشد بيتيه، يزيد إيماناً بما اعتقد وقال:

من كثرة إعجابي بقصيدته كتبته بخط جليل وجلي أعلقها في لوحة

أمامي، وأحب أن أنشرها، يتطرى بها وجدان الشباب:

إن التي زعمت فؤادك ملها خُلِقْتُ هواك كما خُلِقَتْ هوى لها
فبك الذي زَعَمْتُ بها وكلاكما يبدي لصاحبه الصبابة كلها
ويبيت بين جوانحي حب لها لو كان تحت فراشها لأَقْلَّها
وَلَعَمَرَهَا لو كان حبك فوقها يوماً وقد ضجيت إذا لأَظْلها
وإذا وجدت لها وساوس سلوة شفع الفؤاد إلى الضمير فَسَلَّها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها بلباقة فأدقَّها وأجلَّها
لما عرضتُ مسلماً لي حاجةً أرجو معونتها وأخشى ذلَّها
مَنَعْتُ تحيتها فقلتُ لصاحبي ما كان أكثرها لنا وأقلَّها
فدنا فقال لعلَّها معذورة من خوف رقبتِها فقلتُ لعلَّها

أحمد بن الفرات

- أحمد بن الفرات كان من النجباء ومن الوزراء الصالحين لإدارة أسلوب الحكم، كان وزيراً للخليفة المقتدر العباسي، سلم إليه إدارة الحكم فأصلح، وما أحسب أن إصلاحه لإدارة الحكم إلا لأنه قد طرد العابثين وأجلى الحاشية من طلاب الفوائد، وأخضع السماسرة حتى إذا بلغ الذروة في أذن الدنيا يثني عليه الذين تمتعوا بإصلاحه وهم عامة الشعب، وتربصت له الحاشية فأخذوا يكيدون له، فإذا المقتدر يسمع للواشين يدير صفحة أذنه للمغرضين فصبت النكبة على أحمد بن الفرات، عزله، صادر ما يملك، سجنه. فأخذ العابثون والمغرضون والمفسدون يغتنمون الفرصة، فإذا الإصلاح يهدم، والشعب يضج، فاضطر المقتدر حين أنار الله بصيرته أن يعفو عن أحمد بن الفرات، يعود به إلى مركزه فأخذ ابن الفرات يسير بعزيمة وحزم فيعود الإصلاح فقالوا له: كيف يتأتى لك هذا الإصلاح؟

فقال: إن شعاري هو «تمشية الأمور على الخطأ خير من الوقوف بها عند الصواب» كأنما هو يقول: لا بأس على أن أخطئ في واحدة لأجد الصواب في عشرة.

وقالوا: إن المقتدر قد سأل.. بماذا تنصحنى؟

قال: أن لا تخضع لهواك فأنت المسؤول لأن ترتفع عن الهوى إلى أن

تضع الحب لأمتك لتأخذ حبهم لك. أما المسيرة على الهوى فمتعة عابرة كثيراً ما أسالت العبرات من عين من خضع لهواه، وكثيراً ما كانت هذه العبرات عبرة لغيرها.

هرثمة بن أعين

- هرثمة بن أعين قائد عظيم من قواد العرب، لم نعرفه أيام كان مع الرشيد، وعرفناه أكثر حين كان أحد الرجال الأربعة الذين شادوا للمأمون سلطانه. ذلك ما عرفناه يوم كنا تلامذة، وعرفناه أكثر يوم سأل المعتصم أحمد بن أبي دؤاد نابغة العرب في أيامه ونقمة الاعتزال في كل أحواله.. سأله المعتصم:

- ما بال أخي المأمون استعمل أربعة رجال فآثمروا واستعملت أربعة فلم يثمروا؟!

فأجابه ابن أبي دؤاد:

- إن عفوت أجبت..

قال:

- أحب..

- قال:

- المأمون استعمل الأصول فأفرعت، واستعملت الفروع فلم تثمر. وكان أحد هؤلاء الرجال الأربعة الذين آثمروا للمأمون هو هرثمة بن أعين.

ودعاني إلى أن أضع التمر على الجمر ما سمعته في برنامج «الحرس الوطني» الإذاعي يوم الأربعاء الماضي، لم يذكروا اسمه «هرثمة بن أعين» وإنما ذكروا الهرثمي: وأتحفونا بكلمات مجنحة في حوار جرى بينه وبين المأمون عن القائد والقيادة وإدارة الحرب، فأحببت أن أذكر اسمه وخلاصة من ترجمته، وأحببت أكثر أن أضع التاريخ حينما تكون نهاية الرجال العظام مهانة بوشاية الوشاة وسماع الولاة:

إن هرثمة بن أعين هو:

أمير، من القادة الشجعان. له عناية بالعمران. بنى في «أرمينية» و«إفريقية» وغيرهما. ولاه «الرشيد» مصر (سنة ١٧٨هـ) ثم وجهه إلى/ إفريقية لإخضاع عصاتها، فدخل «القيروان» سنة ١٧٩ ولقي من أهلها ما يحب فأحسن معاملتهم. وتقدم في جيش كثيف إلى «تيهت» فقاتله ابن الجارود، وظفر هرثمة. وأطاعته قبائل البربر، فعاد إلى القيروان وبنى فيها القصر المعروف بالمنستير (على يد زكريا ابن قادم) وبنى سور طرابلس الغرب. واستمر والياً على أفريقية سنتين ونصفاً. وطلب من الرشيد أن يعفيه. فنقله (سنة ١٨١) وعقد له خراسان، فأقام فيها. وولاه غزو الصائفة (سنة ١٩١) ثم ولاه ما كان لابن ماهان (علي بن عيسى) فانتقل إلى مرو (سنة ١٩٢) ولما بدأت الفتنة بين الأمين والمأمون، انحاز إلى المأمون، فقاد جيوشه وأخلص له الخدمة حتى سكنت الفتنة بمقتل الأمين، وانتظمت الدولة للمأمون، فنقم عليه أمراً، قيل: اتهمه بممالة إبراهيم بن المهدي أو بالتراخي في قتال الطالبين وأبي السرايا. فدعاه إليه وشتمه وضربه وحبسه وكان الفضل بن سهل (الوزير) يبغضه. فدس إليه من قتله في الحبس سراً، بمرو.

وزيادة في الإيضاح فهذا هو معنى كلمة «هرثمة» كما جاء في «لسان العرب»:

الهرثمة مقدم الأنف، وهي أيضاً الوتر التي بين منخري الكلب.
وهرثمة، من أسماء الأسد. وفي الصحاح، الهرثمة الأسد، وبه سمي
الرجل هرثمة.

وحيد بن الرومي

- وخضع كثير من الأدباء الذين يعجبون بابن الرومي إلى هذه الخرافة .
فقد ترسب في أعصابهم أنه إنسان مشؤوم . عاش الحرمان والكآبة كأن
الحرمان من المادة والكآبة التي صبها قهر عصره عليه قد أخذت كل شيء
من وجدانه ، بينما هو شاعر مجيد في قمة شعراء العربية . وصف الجمال
وأغرم بالحب ، بل عاش للحب ، سواء كان حب الجميلة في قصيدته
«وحيد المغنية» أو في قصائده التي بز فيها الكميت ، فكلاهما شاعر تشيع
خضع المازني إلى هذه الخرافة حتى إن كسر رجله عزاه إلى أن الشؤم من
ابن الرومي قد لاحقه حين كتب عنه ، وصوروا سجن العقاد أنه من شؤم
ابن الرومي ، كما صوروا لطاهر الزمخشري أن البلاء الذي أصابه كان من
شؤم ابن الرومي :

تلك خرافة ، لكن هؤلاء كانوا من بني الإنسان . لا يعصمهم أدب أو
عقل من الخضوع لذلك .

فهل أتحف القارئ ببعض ما اختاره من قصيدته «وحيد المغنية» ؟ :

أفعل ذلك لأسقط الخرافة والتخريف :

يا خليلي تيمتني وحيد ففؤادي بها معنى عميد
غادة زانها من الغصن قد ومن الظبي مقلتان وجيد

دون ذاك السواد والتوريد
فوق خدّ ما شابه تخديد
وهي للعاشقين جُهد جهيد
وتذيب القلوب وهي حديد
قلت: أمران هيّئ وشديد
يأء طراً ويعسر التحديد
س، وبدر من نورها يستفيد
فشقي بحسنها وسعيد
ها، وقمرية لها تغريد
من سكون الأوصال وهي تحيد
لك منها ولا يدرّ وريد
وشجوّ ما به تلجيد
ف كأنفاس عاشقيها مديد
وبراه الشجاء فكاد يبيد
مستلذاً بسيطه والنشيد
م مصوغ يختال فيه القصيد
كل شيء لها بذاك شهيد
عنده يوجد السرور الفقيد
ولها الدهر سامع مستعيد
راجح حلمه، ويغوي رشيد
بهواها منهن حيث تريد
إن شيطان حبها لمريد

وزهها من فرعها ومن الخد
أوقد الحسن ناره من وحيد
فهني برد بخدّها وسلام
لم تضر قط وجهها وهو ماء
وغرير بحسنها قال صفها
يسهل القول إنها أحسن الأش
شمس دجن، كلا المنيرين من شم
تتجلّى للناظرين إليها
ظبية تسكن القلوب وترعا
تتغنى كأنها لا تغني
لا نراها هناك تجحظ عين
من هدوّ ولي فيه انقطاع
مد في شأو صوتها نفس كا
وأرق الدلال والغنج منه
فتراه يموت طوراً ويحيا
فيه شيء، وفيه حلي من النغ
طاب فوها وما تُرجع فيه
ثغر ينقع الصدى وغناء
فلها الدهر لاثم مستزيد
في هوى مثلها يخف حليم
ما تعاطي القلوب إلا أصابت
سد شيطان حبها كل فج

ليت شعري إذا أدام إليها
أهي شيء لا تسأم العين منه
حسنها في العيون حسن جديد
أخذ الله يا وحيد لقلبي
حظ غيري من وصلكم قرة العيد
غير أنني معطل منك نفسي
كرة الطرف مبدئ ومعيد
أم لها كل ساعة تجديد؟
فلها في القلوب حب جديد
منك ما يأخذ المديل المقيد
ن وحظي البكاء والتسعيد
بعادات خالهن وعيد

مع بشار

- ولئن ظفرت ربيعة الفرس بقصيدة عمرو بن كلثوم ومطلعها:

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا
حتى قالوا..

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
وإن كان ذلك كذلك فإن «تميم» قد شبت من فخر جرير..

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا
أو قوله استناداً إلى قومه تميم:

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم إني أخاف عليكمو أن أغضبا
وأكثر من قبيلة فازت بفخر شاعرها، غير أن «مُضر» بقضها وقضيضها
ومفاخرها ما أحسب أن شاعراً من عليّة مضر قد فاخر بها كمولاها عبدها
بشار بن برد حيث قال:

إذا ما غضبنا غضبة مُضَرِيَّةً هتكنا حجاب الشمس أو قَطَر الدما
إذا ما أعرنا سيّداً من قبيلة ذرى منبر صلى علينا وسلمنا

إن فخره بمضر ما كان إلا عن فخرها بسيد ولد آدم سيدنا محمد
الرسول النبي عليه الصلاة والسلام، فما كان قبله من يعتلي المنبر يصلي
على أحد.

إن بشار بن برد برهان على استغراقه في العروبة، مولى من مولدة
الفتح، حذق العربية وأجاد الشعر فإذا هو في هذين البيتين السابقين قد بز
وفاق حين فاخر بمضر أي شاعر من مضر.

وبشار بن برد قتله تفوقه، فقد قتل بتهمة شاعر قال ما لا يفعل،
ولكنهم الحساد والوشاة قتلوا الشاعر طليعة المحدثين.

وكم لبشار من بشائر في الشعر جعلته في الذروة من شعراء العرب.

لا تعجبوا من بشار وإنما اعجبوا من لغتكم وصحرائكم كيف تصهر من
ليس عربياً ليكون أعرب من العربي، كما كان أبو نواس وابن الرومي
وأحمد شوقي ورامي، كل هؤلاء إن لم يكونوا عرباً أعراقاً فقد أصبحوا
وقد كستهم العروبة استعراقاً.

النخلة

- والعربي في كل تاريخه مدين للنخلة والجمل والحصان والصحراء، فكل ذلك عتاده، فالنخلة زاده، والجمل والحصان المطيتان اللتان وصل بهما من حيث ابتدأ الفتح إلى حيث انتهى، والصحراء عصمته حجزته أن يستعمر، وحفظته أن يذوب، واليوم قد جد ما هو جديد، كأنما طغيان الاستيراد بما نأكل قد أيقظ الوعي، تعقد ندوة في جامعة الملك فيصل في أرض ذات نخل، فالأحساء كلها هفوفها وقطيفها وما إليها، لا ننسى أنها كانت الطاقة بقلال هجر، بتلك التمور التي أنجدت فأنجدت، إن هذه الندوة لا أدري عن البحوث التي طرحت، أهى مستمدة من تجارب النخيل في كاليفورنيا؟ أو علم النخيل في الجزائر أو في العراق أعني البصرة؟ أم أن نخيل القصيم وعلم المدينة والعلا والجوف وخيبر وبيشة وتربة قد حظي كل ذلك بدراسة أخذها باحث الجامعة من أبنائنا من علم آبائه الذين عرفوا كيف يزرعون النخل وكيف يجنون رطبه ويجدون تمره، كما عرفوا أنواعه، حتى علمهم آبائهم أن أنواعاً من النخيل تكتفي بقليل من الطلع لقاحاً، وبعضها يطلب المزيد من هذا اللقاح، وهل عرفوا أن بعض الصنوان تتأقلم في أرض غير أرضها، وبعضها لا يتأقلم؟ إن في المدينة أكثر من مائة نوع، فلدينا مؤلف عن تلك الأنواع للشيخ صالح كمال (شقلبها) والد الشيخ عمر كمال المبشر بالإسلام في الهند، ولدي ما عرفته من أستاذنا الشيخ صالح

بن عثيمين عن النخلة لا تكون صنواً وإنما تكون (لينة) أو ما نسميه لوناً، لأنه غير أصيل، فالصنو من النواة ابن نفسه أمّا الصنو من النخلة ابن أمه، ثمرة كثمرها فقد عرفنا كما هو الحوار مع شيخنا أن النواة حينما تسقط في طينة في أي حوض ينبت منها صنو، غير أن الشيخ صالح قال: لقد علمت أن النواة إذا غرست في الطين بلبها، أي أن تغرس التمرة لا تنزع عن النواة، فإذا ما غرسنا التمرة كلها وفي باطنها النواة، ينمو الصنو، فلا يكون لوناً وإنما يصبح كأم التمرة، أي كأنه صنو أخذ من أمه النخلة.

فهل أجد من إذا قرأ هذا التعريف، سواء من أساتذة كلية الزراعة، أو بعض أصحاب النخل في القصيم والهفوف والمدينة أن يجرب؟ فيزرع ثمرة بنواتها فإن ذلك يضيف لنا ثروة من النخيل، محافظة على أصلها، يضاف إلى الصنو الأصيل.

وأخيراً، فإن هناك مثلاً في جزيرتنا يقول: لا تجوع قرية وفيها الأسودان الماء والتمر. ولكن الأسود الثالث وهو البترول ينبغي ألا ينسينا الأسودين الماء والتمر.

الأدب

- والحجاج كان يعيش حالة طوارئ مسؤولاً عن المدد لجيوش الفتح، هو همزة الوصل بين الإمبراطور في دمشق وبين قتيبة بن مسلم يفتح الشرق، وبين محمد بن القاسم الثقفي يفتح الهند، مشغولاً بالخوارج، وضع في نحورهم المهلب بن أبي صفرة.

فأنا محق حين أقول إن عاصمة الإمبراطورية كانت دمشق، وكانت عاصمة العاصمة الكوفة، كان مشغولاً بكل ذلك يخاف أن ينال في الكوفة فينفرز الحبل.

ألم تسمعوا أن شبيباً الخارجي وزوجه غزالة قد دخلا الكوفة عنوة إذ حلفت غزالة أن تصلي في مسجد الكوفة ركعتين بالبقرة وآل عمران؟ ووقف شبيب على باب المسجد يحميها حتى أتمت صلاتها وخرجت وبجانبتها شبيب تدعو الحجاج للمبارزة فتركهما وهو في قلب جيشه. لقد كان شبيب وغزالة من غلاة الخوارج.

هذه الحال دعا الحجاج أن يأمر العسس يقبضون على كل من رأوه يمشي في الطرقات والأسواق في وهدة الليل، وتحرك العسس، وفي ليلة من ليالي الكوفة قبض الحرس على رجال ثلاثة كانوا شباباً، فقال أحدهم للحرس ينشد شعراً:

أنا ابن من دانت الرقاب له ما بين مخزومها وهاشمها
تأتيه بالرغم وهي صاغرة يأخذ من مالها ومن دمها

فقال العسس: لعله من أقارب الأمير.

وأنشد الثاني:

أنا ابن من لا ينزل الدهر قدره وإن نزلت يوماً فسوف تعود
تري أناس أفواجاً إلى ضوء ناره فمنهم قيام حوله وقعود

فقال العسس: لعله من كرام العرب:

وأنشد الثالث:

أنا ابن من خاض الصفوف بعزمه وقومها بالسيف حتى استقلت
ركاباه لا تنفك رجلاه عنهما إذا الخيل في يوم الكريهة ولّت
فقالوا: لعله من فرسان العرب.

وذهبوا بهم إلى الحجاج، حتى إذا عرف كل ما جرى عفا عنهم
وقربهم، وقال: علموا أولادكم الأدب فالأدب يرفع قدر من لا قدر له.

كن ابن من شئت واكتسب أدباً يغنيك محموده عن النسب
إن الفتى من يقول ها أنذا ليس الفتى من يقول كان أبي

وقليل من يعرف قدر الأدب معرفة الحجاج لأنه ليس الأمير الخطير
فحسب، بل هو أديب من صناع البيان.

وأريد أن أحفز القارئ أعرف منه من آباء هؤلاء الذين فخروا بآبائهم،
إن أحدهم ابن فوال، والثاني ابن حائك، والثالث ابن حجام. ولكن حظوة
الأدب أعطتهم الخطوة لدى الحجاج.

العمق في المثل العامي

- وتجري على ألسنة الناس أمثلة من الحكمة ومن الشعر حفظوها وما كان قصدهم أن ينشدوها ولكنها أعجبتهم إذ حفظوها حتى إذا أعجزهم وضع تمثلوا بما حفظوا.

والأمثلة من الحكمة ليست قاصرة على الفصيح الموروث من قديم، وإنما هناك أمثلة هي هي تنطق بالعامية، فمثلاً «المرء حيث يضع نفسه»، «من اتضع عند نفسه لم يرتفع عند غيره»، مثلاً فصيحان، حكمتان بارعتان ما حفظهما العامة ولكنهم قالوا بدلاً عنهما «اللي يسوي نفسه قمامة تبعثروا الدجاج».

فالتعصب للفصيح يعطيه حقه، ولكن العمق في المثل العامي تصويراً ووضوحاً جدير بالاعتبار، وبدون اعتذار للفصيح.

وبيت من الشعر ينسب لعنترة العبسي:

وفي الحرب العوان ولدت طفلاً ومن لبن المعامع قد سقيت

فإذا العامي «يتعنتر» فيقول: «رأس والفة بالصكات ما تبالي».

والشاعر الذي تمتع بأمثلة وحكم تجري على ألسنة حفاظ شعره أو حتى الذين لا يحفظون إلا ما تمثلوا به، ذلكم المتنبي:

فاليوم أتمثل بيت ولظرف آخر أتمثل بغيره كأني أتنفس حين أنشد ذلك .

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام
ذلّ من يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام

أو قوله :

لا يخدعنك من عدو دمه وارحم شبابك من عدو ترحم
والناس قد نبذوا الحفاظ فمطلق ينسى الذي يولي وعاف يندم

والعامة تقول وكأنه الفصيح :

«إذا كان عدوك نملة لا تنم له!». .

ويقول المتنبي :

ولما صار ود الناس خبا جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك في من أصطفيه لعلمي أنه بعض الأنام

وحين فاتها قبول الرجاء لمعاوية ألا يقتل حجر بن عدي رضي الله عنهم ،
قالت حين سمعت من عبد الرحمن بن الحارث بن هشام الذي بعثت به إلى
معاوية ترجوه ألا يقتل حجراً ، فقال معاوية لعبد الرحمن بن الحارث :

«سبق السيف العدل ، وحملني ابن سمية فاحتملت» .

جزعت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فأنشدت :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجر

والخاتمة قول المتنبي :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

سَمْنُ كَلْبِكَ!

- «سمن كلبك يأكلك» مثل تعرفه اللغة العربية في القديم والحديث يجري على لسان الذين يملكون أن يطعموا أو الذين يتصورون أن ينتقموا. وقد حاز هذا المثل الشهرة حين تمثل به رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول في القصة المشهورة في غزوة «المريسيع» قال: ما نحن ومحمد إلا كالذين قالوا سمن كلبك يأكلك، وتكلم بالكلمة الكافرة، ففي الآية القرآنية ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لُيَخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ (المنافقون: ٨) وما يدري أَنَّ العزة لله ورسوله والمؤمنين، فإذا هو بابنه يرغمه أنه المؤمن الصادق الإيمان أن يمر تحت سيفه ليقول إنه الأذل ورسول الله الأعز. فأذله الله بإيمان ابنه. وفي المثل الذي هو عكس ذلك المثل الذي شرحناه قول من يريد فرض السيادة على أتباعه فتعجبه أن يقول: «جوع كلبك يتبعك».

وكان هناك رجل قد اقتطع دائرة فيها روضة يزرعها وبني فيها قصرًا واتخذ كلبين يحرسانه فأجاعهما لا يعطيهما ما يأكلان إلا بقدر محدد. وكان أحد الكلبين تعمق فيه خلق الوفاء، يأكل من يد سيده أو من فضلات البيت. شديد الحراسة، أما الكلب الثاني فيأكل ما يعطيه سيده، ولكنه لا يتعفف إذا ما امتدت إليه يد من أجنبي أن يأكل ما يعطيه. وخطر لصاحب المزرعة النظر إلى الكلبين فوجد الحارس الذي تناول نباحه على كل من

يمر حول المزرعة ضعيف الجسم كأنه قد أصابه الهزال، ووجد الآخر الذي لم يسمع نباحه ينام ليله ويفتش عن طعام خارج البيت سميناً، قد قوي عضله، فأخذ يسأل نفسه لقد أجعت الكلبين، فكلب صبر فظفرت منه بالوفاء، وكلب سمنه غيري فأصبح لا ينفع، إن الكلب حين أجعته قد أكلني حين أهمل الحراسة. أنا لست وفيّاً حين أجعت، وسأكون غيباً إذا سمنت دون أن أكون رقيباً على من سمنت فالأمر ليس في منع الطعام للكلب أو كثرة الإطعام له، وإنما لحسن الإدارة ودقة الرقابة وصيانة المزرعة فإذا ما تركت كل ذلك تسوء الحال وبعده لن أنال إلا سرقة المزرعة.

حق الأنثى

- وجلس ابن الخطاب أبو حفص عمر الفاروق، عبقرى هذه الأمة، يسمع الرأي من صحابة ويفتى الناس ويحكم بشريعة الله. ووقفت أمامهم امرأة سلمت على أمير المؤمنين ثم قالت: «إن زوجي يقوم الليل ويصوم النهار». وسمعها عمر حتى إذا سكن قليلاً، لعلّه يريد أن يسمع رأي من سمع مثله، فما تكلم أحد من صحابه.

وأخذ يقول: «لقد أثنت على رجلها» وكان في الجالسين سيدي كعب بن سور، فإذا هو يقول لعمر، لم يحجب رأيه، لأنه يعرف من عمر قبول الصواب من الرأي، قال: «لقد شكت إليك رجلها، أنه لم يف بواجبه أداء لحق الزوجة». وفهمها الفاروق، فقال رضي الله تعالى عنه: «أما وقد فهمتها فاحكم لها». فقال كعب: «أحكم أنه زوج لأربع فليقم ثلاث ليالٍ وليصم أياماً ثلاثة. ويفرغ لها في الرابع كله ليله ونهاره، ليؤدي حق الزوجة على الزوج». وأصدر أمير المؤمنين حكمه. ثم قال لكعب بن سور: «إنك تصلح للقضاء». فولاه قضاء البصرة. وبقي في البصرة يحكم بما أنزل الله، فقيهاً على نور من الإيمان. وقد كان من أجلاء التابعين. وصبر على الكرب في يوم الجمل، يريد أن يفصل بين الناس فلم يستطع.

إن هذا الفقه من كعب بن سور دليل على فطنته ومعرفته لغريزة

الإنسان. كما أن عمر رضي الله عنه وعن كعب عرف ذلك في موضع آخر. فقد سأل ذات مرة: كم تصبر المرأة حين يغيب زوجها؟ فقال العارفون: قد تصبر ستة أشهر. فإذا هو رضي الله عنه يصدر أمره يجعل الجيش المجاهد صوائف وشواتي فلا يقيم المجاهد عن أهله إلا مدة مقام الصوائف أو مدة مقام الشواتي:

إن هذه المعرفة وقد صدر عنها الحكم، سواء كانت من عمر أو من كعب، فإنها النعمة من الله، يخلق الحوادث ليكون التشريع، فما أضخم الأمهات في الفقه، موسوعات كبيرة، كيف تمت الأحكام حتى دوّنت فيها في مدة قصيرة، عشر سنوات، في حياة النبي ﷺ، في مجتمع لا يكثر فيه الناس. فلو خلا من نعمة الله، لما كان هذا الفقه وعهد الخلفاء ثلاثون عاماً ثم فيها فقه الفقه، ليتم بعد تأليف الكتاب، تفريغ المذاهب، توضيح القضاء، تلك نعمة الله، أكمل الدين وأتم النعمة.

جواب سديد . !

- وما زلت من الذين يعجبون ويطربون بالجواب السديد سواء كان ما نستقرئه في التراث أو ما نجده مروياً على ألسنة الرواة من حاضر أو باد.

قالوا: إن زياد بن أبيه قد نسبه معاوية إلى أبي سفيان فكتب زياد إلى أم المؤمنين عائشة هكذا: «من زياد بن أبي سفيان إلى أم المؤمنين عائشة».

فأجبت تكتب إليه «من عائشة أم المؤمنين إلى ابنها زياد».

فهو أراد أن يأخذ اعترافاً منها بأنه ابن أبي سفيان وهي «رضي الله عنها» قد أخذت بالآية: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَنُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوْلَاكُمْ﴾ (الأحزاب: ٥).

إن إجابة أم المؤمنين رائعة، اكتسبت روعتها من القرآن، فما أعظم القرآن وما أحقر شهوات الرجال.

* * *

وقالوا إن الإمام ابن الجوزي كان من شوامخ أهل السنة. وذهب يوماً إلى مجلس الإمبراطور العباسي الناصر لدين الله، وكان الناصر يتشيع وقد جلس حوله علماء من الشيعة فأراد أحدهم أن يحرّج ابن الجوزي فسأله: من أفضل الصحابة؟ فأسرع الإمام السني ابن الجوزي يقول: «أفضلهم من كانت ابنته تحته».

كانت الإجابة شاملة ورائعة فإن عاد الضمير في «ابنته» إلى الصحابي
انصرف إلى أبي بكر وعمر، لأن ابنة كل منهما زوج للنبي ﷺ فإنه يعود
إلى عثمان وعلي، فكل منهما زوج لابنة النبي، رقية وأم كلثوم تزوجهما
عثمان، فبعد أن ماتت رقية تزوج أم كلثوم، وابنة النبي فاطمة زوج علي.
وجاءت الإجابة سديدة أعجب بها الناصر حين أخرجت السائل.

أسد عليّ وفي الحروب نعمة

- هذا شطر بيت كأنه الربع لبيتين نطق بهما شاعر يسخر من الحجاج بن يوسف أمير الكوفة عاصمة العواصم، مدينة العلم وفاتحة الشرق. يوم كان للعلم رجال ويوم كان للفتح رجال فلأن فقدت أمية ثناء الشعوية، فقد أكسبها الحجاج، أو بالأحرى الكوفة، كما أكسبتها مدينة الفسطاط، مجد الفاتحين، في الشرق إلى كشغر، وفي الغرب إلى «بواتيه» شمال البرينات في فرنسا، وهذان البيتان اللذان طبعاً على تاريخ الحجاج هما:

أسد علي وفي الحروب نعمة فتخاء تنفر من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة في الوغى؟ بل كان قلبك في جناحي طائر

فقد أقسمت «غزالة» زوج شبيب وقد كانا رأسين في الخوارج. أقسمت أن تدخل الكوفة تصلي في مسجدتها ركعتين بالبقرة وآل عمران، فإذا شبيب يقول: نعم. وقد كان فارساً. وركبت غزالة فرسها ودخلت المسجد وإذا الحجاج قد كان في قلب جيشه أمام المسجد وشبيب على الكميت والسيف في يده يقف يتحدى الحجاج وجيشه. يحرس غزالته.

وصلت «غزالة» ركعتيها كما نذرت وخرجت يشمخ في عضلاتها عرق الشجاعة والفروسية. ونادت أبرز لي يا حجاج! واستأنت قليلاً لعل الحجاج

يجيب وحين لم يستجب نظم الشاعر البيتين . لقد عابوا الحجاج إن لم يبرز قالوا إنه جبن، مع أنه قائد الجيش في عنقه أمانة السلطان وصيانة الفتح . فلا يجيز لنفسه أن يبرز لها أولاً لأنها امرأة، وثانياً لأنه يخاف سيف شبيب، وثالثاً ألا يعرض نفسه إلى أن يقتل فينتصر الخوارج ولو هجم جيشه على شبيب وغزاة فقتلهما . إن شبيباً وغزاة ملكني الإطراء لهما والثناء على الحجاج ولن أبخسه حقه فهو أحد صناع التاريخ لكن الإطراء لشبيب وغزاة دعاني أن ألبسهما وصف شوقي لعمر المختار:

لكن أخو خيل حمى سهواتها وأدار من أعراقها الهيجاء

حتى لقد تصورت أن شبيباً كأنه ربيعة بن مكرم وأن غزاة وكأنها قد اقتدت بأم حرام بنت ملحان رضي الله عنها .

بيان من البيان

- وتحدثوا أن معاوية بن أبي سفيان قال: لقد كدت أفر يوم صفين،
ولكنني تذكرت قول عمرو بن الأطنابة «شاعر الأنصار».

أبت بي عفتي وأبي بلائي وأخذ الحمد بالثمن الربيع
وإعطائي على الأقفار مالي وإقدامي على البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

تذكر ذلك فثبت، حتى إذا رفعوا المصاحف وتفرق الجمعان واغتال
ابن ملجم الإمام علياً، كرم الله وجهه إنقادت الأمة إلى معاوية وتم الأمر
للجماعة.. وكان قضاء ربك أمراً مفعولاً. فانظروا إلى الأدب والشعر وماذا
صنعا لمعاوية فقد كان معاوية من جيل تخرج من جامعة عكاظ ومن التلقي
يسمعه من أفواه الرجال، فقد كان كلامهم بياناً من البيان كأنما الله قد منّ
عليهم أن أفصحت لغتهم واستبان بيانهم فكانوا الفصحاء لُسنًا والخطباء
شدقاً، ليكونوا بذلك كله على استعداد ليفهموا القرآن.

وما دام الشيء بالشيء يذكر، وعن الشعر أيضاً فإننا نذكر قول قطري
بن الفجاءة فارس الخوارج وشاعرهم:

أقول لها وقد طارت شعاعاً من الأبطال ويحك لاتراع
فإنك إن سألت بقاء يوم على الأجل الذي لك لن تُطاعي

ونتبعه بقول المعتمد بن عبّاد الملك في الأندلس:

إن يسلب القوم العدا وطني	وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه	لم تسلب القلب الضلوع
أجلي تأخر لم يكن	بهوايا ذلي والخضوع
وما للمرء خير في حياته	إذا ما عد من سقط المتاع

بين الحمية الفردية والجماعية

- في تاريخنا العربي نجد الحمية الفردية قوية بينما الحمية الجماعية تحتاج إلى دوافع وإثارة. كانت تلك أحوالهم في الجاهلية فحرب داحس والغبراء كانت حمية فردية، فحين غضب قيس بن زهير غضبت له بنو عبس قبيلته. فتسمرت نار الحرب يتقاتل الإخوان: عبس تقاتل فزارة مع أنهما ابنان أخوان أبوهما بفيض بن غطفان بن قيس عيلان بن الياس بن مضر، ولما عضت الحرب فزارة قامت الأخت الثالثة ذبيان تناصر فزارة كان الوازع والدافع غضبة واحد، فجاءت حمية القبيلة خوفاً من العار فإنهم لا يطيقون أن يهزم قيس بن زهير بن جذيمة، كما أن قيس لم يطق أن يلطم وجه فرسه.

وعلى صورة أخرى، جاءت الحمية الفردية في هذه القصة: قالوا إن الحارث بن ظالم المري (من مرة غطفان، فعندنا مرتان: مرة غطفان وقد ذابت، ومرة يام فقد بقيت) فالحارث بن ظالم كان فاتكاً اغتال خالد بن جعفر السيد في بني عامر ثم اغتال زهير بن جذيمة الذي كاد يتوج ملكاً على الحلف الأعظم، حلف أسد وغطفان فعاجله الحارث بن ظالم واغتاله.. فضاقت رحاب نجد وشمارغ الحجاز على الحارث بن ظالم فهرب إلى الشام، يلجأ إلى غسان، لكن غسانياً استغفل الحارث فاغتاله،

وسلبه سيفه وكان سيفاً تعرفه العرب. وخطر للغساني أن يصل إلى عكاظ يعرض السيف لمن يشتريه، غساني قحطاني يقتل مضريراً عدنانياً لم يحسب حساباً لغضب غطفان عليه، كأنه قد أخذه الطمع ليتجاهل ولي الدم وليس هو ابن عم للحارث، فكل مضر تثار للحارث من هذا القحطاني، وعرض السيف. وإذا قيس بن زهير يتقدم إلى هذا الغساني يقول له: كيف وصل إليك سيف الحارث بن ظالم.. قال لقد قتلته.

كأنه أراد أن يمتن على قيس بن زهير حين قتل قاتل أبيه ولكن الحمية جعلت قيساً يتناول السيف من يد الغساني يتعرف عليه كأنه يريد أن يشتريه فسله. وإذا هو يضرب عنق الغساني. كأنه يقول: أنا ولي الدم لأبي ولو رأيت الحارث لقتلته، ولكني ولي الدم لابن عمي الغطفاني، لا أرضى أن يمشي بدمه غسانياً في ديار مضر.

أين هذه الحمية والأريحية سواء كانت ظالمة أو منتصفة؟

وأخيراً فإن سيف الحارث بن ظالم تعرفه العرب حتى قال الشاعر، ولعلّه جرير، حين تهاجى مع الفرزدق:

بسيف أبي رغوان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف بن ظالم

حوار لليوم والأمس

- ولعلّي نشرت هذا الحوار من قبل بين «المعتصم» و «أحمد بن أبي دؤاد» لكنني أعيد نشره وليس عن حاجة في نفس يعقوب وإنما أمتع نفسي بذكر هذا الحوار أو لأن قارئ اليوم ينبغي أن يعطي ما أخذه قارئ الأمس .

قال الخليفة المعتصم صاحب يوم عمورية الذي لبي النداء.. نداء الهاشمية يوم لطمها نصراني فقالت: «وامعتصماه!» والذي مدحه أبو تمام بقصيدته التي مطلعها:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

وكان المعتصم يعظم من قدر «أحمد بن أبي دؤاد» فرغم سلطان الأتراك عليه كان هذا العربي المعتزلي في مكان مرموق، تنفّس به بعض العرب وإن جار باعتزاله على إمام السنة قاهر البدعة الإمام «أحمد بن حنبل» رضي الله عنه .

قال المعتصم لأحمد بن أبي دؤاد:

«لقد اقتنى أخي المأمون رجالاً أربعة أثمروا» ويعني بهم طاهر بن الحسين والفضل بن سهل والحسن بن سهل وكلهم فرس، والرابع هرثمة بن أعين وهو عربي، واقتنيت أربعة رجال فلم يثمروا، ويعني بهم الأفشين وبغا ووصيف وكلهم أتراك، أما الرابع فقد نسيته!

فأجابه ابن أبي دؤاد:

«هل أجيب فلا تجزع؟».

فقال المعتصم: «أحب ولن أجزع».

فقال ابن أبي دؤاد:

«لقد عمد أخوك إلى الأصول فأفرعت وأنجبت، وسدت الشغور،

وعمدت إلى الفروع فلم تنجب. وكان من الأفشين ما كان يوم تعاطف مع

الخرمي الثائر ضد الدين والخلافة.

فقال المعتصم:

«نعم، هو ذاك!».

البـوح

- وليس كل شاعر نظم قصيدة غزل معبراً عن واقع عاش، فالذين يعيشون غزلهم الواقع لا يحتاجون للتعبير عنه، لأن واقعهم هذا يشغلهم عن هذا التعبير.

إن الشعور يتأتى منه للشاعر أن ينظم قصيدة في الغزل يأتي ساعة الجوع إذا ما حُرِمَ العشير، إذا ما اكتنفه الحرمان أما الذي يعيش الغزل واقعاً فالمتعة تغنيه عن الذكرى أو التذكير.

من هنا قال كثيرون.. ما كل من كتب عن الحب أو تغزل في فتاة العينين قتالة الهوى قد تعلق بها. وإنما هو الخيال تتجسد به الرغبة، تضع أمامه «المحترمة» أو «ماسحة البلاط» أو تلك التي تنفَس في رسائلها إليه!

مقدمة لا بد منها، فلئن خالطنا الشك في صدق عمر بن أبي ربيعة، أو يزعم أحدنا أن طموح المتنبي ينفي عنه ما نفاه ابن أبي ربيعة عن نفسه فالشك في صدق ابن أبي ربيعة أو في صدق المتنبي قد لا يكون صواباً. فهذا الإمام ابن الجوزي عالم زمانه الحفيظ على السنة الصامد أمام انتشار التشيع لا يمكن إلا أن نصدق حبه العذري. ففي هذه القصة سجلت فخرة بطهره، طاهرة بفخره.

قالوا.. إنه كان يحب فتاة رقيقة شقيقة حسيمة تعلمت من الشيخ كيف

يسمو الحب بالطهر، وتعلم منها الشيخ كيف تسمو الحبيبة بالعفة .
كان يجلس في حلقة الدرس يعلم ويعظ، وكانت الفتاة تأتي إلى
الدرس مستترة، يراها كلها ولا يعرف بعضها!

وفي مرة جاءت تتستر وتتخفى، كأنما دلالة قد دعاها لأن تأتي إلى
الدرس ومعها امرأتان. كل واحدة من هاتين السيدتين قد استجبلت
سميتين، جلستا، فتسترت الفتاة وراءهما تحجبانهما عن نظرة الشيخ.

وضاق صدر الشيخ حين أرسلت عيناه التضييق عليهما، فأدار الكلام
في الدرس واستوجب الأمر شاهداً من الشعر، فأنشد هذا البيت، إن كان
هو راوية فإن الرواية يصدق القول فيها أنه صاحبه لا راويه.

أنشد الشيخ:

أيا جَبَلِيَّ نعمان بالله خليًّا نسيم الصبا يخلص إليّ نسيماً

فكل الذين سمعوا البيت لم يعرفوا ما أراد ابن الجوزي، ولكن الفتاة
وكان اسمها «نسيم الصبا» عرفت ما أراد.

لقد أجاد الشيخ إجادة من يعرف لحن القول، فأجمل الكلام ما كان
لحناً.

يرحم الله ابن الجوزي إمام سنة، حفيظاً على الحق.. ولعلّي في
«تمر» أخرى أكتب عن معنى لحن القول في حوار ذكره عن الجاحظ.

عودة إلى كليلة ودمنة

- وفي حالة من السأم، ورغبة في طرد أحلام اليقظة، ارجع إلى ابن المقفع في «كليلة ودمنة» ولأُكُنْ كتلك العجوز التي باعت سمسماً مقشوراً بغير مقشور، قسرهما ظرف أن لا تغش نفسها حيث اتسخ بذلك البول، أسقطته عليه قطرة، ولحاجتها أباحت أن تغش من يشتره، لأنها مضطرة..

رجعت إلى ذكرياتي مع ابن المقفع فتجسدت أمامي هذه الحكاية..

كان القرد في الغابة قريباً من شاطئ النهر أو ساحل البحر، وصادف أن خرج من الماء «الغيلم» ذكر السلاحف.. وصل «الغيلم» إلى ظل الشجرة وأحب القرد أن يلعب، فالشمانزي لعوب، كأنه فتى مترف، يسقط الثمار، يتلقفها «الغيلم» حتى إذا استمرأ الغيلم أكل الثمار واستملح القرد اللعب انعقدت بينهما صداقة جرّت «الغيلم» إلى أن يغيب طويلاً عن أنثاه!

وشكت الأنثى إلى بعض جاراتها، فقلن لها.. تمارضي، فإذا جاء زوجك قللي له.. إن أطباء البحر وصفوا لي قلب قرد، آكله فأستصح..

وجاء «الغيلم» إلى بيته فوجد أنثاه مصفرة، صبغنها بهرد جَلَبَتِه من ساحل البحر وسألها: ما بك؟! قالت مريضة.. ولن أشفى إلا بقلب قرد..

فقال «الغيلم» الغبي: عندي قلب قرد إنه صديقي..

قالت: اذهب وتعال به، آخذ قلبه.

وذهب «الغيلم» يدعو القرد لزيارة بيته، وأحب القرد أن يستكشف البيوت في البحر ثم قال: وكيف أصل؟
قال: أحملك على ترسي فلا تغرق..

وركب القرد ظهر «الغيلم» وفي وسط اللجة بدأ «الغيلم» يصحو ليقف تارة بعد أخرى، فاستراب القرد الذكي وسأله:
لماذا تقف كثيراً؟

قال: إني ذاهب بك إلى بيتي لتأخذ زوجتي المريضة قلبك فقد وصفه الطبيب!!

فقال القرد: ولماذا لم تخبرني قبل أن ننزل إلى البحر!! نحن معاشر القروء لا نأخذ قلوبنا معنا، نتركها في مكانها، هيا أسرع.. إرجع بي أحضر قلبي لشفاء زوجتك، فواجب الصداقة يحتم عليّ ذلك..
وانطلت الحيلة على غباوة «الغيلم» فكر، راجعاً وقفز القرد إلى البر واعتلى الشجرة مسرعاً، فأبطأ لا ينزل..

فقال «الغيلم»: أسرع أيها الصديق أخشى أن تموت زوجتي.
فقال القرد اذهب إلى زوجك ولا تعد إلى هنا، وإلا جمعت القردة تمزقك.. أيها الغبي!

إن زوجك ليست مريضة وإنما احتالت لتعود إليها..
وانفرط عقد الصداقة. وهي لن تدوم بين الأغنياء والأذكياء، بين الأقوياء والضعفاء.. بين الأغنياء والفقراء.

مع إبليس والمعري

- وتحت ضغط التجريد وجدتني أصل إلى وادي عبقر، في صحراء نجد، فسمعت حواراً مع الشاعر العبقرى أحمد المعري، وقد لعن إبليس فثارت الجن في وادي عبقر، كأنما تحمي أباهم إبليس من لعنة المعري. وإذا الشيطان الأكبر يقول لبيه دعوني مع هذا الإنسان، لماذا تلعنني؟ لقد أصبحت عاجزاً عن غوايتكم لأنكم برعتم في غواية أنفسكم، فحققتم كل ما أريد، فيوم كنتم الصالحين كنت استخزي من اللعنة، ويوم أصبحتم الطالحين احلتم العلم وما تصنعه المدنية المتفوقة إلى طعام شيطاني تدمرون به أنفسكم، يوم كانت للأخلاق قيمة كنت حريصاً على غوايتكم، ولكني الآن أتناول بعض الراحة لأن لعنتكم قد عادت إليكم.

فقال المعري: من أجل هذه الفلسفة ألعنك أكثر، فأنت الغواية الدائمة للإنسان.

فقال إبليس، هناك من يعجب بشعرك ويكفر بالفلسفة التي كانت غوايتي لك. لم يعذرك شاعراً، وإنما جحدوك فيلسوفاً! انظر إلى هذا التناقض بين ما قلت من إichاء العبقرية لك، فالعبقرية أصلاً وإن فخرتم بها هي من صنع الجن لكم.. أنتم العرب تقولون العبقرى نسبة إلى وادينا نحن الجن. وحتى العامة منكم إذا ما وصفوا إنساناً ممتازاً مثلك قالوا جني..

شيطان.. . مارد. والأعاجم في الغرب إذا ما وصفوا عبقرياً قالوا عنه «جينوس» أي جنى. فكل هؤلاء وهؤلاء قد امتدحوا وفخروا بنا نحن الجن.

قال المعري: لقد شطحت شيطانياً، فأين هو التناقض الذي قلت عنه؟

فقال إبليس: هو على هذه الصورة. فقد قلت أنت:

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطة أن يبكوا
وتتركنا الأيام صرعى كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك

ظنوا بك الظنون حين اتهموك أنك تنكر البعث، بينما أنت قلت في
مرثيتك البارعة الفارعة:

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شاد

فقد جاء بعد المطلع ما أثبت به البعث:

خلق الناس للبقاء فضلت أمة يحسبونهم للنفاد
إنما ينقلون من دار أعمال إلى دار شقوة أو رشاد

وصرخ إبليس صغير: يا أبت.. . لقد أعطيت المعري البراءة التي لا
نريدها. فتعاسة المعري في ألسنة قومه أحب إلينا من هذه البراءة.

فقال إبليس: أردت أن أرزقه ليجتر أصدقاؤه الخلاف حتى التناحر

بينهم.

وصحوت أبارح التجريد لأعيش في راحة من شيطنة الشياطين وأبلسة

الأبالسة.

بين الناس والناس

- وفي ما سجله التراث كلام مشرق بيانه حكمة وحكمته بيان، ولئن جاء أكثر ما جاء عن الفصحاء من الرجال فإنه قد جاء عن أمهات عربيات فصيحاً بيانياً معبراً لا عن مشاعر من قالت، وإنما البلاغة فيه أن فيه التعبير عن مشاعر من حفظه.. من رواة.. من سمعه. فالتعبير البياني لا يقتصر عشقه على من قاله.. وعلى ما قالته، إنما هو يتسع ويتسع حتى ليبقى تراثاً من التراث.

ولا أدري كيف خطرت على بالي هذه الكلمة البيانية نطقت بها السيدة الكريمة «عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل» ابن عمها عمر بن الخطاب، أخوها سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين، تزوجها ابن عمها الفاروق عبقرى هذه الأمة رضي الله عنه وعنهما، وكانت تحب الخروج إلى المسجد، وبيتها قريب من المسجد.. بيت عمر. وما أراد لها عمر هذا الخروج، وما أحب أن يقهر شغفها بالمسجد فقعد في طريقها يلمسها بيده وكأنه الغريب عنها فما عرفته. وفي الليلة التالية وجدها عمر لم تخرج إلى المسجد فقال لها: ما منعك أن تخرجي؟

قالت بألم كأن الكلمات استحالت دمعات.. قالت: «لقد كان ذلك يوم كان الناس ناساً»!

ما أبلغها حيث فرقت بين الناس والناس، أليس ذلك بياناً مشرقاً لمعت فيه الدموع الصامته؟!

إنها سيدة نشأت في مكارم الأخلاق، فأمضَّها ألا تجد مكارم الأخلاق، فهل أجد من يسمعي من أناس مردوا على مكارم الأخلاق؟! فما نراه في الشارع وفي غير الشارع شيء رديء.

حديث الكبار عن الكبار

- والكبير الذي تحدث عنه كبير آخر هو الفارس الشاعر الصحابي والبطل في «القادسية» أبو محجن الثقفي، والكبير الآخر الذي تحدث عنه هو معاوية بن أبي سفيان، فقد قرأنا في ترجمة أبي محجن أن ابنه عبيداً دخل على معاوية، فقال له معاوية وهو يعرفه ويعرف أباه، لأن معاوية من أخوال أبي محجن، أمه عيشمية اسمها الكنود بنت عبد الله بن عبد شمس.

قال معاوية: أبوك الذي يقول، وأنشد البيتين:

إذا مت فادفني إلى ظل كرمة تروي عظامي بعد موتي عروقتها
ولا تدفني بالفلاة فإنني أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

فقال عبيد بن أبي محجن لمعاوية، يدل بقيمة أبيه ويستظل في كنف خاله.

لمعاوية: لو شئت لأنشدت أحسن من ذلك من شعر أبي.

فقال معاوية: وما ذاك؟

فأجابه عبيد ينشد هذه الأبيات:

لا تسأل الناس عن مالي وكثرته وسائل الناس عن حزمي وعن خلقي
اليوم أعلم أنني من سراتهم إذا تبطش يد الرعييدة الفرق

قد أركبُ الهولَ مسدولاً عساكره وأكتم السر فيه ضربة العنق
أعطي السنان غداة الروع حصته وحامل الرمح أرويه من العلق
عف المطالب عما لست نائله وإن طلبت شديد الحقد والحمق
سيكثر المال يوماً بعد قلته ويكتسي العود بعد اليبس بالورق

فقال معاوية: لئن كنا أسأنا القول لنحسنن الفعل، وأجزل صلته.

ولقد كان أبو محجن بطلاً عظيماً جندل الأعاجم في القادسية، حتى إذا
شبع سيفه من الدم عافت نفسه دم العنقود، فتاب عن الخمر لا يشربها
بعد. رضي الله عنه.

وقالت العرب

- وفرحت حيث يطربني الدكتور علي الخضيرى ينشر في كلمات موجزة طرفاً عن التراث «قالت العرب» وفي يوم السبت في الموعد المحدد لإذاعة هذا البرنامج قبل أخبار الثانية والنصف أتحفنا بكلمة عن «دريد بن الصمة» وقد جاء في قوله مقتصراً على نسبه إلى «جشم بن بكر»، وليته قد أذاع ما يعرف به أنه فارس هوازن، وفاته ولعلّ ضيق الوقت هو الذي فوته أن يذكر من هو خاله، فقد أعزه خال، أن أمه «ريحانة» يمانية قحطانية جاءت بهذا المضري، خاله أخوها فارس اليمن صاحب الصمصامة «عمرو بن معد يكرب الزبيدي»، الذي أسلم ثم ارتد، والذي شرب الخمر فأطاع الإسلام حين أقيم عليه الحد، ثم أسلم وكان من أعيان «القادسية»، إذا عد رجالها كان واحداً منهم، أقام الحد عليه عمر بن الخطاب رضي الله عن عمر وعن عمرو، هذا الخال من كرامة «دريد» أن يفخر به، وقد كان عمرو هذا الزبيدي اليمني القحطاني مشغولاً بمضر يعرف رجالها وأبطالها.

قال مرة: «لا أبالي أن أقود ظعينة أجوب بها ديار مضر إلا أن يلقاني حراها وعبداها».

وفسروا الحرين والعبدین فقالوا: الحران هما عامر بن الطفيل وربيعه بن مكرم، وجاء في رواية وضعوا بدل اسم ربيعة باسم زيد الخيل رضي

الله عنه. وهذه الرواية مرجوحة لأن زيد الخيل طائي قحطاني، ولم يكن مضرياً إلا أن أرادوا أنه قد ساكن مضرًا فعدوه منها. أما العبدان فعنترة والسليك بن سلكة، وهما مضران بالنص «مولى القوم منهم» غير أن عنترة لم يكن مولى فهو عبسي صليبة، أمه كانت مولاة أبيه جارية سوداء.

والبيت وهو من قصيد دريد:

أمرتهمو أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد

كان أول ما سمعته حين أنشده الإمام علي كرم الله وجهه يوم «صفين» ما أشبه الليلة بالبارحة، عصوا دريد أفأكلوا وعصا أصحاب علي علياً فشيّع التاريخ حين أشبعتنا جرائره حين جروا على التاريخ جرائر كثيرة كثيرة نعيش في عقايلها إلى الآن.

ولا يفوتنا أن «دريد بن الصمة» قد خطب الخنساء فأبت، لأنه كان قد شاخ، فلا أرب فيه، كأنما تذكرت قول أخيها «صخر»: «لقد حيل بين العير والنزوات». ولقد قالت:

معاذ الله ينكحني حبركي قصير الشبر من جشم بن بكر

أسود رأس!

- وحين أريد أن أضحك على الكرب، فالثكلى حين تكرب تزريح
الحزن بضحكة كأنما هي تسخر من هذا الذي أكربها. ففي المثل يصفون
الأمر الكارب بقولهم: «يضحك الثكلى ويبيكي الحليم».

وكفانا بكاء، فلم تعد الدموع شافعة لدى الطغاة، وقد يكون في
الضحك سخرية من الطغاة.

من هنا عدت إلى «كليلة ودمنة» أضحك من الخيل فالقصة التي أكتبها
الآن أستعيرها من «كليلة ودمنة» تعطيني خلاصة ما تعلمناه من جداتنا «لا
يغشوك الناس، ترى بني آدم أسود الرأس».

ولا أدري ما هي العلاقة بين سواد الشعر على الرأس وسواد القلب من
عدم الإحساس: لكن هكذا جداتنا قلن لنا.

ونأتي إلى ابن المقفع، نأخذ هذه الحكاية، أكتبها بأسلوبى، وبعيد أن
أبلغ أسلوب ابن المقفع.

قال وصل رجل قد أمضه العطش يقف على حافة بئر ومعه دلو يحمله
من يجوب الصحراء، فأدلى دلوه، ورفع يجره، فإذا مع رشقات من الماء
قرد قد تعلق بالحبل كان في قاع البئر. وأدلى الدلو مرة ثانية، وحين جربه
تعلقت به حية. ومرة ثالثة تعلق به قط برّي وأخذ يدلو الدلو للمرة الرابعة

فإذا القرد والحية والقط يقولون له :

إن في قاع البئر إنساناً لا تخرجه، لا تنقذه، فابن آدم خؤون.
وعصاهم جَوَاب الصحراء يُنقذ أخاه الإنسان. كأنما البئر من آبار
الأنباط، ملساء قد حُفرت بالإزميل، حفرها أصحاب الرس.
وسألوه أين تذهب؟

قال: إلى عاصمة هذه الأرض، مدينة التفاح والصنوبر.
فقال الجميع: نحن من أهلها. فإن القرد أسكن الأشجار حولها.
وقالت الحية أنا أسكن جُحراً في سورها وقال القط أنا أجوب بيوت
المدينة.

وقال الإنسان الذي كان في البئر أنا صائع، أتجر بالجواهر من كل نوع
فإذا وصلت إلى المدينة تعالى إليّ.

وتفرقوا وبينما جَوَاب الصحراء وقد سكن غرفة في أحد الأربطة جاءه
القط بعقد ثمين من الجواهر. يقول له: لقد وجدت لك هذا، وفاء
لصنيعك، فأخذ العقد وذهب إلى صديقه الصائع. فنظر الصائع إلى العقد
وحامله وقال:

- اتركه لي إنه ثمين.

وما كاد يمضي النهار حتى وصل الجلاوزة (الشرطة) يأخذون جَوَاب
الصحراء، وإلى السجن، لأن العقد كان حلية في جيد بنت السلطان.
وسمع القط فذهب إلى الحية وأحضرا القرد. عقدوا مؤتمراً للمشاورة
ولإنقاذ منقذهم. خطّأوا القط حين سرق، وقال القرد: لا حيلة لي. فقالت
الحية: أنا لها، وأنت أيها القرد بعد.

وأُسْرَعَت الحَيَّة تَلْدَغ بنت السلطان، فَجَنَّ جنون القصر وأصاب
العاصمة ذهول، وأسرعوا إلى الأطباء فلم ينفَعوا بشيء.

وانسلت الحَيَّة تتخفَّى، ترسل كلمة في القصر.. إن شفاء الغالية هو
عند السجين الذي لم يسرق العقد وأسْرَعَت الحَيَّة إلى السجين ومعها ورق
أخضر، ترياق جلبه القرد من الغابة. فقالت للسجين:

- إذهب إلى القصر، إنهم سينادونك الآن، وعالج بنت السلطان بهذا
الترياق.

ولم يلبث السلطان قليلاً حتى أحضروا أمامه السجين يقول:

- عالج بنتي وأنت طليق.

فعالجهما حتى شفيت. ودخل على السلطان يروي له قصة العقد ووفاء
الحيوان وغدر الإنسان.

تمشية الأمور

- والكاتب يكرر نفسه لا عن رغبة في التكرار، ولا عن نقص في الحوار. وإنما بعض ما يكربه يتعبه. فيجتز ما كتب من قبل، يتنفس به حاضره ولئن وجد قارئ سبق أن قرأ ما كتبت فالكثرة القارئة الآن تستاهل أن أعيد.

لقد قرأت كلمة رسم بها أحمد بن الفرات رجل الدولة وزير المقتدر الخليفة العباسي قال:

«تمشية الأمور على الخطأ خير من الوقوف بها عند الصواب».

إن أحمد بن الفرات حين استوزره المقتدر وسلطان العباسيين يتأرجح بين غضب العربي الذي أبعدوه، ومع وطأة الشعوبية التي احتدم الصراع بين فريقيهما.

فالفرس بعد نكبة البرامكة وعزمة المعتصم قد فقدوا سلطانهم، وأعطى المعتصم أخواله الترك نفوذ السلطان. وفي هذا الكرب الكارب نبغ أحمد بن الفرات، فإذا هو يصلح الأمور. ولكن الحواشي والبطانة والأذن السماعة للوشاة نكبت ابن الفرات. فلم يمض وقت حين حتى كان يعيش النكبة، اشتعل الفساد وتعثرت الأمور، فصحا المقتدر من غفوة الغضب إلى صفوة الرضا فأطلق أحمد بن الفرات وأعادته إلى مكانه الأول. وبدأ أسلوب

الإصلاح، وظهر ذلك جلياً، فإذا الوشاة يخسرون، وإذا الأصفياء يسألون.. كيف تصلح الأمور يا أحمد؟

قال: إن سياستي هي.. تمشية الأمور على الخطأ خير من الوقوف بها عند الصواب.. فحين أتوقف أنتظر الصواب يفوتني كثير من الإصلاح.

أنا لا أتعمد الخطأ، ولكن حين يقع فذلك درس تلقيته وتجربة وعيتها.

حين أصلح عشرة من الأمور فإني لا أندم على الخطأ الحادي عشر. يكفيني أن كسبت الدولة عشرة أمور صائبة.

يرحم الله أحمد بن الفرات.

مع الوزير المهلبى

- وتحدث الأستاذ أبو إسحاق الأسفرايينى، قال :

لقد كنت من عواد الوزير المعلبى، أزوره الفينة بعد الفينة وفاء لوفائه واعتزازاً بصفائه، فقد كان من أهل الفضل علماً زان شرف محتده، فما أكرم النسب حين يشرف به الحسب، وحين يرتفع النسب بالحسب، «من أبطاً به حسبه لم يرتفع به نسبه».

فقد كان الوزير المهلبى يكرم الفضل وأهله، وبينما كنت جالساً والوزير يستقبل زائريه دخل الشريف المرتضى العالم والنقيب والحسيب النسيب، فما رأيت الوزير المهلبى قد استقبله هاشماً باشاً، كأنه تعمد أن لا يحتفي به، فعجبت، فتلك الجفوة ليست من خلق المهلبى، ولا هي مما يستقبل به الشريف المرتضى.

وبعد دقائق دخل الشريف الرضى الشاعر فإذا الوزير المهلبى يستقبله بالهشاشة والبشاشة يلتفت إليه ليلفت أنظار الجالسين إليه. فزورت في نفسي أن أبقى في مجلس الوزير حتى يفرغ الناس، لأسأله كيف جفا المرتضى وهو من هو علماً ومقاماً، وكيف صفا للشريف الرضى وهو لا شك دون أخيه؟

وحتى إذا خلا المجلس، سألت الوزير المهلبى :

لقد رأيتك تستقبل المرتضى بجفوة، كأنه لا يستاهل الحفاوة.. ورأيتك
تستقبل أخاه الرضي ولم يكن إلا دون أخيه وما هو إلا شاعر.

فصمت المهلبي قليلاً ثم قال:

إن الشريف المرتضى وأنت تعرف سعة ما يملك من الأرضين قد
جاءني اليوم لأنجز له طلباً وما ذلك الطلب إلا لأنتزع له قطعة أرض
يملكها جار له يضمها إلى ما يملك من الأرض.

فأنت تراه يريد ظلم المسكين فلا يحترم حقه مالكاً وحقه جاراً فرأيتني
لا أحتفي به. فقد احتقرت مطلبه فأصبح غير جدير بالحفاوة.

أما أخوه الأصغر الشريف الرضي فقد بلغني أنه قد رزق بولد،
فأرسلت له بدرة فيها ألف دينار، وتلطفت أكتب خطاباً معها أقول له: إن
هذه البدرة أجر «الداية» فأرجعها إلي يكتب معها: «إنا أهل بيت، لا يقبل
نساءنا إلا جداتنا، وهن لا يتقاضين منا أجراً».

فها أنت تراني أحترم الرضي لهذه العفة، لهذه العزة..

حصافة عبد الملك

- وكان عبد الملك بن مروان عظيماً، له في سجل تاريخنا مجد، فهو المؤسس الثاني لدولة بني أمية، وبعبارة أخرى هو المؤسس الأول لإمبراطورية بني مروان ثارت عليه فتن، كأن كل الأرض قد انقلبت عليه، حتى إن بعض نصارى الشام وكل هذه الفتن قد اضطروه أن يجامل القيصر بل واسترضاه يدفع له المال، يحجبه عن التحرك ضد الشام.

وأرسل له القيصر مرة يطلب منه أن يبعث له رجلاً يتحدث معه ليعرف منه ما يريد، وعجم عبد الملك أعواد الرجال فلم يجد إلا صديقه أيام كان عبد الملك حمامة المسجد ألا وهو عامر بن شراحيل الشعبي الإمام، فبعثه إلى القيصر. وأقام الشعبي أياماً يسبر غور القيصر كما كان القيصر يسبر غوره، حتى إذا عاد الشعبي إلى دمشق ومعه كتاب من القيصر لعبد الملك وكان الكتاب مقفلاً ما اطلع على محتواه الشعبي.

وقرأ عبد الملك الكتاب، وإذا فيه «عجبت لأمة فيها هذا الرجل - يعني الشعبي - كيف تركوه ولم يولوه الخلافة، فوليتها أنت؟!».

وقال عبد الملك للشعبي ذلك فارتاع الشعبي، فقال له عبد الملك: «هون عليك إن القيصر قد كاد علي ولم يكد عليك، حسدني أن يكون لي صديق مثلك، فخطر علي بال القيصر أن أغضب منك لأقتلك».

إن هذه المكيدة من القيصر عرفها ابن مروان، فما تصرف إلا بحصافة الرجال، فإذا الشعبي لازال الصديق المكرم عند عبد الملك.
هكذا تتضح الشيم عند من تكسوه الشيم.

تاريخيات

قصة أصحاب الأخدود

- في بعض الروايات عن قصة أصحاب الأخدود أن الإمبراطور صاحب السلطان حول تلك الأرض قد اعتدى على ابنته «وطأها».. وقالوا بأنه كان ثملاً فلما صحا من سكرته وعرف فعلته.. أنكر ذلك على نفسه.. فبأسلوب أو بآخر.. أو لأنهم أحبوا أن يزخرفوا القصة.. أخذ هذا السلطان يتلوم أمام ابنته كأنما هو يعتذر.. يستغفر.. أو أنه طمع بأن يجد رأياً من ابنته يخرج به من أن يكون الأمر ذلة ليكون البعد فيه الكثير من التحلة.. فقالت البنت لأبيها:

أدعو رعيته وأصدر قراراً يأمرهم بأن مباشرة «الجنس مع بناتهم» أمر أجاز به السلطان فثار الشعب عليه.. لم يرضوا بهذا الأمر.. فألقاهم في الأخدود.. أي إنه أتبع الجريمة.. بجريمة أكبر أو أنها أصبحت الجرائم الثلاث.. استحل وطء ابنته.. واستحل قتل شعبه.. وأحل هذا الحرام.

إن هذه القصة رغم أنها مأساة إنسانية.. ففيها ما أحسبه ارتفاعاً بالتقاليد وانتفاعاً بالتربية.. فالتقاليد والتربية قد وضعت أمام المنكر أول الأمر لكن النزوع إلى مخرج ممر حرمة التقاليد والتربية جره إلى أن يقذف بها.. فحلل ما حرم الله.. كأنما الوازع في الإنسان.. هو احترام المحارم.. فالإنسان فيما جبل عليه.. وما نشأ عليه لا يخطر بباله أن ينظر إلى محارمه

نظرة تجره إلى جريمة.. . ويزيد الطبيعة الإنسانية رسوخاً حينما تجد الفطرة من يتعهدا بالتنمية ويرسخها بالتربية.. . فعقدة أوديب هي أنه أصاب ما أصاب من أمه تحت ضغط الجهالة.. . فقد كان لا يعرف أنها أمه وحين عرف عذب نفسه.. . فجاءت قصة أوديب تسمو على قصة حارق شعبه في الأخدود لم يستدل للندامة.. . بل استكبر وتجبر يتلمس المعاذير.. . ويقتحم المحاذير أما أوديب فما وجد لنفسه عذراً.. . فانتقم حتى جعل من نفسه علامة أكبر دلالة لها أن التقاليد والتربية وأمانة التدين وفضائل الدين هي التي تنمو مع الطفل.. . يفرع من أن يلجأ إلى خرق التقاليد والتربية وأمانة الدين وفضيلة التدين.. . من هنا أحسبني داعياً إلى أن نجعل من الطفل أبا الرجل.. . فالرجل مهما بلغ من قوة السلطان أو ترف الوجدان أو تطرف السلوك فإنه ابن الطفل الذي كان لا تنحرف به ما اكتسب بعد دور الطفولة عن ما ترسخ في وجدان الطفل وعقل الطفل.. . فهناك مثقفون كبار كغاندي أو نهرو أو غيرهما عرفوا الأديان وارتفاع الإنسان عن عبادة الوثن ولو في صورة بقرة أو في صورة أي حيوان.. . لكنهم وقد امتلأوا معرفة لازال سلطان الطفل يمنعهم أن لا يكونوا هنالك فاتساع المعرفة محجوز في مضيق الراسخ في الطفولة.. . ولست بهذا واعظاً ولكن لست إلا الطفل المتعظ!؟

التاريخ والحقيقة

- وما قرأناه من التاريخ وعن قتل أبي مسلم الخراساني، فقد ذكروا أن المنصور أبا جعفر قد تخلص من عمه عبد الله بن علي بجيش قاده أبو مسلم، فتخلص المنصور من مناقشة عمه، مع أن هذا العم كان قائداً عظيماً هو الذي أجهز على بني مروان، فأعطى لابن أخيه السفاح وبعده المنصور النصر على بني أمية. وقالوا إن المنصور قد طلب من أبي مسلم الحضور فأخذ يحاسبه ويهدده، فإذا أبو مسلم يمن بما صنع لبني العباس، فقال: لقد فعلت لكم وفعلت لكم، فأجابه المنصور «لو أن جارية مكانك لفعلت مثلما فعلت» قالها يوم أمسك بالسلطان، وما كان يستطيع أن يقولها يوم كانوا تحت ضغط بني أمية وبلا نصير. وقال أبو مسلم: «أبقني لأعدائك» فقال المنصور: «لم يبق لي عدو غيرك» وأشار إلى السيف يقطع رأس أبي مسلم، يلقي على الخراسانيين فروعهم وتوطد السلطان المنصور. كل ذلك قالوه، ولكن القول الصحيح لم أقرأه في كتاب تاريخ فيما قرأت، ولكن خبراً لترجمة مالك بن أنس حين عدوا جعفر الصادق بن محمد الباقر أحد شيوخ مالك، فإذا الخبر يقول: «إن أبا مسلم الخراساني قد كتب إلى جعفر بن محمد يراوده أن يبايعه بالخلافة، رفض جعفر هذه الرغبة». . فلعل المنصور قد علم بذلك. فأجهز على أبي مسلم.

هذه الحقيقة تعطي المنصور الحافز على أن يقتل من يستطيع نقل الخلافة عنه، فالمنصور يعرف أن الخراسانيين لم يثوروا على بني أمية إلا ليبايعوا الرضى من آل محمد. يعنون محمداً رسول الله ﷺ. أبهموا هذا الرضا ولم يعلنوا اسمه خشية عليه وطمعاً في حسن الاختيار، فإذا عبد الله بن علي بن عبد الله العباس قد أمسك بالأمر فبايعوا السفاح ثم المنصور. من هنا أسرف بنو العباس في محاربة العلويين، فكان القتل من العلويين بيد العباسيين أبناء العم أكثر من الذين قتلهم بنو أمية.

الرقص حول النار!

- ونشأنا نشاهد «المزمار». توقد النار، تشتعل حطباً فوق حطب، يدور الراقصون حول النار. فما وجدني حينذاك أعود بهذه النار إلى أنها وثن، أو أنها ذكرى لنار إبراهيم أبي الأنبياء، كانت برداً وسلاماً عليه.

فقد كنت أحسب يوم كان الظلام لا يضاء بنور، ويوم كان الرقص في الليل، كنت أحسب أنها للإضاءة، يتراقص أصحاب «المزمار» حولها.

ولكن لماذا تأخذهم النشوة فيأخذون تراباً من الأرض أو رملاً يقذفونه على النار؟!

كل ذلك لم أفطن إلى المصدر الذي جاءت منه النار. أهى من وثنية الفرس؟! لم تكن هذه النار توقد من أجل «المزمار» على صورة الوثن كاملاً، وإنما هي وبالرقص حولها والدوران وقذف التراب فيها شيء من الوثنية، فقد تشاهد الهندوكي إذ مرّ في عربة القطار يلقي التحية للنهر المقدس بعضاً من النقود. تلك وثنية.

فهل جاءت هذه النار إلينا أيام «المزمار» من وثنية الفرس، زرادشتية مزدكية مانوية؟!

أحسب أن هذا الظن صحيح. لكن هناك معلومة أخرى عرفتھا هذه السنة، فعندي خادمت من أرتيريا مسيحيات «أرثوذكس»، وقد خرجت

مصافاة إلى فناء البيت أنظر إلى مطبخ خارجه وسط الفناء، فإذا الخادما
أوقدن ناراً بخشب قليل قد اشتعل وفي «كانون» صغير. وأخذت كل واحدة
منهن تقذف على النار، تتخطاها مرة ومرة، فعجبت. أهى نار «المزمار»،
أهى نار فارس، أم أى نار هى؟!

وسألت الخادما.. لماذا هذه النار؟!

قلن لى: إنها نار «أبرهة».

يعنن نار إبراهيم علىه السلام.

فالحصيلة من ذلك أن نار «المزمار» فارسىة، لأنها طقوس يرقص
حولها المزمرون.

أما هذه النار فقد جاءت للمسيحيين من وراثة التوراة أو الإنجيل تذكيراً
بالنار التى أوقدها إنسان جبار فأخزاه الله جبار السموات والأرض. فإذا نار
إبراهيم أحالتها رحمة الله برداً وسلاماً.

وكم من العادات والتقاليد نحترفها ولا ندري أصولها، ولا من أين كان
وصولها؟!

سياسيات

القراصنة .. ؟!

- وشغلت وكالات الأنباء، وسائل الإعلام تذيع الخبر عن القراصنة الذين اختطفوا الطائرة الباكستانية حتى ملت الأسماع، كان من تمام المخطط لهذه الجريمة إشغال السامعين بظاهر الأخبار ليصرفوهم عن بواطنها.

إن ظواهر الأخبار لا تزيد على أن ثلاثة من القراصنة اختطفوا طائرة عليها أكثر من مائة إنسان وإنسانة .. أما بواطن الخبر فتطرح هذا السؤال:

هل كان هو التصرف الثلاثي لهؤلاء الرجال. أم هو مخطط قد رسمت وسائل تنفيذه في الخفاء .. بين الطلقاء من المعارضين والحلفاء من الناقمين .. ؟

فقد أرادت المعارضة أن تضع الوضع في الباكستان بصورة علنية وعالمية .. كأنما ذلك استصراخ المعارضة تثير عواطف الذين يسمعون ظاهر الأخبار .. ويتبرعون بتشويه الحقائق بينما المتربصون بالباكستان كدولة في القمة المسلمة .. وكشعب لم يجد مفراً من استضافة اللاجئين من الأفغانيين الذين شردهم عميل أفغاني بسلاح سوفياتي .. ؟!

فهم يريدون أن تعلن كابل حربها على الباكستان حرباً نفسية .. وليس من الغريب أن يكون هذا المخطط قد رسمت وسائله بين إمبراطورية الكرملين، والنظام العميل في كابل .. ومن إلى ذلك .. حتى إن اللجوء

إلى كابل كان مظاهرة لإعلان الحرب النفسية على إسلام آباد..؟!!

وحين كادت تنكشف وسائل هذا المخطط أراد النظام العميل في كابل أن يتخفف ويإيعاز من موسكو فألجأ الطائرة المخطوفة بمن عليها أن تلتجئ إلى ملجأ آخر..؟؟

وبما أن دمشق صديقة للباكستان وليست عدوة لكابل كانت هي الملجأ الوسيط لا تتقاذف الطائرة عوامل الرفض من أي ملجأ إنقاذاً للمخطوفين والخاطفين والسجناء السياسيين.

فضربت دمشق ضربة فائقة.. لم تجف صداقة الباكستان فإذا الباكستان تستجيب.

وبعض الذين رفضوا أن تلجأ الطائرة إليهم حرصوا على صداقة الباكستان.. كما هو قول ابن المقفع في كيلة ودمنة (لأمر ما باعت سمسماً مقشوراً بغير مقشور).

فالحرص على صداقة الباكستان هؤلاء الراضين هو الحرص أيضاً على نفس العلاقة بين موسكو وهؤلاء القراصنة.

إن هذا المخطط وإن كان ظاهره إنقاذ السجناء فإن من بواطنه الضربة الأولى لمقررات مؤتمر القمة الثالث.. كأنما قالت موسكو خذوها أول دفعة من الضربات.. فأى ضيم أصيبت به الباكستان.. وهو الضيم ينصب على العالم الإسلامي كله..!

إن هذا الحدث لن يحول الباكستان عن إضافة اللاجئين.. فإسلام الباكستان عاطفة إنسانية.. لأن الإسلام لا يمارس سفك الدماء.. يصونها.. تسيل دموع الأمهات المسلمة حين تسمع طفلاً رضيعاً هلك

تحت الشلوج.. أما الشيوعية وهي المعبر كل التعبير عن التلمود والبروتوكولات وكل سلوك يهودي.. فهي كاليهودية تتلمظ على سفك الدماء.. فأأي يهودي أو أي شيوعي حريص على أن يهلك من لم يكن يهودياً.. من لم يكن شيوعياً..؟!!

الولوغ في الدم عقيدة اليهود.. وفعل الشيوعية..؟!!

إن هذا الحدث لما ينتهي بعد سيكون له عقابيل بين الذين ألجأوا أول مرة الخاطفين وبين العالم الإسلامي كله..

السيخ

وليس ما يحدث في الهند أو في الصين وفي كل قطر آسيوي، وفي كل شعب أفريقي يبعد تأثيره على الجار الجنب والجار الجنب أو على كل آسيوي وكل أفريقي.

ففي الهند مثلاً نتأثر كثيراً بالمعارك بين الهندوكي والمسلم، كما أننا نتأثر بما يحدث في الهند الآن بين طائفة «السيخ» وشعب الهند، هنادكة ومسلمين.

إن «السيخ» مذهب هندوكي اختلطت به مذاهب شتى. فهم أشبه ما يكونون بـ «المورسيين» في الولايات المتحدة، خلطوا عقيدتهم المسيحية بشيء من اليهودية وشيء من الوثنية بل قد يشبه «السيخ» في شذوذهم عن الهندوكية الأصل «البهائيين» في إيران وما إليها.

فهؤلاء «السيخ» قد عظم شأنهم بتخطيط الاستعمار البريطاني، عندما رزحت الهند كإمبراطورية بريطانية حيث كانت على ممتلكات التاج، فاللقب كان هكذا، ملك بريطانيا وإيرلندا وإمبراطور الهند وما وراء البحار.

فرجال الإمبراطورية أخضعوا الهند كلها إلى التقسيمات المذهبية، وإلى مقاطعات يحكمها النواب أو المهراجا، تحت شعار «فرق تسد».

من هنا، وضعوا «السيخ» الذين كانوا أقلية في الهندوكية في مكان

القوة، يستخلصونهم للجندية، يمنحونهم بعض الامتيازات، على طريقة المستعمرين في كل مكان يحتضنون الأقليات المستضعفة، يدخلونهم المدارس العسكرية، تتكوّن لهم قوة داخل المستعمرة، فلقد فعلوا ذلك في أكثر من مستعمرة.

فحين حمل الاستعمار عفشه خرج بصورة من منح الاستقلال بترك الأرض التي استعمرها نهباً للفرقة والشقاق، سواء كانت الفرقة مذهبية أو قوة للدين كانوا خدماً، بل وبعضهم كانوا كناسين، تحملوا مرارة الإقصاء عن شعبهم، فاغتنموا فرصة هذا العطاء من المستعمرين، فانخرطوا في سلك الجيش يرتفع بعضهم إلى جنرالات بل وارتفع بعضهم إلى زعماء.

حال ما أشد مرارته وما أقسى ما تقاسيه الشعوب كأنما الاستعمار قد وضع الإسفين في كل شعب استعمره، يرفع المستضعفين ليعتزوا ثم ليبتزوا.

وهكذا «الشيخ» أصبحوا شوكة تدمي شعب الهند كله.

حجتها . . وحجتنا . . !

- قالت رئيسة وزراء بريطانيا «مارجريت تاتشر» وهي تندد بموقف أمريكا حين صوتت في هيئة الأمم ضد رغبة بريطانيا، قالت السيدة تاتشر: إن سكان جزر فوكلاند بريطانيون لهم الحق أن يحققوا إرادتهم في البقاء تحت سلطان بريطانيا الأم، وهي لن تفاوض الأرجنتين لأنه كما يفهم من قولها إن الأرجنتين دولة غازية تريد أن تحتل أرضاً شعبها بريطاني . .

تلك حجتها . . أفلا يمكن أن نأخذها حجة لنا في فلسطين؟!!

إن جزر فوكلاند أرض أمريكية احتلها البريطانيون، أما فلسطين فأرض عربية من الأزل، شعبها عربي من بعد الطوفان سامي بلا جدل، فكيف صح لبريطانيا قبل خمسة وستين عاماً أن تمنح إسرائيل «وعد بلفور» وطناً قومياً لليهود؟! لعلّ بريطانيا تنكر على نفسها الآن ما فعلت في فلسطين ولو بالإعلان على أنها لا توافق على ما تفعله إسرائيل الآن في فلسطين وفي لبنان. إن «مناحيم بيغن» قد أخذ من غزو بريطانيا لفوكلاند تخرج الغزاة الأرجنتينيين حجة لما يفعل في فلسطين ولما فعل في لبنان، لكن كل ذلك بهتان . .

ونأتي إلى دور أمريكا حين صوتت ضد بريطانيا وهي الأم والحليف والصديق قبل كل صديق، فلماذا إذا ما أقر مجلس الأمن قراراً أو أقرت

هيئة الأمم قراراً ضد إسرائيل ترفضه أمريكا أو تمتنع عن التصويت في الآونة الأخيرة؟ أليس شعب فلسطين صاحب حق واضح في الأرض أكثر من دعوى الأرجنتين؟!

نحب أن نذكر الذين ينسون الحق فيحيلون الباطل إلى حق، لكن الولايات المتحدة قد اضطرت لإغضاب بريطانيا لأنها لا تريد أن تغضب أمريكا اللاتينية، فهي تخشى أن تصنع هذه الجفوة بينها وبين اللاتينيين كاسترو آخر أو آخرون. إنها سترضي بريطانيا بأسلوب آخر لعله كان في نهاية أزمة خطوط سيبريا أو غيرها من أزمات التجارة.. فبريطانيا لا تملك الآن إلا أن تعتب ولها العتب حتى ترضى، والترضية قريبة لا تبتعد بها أمريكا..

إن ما وقع الآن بين بريطانيا وأمريكا يعطينا أن نصف تشرشل بأنه كان حالماً خيالياً حين زعم لنفسه أنه يستطيع أن يوحد الشعبين الأمريكي والبريطاني.. إن حلم تشرشل كذبه الأيام!

من أجل فوكلاند

- حينما ثارت الحرب العالمية الثانية، شغل كل إنسان، بالحديث عنها. الكثرة خائفة، وقلة حاقدة على أوروبا كلها. تريد أن يذوق الأوروبي العذاب، كما أذاق الآسيويين والأفريقيين من عذاب الاستعمار. بل وانشطر إنسان الدنيا كلها إلى شطرين. شطر يناصر المحور، يطلقون عليه هتلري، وشر يناصر الحلفاء يطلقون عليه الديمقراطي.

فالكل يتحدث، أصحاب المراكز العليا، والزعماء محترفو السياسة، المثقف والعامي. وفي ذات يوم، انعقد مجلس حول (وجاق) في أحد بيوت الشعر وأخذوا يتحدثون عن هذه الحرب. وإذا شاب قد عرف دروساً من الجغرافيا والتاريخ فأحب أن يتظرف فقال: اليوم أعلنت بريطانيا الحرب على إنجلترا. فإذا الجالسون الذين لا يعرفون إلا اسم الإنجليز، فقد امتلأت أسماعهم بهذا الاسم فقال أحد الجالسين معلوم يوم يعلن الإنجليز الحرب على دولة، كل الدول تتعازم وتعلن الحرب مع الإنجليز على الدول التي يحاربها الإنجليز.

فالأمر عند هذا العامي أنه لا يعرف إلا الإنجليز فقط فيرى أن بريطانيا غير إنجلترا غير الإنجليز.

فضحك الشاب وشرح لهم أن كل هؤلاء هم الإنجليز.

هذه المقدمة تجعلني أطرح سؤالاً، هل يأخذ مجرى الحرب بين بريطانيا والأرجنتين من أجل فوكلاند كسبب لأن تقوم حرب عامة ثالثة؟ ذلك ليس ببعيد، وإن كان السلاح المدمر يمنع وقوعها. فإن الحرب العالمية الأولى قامت بسبب بسيط (قتل ولي عهد النمسا) تسترت وراءه شهوات الاستعمار والتوسع. والحرب الثانية قامت بسبب بسيط أيضاً هو غزو هتلر لدانزنج (بولندا) وليست الحرب من أجل فوكلاند إلا لسبب بسيط أيضاً، تتعدد به أسباب أخطر، كدخول دول أمريكا اللاتينية، تناصر دولة لاتينية، تحمي بحراً أقرب أن يكون لاتينياً من أن يكون سكسونياً. وإذا ما تورطت الولايات المتحدة بإرسال المدد، فإن الاتحاد السوفياتي لا يجد ما يمنعه من زيادة المدد للأرجنتين. فإن الأرجنتين لم تغز فوكلاند إلا وقد أعدت العدة، صواريخ وطائرات، تجعل الأرمادا الإنجليزية التي أصبحت سطحاً على وجه البحر، هدفاً لطائراتها وصواريخها. كل هذا إذا لم يحتكم إلى العقل بل وإلى الخوف والحذر سيتورط العالم في حرب، أول ما تبدأ بالأسلحة التقليدية، ولن تنتهي إلا بالأسلحة النووية المدمر.

فهل كان البدوي العامي حين أعطى الإنجليز هذه التحية، كل الدول تعلن مناصرتها كما عرف، فإنه لم يهدر القيمة لأمريكا اللاتينية. وهكذا كما قلنا من قبل كم صنعت في أوروبا من وسائل المدنية ما عمر الدنيا وأطرافها بوسائل من الترف، وتقريب المواصلات، فإنها وفي الوقت نفسه كثيراً ما صنعت ما دمر ما كان عامراً، أبنية أخرى في أراضٍ يلحقها الدمار بعد أن أشرفت على العمار بسبب السياسة الخاطئة التي ما زالت تتلمظ على الاستعمار وتعين الطغيان، كأنما أوروبا التي إذا ما عاشت السلام أثمرت، وإذا ما تعايشت مع الحرب دمرت.

فوكلاند

- هزيمة .. لا أدري كيف تتغطرس الأرجنتين .. حتى لتضع بريطانيا في موقف حرج .. تفاجئ الدنيا كلها .. تحتل أرضاً تحت سلطان بريطانيا .. مع أنه كان يمكن أن يتم جلاء بريطانيا عنها بالمفاوضات .. وكأنما الأرجنتين قد ألغت هيئة الأمم .. ومجلس الأمن .. حينما غزت هذه الجزر .. مع أن الزمن قد امتلأ بالمكدرات .. فإن هيئة بريطانيا .. بل وهيبة أوروبا كلها لا تستطيع أن تتحمل هذا الهوان .. لكن الأيام دول .. فهل يتصور أن دولة كالأرجنتين .. تخوض البحر بأسطولها لا تخاف الأسطول البريطاني .. الذي أخاف الدنيا كلها .. حين كانت الإمبراطورية .. كما قال شوقي :

على الممالك ما كرسيه الماء وما دعامته بالخلق شماء
ملك يطاول ملك الشمس عزته في الشرق باذخة .. في الغرب قعساء

كان ذلك .. يوم كانت الكلمة «إن هذا لا يرضي بريطانيا العظمى» ترتجف منها الأوصال .. حينما يسمعها رئيس حكومة أراد أن يقيم بناء لبلده .. أو نظاماً لبلده .. ترتجف أوصاله .. فيلغي كل قرار .. خضوعاً لإرضاء بريطانيا .. وهكذا الدنيا تنقلب أيامها .. حتى إن الأرجنتين لا تسأل عن غضب بريطانيا .. فلقد أصبح الخوف من الحرب يمتلك الدولة ذات

القوة المدمرة لتستريح دولة صغرى.. أن تنال من هيبة الدولة الأقوى..
وليس تعطيل القوة هو الذي يشجع العابثين بالأمن.. وإنما هو التعطيل
الذي أصاب هيبة الأمن وسلطان مجلس الأمن.. وأخلاق الميثاق!! إن
سقوط الهيبة لهيئة الأمم.. ومجلس الأمن لم تفعله دولة صغرى.. وإنما
إسرائيل هي التي تفعل ذلك حين أصبح سلطان الولايات المتحدة في
يدها.. وسلطان الاتحاد السوفياتي ليس عليها.. فإمبراطورية «الكرملين»
وإمبراطورية «البيت الأبيض» عليهما تبعات الهوان.. الذي يصب على هيئة
الأمم.

تحية

- ولا أجد تحية، أتقدم بها إلى السيدة رئيسة وزراء الهند، «أنديرا غاندي» إلا أن أكتب كلمة على صورتين.. فالصورة الأولى هي أنك أيتها الرئيسة، ابنة أبيك، زميل «غاندي» في الكفاح حتى أعطاهم الكفاح، استقلال الهند، وإن تطورت الظروف فانشطرت الأرض إلى شطرين، دولة «مسلمة» في باكستان، ودولة «علمانية» في الهند.

فاحتضنت هذه الدولة في الهند، فكرة «الطوبي» المثالية، لا حاكم ولا محكوم، كما شافهني بذلك، المفكر العظيم المسلم، صديق «نهر» وصديق «محمد علي جناح» الدكتور ذاكر حسين، الذي حققت العلمانية الهندية أن كان رئيساً للجمهورية.

إن صداقة «ذاكر حسين» لـ «نهر» و «جناح» مكنته من أن يجمعهما في يوم أبيض، يوم افتتح الدكتور «ذاكر» الجامعة المليية، «مليية» مسلمة في بلد «علماني».

إن أباك «جواهر لال نهرو» ولد في فمه ملعقة من ذهب، يوم كان في حجر أبيه «موتالال» وحين احتضن ثورة الهند فعاش رئيساً للوزراء، لم تكن في فمه إلا ملعقة من الخشب، فورثت مجد أبيك.. لكن هذه الوراثة، حملتك مسؤولية عظيمة. هي إصلاح الداخل في الهند.

أما الصورة الثانية، فنحن في هذه الأرض، كياننا الكبير، عرفنا معنى العطاء منا، للعنوا كهلها هداية وحضارة، ولغة، فعلمنا كل ذلك، أن ن شكر الذين لم ي جحدوا هذا العطاء، و «الهند المسلمة» يوم كانت الأمبراطورية، كانت تصنع الوفاء لهذا البلد، عوناً للمدارس، وعوناً لمجاري الماء، «زبيدة» و«العين الزرقاء» وترحباً بكل زائر من هذا البلد لهم، فقد وقبل أن يتكوّن هذا الكيان الكبير مسّنا بعض الشطف، فإذا عالمنا العربي مشغول عنا، أو قاطع لكل حق لنا، لكن الهند المسلمة، أغاثت وأجلهم غوثاً «الميمن» أهل «كجرات» وليس أقلهم الآخرون. . نذكر كل ذلك لنؤدي التحية، مع كبير من الأمل، أن تكون الهند، شرقية محضة، يعني روحانية العقيدة، لا تجرفها العلمانية أو «الهندوكية» عن الموقف الواحد مع «الباكستان» مع «البنغال» مع «الأفغان» مع «العرب» . .

ويرحم الله شوقي إذ يقول:

نصحت ونحن مختلفون داراً ولكن كلنا في الهم شرق

ولعلّ السيدة «أنديرا» تذكر أن «ذاكر حسين» وأبا الكلام «أزاد»، وحسين أحمد، وعبيد الله السندي، وسليمان الندوي، وكفاية الله، كانوا يحملون المشعل في مواكبة الكفاح لنيل الاستقلال. . حظهم في ذلك حظ «غاندي» و «نهر»!!

سر العبقرية

- وكنا أربعة نقيّل في بيتنا في مكة وفي «أجياد»، محمد عمر توفيق، عزيز ضياء.. ياسين طه، ومحمد زيدان..

وأمسك الأستاذ محمد عمر توفيق بالكتاب الكبير «فتح الباري» الشرح لصحيح البخاري للإمام ابن حجر يقرأ موضوعاً أحب أن يتأكد منه كنت قد قرأته في «المغني» و «الشرح الكبير» للإمام ابن قدامة.. وكان الأستاذ عزيز ضياء يقرأ في مجلة.. أسمع لمحمد عمر توفيق ما يقرأ وبعض أذني مصغية لما سيقوله الأستاذ عزيز ضياء عما قرأ، فإذا الأستاذ عزيز يضع المجلة على المكتب ويقول: اسمعوا ماذا قال «أميرسون» الكاتب الإنكليزي.. قال: «ما سر العبقرية أو ما هي العبقرية؟ إن سر العبقرية عند «الألمان» صناعة الاختراع وقوة الصناعة.. «فرنسا» تخرع و «ألمانيا» تصنع فسر العبقرية عند الألمان والفرنسيين هو الذكاء، لكن نحن البريطانيين لسنا مثلهم في ذلك قد نتأخر عنهم في هذا الميدان قليلاً لكننا قبل كل ذلك أمة ناجحة.. إذ فسر عبقرتنا نحن الإنكليز، هو النجاح فنحن أمة ناجحة، أعجبنا هذه الكلمة في زخرفها الظاهر، لكن هذا التعريف لا يعطي العبقرية حقها.. فالعبقرية هي النجاح لصاحبها من ذاتها قد تعطي النجاح للذين يستثمرون عطاء العبقرية.. عطاء العبقرية.. أما النجاح فعوامله العطاء له، تأتي بها ظروف

من عمل السياسة أو عمل الحرب، ذلك كان النجاح للإنكليز. . ولقد تذكرت هذه الحكاية حين أذاعت رئيسة مجلس الوزراء البريطاني إذ قالت: إن بريطانيا لم تتعود أن تخضع لديكتاتور. . وتعني أنها لن تخضع لديكتاتور. . وتعني أنها لن تخضع لديكتاتور الأرجنتين ولكن أود أن أقول إن الأوضاع تغيرت والظروف لم تعد مواتية لأن تحقق بريطانيا الانتصار لهذا المبدأ لأن عصر «لويس الخامس عشر» . . و«دوق مالبرو» قد مضى عصر «نابليون» «والدوق ولنجتون» وكما انتهى عصر «هتلر» و«تشرشل» .

وليست بريطانيا اليوم تملك القوتين، قوة الهيبة، وقوة السياسة التي لن تعطي إرادة الانتصار الفوز بالانتصار، لأن ظروفنا اليوم محكومة بغطرسة الاتحاد السوفياتي على كل الأوضاع وفي كل الظروف، بينما الولايات المتحدة تملك هذه القوة، التي تملي على الأوضاع والظروف، ألا تكون إلا بها. . لكنها أمام هذا الوضع بين الأرجنتين وبريطانيا قد أصبح النجاح الذي تريده الولايات المتحدة محجوراً عليه، فهي لا تستطيع إلا أن تكون مع بريطانيا، كما أنها لا تستطيع إلا أن تكون مع الأرجنتين فالموقف الواحد مع الاتحاد السوفياتي يأخذ به النجاح والموقف الذي انشطر شطرين وقيد الولايات المتحدة قد قلل من فرصة النجاح لها. . فهذه الأوضاع المتغيرة وبكل الظروف لا تعطي بريطانيا أن تنتصر على «الديكتاتور» كما انتصرت من قبل.

الأرمادا

- وسلكت الأرمادا البريطانية طريقها تتهدى في المحيط الأطلسي،
كأنما هذا المحيط البحيرة لحلف الأطلسي قد شطرته الأرجنتين إلى
شطرين، شطر لاتيني وشطر سكسوني..

فإذا التاريخ يعيد نفسه على صورة درامية، وإن لم يرق بعد الممثلون
على خشبة المسرح، فلم يتقابل الفريقان، فهل تنتهي هذه الدراما إلى مأساة
حين تشتعل الحرب، لا تترك أمريكا اللاتينية أو الكاثوليكية إخواناً من
أبنائهم يغزوهم الهجنوت البروتستانت. وتلفح النار أمريكا الشمالية وأغلبها
حليف لبريطانيا وأعضاء في حلف الأطلسي وأكثريه بروتستانتية. وزعامة في
الولايات المتحدة وفي كندا سكسونية أيضاً.

وهكذا تشعبت الأسباب، كأنما الموقف أثار الأحقاد، أو كأنما الموقف
في أمريكا اللاتينية يتلمظ على الانتقام من الأرمادا البريطانية. قد لا
يستطيعون إغراق الأسطول البريطاني، ولكنهم وبالتأكيد يستطيعون أن يغرقوا
سمعة بريطانيا لو تحطمت ناقلة طائرات يبتلعها المحيط. فالمفارقة هي التي
تضع الأرمادا البريطانية لو غرقت سفينة واحدة في موضع الهزيمة بينما أن
الأسطول اللاتيني لو غرق أكثره لا يعطي صورة من صور الهزيمة التي
لحقت بالأرماد اللاتينية الأسبانية. إنه موقف صعب أرغم بريطانيا ألا

تمارس ضبط النفس، وهي التي أشاعت هذه النصيحة، كما هي التي لم تضع عليها فرصة النصر عندما كانت تعرف القيمة لضبط النفس.. والأنكى من ذلك والأدهى أن أصدقاء بريطانيا من اليهود الذين يسيطرون على وسائل الإعلام في الولايات المتحدة قد وضعوا الدنيا كلها اليوم في نطاق الخوف، بينما هم يتمتعون بحالة من الفرح، يتمنون أن يتسع نطاق الحرب. فقد أذاعوا في التلفاز الأمريكي أن أمريكا ترسل المدد تلو المدد للأرمادا البريطانية، عوناً واكتشافاً لوسائل الاستعداد للأسطول الأرجنتيني..

وفي الوقت نفسه أعلنوا أن الاتحاد السوفياتي يبذل العون كل العون للأرجنتين يمد الأرجنتين بكل التحركات للأرمادا البريطانية ويعني ذلك أن الولايات المتحدة وقعت في الحرج أما أن تخسر بريطانيا فيصيب الشلل حلف الأطلسي، وأما أن تخسر أمريكا اللاتينية كلها لتصبح مزرعة للاتحاد السوفياتي لتكون كوبا أكبر حجماً وأشد خطراً لكنني أزعّم أن هذه المخافة تحيط ببريطانيا وأمريكا، تعطي المفاوضات فرصة النجاح، فالكره للأمبراطوريات يخضعها، يطيح بالغطسة ليثمر ضبط النفس.

ألم يكن ذلك طغياناً؟!

- رئيسة وزراء بريطانيا السيدة مرغريت تاتشر في آخر الكلمات التي قالتها في البرلمان عن المفاوضات والحرب من أجل فولكلاند بينها وبين الأرجنتين هذه العبارة: «لا يمكن لبريطانيا أن تسمح للعدوان أن يجني ثمرات عدوانه..» إن هذه العبارة قد أكون ترجمتها عن الترجمة العربية وبهذه الصورة، ولا أحسبني قد تخطيت معناها.

إن بريطانيا لا تسمح للعدوان أن ينال من كرامتها وأن يحتل أرضاً بسطت سلطانها عليها، فهذا من حقها ولكن السؤال أطرحه، كيف سمحت بريطانيا بعدوانها هي أن ينال الثمرات، ليس بالاستعمار، وقد انتهى، وإنما وعد بلفور؟ ألم يكن إعطاء هذا الوعد طغياناً؟ وكيف سمحت بريطانيا أن تتحمل عدوان اليهود في فلسطين عليها جلدًا لضباط جيشها وقتلاً لوزيرها (لورد موين) وقتلاً للوسيط الدولي (برنادوت)؟ وكيف سمحت بريطانيا بأن تصب العدوان على مصر من أجل تأمين القناة، تستعين بفرنسا وتعين إسرائيل؟ وكيف سمحت بريطانيا بالعدوان على مناطق أخرى في جزيرة العرب؟ إن الإجابة عن كل ذلك جاءت في كلمة لجواهر نهرو وفي رسائله لابنته أنديرا غاندي، قال نهرو: «إن الشعب البريطاني يتمتع بكل الحرية والديمقراطية، ولكن ذلك أعني الحرية والديمقراطية لا تمر عبر قناة

السويس»، كأن قناة السويس الحد الفاصل بين الرفض للعدوان وبين التعامل مع الشعوب في آسيا وأفريقيا بالعدوان من هنا كان تأميم القناة فرصة صفق لها نهرو وكرشنامينون، لأن استقلال الهند كان الصدمة الأولى أسقطت الطغيان ونزعت الجوهرة التي يسطع شعاعها تاجاً على الإمبراطورية فجاء تأميم القناة في رأي نهرو وعواطفه وحماسة كرشنامينون ضربة أخرى أذلت الطغيان.

إن رئيسة مجلس الوزراء في بريطانيا لا تلام حينما ترفض الطغيان عليها. . ونريد منها وهي الآن تذوق المرارة أن تتخفف من عقدة الذنب «وعد بلفور» فتكون هي الرائدة والقائدة لحكومات السوق المشتركة تحزم أمرهم يمارسون الضغط على طغيان إسرائيل فإنهم في مكان من القوة إذا ما فرضوا الموقف الحازم على الولايات المتحدة أن يردوا طغيان إسرائيل. إن أوروبا كلها، وبريطانيا في المقدمة مسؤولة أمام إنسانية الإنسان وتاريخ الإنسان عما فعلته إسرائيل.

ومرة ثانية، أليس في عقد هؤلاء المندوبين عن مجلس البرلمان الأوروبي في القدس طغياناً على العرب على مجلس الأمن وكل ذلك في سبيل أن يرضى اليهود لو تحركت أوروبا قليلاً وبريطانيا أكثر توقظ ضمير الإنسان لأمكنهم أن ينقذوا أنفسهم من خطر ماثل يدمر مصالحهم في الشرق الأدنى تخوي مصانعهم حتى يجدوا البديل ومتى سيجدون البديل، إن أزمة فولكلاند دليل على الجهل بما سيقع، فإن الاتحاد السوفياتي كان يعلم عن هذا كله قبل أن تعرفه الولايات المتحدة وقبل أن تعلم به بريطانيا فالأرجنتين ما أقدمت على ذلك إلا ومعها صاروخ أغرق المدمرة البريطانية.

حقوق الإنسان

- وقامت الدنيا وقعدت في يوم جعلوه يوم حقوق الإنسان، فإذا السنة أمريكية وأوروبية تتباكى بدموع الكلام على الإنسان الذي أهدر حقه في بولندا، فأعدوا البرامج الإذاعية وسخروا التلفاز وامتألت الصحف تعلن الحرب على الذين أهدروا حق الإنسان في بولندا وغيرها.

لا أدري كيف يظنون أن هذا ينطلي على الإنسان، أن الذين هتفوا معهم بتلقائية الغوغاء سيستفيقون في لحظة ثانية يحدثون أنفسهم بأن هذا تزيف، فأين منهم حق الإنسان في أفغانستان؟ وأين منهم حق الإنسان في فيتنام، وفي جرينادا؟ ثم أين منهم حق الإنسان في جنوب أفريقيا وناميبيا وأنجولا؟

لقد أهملوا ذلك!

أما حق الإنسان الفلسطيني فقد تعمدوا أن يهدروه، تسلطوا أن يبيحوه، ففي اللحظة والوقت الذي تباكوا على حقوق الإنسان في بولندا أبكوا أما قتلوا ابنتها عائشة، طفلة إنسانة، لكنها فلسطينية كان حلالاً لليهود أن يقتلونها برصاصة أمريكية، وبابتسامة إنجليزية، وبإغماضة روسية، وبتصفيق اليهودية العالمية.

إن قتل الطفلة عائشة عند اليهود هو قتل لأم يخشون أن تلد أبطالاً،

لهذا يفرحون بقتل عائشة، إنها البرناوية فاطمة، إنها جميلة بوحريد، إنها من أولئك البنات اللاتي وضعوا لهن السموم ترهق الأعصاب.

حقوق الإنسان كذبة التاريخ في هذا العصر حرام أن يُهدر حق الإنسان في بولندا، وحلال أن تُقتل عائشة، وما عائشة إلا كل أم فلسطينية.. كل بنت فلسطينية.. بل كل بنت عربية.

لقد قلت الحيلة فلا حول ولا قوة إلا بالله، فاللهم وأنت القاهر فوق عبادك أن تسلط على هؤلاء الظالمين من عظيم قدرتك زلزالاً وأعصاراً ودمدمة وحجارة من سجيل.

وحدة الهدف أم وحدة الأشكال

- في القرية الجميلة .. أو هي الضاحية على بحيرة .. كونستانس .. في شمال سويسرا . وفي فندق «ميتربول» دعونا إلى مائدة العشاء رجلاً سويسرياً وجرى الحديث .. وهولن يكون إلا بمشاعر الناس اليوم .. أو عن مشاعرهم فأصبحت الحياة كرباً في كل مكان ..

قلت له : إذا قامت جماعة تدافع عن وطنها تسمونهم الإرهابيين .. بينما الدولتان الأعظم وامتلاك الدول النووية خمسين ألف قنبلة ذرية .. والأخبار تتواتر عن أسلحة جديدة متطورة هي الإرهاب .. أو هما الدولتان الأعظم .. يصنعان الإرهاب كتجار أسلحة !! وتحقيقاً لمناطق النفوذ ..

فالإرهاب الصحيح صنعته أوروبا وأمريكا في حربين عامتين ، ويخشى الإنسان بكل الخوف أن تكون الحرب الثالثة ..

ثم قالت له : انظر إلى أوروبا كلها فهم مسيحيون ديناً لكنهم أعجزوا المسيحية أن تجمع كلمتهم .. فكل الحروب التي كانت بينهم إقليمية وطنية .. يتطلبون لحساب الوطن والأقليم التوسع والاستعمار .. فلم يجمعهم الدين ولكن أنتم في سويسرا لم يكن وازع الدين هو صانع الاتحاد شعوب مختلفة الجنسيات والعنصريات «جرمن» «فرنسيين» «إيطاليين» هم لو بقوا في أرضهم الأولى .. لكانوا طعام الحرب .. ولكن الوطنية والأقليمية

في سويسرا قد صنعت الاتحاد ووحدت هذه الشعوب في دولة واحدة..
فلم يقل الحاكم في «بيرن» رئيس الجمهورية.. لمن يتكلم الفرنسية لا
تتكلمها.. فهم في جنيف يتكلمون اللغة الفرنسية.. وفي بيرن وشمالها
يتكلمون الألمانية.. ولم يقل لمن يتكلم الإيطالية لا تتكلم الإيطالية..

فالوطنية والإقليمية التي أشعلت الحرب في أوروبا هي التي أنارت
السلام في سويسرا دولة محايدة.. مؤتمرات السلام تعقد فيها..

تلك عجيبة فات على الاتحاديين في تركيا أن يتخذوا من سويسرا
نموذجاً فلا يجتمعون على إنسان الخلافة العثمانية أن يكون طورانياً يتكلم
اللغة التركية.. فكان أول مسمار في نعش الإمبراطورية العثمانية هي الأمر
بالتتريك كل المدارس لا تعلم طلابها إلا بالتركية..

وقال السويسري: نحن كما ذكرت.. غير أن الماضي كان صعباً..
بذلت فيه الدماء حتى تم هذا الانتماء..

وعندها تذكرت قول المتنبي:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

جلد البريطانيين ويجالد الأمريكان

- وهكذا تعودت الأمبراطوريات أن تبتلع الإهانة تلو الإهانة من مناحيم بيجن، فقد سبق له وهو يتمتع بوعد بلفور ويعيش في ظلال الانتداب البريطاني أن جلد الضباط البريطانيين وصلب بعضهم على الأشجار فلم تحرك بريطانيا العظمى قوتها تنتقم من الذي كال لها الإهانة كما فعلت يوم اغتالوا السردار في مصر، هددت بالأسطول وفرضت الغرامات وأجلت مصر عن السودان فأبرزت كل عضلات القوة لأن بريطانياً قد قتل. أما أن يقتل مندوب الأمم المتحدة «برنادوت» يقتله اليهود في فلسطين فلا شيء يهم بريطانيا ولا شيء تتحرك من أجله حامية الميثاق وحقوق الإنسان الولايات المتحدة.

ويضحك الاتحاد السوفياتي من أن تكال الإهانة للأمبراطوريات واليوم بعد أن جرب جلد البريطانيين وقتل لورد «موين» قتله يهوديان في مصر ليكرروا مأساة السردار. اليوم بدأ يخوض التجربة الثانية يجالد جنود مشاة البحرية الأمريكان، يحتك بهم الجيش الإسرائيلي يرفع في وجههم السلاح لا يسأل عن الوفاء لهؤلاء الجنود الأمريكيين الذين جاءوا يتسترون على احتلاله للبنان والذين ينتمون إلى دولة.. إلى شعب يطعم إسرائيل الخبز ويطعم العرب حر السلاح في يد اليهود من عطاء شعب هؤلاء الجنود.

إن مناحيم بيجن يفعل مع الجندي الأمريكي اليوم في لبنان كما فعل مع الجندي البريطاني في فلسطين، فهل هو سفاح مجنون أم هو سياسي ماهر يتظاهر بالقوة حتى لا يسأل عن غضب الأمريكان؟

لا.. لا أظن أن هناك قوة تستطيع أن تكيل الإهانة للأمريكان، فليست هي قوة إسرائيل، وليست هي براعة مناحيم بيجن، كما أنها ليست هزيمة البريطانيين من قبل، ولا هي تحمل الولايات المتحدة الإهانة من قوة مناحيم بيجن، وإنما هي سياسة بريطانيا من قبل أغمضت عينها عن أفاعيل مناحيم بيجن لتعطيه قوة الإرهاب على العرب في فلسطين. وإنما هي مرة أخرى سياسة الولايات المتحدة تعطي هذه القوة لمناحيم بيجن ولو على حساب إهانتها.. على حساب تحدي قوة جنودها، لأنها كبريطانيا من قبل تريد أن يمسك مناحيم بيجن بالإرهاب يصبه على العرب مادام أنه لاعب بغضب الولايات المتحدة. وإلا فكيف تطيق الولايات المتحدة صبراً على مجالدة جنودها حتى شكّا قائدها في لبنان مر الشكوى من الجيش الإسرائيلي يتحدى الجيش الأمريكي، فقد شكّا إلى «البنتاغون» مستودع السلاح من كل نوع يوهب لإسرائيل ليقتل العرب وليبقى في لبنان وليتحدي السلام. فأنا لا أتصور أن مناحيم بيجن يملك قوة عالمية يكيل بها الإهانة للرأي العام العالمي وهيئة الأمم ومجلس الأمن وحتى الولايات المتحدة.

ليست هي قوة اليهود وإنما هي قوة الولايات المتحدة في يد اليهود. ولكن عطاء الإدارة الأمريكية لا بد وأن ينعكس على صورة من رفض الشعب الأمريكي دافع الضريبة يرفض ما يسمى العون حين يعرف أنها إتاوات فرضها اليهود على الشعب الأمريكي!

وأطرح سؤالاً.. لو أن الجيش السوري احتك بالجيش الأمريكي كما

يفعل الجيش الإسرائيلي.. هل تصبر الولايات المتحدة هذا الصبر المريب؟!

لا، إنها ستفعل شيئاً ما ضد الجيش السوري وهي في سبيله الآن من إصرارها على اتهام سوريا بأنها قد وضعت صواريخ دفاع لتشن حرباً على الربيب المدلل. اليهودي في إسرائيل..

اللهم لا شماتة

- ولا شماتة، خصوصاً على بريطانيا، التي كانت عظمى، فالشماتة لا تليق، خصوصاً من إنسان عربي، كان يتمنى لها النصر، على «النازية» لأن الازدواجية تقمصته، فهو لا ينسى ما فعل الاستعمار البريطاني، ويستحيل أن ينسى «وعد بلفور».

ولكن هذا الإنسان العربي، بطغيان الثقافة العربية، والخوف من النازية، قد تناسى كل ما حفظه من تاريخ بريطانيا، نحو العرب، هو نصير لبريطانيا. لكنه اليوم وقد سمع خبراً ومن إذاعة «لندن» عن الأستاذة الباحثة، الأنسة التي تحمل لقب «سكوت» اقترفت ذنباً كبيراً، لأنها أستاذة في جامعة بيرزيت أو لأنها أعلنت غضبها، من اجل إغلاق هذه الجامعة.

إنها فتاة عمرها ٢٥ عاماً. بريطانية الجنسية، باسمها - كواحدة من الشعب البريطاني - أعطت بريطانيا «وعد بلفور» لإسرائيل، وسمحت للهجرة اليهودية، يكثر بها سواد اليهود في فلسطين، تمهيداً لأن تكون دولة إسرائيل، حين تخلت عن الانتداب..

كل ذلك صنعه بريطانيا من أجل اليهود، ولكن «مناحيم بيغن» قد أعاد الكرة مرة أخرى، لا يسأل عن غضب بريطانيا، فيوم أن كانت عظمى، جلد ضباطها، صلبهم على الأشجار، فجرمه القضاء البريطاني، حكم عليه بالإعدام.

وتناست بريطانيا هذه الجرائم، ورمت بحكم القضاء عرض الحائط، فاستقبلت «مناحيم بيجن» رئيس وزراء دولة. أما في هذه المرة الثانية، وقد وصل إلى ما وصل إليه، من العفو البريطاني، والعون البريطاني، فلم يعد يسأل عن أي غضب يسجن الفتاة البريطانية، تجلدها المجندة، يحتج القنصل البريطاني، فيرفض الاحتجاج.

إنها إهانة، لكن بريطانيا من أجل اليهود ستمتصها، لأنها ما زالت تقتص من العرب عملياً، حينما أجازت لنفسها أن يكون لها قنصل في بيت المقدس.

لا شماتة، وإنما التاريخ وفي هذه الآونة. يحرص على تسجيل الرزايا ويستنكف أن يذكر المزايا.

الكذب

- وحفظنا من قبل هذه الحكمة.. «تستطيع أن تكذب على كل الناس بعض الوقت، وتستطيع أن تكذب على بعض الناس كل الوقت» ولكنك لن تستطيع أن تكذب على كل الناس كل الوقت.

وما كنا نعرف من قالها حتى سمعت أنها منسوبة للرئيس الأمريكي «أبراهام لنكولن».

فهذه الحكمة لا يتعظ بها بعض الناس، فما زالوا يكذبون ويكذبون، وهم لا يخدعون حين يصدقهم بعض الذين يتبعونهم، ويستمرون في ذلك كذبة بعد كذبة، قولاً أو عملاً. حتى إذا افتضحوا عضوا أصابع الندم، لكن على صورة أخرى نرى هؤلاء الكاذبين قد وجدوا من يصدقهم، بل وجدوا من يصادقهم، اغتراراً بأن هذا الكذاب قد عرفنا كذبه، فلماذا نحذره ولماذا نحذر منه مع أن الحزم يوجب على الذين قد يتعاملون مع هذا الكذاب أن يحذروا منه؟

وللكذب قيمة سياسية يمارسها الساسة، كما أن له تأثيراً اجتماعياً، فاليهود القوالون للكذب قد تعلم منهم وزير الدعاية الألماني «جلوبلز»، فقد قال: «أكذب وأكذب يصدقك الناس».

ولم يكن هذا المنطق صواباً على عمومته، وإنما يجيء تصديق ناس بما تفرضه القوة الطاغية التي هي في يد اليهود أو التي هي في يد «جوبلز» حينذاك.

ولعلي أقول للكذاب: ذق عاقبة الكذب، فذلك ما صنعت به نفسك.

تفريغ الأرض

- حينما ينظر أي معلق.. يدقق النظر فلا يجد إلا أن الأرض التي وضع الاتحاد السوفياتي فيها قدمه معيناً كفيتنام.. محتلاً كالأفغان.. حليفاً لمنجستو لما يصنع في إريتريا فلا يجد إلا أن السياسة المرسومة في بسط سلطانه على الأرض والإنسان إلا أن تفرغ الأرض من إنسانها.

إن طغيان الولايات المتحدة على فيتنام اجتمع الإنسان الفيتنامي كله يقاوم الحرب بالحرب حتى انتصر الفيتنامي وحتى أحدث الهزة في شعب الولايات المتحدة.. لكن الاتحاد السوفياتي وقد امتلأت يده بالمتنزهين بالشيوعية قد أخذ يطرد الذين لم يسقطوا في هوة المذهب.. أفرغ الأرض من الإنسان كما أفرغ جيب الفيتنامي من الذهب.. يبيع لأصدقائه السلاح بالذهب المسلوب من الهاريين..

وقد احتل الأفغان لم يحتل الأرض كلها وإنما احتل أعوانه، فإذا هو لا يستعمل القوة التي يملكها.. وإنما فرض بسياسته أن يطول أمد الحرب في الأفغان، فالمجاهدون يحاربون ولكن كثيراً من الشعب الأفغاني قد أفرغ الأرض. إنه يريد أن يحتل الأرض بدون ساكن إلا من سكن لطاعته وقد فعل ذلك في التركستان وهو يفعل الآن مع الشعب الأريتري.. كما أن اليهود إسرائيل علموا الروس أو تعلموا منهم سياسة تفريغ الأرض.. ما

أشد ما يضطهدون الشعب الفلسطيني للكثير الهاربين اللاجئين . . بل إنهم يمهدون الطريق بالإغراء . . ولعلّ بولندا سائرة في هذا الطريق . . إفراغ الأرض من إنسانها . . ولعلّ من يصادقون الاتحاد السوفياتي هنا . . أو هناك قد بدأوا يمارسون الضغط حتى تفرغ الأرض من ساكنها .

إن هذه السياسة التي طغت على الإنسان ليفر من أرضه هي أقسى أنواع الاستعمار . . ثم نجد بعض أنصار الاتحاد السوفياتي يضعونه في قمة الدول المحبة للسلام ويذيعون أن الاتحاد السوفياتي ليس إمبريالية وهكذا أصبحت الدنيا لا تتسع إلا للطغاة وللهابسين . . فالهاربون وإن اتسع لهم سبيل الهرب فإن الدنيا كلها تضيق بهم لأن ما اتسع من الأرض ما زال خاضعاً لنفوذ الإمبراطوريتين .

الغضب لا يفيد!

- وكم من مرة رغبت كما رغب الآكثرون ألا نأخذ الأمور بالغضب. نغضب أياماً. . نمارس بالغضب رد الفعل، بينما كل الفعل مع إسرائيل، أو منها. ضمت القدس فغضبنا ولا شيء بعد ذلك، وضمت الجولان فغضب الآكثرون وتحول الأقلون إلى ناحية أخرى، لا تصنع شيئاً للجولان وإنما هي «تزيد الطين بلة» تبادلت زائير مع إسرائيل التمثيل السياسي وتبعتها كوستاريكا مع أن ذلك لا يضعف موقف العرب إلا إذا مارسوا الغضب ويعطي القوة لإسرائيل لأنها قد أعلنت بذلك أنها تستطيع أن تفعل، ترد الذين ناصروا العرب عليها ليكونوا في موضع الصديق لها كما هم في موضع الخصم للعرب، كأنما كل ما تريده إسرائيل هو إشعال الغضب والتكثير من الذين نغضب عليهم، مع أن الواقع العربي هو الذي يدعو إلى الغضب أكثر. إن ما يصنعه العرب بأنفسهم إعطاء القوة لإسرائيل. فماذا يهم من كوستاريكا؟ لن تستفيد منها إسرائيل أي فائدة إلا إعلان خصومة العرب لها. إن كوستاريكا قد فعلت من قبل كدولة لا حضارة لها مثل تلك الدول القليلة، أكثريتها حديثة عهد بكيان، لا حضارة لها، ولا قوة لها، إلا قوة الصوت المستغل في هيئة الأمم. فالدول التي صوتت مع إسرائيل تكون منها دولة لم تقاطعها، بعضها في نطاق الصداقة، فلماذا الغضب من كوستاريكا؟ وستتبع كوستاريكا دول أخرى تعيد سفارتها إلى القدس..

سيغضبنا ذلك طبعاً، ولكن احتلال إسرائيل لن يرسخه في الأرض وجود السفارات في القدس، وإنما كل الترسخ له من أن إسرائيل تملك المدد من الإمبراطوريتين، إمبراطورية الكرملين بالمهجريين من اليهود أو هم المتهودون، تغسل أدمغتهم، ليكثر سواد إسرائيل ولتكون لها قوة من البشر هي القوة الحقيقية. وهذا هو العون الأقوى، ومع ذلك ما زال بعضنا يرى أن الاتحاد السوفياتي هو المعين للعرب.

والمدد الآخر من الغرب كله سكوت عن جرائمها وسلاح يمكنها من أن تفعل هذه الجرائم.

إن الغضب لا يفيد، ولكنه «أعني المفيد» شيء آخر، لعلّه سيكون بعد.

موقف

- وحين أذيع الخبر عن زيارة وزير خارجية بريطانيا فرانسيس بيم إلى المملكة وإلى بعض دول التعاون في الخليج انتظرت آذان واحتبست ألسنة، فالآذان تريد أن تسمع رد الفعل فعلاً، والألسنة تمنّت أن يكون رد الفعل انفعالاً. ولكن المملكة العربية السعودية أعطت الآذان ما ترغب ومنعت الألسنة أن ترغب. فطلبت من حكومة بريطانيا تأجيل زيارة وزير خارجيتها من قبيل المعاملة بالمثل، رفضت بريطانيا أن تستقبل ممثل منظمة التحرير في اللجنة السباعية تحسب كل الحساب لغضب إسرائيل، تخشى كل الخشية غضب اليهود البريطانيين، تحترم كل الاحترام أن تحذو حذو الولايات المتحدة. أما العرب فأصدقاء قدامى قد يتسامحون أو يتغافلون. ولكن رد الفعل جاء دون رغبة بريطانيا يحفظ للعربي قيمته.

وأريد أن أطرح سؤالاً: فهل أراد فرانسيس بيم بأن يوقت للزيارة هذا التوقيت، ويوافق رفض بريطانيا لتعطيل عمل اللجنة السباعية، على أساس من حسن الظن أو سوء الظن في العرب، لا يفعلون شيئاً يغضب بريطانيا؟ أم أراد أن يدق إسفيناً في العالم العربي في ما لو قبلت المملكة العربية السعودية ومن إليها هذه الزيارة على طريقة «فرق تسد» الأسلوب البريطاني العتيق، يخرج منظمة التحرير، تنطلق ألسنة سبابة تسب الذين قبلوا الزيارة.

كل ذلك لا نستبعده على الأسلوب البريطاني، أم أن الحكومة البريطانية - أعني حكومة المحافظين - أرادت بما فعلت مع اللجنة السباعية أن ترضي اليهود الأعضاء في حزب المحافظين، وأن تستجلب رضا اليهود الأعضاء في حزب العمال، فلعل كل اليهود البريطانيين من كل الأحزاب يضمرون العون لحكومة المحافظين تفوز في الانتخابات.

كل ذلك قد يكون طبقاً لأسلوب بريطانيا العتيق.

ثم إن بريطانيا التي أعطت وعد بلفور يجب أن تسيء الظن بها لأنها حريصة على المحافظة على الوعد إذا كان لليهود، بينما هي لم تكن حريصة على الوفاء بأي وعد للعرب.

كم مزقت الوعود وخالفت العهد.

إن رد الفعل أصابت به المملكة العربية السعودية ومن إليها مقتلاً للسياسة البريطانية، فصعب على العنجهية البريطانية أن ترد أو تؤجل زيارة وزير خارجيتها.

وجاءت زيارة أعضاء صندوق النقد الدولي برئاسة وزير مالية بريطانيا، فخفت من ذلك أن يكون لزيارة وزير مالية بريطانيا ما يشبه الحفاظ على إرضاء بريطانيا، تؤجل زيارة وزير الخارجية وتقبل زيارة وزير المالية. فإذا الخبر من بريطانيا نفسها يسلب هذه الزيارة كل صلة بالحكومة البريطانية ويؤكد أن زيارة وزير ماليتها ما هي إلا لأنه يمثل صندوق النقد الدولي، ولا شأن له بصفته وزير مالية بريطانيا.

إن هذا كله اعتبار وافر القيمة يعطي القيم العربية وزنها الثقيل. . وزن المملكة العربية السعودية ودول الخليج.

سؤال!

- والأحداث التي بدأت تنتشر في الشرق الأوسط تطرح هذا السؤال:
فلو افترضنا أن إيران نفذت تهديدها فحاولت إغلاق مضيق هرمز، فإن
الولايات المتحدة لا بد أن تكون طرفاً في هذا الموضوع حسبما أعلنت
بأنها ستقف ضد إغلاق المضيق. ويعني ذلك أن الولايات المتحدة ستكون
في موقف ضد العدوان الإيراني، وتكون إيران في موقف ضد موقف
الولايات المتحدة.

فإذا تم هذا الوضع.. أين تقف إسرائيل؟!
هل تكون مع الولايات المتحدة ولها بحكم الاتفاق الاستراتيجي،
وبمقتضى ما ينبغي من عون الصديق للصديق؟
فإن الولايات المتحدة هي العون والصديق لإسرائيل.
أم أن إسرائيل تصر على موقفها مع إيران، لتكون لها ضد الولايات
المتحدة؟

أغلب الظن أن إسرائيل لن تكون مع الولايات المتحدة، ولن تنسحب
من عون إيران لتكون على الحياد. وإنما هي وبما طبعت عليه تمد إيران
بأسلحة تمكنها من الدفاع أو الانتصار. هذا السلاح ما هو إلا سلاح
أمريكي.

وبعبارة أخرى لعلّ إسرائيل بدأت بسلطان اليهودية المتغلغل في السياسة الأمريكية تشني الولايات المتحدة عن أي تحرك ضد إيران، فتكسب العون لإيران بصورة حقيقية وتكسب مرة ثانية عدم تورطها في أن لا تكون مع الولايات المتحدة.

إن هذا السؤال كثيراً ما طرح على صور شتى، فمثلاً.. ماذا جرّ موقف إسرائيل في لبنان على الولايات المتحدة؟ وماذا سيجرّه موقف إسرائيل إذا أقر الكونجرس تشريعاً يبيح للولايات المتحدة أن تنقل سفارتها من تل أبيب إلى القدس؟

كل ذلك قد صنعته إسرائيل وتصنع ما هو أكثر. وإن ذلك لي طرح سؤالاً آخر.. هل هي إسرائيل أو اليهودية هي التي تفعل ذلك، أم أن كل ما فعلته إسرائيل ليس من تخطيطها وليس من حاجتها. وإنما هي سياسة قد أمرت بها إسرائيل، لأن من يأمرها يضع التبعة عليها لامتصاص الغضب، ولأن موقف الأمر يعتذر به يحن يضع التبعات على إسرائيل!

حبذا لو أن فكراً جديداً يطرحه رجال يحاولون تبرئة الولايات المتحدة حين تصبح كما هو أمل هؤلاء الرجال أن تكون حارسة السلم صانعة السلام.

أما إن دام هذا الموقف على هذه الصورة فإن الغرب كله سيخسر ليكون الكاسب غير الغرب.

الملونون في بريتوريا

- وخرج البيض الفاخرون بالدم الأزرق والذين تبطروا بالآرية يستعبدون الأفارقة، يذبحون أبناءهم، هم الطارئون على الأرض، يُسَخَّرُون ساكن الأرض ويسخرون من كل إنسان على الأرض، أعني الإنسان الذي ذاق ويلات الاستعمار وعجرفة النازية والصهيونية والشيوعية.

إن هؤلاء البيض في جنوب أفريقيا قد ورثوا عن بريطانيا كل أساليبها التي كانت تمارسها أيام الإمبراطورية، كما ورثوا عنصرية النازية فصادقوا صهيونية اليهود.

ولقد برزوا اليوم فصنعوا دستوراً يعطي البيض والملونين حق التمثيل فيما يزعمون أنه مرآة الديمقراطية، أعني البرلمان، مع أنه لا ديمقراطية مع العنصرية.

وبدأ الرأي العام العالمي يندد بالدستور، وكان مظهر التنديد في الواجهة الدعائية مجلس الأمن، الذي فقد سلطانه يوم تغطرت إسرائيل ترفض كل قراراته ويوم كان حق الفيتو قبلة تفجرت فدمرت مجلس الأمن.. . قبلة الرأي والفرض وغطرسة القوة، ليس لها شظايا وإنما هي كتلة واحدة بكلمة واحدة.

لسان الولايات المتحدة أنكر الدستور، حتى إذا صوتوا للقرار امتنعت

بريطانيا والولايات المتحدة عن التصويت. إن امتناع هذين أقوى تأييد لجنوب أفريقيا من استعمال حق الرفض. يمر القرار وترفضه العنصرية.

كل هذه الضجة أسقطت التبعة على الملونين الآسيويين، مع أنني أعتقد أن هؤلاء الملونين هم في المسؤولية حين فرحوا بهذه المنحة أكثر من العنصريين، لأنهم خذلوا المواطن الأفريقي الذي أشبعهم نصراً وثراء. كأن هؤلاء الملونين أرادوا أن يخرجوا من العذاب ولو على حساب تعذيب الأفارقة وكأنهم مرة أخرى تناسوا أن الزعيم الملون «غاندي» حين مسه الضيم بدأ يصنع الضيم لبريطانيا ولو أن هؤلاء الملونين رفضوا هذه المنحة لكانوا قوة مع الأفارقة ولكن سياسة (فرق تسد) جزء من الوراثة البريطانية.

أحسب أن الرأي العام العالمي كان غوغائياً، يندد بالدستور وما صنع نصراً للأفارقة، وتغافل أن يضع المسؤولية على الملونين الذين لم يرفضوا هذه التسمية، كأنما جنوب أفريقيا بيض وسود وملونون، يصلح أن نطلق عليه شعار القس «جاكسون» أنهم يمثلون «قوس قزح» على صورة لا تشبه هذا القوس أطلقه «جاكسون» على شعب الولايات المتحدة.

جورج بوش

- لا أجدني أنحرف عن صداقة العالم الحر. ويعني ذلك ورغم كل ما يبدو من الولايات المتحدة وهي على قمة العالم الحر، أني ما زلت حريصاً وبلا تستر، أتمنى أن تكون الولايات المتحدة على مستوى الإنصاف لما تدعيه من احترام حقوق الإنسان.

فالازدواجية بالنسبة لحقوق الإنسان واضحة فاضحة هي من حق اليهود، أما العرب فما أشد الظلم عليهم، وما أشد أن أهدرت الولايات المتحدة حقوق الإنسان العربي.

وبالأمس سمعت كلمة من خطاب ألقاه نائب الرئيس الأمريكي جورج بوش في إحدى لجان الكونجرس، فعجبت كيف أصبح اليهود نقطة الاختلاف أو منطلق الإئتلاف بين موسكو وواشنطن.

كلمة بوش تحسب عليه كنائب لرئيس الولايات المتحدة وكعظيم أمريكي كان رأساً على مؤسسة الاستخبارات.

قال: على موسكو إذا أرادت تسوية العلاقات مع واشنطن أن تعامل اليهود معاملة ترضى عنها واشنطن.

إن سوء العلاقة بين موسكو وواشنطن مصدر الخوف والتخويف على الإنسانية جميعاً، مصدر السرف في صنع الأسلحة المدمرة. مصدر الرعب

في أوروبا الغربية، مصدر ما يخطفه الاتحاد السوفياتي من أرض يغزوها وشعب يشرده ويفنيه. تتعرض به الولايات المتحدة إلى هزائم تسقط من هيبتها.

أفيصبح هذا الخلاف لا يزول إلا بحسن المعاملة مع اليهود؟! هذا شيء غير مفهوم. قد يكون من فهم الخطرسة، أو من الوقوع في عدم المبالاة.

إن الشعب الأمريكي له الحق أن لا يهدر هكذا بكلام قاله بوش أو قاله المرشحان الديمقراطيان في الانتخابات الرئاسية.

حين أكتب عن ذلك لا أكتبه من منطلق الانفعال أو التشاؤم، بل أتمنى أن تكثر هذه الكلمات، لعلّ الشعب الأمريكي يصحو لحماية نفسه. فالشعب الأمريكي الآن الذي بنى الدولة العظيمة ينبغي أن يصون نفسه ويحميها من هذه الحماية لليهود والخضوع لكهنوت اليهود. فإن هذا الشعب إذا ما استيقظ يصبح جديراً بأن يضيفي الحماية على أصدقائه الذين يتعرضون الآن وكأنهم الآن في حرب أهلية غير معلنة، يشنها عليهم من وجد في الاتحاد السوفياتي كفاءة الردع.

أوليس من حقي أن أظن أن بوش قال هذه الكلمة وكأنه يرد بها على تصريح عضو اللجنة المركزية السوفياتية الذي أخطر إسرائيل بأن أي تحرك منها ضد سوريا ستجد إسرائيل نفسها مهددة بالعون السوفياتي.

أحسب أن بوش أراد الرد على موسكو من وراء وراء.

الخرز الملون

- وقلنا من قبل قولة التاريخ التي لا تنسى.. إن الوسيلة الأولى من وسائل الاستعمار كانت في الخرق الملونة والخرز الملون المبهرج يهديها القرصان أو المستعمر إلى سكان الجزر يفرحون بها ويرقصون في حلقات حول النار وقودها من الأخشاب.. فإذا القرصان أو المستعمر وإن فاز باحتلال الجزيرة فإنه يتلمظ على هذه الأخشاب التي تحرق جزافاً لأنه يفتقدها في موافد التدفئة حين تهب رياح الشتاء وتتساقط الثلوج على أرض القرصان والمستعمر..

كانت هذه وسيلة قد تطورت بعدها وسائل كثيرة فيما صنعته أوروبا ومن إليها تأخذ الواردات من المستعمرات وتصدر إلى المستعمرات أنواعاً حلت محل الخرز الملون.

واليوم جاءت وسيلة أخرى هي في البيانات المشتركة. وفي مشروع البندقية وفي قرارات مجلس الأمن كل ذلك هو الخرز الملون يتجرعه العرب جرعات مخدرة.

وقد قلنا من قبل.. لو أن رجالاً نصبوا أنفسهم وجمعوا هذه البيانات والقرارات والمشاريع لمأوا صناديق الكتب.. أقول صناديق الكتب فهي وإن بقيت مصندقة في فم التاريخ أو سجل التاريخ فإنها حين تجمع لا

تصلح مرجعاً في المكتبات فما زالت الصندوقة سمتها إن دوّنت وإن لم تدّون وكل بيان مشترك وكل مشروع كمشروع البندقية تأخذه وسائل الإعلام العربية على أنه طريق للحل أعني حل المشكلة الفلسطينية. فاليانان وإن لم تكن كذلك فإن السؤال يطرح..

ماذا أفدنا من هذه اليانان؟

كل الفائدة أنها مخدر وكل الفائدة أنها تنسينا عداوة الذين كانوا السبب في وجود إسرائيل والذين هم السبب في طغيان إسرائيل والذين هم المستفيدون من بقاء إسرائيل.

تركيا والعرب

- وأنا من جيل مجلات «الفتح» و «الزهراء» و «المقتطف» و«الهلال» و «الرسالة» و «الثقافة»، أما الصحافة فقد أصبحت بعد من جيل «السياسة» يومية وأسبوعية، ثم استحوذت عليّ صحيفتنا «الأخبار» «وأخبار اليوم». أما غيرها فاقراً لمأماً وبدون تعمق.

وقد تعلمنا من مجلة «الفتح» لصاحبها السيد محب الدين الخطيب، أول من رأس تحرير جريدة «القبلة» في مكة المكرمة وهو خال أستاذنا علي الطنطاوي، تعلمنا منه أن أمير شعراء العرب أحمد شوقي تركي عِرْقاً، عربي استعراقاً. وأن شاعر التُّرك عبد الحق حامد عربي عِرْقاً، تركي استعراقاً. فهذه المفارقة تدل على تأثير البيئة، تركي أصبح أميراً لشعراء العرب، وعربي أصبح أميراً لشعراء الترك.. فما نقص من أحدهما شيء، وإنما زاد لهما كل شيء.

كما تعلمنا من مجلة «الفتح» أن قائد الإنقلاب العثماني شركسي استعرب عراقياً، وهو محمود شوقي، تتلمذنا على كتابه في اللوغاريتمات وحساب المثلثات في الرياضة العليا. ولم يكن عندنا كتاب عربي في هذا العلم، قرأنا بالتركية، ولكن الأرقام هي العربية لم تستعجم..

ذكر ذلك محب الدين الخطيب ليعطينا ترجمة لحكمت سليمان الثائر

العراقي، فقال: إن حكمت سليمان أخو محمود شوكت، وهما من موالى داود باشا الذي ثار على الدولة العثمانية واستقل بالعراق، وضرب عملة باسمه، كتب عليها «يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض».

ولكن الدولة العثمانية نهدت إليه وأطاحت به ورحلته إلى الحجاز. ولعلّ اسم الداودية في مكة هي باسمه. أما الداودية في المدينة فاليقين أنها كانت باسمه. وتلك الأيام نداولها بين الناس..

الزعيم المقدس!

- الكاتب حين يكرهه الواقع.. تتكالب عليه الأرزاء، من أحداث هو صانعها لنفسه، ويتهم غيره بأنه هو يصنعها عليه.. فإذا ما اشتد به ذلك الكرب يضطر إلى التعبير بوحاً، أو نوحاً.. كأنما هو ينكر الباطل بلسانه، وذلك أضعف الإيمان. غير أنه لا يجد التعبير عن واقعه.. يستمدّه من الفعل، فلا يغرق في الانفعال.. حين ذاك يلجأ إلى الماضي، يجتر موضوعاً عن الزعيم المقدس.. أوضح فيه كيف كان القديس رجل كهنوت كنسي، أو كهنوت طرقي، أو مشعوذ يسترزق بالشعوذة، ويحتمي باسم القداسة، وبسلطان القوة التي استعمرت أرضه، استقطبت شعبه ليعيش سيّداً، ومن بعده الطوفان!

والكاتب في الماضي الذي سلط الضوء على ما تفعله الزعامة المقدسة من عون للاستعمار، هو الدكتور «محمد حسين هيكل» فقد كتب مقالاً في المجلة «السياسية» الأسبوعية في أواسط الثلاثينات، يرد على «مكرم عبيد» الذي أطلق على زعيم الوفد «مصطفى النحاس» لقب الزعيم المقدس!

إن الدكتور «هيكل» لا يتنكر للنحاس ولو كان خصيماً له، وإنما هو شدد النكير على اللقب الذي كان كهنوتياً فأصبح سياسياً، وبرهن على ما يسيء به هذا التقديس، وما قد أساء به من قبل.. حيث إن الإنجليز في

مصر وجدوا العون من الكهنوت الطرقي، ومن إليه، وما إليه، كما كان الأمر في السودان كذلك. فالكهنوت الطرقي في السودان، كان المذلل من الاستعمار الإنجليزي، لأنه كان المذلل لكل عقبة تواجه الاستعمار.

واستحالت زعامة الكهنوت - كنسياً وطرقياً - إلى ادعاء القداسة..
يلبسها زعماء الواقع الآن!

فليست الفرقة بين الشعوب العربية، أو كما قلنا من قبل الحرب الأهلية غير المعلنة بين الشعوب العربية، من رغبة هذه الشعوب أو من صنعها..
وإنما هي من الزعامة التي لبست القداسة، فكراً سياسياً، أو تمذهباً.. إلى غير ما هنالك!

إن واقع العرب اليوم ما تفرق وما تناحر إلا بدعوى القداسة السياسية.. لا رأي لشعب، وإنما هو الفعل من الزعيم المقدس.

إن هذه الجريمة أصبحت جريمة.. وشر الجرائم أن تفرض باسم القديس!
فهل تجد زعيماً في العالم العربي إلا وهو محوط بهالة من القداسة..
لا تقام له الطقوس في المساجد أو المعابد.. وإنما سكون الشعب، أو استكانته هي الطقوس.. كأنما العربي مفروض عليه أن يجني انحناء الياباني!

فالياباني ينحني احتراماً.. أما العربي اليوم، فينحني خوفاً من غضب الزعيم المقدس!

وهل حرب العراق وإيران تستمر سنوات.. إلا بواعز من التقديس للزعيم، يقول: لا، لدعوى السلام، ويرضخ الشعب الإيراني للحرب طاعة للزعيم المقدس؟!

إن هذا الزعيم يحتمي بأنه يحمل بطاقة مرور إلى الجنة سلاماً بسلام . .
فليس لديه ما يرده عن وضع الشعب الإيراني يميناً مغرقاً في دعوى اليمين،
ليصبح بعد في حوزة اليسار المتطرف . . فاليسار المتطرف كثيراً ما انتصر
بهذا الغرور، يدعي اليمين أنه لا يغلب!

إن الحرب الإيرانية - العراقية . . هي المطلب المتاح لإمبراطورية
الكرملين أولاً، ولإمبراطورية البيت الأبيض ثانياً . . فموسكو تنتظر سقوط
التفاحة بين يدي اليسار المتطرف، ينتصر داخل إيران، أو يأتيه النصر من
الشمال عبر تركستان، ومن الشرق عبر الأفغان!

فلو فكر الزعيم المقدس بروية، لوجد أن شعبه سيكون التفاحة التي
تسقط في حجر السوفييات!

وإذا ما تم ذلك . . فإن إمبراطورية البيت الأبيض ستجد المنفذ لتستحوذ
بكل النفوذ على العرب غرب إيران . . كأنما الإمبراطوريتان أصبح من
صالحهما هزيمة الشعبين . . لا في ساحة الحرب، وإنما بتفريغ الأرض من
الكثير من سكانها، وبدمار الشعبين . . فلا شك أن كل كسب لأحدهما، من
الحرب الإيرانية - العراقية أو من غيرها . . يتبعه كسب للإمبراطورية
الأخرى . . كأنما هو الوفاق دون اتفاق.

ولقد قلت مرة لصحافي مصري: أو تظن أن نفوذ الاتحاد السوفيياتي في
إقليم إفريقي قريباً منكم يغيظ الولايات المتحدة؟!

- فقال: نعم!

- قلت: لا . . إنها تترتاح إلى ذلك، لأنه قد وضعكم في دائرة الصداقة
الأمريكية!

إن الزعيم المقدس - وهو في عنفوان زعامته - لا يلبث بعد سقوط هذه الزعامة، إلا وأن يدنس.. لأن الشعب سيستفيق من الإرهاق، فيبدأ حين ذلك بالتدنيس، ولكنه لن يجد نفسه إلا في موضع التقديس لزعيم جديد.

ولكن «النحاس» قد برئ من تدنيس الشعب، لأن لقب «القداسة» كان كلمة على ورق، لم يحترفها «النحاس».. ولكن «مكرم عبيد» الذي قدس النحاس يوم كان هو كل الوفد، فقد انقلب بعد، ودنس النحاس! ذلك من عهر السياسة.. سواء كان من عمل الزعيم المقدس، أو من محترفي التقديس!!

يحرّفون التعريف

- شدني أن أكتب هذه «الجمرة» الأخبار تترى مذاعة ومتلفزة، مكتوبة مقروءة، يقولون إن الطائرات الأفغانية أغارت على القرى الباكستانية فهل حكومة بابرأك كارمل العميلة تملك طائرات، أم هي طائرات الاتحاد السوفياتي؟

وهل هي كابول تحارب إسلام آباد، وهل الأفغاني هو الذي يطغى على الأفغاني عرقاً «ضياء الحق»؟

وما أكثر من تلقب باللقب «خان» وعرقه من الأفغان.

إن الطائرات التي تغير على القرى الباكستانية طائرات روسية لا أفغانية فلماذا لا تسمى الأشياء بأسمائها؟

إن الاتحاد السوفياتي كل همه تفريغ الأرض، ولكن الباكستان تعطل هذا التخطيط حين آوت الملايين من الأفغانيين، فاستعمار السوفيات على عكس الاستعمار القديم، فالقديم لا يفرغ الأرض لأنه يسخر الشعب يعمل له. أما الاستعمار الجديد سواء من إسرائيل أو من الاتحاد السوفياتي في الأفغان أو في أريتريا أو في غيرها فلا يريد إلا تفريغ الأرض، يهاجر إليها الروس بقوة الطغيان، كأنما هي مرحلة جديدة للمهاجرة، الأولى كانت من أوروبا إلى الأمريكيتين وأستراليا ونيوزيلندا، والثانية ستكون هجرة واسعة

النطاق شديدة الطغيان من الاتحاد السوفياتي إلى أرض تفرغ في سكانها..
إن تسمية الأشياء بغير أسمائها فيها شيء من التضليل أو من الخوف،
كتسمية حرب العراق وإيران بحرب الخليج، وكتسمية اليهود بإسرائيل أو
الصهيونيين..

أحسنوا إلى أنفسكم وتصرفوا بالأخبار ترسلها وكالات الأنباء ليكون كل
اسم صادقاً على مسماه..

ما هو الإرهاب؟

- .. وما نسينا أن نهنيء الولايات المتحدة بعيد الاستقلال .. فإن الشعب الأمريكي - بصرف النظر عما تفعله الإدارة .. يستاهل التهنئة ..

شعب قد بنى إمبراطورية عظيمة، فالرواد الأوائل وجدوا أرضاً لم تبخل بالعطاء .. وسماء ماشحت بالغيث .. فلم ينم إنسان في هذا الشعب عن أن يبني هذه الإمبراطورية.

ولقد كانت مثالية، يرغب كثير من الشعوب أن تنعقد بينه وبين الشعب الأمريكي صداقة حتى إن كثيراً من شعوب أفريقيا وآسيا أيام فرض الانتداب يرجحون لو كانت الدولة المنتدبة الولايات المتحدة لأن سمعتها السابقة أعطت لها هذه الثقة ..

إن الاستقلال ما كان المطلوب الأول لواشنطن ورفاقه الأثني عشر .. كان المطلوب هو الحرية .. لا يريدون فك الارتباط بالدولة الأم .. بريطانيا العظمى .. ولكن يهودياً مفكراً .. صاحب «الحصافة» توماس بين، ذلك الذي اتبعوا نصيحته ثم حين مات لم يمنحوه قبراً يدفن فيه .. تلك كانت علاقتهم مع اليهود.

لقد وجه «جيفرسون» أحد الرفاق لواشنطن إلى طلب الاستقلال للحرية .. لأنه لا حرية بلا استقلال ..

ولم يتحقق الاستقلال إلا بالحرب.. بالثورة التي تمارسها اليوم منظمة التحرير الفلسطينية.. لكن هناك فارقاً لدى إمبراطورية البيت الأبيض.. ألا وهو: المجد لواشنطن ورفاقه.. فلم يسموا في التاريخ «إرهابيين».. بينما الإدارة الأمريكية تنظر إلى المقاومة الفلسطينية التي تدافع عن أرضها وعرضها.. نظرتها إلى أنهم إرهابيون.. مع أن رفاق واشنطن مارسوا الإرهاب ضد بريطانيا.. أفلم يكن التدمير الذي دمروا به بعض سفن بريطانيا في بوسطن.. كان إرهاباً.. كما هو في عرف هذه الأيام؟! بينما هو في التاريخ الأميركي كان فداية.. وثورة يحقق بهما الاستقلال..

إن التهنئة للشعب الأمريكي لا تزف بالطبل والزمير.. بل بتحصيل الموقف.. ليعرف الشعب الأمريكي أن شعب فلسطين قد ذاق الإرهاب والظلم والإرهاب والتشريد واستعمار الأرض بما تصنعه الولايات المتحدة الآن..

فكيف يستطيع شعب حقق بالثورة وبالمثالية.. استقلال أرضه حتى كوّن هذه الإمبراطورية العظمى أن يساعد إسرائيل على أن يكون وجه الولايات المتحدة.. الوجه القبيح في الشرق..

إن تاريخ الولايات المتحدة قد أبيض به وجه واشنطن ورفاقه.. ولكن تاريخهم الآن قد لطحه اليهود حين بسطوا سلطانهم على الإدارة الأمريكية.. لطحوه بالسواد..

أنا لست عدواً تاريخياً للولايات المتحدة الأمريكية وليست الولايات المتحدة العدو التاريخي للعرب.. ولكنها بدأت الآن.. تخطو الخطوة الأولى نحو ترسيخ العداوة التاريخية.

وقد لا يكون هذا صعباً على الولايات المتحدة الأمريكية الآن.. ولكن
لن يكون سهلاً بعد الآن..

ولا زلت مع هذا التوضيح أهنيء شعب الولايات المتحدة الأمريكية
أمارس سلوك «الشيغاليه» فالعربي كان فارساً في كل حروبه.. تعلم الغرب
سلوك الشيغاليه من صلاح الدين هكذا قال تاريخ أوروبا.. فالعرب لم
يكسبوا الحرب الصليبية إلا بقاءها الآن.. ولكن الصليبيين ما بنوا حضارة
أوروبا إلا على أساس من الحضارة الوسيط التي هي حضارة العرب
والإسلام.

إن موقف الولايات المتحدة الأمريكية فيه كل الحقوق لمعلمي الحضارة
ولأصدقاء الولايات المتحدة الذين لا ينكر الشعب الأمريكي أنهم قد أمدوه
بعون كثير..

قوة الولايات المتحدة

- وأذاعوا أن الرئيس محمد جعفر النميري قال: إن الولايات المتحدة هي التي تملك كل القوة وحدها في الشرق الأوسط. ولست أنكر ذلك وإن لم أكن معه في كل ذلك، فإن الولايات المتحدة تملك القوة التي لو أرادت أن تفعل بها حل مشكلة الشرق الأوسط، وأنها لتملك القوة التي لو أرادت أن تحول دون سلطان الاتحاد السوفياتي يحوم حول الشرق الأوسط، أو أن له بعض النفوذ غرب الهمالايا وشرق إفريقيا.

من هنا أكاد أزعم أن قوة الولايات المتحدة قد انحصرت بين مانعين. فالمانع الأول عطاؤها لإسرائيل، والمانع الثاني عطاء إسرائيل للاتحاد السوفياتي. فعطاؤها لإسرائيل عطاء مباشر لا يفعل إلا كل ما تفعله إسرائيل، أما عطاء إسرائيل للاتحاد السوفياتي فعطاء غير مباشر كما أن كل موقف لدول الغرب يمارس السلبية ضد العرب والإيجاب ضد إسرائيل ما هو إلا عطاء مباشر للاتحاد السوفياتي، يعني أن قوة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط منها العطاء للاتحاد السوفياتي بكل ما تعطيه لإسرائيل.

إن قوة الولايات المتحدة طلبتها إفريقيا بعد الاستقلال، ولكنها اليوم

بموقفها مع جنوب أفريقيا قد خسرت أن تكسب الموقف في تشاد. ولعلّه
قد فاتها كثير من هيبة القوة في شرق أفريقيا.
إن كل تأخر لقوة أمريكا قد بعثر هذه القوة حتى أصبحت المبادرة
والمبادأة في يد الاتحاد السوفياتي.

تفريغ الأرض

وكان الاستعمار القديم قد أبقى على إنسان الأرض لا يبعثه، ويحول دون أن يكون لاجئاً لأرض أخرى، لأنه يمارس الاستغلال المزدوج، إنتاج الأرض وجهد الإنسان. حتى إذا بقي الإنسان حارب عن استقلاله فأنقذ نفسه وأرضه.

إن هذا الاستعمار القديم وقد استحوذ على الأرض قد جهد أن يستحوذ على الإنسان. أما الاستعمار الجديد سواء كان استقطاباً أو غزواً فقد سار على خط جديد، هو يريد الأرض يحتلها، يريد العميل الواحد ويأخذ بكل وسائل الجور والظلم والطغيان خطه الجديد في تفريغ الأرض من سكانها. يريد التوسع، فهو باحتلال الأرض يزرع فيها الكثير من شعب هذه الإمبراطورية الغازية، فبهذا الجور قد فر إنسان الأفغان لاجئاً، وفر إنسان إريتريا، وسيفر إنسان تشاد.

لقد سبقت إسرائيل الاتحاد السوفياتي، فهي في فلسطين وفي لبنان أيضاً تمارس بكل الطغيان تفريغ الأرض من إنسانها، بالجور يفر الهاربون من العذاب، وبالإغراء يفرّ الشباب، يجدون من أوروبا الغربية وأمريكا المجال الواسع، يجد فيه شباب فلسطين مصير المعيشة.

من هنا قلنا من قبل إن الاستعمار القديم قد أَلَف بين الشعوب

المستعمرة، وفرّق بين الإمبراطوريات المستعمرة، فكان خيراً من الاستعمار الجديد. أما الاستعمار الجديد أو الاستقطاب فيها هو قد قسّم الأرض أشطاراً وفرّق الإنسان أوزاعاً. وحين تفرغ الأرض من إنسانها فإنه لا مقاومة ولا استقلال.

سفن في الجليد

- واستعرضت الإمبراطوريات عضلات القوة، الصواريخ تجاه الصواريخ، وسفن الفضاء بعد أن كانت للاكتشافات العلمية أصبحت وسيلة لهذا الخيال، امتلاك أرض على القمر أو لشن الحروب. لم يكتفوا بما لديهم على الأرض من أسلحة الدمار فأرادوا أن يستغلوا الفضاء لتدمير الأرض.

لقد سيطروا بالعلم على قوة كبرى حتى إن الإرهاب لم يعد اختطاف طائرة أو حادث اغتيال أو التدمير بالسيارات المتفجرة، فهذا الإرهاب الذي يحدث كل هذه الضجة لا يعد شيئاً أمام الإرهاب الذي أصبح أسلوب الإمبراطوريتين. فصواريخ إمبراطورية الكرملين موجهة إلى إمبراطورية البيت الأبيض والعكس كذلك ليس هو إرهاب الإمبراطورية للأخرى، وإنما هو أسلوب بارع في تسليط الإرهاب على الشعوب الأخرى، فكل شعب في هذه الدنيا يخاف المواجهة بين الأمبراطوريتين ليعيش في رعب، مع أن الأمبراطوريتين كل منهما آمنة من عدوان الأخرى عليها، فالعدوان منهما هو في تسليط الخوف على الإنسان كله.

ولكن تفاجأ الدنيا بعظائم القدرة الإلهية وعجائبها، إعصار يدمر بعض الولايات المتحدة الأمريكية، فيضان يدمر كذلك. في الاتحاد السوفياتي

تفاجأ الدنيا هذه الأيام بأن قوة الاتحاد السوفياتي أصبحت عاجزة لا تستطيع بكل ما تملك من القوة والتكنولوجيا إنقاذ خمس وثلاثين سفينة أحاطت بها الثلوج، حصرها الجليد لا تستطيع أن تتحرك، حتى جرافة الثلوج التي تحطم الجليد قد حطمها الجليد!

أثار فيهم ذلك أن يفكروا في تسخير العلم ليخرجوا قوة تدمر الجليد، تحطمه لتنقذ السفن، ولعلهم يصلون إلى ذلك. ولكن ألا يتوقعون أن الجليد سيأتي بعجيبه أخرى من قوة أودعها الله فيه تحطم ما يصنعون؟

فأين الصواريخ. . وأين ما لديهم من التكنولوجيا؟!

كل ذلك أصبح عاجزاً عن إنقاذ سفنهم من الجليد الذي أعلن أنه من عظم قدرته، أصبح إرهاباً للإرهاب، فهل يتعظون؟!

إنهم إذا ما عجزوا عن تحطيم الجليد وعن الوقاية من الأعاصير والفيضانات يستطيعون أن يفكروا جيداً في القدرة الإلهية. إن كل ما صنعوا من عطاء الخير للإنسان أحالوه عطاء للشر.

ويرحم الله المتنبي إذ قال:

كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا

البابا . . مرة أخرى

- وفي كلمة سابقة من هذا «التمر والجمر» ما ناشدت به البابا يوحنا رأس الكنيسة الكاثوليكية «الفاتيكان» ناشدته أن يكون إنساناً حين أراد أن يحمل على الظلم الذي صبته الشيوعية على شعبه وأتباعه في بولندا.

رغبت إليه أن يكون إنساناً يحمل على اليهود حين صبوا الظلم والطغيان على الفلسطينيين، على العرب جميعاً. وذكرته بمقدسات المسيحيين في أرض الأنبياء.

كتبت ذلك حتى إذا عدت إلى قراءة ما كتبت وجدتني قد أعطيت البابا مكانة كبيرة حين طالبته بإنصاف العرب. ورجعت إلى التاريخ فوجدتني لم أنصف نفسي ولم أنصف العرب حين ناشدته ذلك.

فلئن كانت الكنيسة عدوة الماركسية الآن، فإنها العدو التاريخي الراسخ العداوة للمسلمين والعرب. بل إن عداوة الشيوعية عداوة اقتصاد وإلحاد، ولكن عداوة الصليب للمسلمين عداوة الدين للدين، عداوة المسيحي للمسلم.

فكم كنت غيباً أو أنني تغابيت حين لم أذكر ذلك فالكنيسة الفاتيكان رأس الكاثوليكية هي التي كانت وما زالت تحمل العداوة للإسلام. ذلك أن عداوتها لليهود قد ترى فيها أن اليهود لا يحاربون المسيحية بنشر دينهم،

وإنما الحرب على المسيحية من المسلمين في هذا الانتشار للإسلام.
من هنا قد تتناسى الكنيسة الفاتيكان أو يتناسى البابا حرب الماركسية أو
عداوة اليهود له ليذكر دائماً أن العدو للكنيسة هم المسلمون ولئن خطر
للبابا يوحنا أن يبرئ اليهود من كذبة الصلب للمسيح فإنه لن يستطيع أن
يبرئهم من قتل يحيى عليه السلام الذي يتشرف البابا بحمل اسمه، فيوحنا
هو يحيى، واليهود قتلوه، فهم قتلة الأنبياء.

لكن هذا يهون عند البابا، لأن حرب الصليب على الإسلام لا تزال
قائمة، وأنه ليحمل لليهود في فلسطين هذا الطغيان على المسلمين، كأنهم
جيش للصليب يقومون بما يحرص عليه الصليب.

انتصار السيدة تاتشر

- والسيدة تاتشر ليس بدعاً أن أصبحت الرئيس لمجلس الوزراء البريطاني - ولعلّ الصراحة التي عرفت عليها وبها هي التي أهلتها لأن تكون الرئيس لحزب المحافظين.

ولو طرح سؤال قبل معركة فوكلاند عن فوزها في الانتخابات المقبلة لكان الرأي السائد عند أي معلق أن حزب المحافظين لن يفوز في الانتخابات فقد يفوز حزب العمال إذا ما طرحوا المشاكل الداخلية في بريطانيا وعلاقاتها بالسوق الأوروبية المشتركة وأن انتصار السيدة تاتشر في معركة فوكلاند، هو الورقة الراححة التي أمسكت بها تقرر إجراء الانتخابات قبل موعدها.

فقد تغلب انتصارها في فوكلاند على كل ما لدى حزب العمال من عوامل النصر.. ذلك أن الشعب البريطاني قد أُلّف الانتصار حتى الأعداء الذين انتصروا للإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس.

وحين تبدلت الأحداث بهم وعليهم فضاعت الإمبراطورية وتقلصت بريطانيا العظمى، لتعود إلى حجم الجزيرتين أخذ الشعب البريطاني يفتش عن نصر جديد.. أعني عن زعيم جديد.. يرى فيه صورة الملكة فكتوريا، وقبلها الملكة اليزابيث، وولي بت، ودزرائيلي، ولويد جورج، وتشرشل.

فهؤلاء لا يزال تأثيرهم على الشعب البريطاني كبيراً. وحين فازت السيدة تاتشر برئاسة الوزارة ورئاسة حزب المحافظين وانتصرت في فوكلاند وجد الشعب البريطاني فيها صورة الزعماء الذين انتصروا. كما أن انتصارها في فوكلاند عملية أشعلت العاطفة البريطانية لحساب بريطانيا ولحساب السيدة تاتشر.

من هنا تحدثت مع أصدقائي أقول لهم حين أطرح ما كتبت آنفاً أن السيدة تاتشر هي التي ستفوز.. فالشعوب ذات الماضي إذا ما تلاحت عليها هزائم الحاضر، تطلب أن تجد الزعيم الذي ينتصر للماضي لأن الماضي أشد إلحاحاً عليها لصون الحاضر وفوز المستقبل.. ولقد وجد الشعب البريطاني في السيدة تاتشر صورة الإنسان الذي انتصر للماضي.. وجلب العزة في الحاضر ولكن ماذا يأمل الشعب البريطاني في المستقبل.. ذلك مرهون بالحدث الكبير تقع فيه الإنسانية بهذا الصراع بين إمبراطورية الكرملين وإمبراطورية البيت الأبيض.

سخاروف . .

- ولسنا ضد الغرب سواء أكان أمريكياً أو من عمل البرلمان الأوروبي، في دفاعه عن «سخاروف» ذلك الروسي الذي أصبح يسارياً ضد اليسار الروسي . .

إن «سخاروف» استوحش أن أسميه المنشق، وإنما هو إعلان المعارضة لأباطرة الكرملين يضعهم في موضع اليمين، ويضع نفسه في موضع اليسار. فاليسار أصبحت كلمة متسعة فضفاضة، لا ينحصر إطلاقها على الماركسية أو الاشتراكية، بل إنها تعني المعارضة على أي صورة.

فالحزب الديمقراطي في أمريكا يسار، وحزب العمال في بريطانيا يسار، والذين يشبهونهم أيضاً هم يسار . .

أقول . . لسنا ضد الغرب في عاطفته نحو «سخاروف» يشدد الحملة على إمبراطورية الكرملين، يطلب إطلاق سراحه، يبيحون له الهجرة. ولكن هذه المعية تبعاً للغرب في هذه العاطفة نحو «سخاروف» تسقط سقوطاً من أنفسنا . . لا نتجافى مع الرحمة لأحد، وإنما نسأل . . أليس في فلسطين ألوف من أمثال «سخاروف»؟ أليس في لبنان من القتلى في صبرا وشاتيلا «سخاروف»؟

والعذاب المسلط على الإفريقيين أليست لهم حرمة الإنسان «سخاروف»؟
إسرائيل تقتل الألوف، وليس الواحد منهم أقل قيمة في إنسانيته من

«سَخاروف» فالعاطفة على واحد والقسوة على الألوف ازدواجية في السلوك، ولا أحسبها حملة سياسية على الاتحاد السوفياتي وإن استغلتها السياسة.. . وإنما هي ازدواجية العاطفة الغربية.. .

ينقذون قطاً أو كلباً، لا يرضون أن يمس الكلب أو القط بأي أذى.. . فلو أن قطاً وجدوه مريضاً في الشارع لوَلَّوْا يصرخون يحملونه إلى الطبيب، وفي الوقت نفسه لو وجدوا إفريقياً أو آسيوياً يشرف على الهلاك في الشارع لما التفتوا يغيثونه، وإن ذهبوا به إلى الطبيب فإنهم لن يدفعوا أجر الطبيب.. . بينما القط والكلب يعالج مجاناً أو يدفع حامله أجر الطبيب.

الشرق الأوسط

- الغرب كله والعرب كلهم قد أذابوا قضية فلسطين وتجاهلوا أن تكون قضية فلسطين «قضية الشرق الأدنى».

كل ذلك حين أطلقوا هذه التسمية على قضية فلسطين أو الحرب بين العرب وإسرائيل أو قضية الشرق الأدنى، أعني هذه التسمية «مشكلة الشرق الأوسط».

إن المشكلة فلسطينية أو عربية أو هي مشكلة الشرق الأدنى، أما حكاية الشرق الأوسط فليست صحيحة لأن بعض دول الشرق الأوسط لم تكن داخلية في هذه المشكلة، لم تقطع علاقاتها مع إسرائيل وبعضها أمد إسرائيل بقوة الطاقة كإيران أيام الأمبراطور، كما أن إيران الآن تستمد قوة الحرب من إسرائيل.

إن الشرق الأدنى كما هي التسمية القرآنية ﴿الْم . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ (الروم: ١ - ٣) هي التسمية الصحيحة فالواقع أن الحريق هو في أدنى الأرض بين النيل والفرات.

فالغرب يعرف مدى تأثير القضاء على التسميات الصحيحة فيتخذ أسماء يعرف منها مدى ضعف التأثير بها فلو كانت الإذاعات والبيانات المشتركة لا تذيع إلا مشكلة العرب واليهود، مشكلة فلسطين وإسرائيل لكان التأثير قوياً

فهم يضعفون التأثير بهذا التسيب، فوسائل الإعلام العربية تأخذ أخبار وكالات الغرب وهي المدد لها بأسلوب التوجيه بهذا التسيب، حبذا لو أن وسائل الإعلام العربية تسقط كلمة الشرق الأوسط فلا تذكر إلا العرب واليهود أو الشرق الأدنى أو فلسطين وإسرائيل.

الحرب بين الرأي والرؤية

- الفكرة رأي يطرحه فيلسوف أو مفكر أو حتى رجل عادي، والمؤرخ لا يطرح من عند نفسه شيئاً يستوحيه من فكرة وإنما الرؤية للأحداث والوقائع واستكمال الاستقراء لما سبق والقراءة لما هو حاضر والتكهن بما هو مستقبل.

إن هذه المقدمة تحتاج إلى شرح لا أزعـم أنني كـفيل بإيفاء حقها من الإيضاح، لكن الرؤية لما هو واقع تتسع لأكثر من توضيح، فالفكرة التي أعلنها الفيلسوف البريطاني «برتراند راسل» قبل سنوات مضت لعلّ الموت قد انتزعها كما انتزعه فإنه يقول: «لن تقوم حرب بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي»، ويعلّل ذلك بأن الخلاف بين الدولتين العظميين، إمبراطورية الكرمليين وإمبراطورية البيت الأبيض، ما هو إلا خلاف على المصالح، وفي الإمكان التفاوض ووضع التسويات لأن ذلك لا يؤدي إلى الحرب بينهما. أما إمبراطورية الصين وإمبراطورية الاتحاد السوفياتي فالحرب بينهما قائمة وستشتعل لأن المعركة بينهما معركة عقائدية أيديولوجية، فالصراع بين المبادئ والعقائد والأيديولوجيات يسبب الحرب بينهما.

ذلك رأيه ولكن الرؤية اليوم للواقع قد قلبت هذه الفكرة لأن ماو تسي تونغ قد انتهى، وحرفية الماركسية في كلتا الدولتين قد بدأت تبعد بكثير من

التغييرات، حتى إن التحرك الصيني والسوفيياتي الآن أصبح كل منهما يود التقارب من الآخر، واستحال الخلاف بين المبادئ إلى خلاف على المصالح. فغزو الأفغان ليس من مصلحة الصين، والوجود السوفيياتي في فيتنام وما إليها ليس في صالح الصين، والخلاف على الحدود في الشمال ضرب من المصالح يمكن التفاوض لحلها كلها كما يقول راسل. فالفكرة إذن هي أنه لا حرب من أجل المصالح بين هذه الدول الكبرى.

لكن الرؤية تقول إنه لا مناص من الحرب ولن تكون من أجل المصالح ولن تكون من أجل المبادئ، وإنما هي أن القوة داخل هذه الأمبراطوريات هي التي تصنع الحرب سواء داخل الأمبراطورية أو خارجه. إن ترسانة «البنتاغون» ومخازن موسكو وبكين والجنود تحت السلاح قوة لا بد أن تفتح الطريق إلى الحرب، فالأباطرة قد لا يريدون الحرب ولا يسعون إليها وحتى الجنرالات لا يسعون إلى الحرب وإنما السلاح والجندي هو الذي يتفجر بالحرب على نفسه إن لم يفجرها على الآخرين.

لقد ضاقت الشعوب بالتسلح، أهلك مواردها، ففي الولايات المتحدة مثلاً بدت صناعة الأسلحة وتطويرها تصنع للشعب مجاعته على صورة من الخوف وصورة من الأزمات الاقتصادية. وفي الاتحاد السوفيياتي شعب أعطوه الوعود بأن يكون أغنى الشعوب بالرغيف فإذا هو لا يريد الرغيف وحده الآن وإنما يريد أرغفة من نوع جديد، حتى إذا استقبل السائحون أخذ هذه الأرغفة الجديدة أنواعاً من اللباس والسجائر، فأما أن يدفع الروبلات وأما أن يعفي من دفع القيمة لما استشرت نفسه عليه، يريد شراءه فيريد بعض السياح إعطائه ذلك، لأن هذا العطاء إشعار للشعب الروسي بحاجته الملحة إلى هذه الأرغفة الجديدة.

فكل هذه الصواريخ تنصب في أوروبا إنما هي موجهة للأمريكي قبل أن توجه إلى الاتحاد السوفياتي، لا كسلاح نار وإنما هي ومضات من نور جديد يشرق على شعب الولايات المتحدة يقول لماذا مئات الآلاف من الصواريخ بينما مئات الأطنان من القمح تحجزها الإدارة كوسيلة من وسائل الحرب الاقتصادية لا نأكلها أرغفة وإنما تأكلها النار أو الأسماك. حتى إن بعضهم فكر أن يصنع منها الكحول، إنها لغريبة في بلد كأمريكا كان بالأمس يحرم الخمر فأصبح يحيل غذاء الشعوب إلى كحول!

أليس ذلك حرب القوة ضد نفسها؟!

أما الاتحاد السوفياتي فيمنعه كبرياء القادة أن يطور العلاقة، ولكنه حين يستريح مع الصين سيستريح فعلاً مع أوروبا بطريقة أو بأخرى هو يبدوها وأوروبا تقول له: «أهلاً وسهلاً»!

أنا لا أنفي الحرب عمداً أو خطأ ولكني أؤكد أن القوة داخل هذه الإمبراطوريات هي حرب على مالكتها قبل أن تكون حرباً على الآخرين.

الهنود الحمر

- لما يجف بعد دم الفلسطينيين المراق في لبنان، لا أسأل عن من أراقه.. اليهود أم الميليشيات؟! فالذي أراقه فعلاً هو السلاح الأمريكي والضوء الأخضر الأمريكي. إن مجزرة صبرا وشاتيلا غضبت من أجلها الإدارة الأميركية وغضب من أجلها خطباء «هايد بارك» على كل منبر لكن الإدارة الأميركية قبل جلاء إسرائيل عن لبنان وقبل إدانة اليد التي لطخت بالدماء تقدمت إلى مجلس الشيوخ بما تبذله من عون لإسرائيل، ذلك فرض الوقت على الإدارة بحجة تقديم الميزانية، لكن مجلس الشيوخ الذي غضب بعض أعضائه من سفك الدماء واحتلال لبنان قد أضاف إلى عون الإدارة عوناً منهم يبلغ أكثر من ٤٠٠ مليون دولار يتحمل ثقلها الشعب الأمريكي دافع الضريبة. فلم يفكر أي شيخ من هؤلاء الأعضاء بحجب هذا العون عن إسرائيل ولو مؤقتاً، لا ليعاقبها على ما فعلت وإنما لتتخلى عن لبنان يصبح صديقاً للولايات المتحدة.

لقد فعلوا ذلك لا يسألون عن إحراج أصدقائهم من العرب ولا يسألون أنهم يرضون إسرائيل أيضاً، وإنما الحقيقة أن الأميركيين لشفاء غليلهم يشربون به الدم الفلسطيني واللبناني كأنما الفلسطيني هو هندي أحمر في الشرق الأوسط. فالذين قتلوا الهنود الحمر قد أباحوا لأنفسهم

أن يعينوا إسرائيل على قتل الهنود الحمر.

ويظهر أن وزير خارجية إسرائيل إسحاق شامير عرف بعض تلكؤ الإدارة لا تطيع ما طلبه مجلس الشيوخ فأمر سفيره في واشنطن بأمر لا أدري كيف تقبله الإدارة الأميركية، فقد قال لسفيره «خاطب الرئيس ريغان وحذره بألا يربط بين السياسة وبين المعونة!!»، كلام يوجهه إمبراطور على الولايات المتحدة.. الإمبراطورية الكبرى في العالم، والصغرى المطيعة أمام إسحاق شامير!!

لا.. لإسرائيل لا يمكن أن تكون إمبراطورية على الولايات المتحدة، وإنما هي كوبا ثانية تؤيدها الولايات المتحدة وتفتح لها الطريق وتعطيها الأسلحة المحرمة.

صورة:

قال أحدهم:

- لقد قتل سعد حداد ومن إليه الفلسطينيين ليجلوا عن لبنان ففتح الطريق لتحتل إسرائيل لبنان.

هذا اتهام إسرائيل له ولكن المتهم أكثر من ذلك، وفي فمي ماء!!

* * *

قال واحد من مؤيدي «الصمود والتصدي»:

- إننا لن نحارب الآن إسرائيل، ولكن حربنا لهم كانت وستكون بآخر جندي مصري وآخر برميل نفط عربي وآخر فدائي فلسطيني!!

من غرينادا إلى لبنان

- قبل أن أبدأ بهذا الحوار مع العم «سام» لا بد أن أطرح مقدمة، عن حديث بين فتى عربي سعودي وبين فتى أمريكي من ولاية أوكلاهوما. كان الفتى السعودي طالباً في الجامعة، وما أحلى الجامعات الأمريكية في القرى، في الريف. خرج من درسه يذهب إلى سكنه، حتى إذا وصل إلى السيارة وفتح الباب نظر إلى الخلف قبل أن يدير المحرك فوجد فتى وفتاة يجلسان في المقعد الخلفي لسيارته، يتناحيان، صديق وصديقة. فرجع الفتى السعودي إلى الوراء يعتذر لهما لأنه عكر عليهما صفو المناجاة. فإذا الفتى الأمريكي يكبر ذلك ينزل من السيارة يصافح الفتى السعودي بحرارة وتحية.

فقال الفتى السعودي: أنا آسف، ما كنت أظنكما داخل السيارة.

فقال الفتى الأمريكي: إنها كانت تستعجل الذهاب إلى قريتها «بانكا». إذا سمحت تأخذنا إلى قريتها.

وأوصلهما الفتى السعودي إلى القرية وعاد معه الفتى الأمريكي، فأصبح كل منهما صديقاً للآخر. وكان الفتى الأمريكي قد نشأ أبوه «إسبرطياً»، علمه كل أنواع الرياضة، حتى إنه في مرة وقد رحل إلى البرازيل ونزل يسبح في «الأمازون» لم يشعر إلا وحنش قد طوقه، فإذا الأسبرطية فيه

جعلته يحمل خنجراً يحتزم به، لا يتركه وهو في النهر، فسحب الخنجر، وقطع الحنش ينفك منه.

ودعيت لزيارة الولايات المتحدة أبان الأزمتين، الحرب اليمنية والصواريخ في كوبا عهد الرئيس كينيدي. فلم أشعر، وكان ذلك في أول أكتوبر عام ١٩٦٢، إلا والفتى الأمريكي يدعونا إلى العشاء باسم والديه. كان ذلك يوم احتفالهم بذكرى يوم الشكر، وهم يسمونه عيداً. وذهبنا إلى قرية الأسرة الأمريكية على بعد ٣٠ كلم من قرية الجامعة «تانكا». وجلسنا على مائدة العشاء، وقد كان العشاء ثريداً عليه ديك رومي، فابتسمت وقلت: هذا طعام الحواريين، أعارته لكم فلسطين فالثريد عربي. وجاء ذكر المسيح عليه السلام فأوضحت عقيدة الإسلام في عيسى بن مريم، فأكبر الأب الأمريكي ذلك الحديث عن المسيح وقال: ما كنا نعرف ذلك.

والأب من المحاربين القدامى، ما زالت عليه سمة رعاة البقر، أولئك الذين بنوا الولايات المتحدة، وإذا هو يتحدث بمرارة عن فلسطين.

قال: إن الشعب الأمريكي لا ينسى أحداثاً ثلاثة.. حريق شيكاغو، وزلزال سان فرانسيسكو وخسارة ترومان في «المني فاتورة» أي تجارة القماش، أي إنه كان بزازاً.

قلت: لماذا لا تنسون خسارة ترومان؟

- قال لو لم يخسر لما اشترته إسرائيل، تستقطبه، يطيح بالعلاقات العربية إلى الوراء من أجل اليهود.

وأردنا الرجوع إلى بيتنا، فإذا هو ينتصب رجلاً طوالاً، ولبس مسدسين، وأخذنا إلى السيارة يسوقها.

قلت لماذا أنت، ألا يكفي ابنك؟

فقال: أريد أن تصلوا بأمان.

وتزيا بالقبعة العالية والياقة المنشأة.

إن هذه صورة في هذا الحديث الصغير قد تجسدت أمامي في صورة العرب جميعاً وفي معاملتهم للولايات المتحدة. وأنهم كالفتي السعودي مارسوا مع الولايات المتحدة خلق الجنتلمان، فتوطدت على هذا الخلق صداقة، لكن الولايات المتحدة في كل ما مارسته من سياسة بعد الحرب العالمية الثانية قد أجمحت بصداقة العرب، فألقت بعضهم في أحضان الاتحاد السوفياتي. والسبب أن الفتاة أمريكا كانت الصديق والعشيق للفتى اليهودي، يصرفها عن الوفاء للأصدقاء، يكلفها الكثير حتى جرعتها سقوط الهيبة. لقد كانت الفتاة أمريكا «ماشوسية» وكان الفتى اليهودي سادياً يسلط عليها العذاب، يسلب كل شيء منها وهي راضية، بينما هي في الوقت نفسه تنقلب إلى سادية مع العرب. فإذا تلك الازدواجية تتعرض بها أمريكا إلى أكثر من خسارة.

ولنضرب مثلاً آخر هو ما يعنيه العنوان «من غرينادا إلى لبنان».

إن القفزة الأمريكية على غرينادا «غرناطة» قد انتصرت بها، وهزم الاتحاد السوفياتي. ولكن الاتحاد السوفياتي لا يستعجل العقاب، فقد ابتلع الهزيمة، أخليت غرينادا من كل أصدقائه.

ودعا الفتى اليهودي الفتاة أمريكا إلى أن تمارس غزواً جديداً ينتصر به اليهود على صورة تمثلت في حشد من القوة من البوارج ومشاة البحرية، والرديف من حلفاء أمريكا تحت اسم «القوات متعددة الجنسيات». فإذا هي ورطة هزت الشعب الأمريكي، فلبنان وقد احتلت إسرائيل جزءاً كبيراً منه

أصبح بين احتلالين، احتلال إسرائيل والاحتلال المقنع لهذه القوات .
واتضح القصد، فلم يكن جلاء إسرائيل عن لبنان، وإنما كان القصد
والهدف كما - أذاعوا - إعلان الحرب المقنعة على نفوذ الاتحاد السوفياتي
في سوريا، ولكن سوريا لم ترضخ، أوضحت لهذه القوات ولأمريكا
بالذات أنها تستطيع المقاومة، كما أوضحت طوائف لبنانية ترفض الاحتلال
أنها قد استطاعت المقاومة، فأخرجت الولايات المتحدة حتى اضطرت إلى
الانسحاب .

ومن هنا يتضح أن الاتحاد السوفياتي قد انتقم لاحتلال غرينادا، فسوريا
غير غرينادا .

إن الولايات المتحدة كان في إمكانها أن تحدث الهزيمة للاتحاد
السوفياتي، وأن تأخذ من سوريا صداقة جيدة، لو أنها حين دخلت لبنان
ضغطت على إسرائيل لتنسحب من كل لبنان، ولكنها لم تفعل . ذلك لأن
الفتى اليهودي مازال سادياً . ولو أن الولايات المتحدة لم تظهر بمظهر
المدافع عن فئة واحدة في لبنان لاستطاعت أن ترى الوحدة اللبنانية حين
تكون الولايات المتحدة نصيراً للبنانيين جميعاً . ولكن الولايات المتحدة ما
زالت تعيد موقفها في أواخر الخمسينات مع بيروت الشرقية ضد بيروت
الغربية، مع من ينتمون إلى بيروت الشرقية في الجبل ضد الذين ينتمون إلى
بيروت الغربية من سكان الجبل .

وبدأت القوات متعددة الجنسيات تنسحب من لبنان، وتركت إسرائيل
تحتل لبنان، وتركت الإنشقاق في لبنان، فصح اتهام رئيس جمهورية إيطاليا
أن كل ما فعلته أمريكا هو العون لإسرائيل .

إن ما جرى لا أقول إنه قلب الموازين، وإنما قد اعتدل به الميزان .

ومن المؤسف حقاً أن الولايات المتحدة هي التي تعطي للاتحاد السوفياتي موطئ قدم.

والخشية كل الخشية إذا ما استمر الموقف الأمريكي يرضخ لما يفعله الفتى السادي. فإن بعض العرب قد يغريهم موقف الاتحاد السوفياتي بالإطاحة بكل ما بينهم وبين الولايات المتحدة من علاقات.

إن ما حدث، وقتي، فلا زال الزمن مع الولايات المتحدة إذا ما اعتدلت وسمعت الصوت الإنساني، ليس في آسيا وأفريقيا، وإنما في أوروبا الغربية أيضاً، يدعو الولايات المتحدة أن لا يفوتها بعوامل الوقت انتصارها في الزمن حين تلزم إسرائيل بالانسحاب من لبنان، وبالخضوع إلى المفاوضات. فالولايات المتحدة ملزمة بنزعة الديمقراطية بتنفيذ قرارات مجلس الأمن.

ولا يفوتني أن أضع هذه الإحماضة. فقد قالوا إن فرنسا أرادت أن تمارس دور الأم الحنون كما هو شأنها من قبل. وإيطاليا أرادت أن ترضى الفاتيكان يحن إلى حماية رعاياها. أما بريطانيا فالطاعة لأمريكا. وأما أمريكا فالخضوع لنزعة السادية وطاعة الماشوسية.

فلسطينيات وإسرائيليات

خطرسة مرفوضة

- إن الوثيقة التي أعطى بها زعيم منظمة التحرير والمقاومة السيد ياسر عرفات القبول لكل قرارات مجلس الأمن والأمم المتحدة، سواء القرارات ٢٤٢، ٣٣٨، اللذين ألزما إسرائيل بالانسحاب من الضفة الغربية وقطاع غزة ومن سيناء ومن الجولان أي من كل الأرض التي احتلت عام ١٩٦٧ هذه الوثيقة تعني أن احتلال إسرائيل احتلال ظالم، فيجب على إسرائيل أن تنسحب من كل الأرض لا من بعض الأرض. فقد جاء القرار ٣٣٨ معدلاً موضحاً للقرار ٢٤٢، الذي صاغه البيت الأبيض، وتولى تبنيه المندوب البريطاني في مجلس الأمن. ويعني هذا أنه اعترف ببقاء إسرائيل، دولة في حدودها المعروفة، وليس منها الضفة الغربية وقطاع غزة والجولان وسيناء، فاعترف ياسر عرفات بهذين القرارين معناه اعتراف ببقاء إسرائيل، ومعناه مرة أخرى تعديل لميثاق المنظمة. كل هذا يفهم من قبول ياسر عرفات لقرارات مجلس الأمن. ولكن إسرائيل وما صرح به البيت الأبيض قد جانب هذا الفهم، خطرسة يرفض بها هذا القبول من ياسر عرفات - لأن إسرائيل ستلزم نفسها بالجللاء عن لبنان بحكم القرارين ٥٠٨، ٥٠٩ كما هو الإلزام لها بحكم القرارين ٢٤٢، ٣٣٨. فهي ترفض ما أعلنه ياسر عرفات وسلم القبول به للوفد الأمريكي الذي تفاوض معه. ولا عجب من إسرائيل، ولكن العجب كل العجب أن يرضى الوفد الأمريكي بهذه الوثيقة،

بينما البيت الأبيض يرفضها، بحجة أن ياسر عرفات لم يعلن الاعتراف ببقاء إسرائيل مع أنه حين قبل هذه القرارات قد أعلن الاعتراف.

من هنا نقول لوزير خارجية بريطانيا، فرنسيس بيم، ولوزير خارجية فرنسا كلود شيسون، «نصحتكم فقبلت النصيحة». فعليكم أن تبصروا الولايات المتحدة بأن ياسر عرفات قد أعطى ما كان مستحيلاً بالأمس وأصبح نافذاً الآن، فلو أنكم نصحتكم أمريكا لكان هذا الموقف إيجابياً منكم يستاهل إن رفضته الولايات المتحدة أن يكون لكم موقف. فالسلام في الشرق الأوسط قد لا يكون سلاماً لأمريكا وقد لا تبعاً لأمريكا بمصالحها تحت ضغط الصهيونية. ولكنكم، وفي كل أوروبا الغربية، تعرفون جيداً أن السلام في الشرق الأوسط هو جزء من السلام لأوروبا، أو هو فاتحة السلام لها. ولا يعني هذا حرصكم على النفط، وإن كان وارداً الآن وحتى يأتيكم المدد من الغاز الروسي، فإن السلام هو الأصلح لكم والأبقى. لأن جنوب البحر الأبيض كله هو الجناح الأيمن، باتجاهنا إلى الشرق، لحلف الأطلسي، فلا تجعلوه الجناح الأيسر لحلف وارسو إذا اتجه إليكم الاتحاد السوفياتي، في ظلال حلف وارسو.

إن إسرائيل والولايات المتحدة إذا لم يقتنعا بقبول ياسر عرفات فإن ذلك يعني أن الولايات المتحدة تخوض حرباً ضد الأمة.

وأخيراً تكلم!

- وسكت طويلاً لا يتكلم، مع أنه من الخبراء الأمريكيين الدارسين لقضية الشرق الأوسط، وأخيراً وجد الفرصة فتكلم. كان من ضحايا اليهود، لأنهم لم يرضوا عن سياسته. عرف حق العرب، وأنكر كأمريريكي على انحياز الولايات المتحدة لإسرائيل، انحيازاً كلف الولايات المتحدة أن تكون هي الحرب على العرب، بالمدد الذي تعين به إسرائيل، لا تبخل عليها بأي شيء. حتى إن ترسانة البنتاجون ما هي إلا مستودع مفتاحه في يد اليهود، بل حتى إن هذه الترسانة قد انتقلت كلها بما يسمونه العتاد المخزون في إسرائيل. إن هذا الأمريريكي - خرج عن الصمت هو «جورج بول» وكيل وزارة الخارجية الأمريكية سابقاً. فقد قال: إن إسرائيل بعدوانها على لبنان، ذلك العدوان الذي دمر الإنسان والمرافق والعمارات، هي الملزمة والمكلفة بأن تعوض لبنان عن هذا الدمار الذي صنعته.

ولكن إسرائيل، كما يقول، سترفض هذا الالتزام فتحيله على الولايات المتحدة، وهي بهذا تمارس نزع ثروة الولايات المتحدة، إضافة على ذلك النزع المستمر. وسيضطر دافع الضريبة الأمريريكي إلى أن يقول لا.

وحين تفرض الإدارة الأمريكية على دافع الضريبة أن يعمر لبنان، فإنها سترهق الشعب الأمريريكي؛ وإن هي رفضت هذا الالتزام فستجد نفسها أمام

موقف عسير، أقل ما فيه أنها تفقد صداقة لبنان التي ما أرادت بهذا الضوء الأخضر إنارته أمام إسرائيل لتغزو لبنان إلا لتكون لبنان منطقة نفوذ أمريكية، فقدتها زمناً طويلاً يوم نزع مشاة الأسطول تحت ضغط العرب ولا ننسى ضغط الاتحاد السوفياتي.

إن هذا التصريح من جورج بول صرخة رجل أميركي، ولأنه للولايات المتحدة. فهو ليس من بعض زعماء الكونجرس الذين أخضعوا أنفسهم لولائيين. الولاء لليهود والولاء للولايات المتحدة.

فالحرب على لبنان النقمة. أعطت لبعض الألسنة الأمريكية ذات الوزن أن تبصّر الإدارة الأمريكية بالخطأ الذي وقعت فيه، أو بالصواب الذي سيتاح لها إن هي أوقفت إسرائيل عند حد. تنسحب من لبنان وتبذل الولايات المتحدة العون للبنان.

ولعلّ هذه النكسة في ردّة بعض الأميركيين عن تأييد إسرائيل، رجعة لأن يكونوا لأمريكا ولا لغيرها.

عقدة لبنان

- قالوا إن ألوف الأطفال يهلكون جوعاً من حصار اليهود وعجز فيليب حبيب.. وإن ألوف الأطفال جرحى. وقد تبرعت الولايات المتحدة بأن تقبل أربعة آلاف طفل يعالجون في المستشفيات الأمريكية. وهذا إحسان ظاهر من القاتل يحنو على المقتول. ولم تبرع فرنسا بذلك ولا بريطانيا ولا ألمانيا ولا غيرها لأنهم يخجلون حين كانوا القتلة من الفلسطينيين بما ساعدوا به إسرائيل من قبل أن يكذبوا على الناس بالحنان على المقتول.

والفاجعة، وما أكثر المستشفيات في البلاد العربية هي أن الدول العربية لم تبرع بعلاج أبنائها، فما أعلنت دولة عربية أن تقبل طفلاً فلسطينياً جريحاً تعالجه.

لعلهم يقولون إنا مضطرون إلى هذه القسوة لإعلان قسوة اليهود وقسوة الولايات المتحدة.

وهكذا الباطل يجد اعتذاراً باطلاً ظالماً والدول المسلمة وما أكثرها وما أكثر المستشفيات فيها لم تعلن قبول العلاج لأي طفل.. حتى قال عربي من شرق السويس: لو أن فلسطيناً فجر دار سينما وكان أحد الهلكى ابني الغالي لما وجدتني ألوم أي فلسطيني فقد حرمانهم من كل تأييد. قال له

صاحبه: إنك أعطيت التأييد بما بذلت ولكن الذين أخذوا عطاءك هم الذين يستحقون هذه الملامة منك..

ولكن لعلنا نجد في أربعة آلاف طفل يصلون إلى المستشفيات الأمريكية يسجل في وجدان الشعب الأمريكي عقدة فلسطين.. عقدة لبنان، بعد أن كادت تذوب عقدة فيتنام.

ولكن مرة أخرى لعلّ الصهيونية في الولايات المتحدة تضع على هؤلاء الأطفال زياً كمبودياً أو فيتنامياً وتسميهم بأسماء غير أسمائهم لتحجب رؤية المأساة عن الشعب الأمريكي كل ذلك جائز، ولكن غير الجائز هو أن يتجاوز العرب عن الوفاق إلى الشقاق..

قرية أم الفحم

- لعلّ لسكانها من اسمها نصيب حين ظن هذا الأمريكي اليهودي الحاخام مائير كاهان أنه سيحرق إنسانها، ولكن إنسانها دافع عنها.

إن هذا الحاخام من العجز أن نصب اللوم عليه وحده، لأنه لم يكن القوي وحده، إن القوي باليهودية والصهيونية، والجنسية الأمريكية فاللوم إذن على هؤلاء ولن يقتصر عليهم. فاللوم على الذين ما زالوا لا يعرفون صناعة الموت، في يدهم السلاح ولكن اليد شلّها الخوف أن تتعامل مع السلاح.

وأن هذا الحاخام لا يحترم الشذوذ عن الحكومة الإسرائيلية. فعمله مخطط، يشير به شعب إسرائيل كنوع من المقاومة لما يزعمون أن حزب العمل يعارض بناء المستعمرات.

فيوسف بورج وزير داخلية إسرائيل قد أجاز له أن يدخل قرية أم الفحم، بأسلوب يهودي، أدخل وحدك ياكاهان واترك أتباعك. فعل ذلك بورج ظن أن مقاومة القرية ترضى بدخول الحاخام فيتحقق المطلب وتنتصر إرادة الحاخام التي هي إرادة شامير وبورج وكل يهودي ولكنهم خافوا عليه يدخل وحده، وتحاشوا أن يحتمي بالبوليس، لأن تدجيلهم قد يحسب حساب الفضيحة. فلم يدخل الحاخام القرية لأن فيها أبناء القوم الجبارين.

تعرضوا للموت فكسبوا حياة القرية. بل كسبوا إشارة بقاء الحياة للفلسطيني إذا ما تعرض للموت في سبيل أرضه.

أما الذين يستعرضون في أيديهم السلاح خارج الحدود فقد أصبحوا يتزينون بزین شتی تتستر وراء حمل السلاح..

لقد أذاعوا خبراً مفاده أن إدارة الجنسية الأمريكية قد تسحب الجنسية من هذا الحاخام، وسواء فعلوا أو لم يفعلوا فإن ذلك لا يضير الحاخام، فكل يهودي يتمتع اليوم بالحماية الأمريكية، حتى إن إسرائيل التي لم يعلن أنها إحدى الولايات المتحدة كما تكساس كما كاليفورنيا.. وإلا فأى معنى لأن يكون البنتاجون تحت إرادة إسرائيل، وأن يكون الكونجرس هو برلمان إسرائيل وسط واشنطن؟!!

عن اليهود

- وسألني أحدهم . . لماذا اليهودي أحال الدين إلى عنصرية، فلا نرى يهودياً إلا وهو شديد التعصب قوي التعنصر، لا يرى لغيره من الناس حرمة ولا يعبأ بأي خلق. كل ما لدى اليهودي أنه مباح له أن يفعل ما يشاء، مباح له أن يحقق رغباته بأي وسيلة، لا حرمة للدم لأنه لا ضمير لديه،

فالإباحة هذه ينطلق بها اليهودي فلا يرى ديناً أحسن من دينه، ولا جنساً خيراً من جنسه، لأن الحصول على الشهوات واكتناز الذهب واللعب بمصائر الناس تتولد منها المتعة في نفس اليهودي، فلا تجد ديناً من الأديان إلا وقد وضع الحواجز وحدد السلوك وحض على الأخلاق. من هنا قل أن يسلم يهودي، وإذا ما تنصر دزرائيلي أو كارل ماركس فقد كان ذلك منهما تسترا استغلاه لبسط سلطانهم على الشعوب، فقد كان دزرائيلي سلطاناً في بريطانيا وإمبراطوراً على المستعمرات، فالتنصر أعطاه هذه الفرصة. وماركس بسط سلطانه على كل النصارى، حتى الكاثوليك المتعصبين طوعهم شعورهم بأنه مسيحي صادق. فقد أعان ماركس على بسط نفوذه الجوع إلى الرغيف، وعدم الوحشة من أنه غير مسيحي.

لكن الإباحة في ضمير اليهودي قد أحدثت ردود فعل لدى الذين عرفوا فسوقهم، فعذبوا، غير أن العذاب لهم أعطاهم قوة من الإباحة،

فقد استباحوا دم أنفسهم ليستغلوا المأساة، يخدّرون بها شعوباً اغتروا
بمسكنة اليهود، فإذا اليهود المساكين في عرفهم أصبحوا الأباطرة عليهم
الآن.

إن أي إنسان إذا استهوته الإباحة فإنه يصل إلى قمة الفسوق، واليهود
قد وصلوا إلى ذلك.

لجنة كاهان . . والاتحاد السوفياتي

- في حوار مع الذين يسمعون الإذاعات . . وحين سمع أحدهم تصريح لسان سوفياتي يخوض معركة التعليق على تقرير لجنة كاهان قال: لم تقتصر لجنة كاهان داخل إسرائيل، بل امتدت إلى كثير من الألسنة . . بعضها يستهلك بكل ما صرح به الغضب محلياً وبعضها يغذي الغضب عالمياً . . فأين يقف الاتحاد السوفياتي؟! هل هو يستهلك الغضب لدى أصدقائه العرب إذا صح أنهم غضبوا؟ أم يجامل العرب الآخرين أم يتحامل على إسرائيل . . على طريقة عجائز الرباط «خشوني، لا تنسوني، ولعوا الشمعة وشوفوني».

إن الاتحاد السوفياتي وبالنسبة لما جرى في لبنان قد ينظر إلى موقفه نظرة الغموض . . وقد يراه بعض الذين لا يتفألون بل هم إلى التشاؤم أقرب واضحاً كل الوضوح لأنه المستفيد الأول من كل أزمات الشرق الأوسط والخاسر الأول هو العربي . . وبعده في هذا الخسران الأمريكي وإن طال الزمن .

إن الاتحاد السوفياتي ولأول مرة يؤيد تقرير لجنة كاهان فلا يقول إنه وضع محلي لا شأن لأوروبا وأمريكا به بل قال: أقيلوا شارون، حاكمه في محكمة دولية، لأنه مجرم حرب مثل النازيين الذين حاكمناهم بعد

الحرب العامة الثانية في محكمة «نورمبورج» فأجابه أحدنا: لا تطلب الصدق في السياسة وإنما فتش عن المصلحة أو التفاحة التي يقتطف الاتحاد السوفياتي أو غيره ثماره تسقط في حجره.. فأجاب: هل غزو لبنان إسرائيلياً متأمرراً ومذبحة صبرا وشاتيلا أثارت الاتحاد السوفياتي يطلب محاكمة شارون؟!.. بينما هو قد غزا الأفغان.. فما الفرق بين غزو لبنان وغزو الأفغان؟!.. وما الفرق بين المذابح في لبنان والمذابح في الأفغان وقيل ذلك في المجر وفي كوريا وفي فيتنام الآن.. أعني في الهند الصينية كلها؟! لا فرق!! فقال له آخر: هناك فرق كبير بين بعض العرب عند بعض العرب الذين يفرحون بمثل هذه التصريحات كأنما هؤلاء يمثلون دور العصفير مع الصياد.. كان الصياد قد وضع العصفير بين يديه في سلة يقطع أعناقها عصفوراً بعد عصفور. وهبت ريح فدمعت عين الصياد من أثر التراب فقال عصفور لآخر: انظر إلى هذا الصياد كم هو راحم لنا.. إنه يبكي من أجلنا. فقال عصفور أسقط الخوف من نفسه «لا تنظر إلى دموع عينيه.. وانظر إلى فعل يديه».

إن كل التصريحات من أي طرف تخمة من الأكاذيب، فأزمة الشرق الأوسط فضحت كل ذلك.. ولا شأن لنا بفضيحة الآخرين.. وإنما كل الشأن أن نفتضح بالرأي السالب والموقف المسلوب وضوحاً تشبع منه تخمة التصريحات وتكسب إسرائيل ولا أكثر ولا أقل.

ومعنا ألسنتهم

- ولعلّ هناك من يسأل كيف تسنى لشمعون بيريز رئيس حزب المعارضة في إسرائيل أن يزور إسبانيا ويجري محادثات مع الذين هياؤا له ليقابلوه .

كيف تسنى له ذلك وليس بين إسبانيا وإسرائيل اعتراف دبلوماسي يتيح له أن تكون المقابلة على صورة رسمية ويتيح لإسبانيا بمقتضى العرف السياسي أن تسمع طلباته .

قلت: إن هذا السؤال قاتم لو كانت إسرائيل دولة تتقيد بالعرف الدبلوماسي إنها عصابة تسلك أي طريق سيّء أو سوي تصل به إلى أغراضها فالمهم لدى العصابة أن تحقق الفرص دون أن تعباً بالوسائل فأكثر ما حققت لصالحها الآن لم يكن إلا بأسلوب العصابة لا تعباً بميثاق ولا تشكر معروفاً ولا تبالي بصديق .

إن إسرائيل ليس بينها وبين بولندا اعتراف دبلوماسي ظاهر، ولكن بينها وبين بولندا العمق صداقة الشيوعي بالشيوعي فالشيوعية المذهب تجتمع كل فصائلها بأسلوب العصابة وبسلوك التعصب .

فقد زار بولندا أربعة من كبار إسرائيل في يوم يهدفون منه إلى تعذيب ألمانيا بعقدة الذنب فإذا هؤلاء الأربعة كمسؤولين في حكومة إسرائيل

يخرجون من الحفل احتجاجاً على وجود ممثل لمنظمة التحرير.

فأي عرف يبيح لهم ذلك؟! إنهم مجرد أفراد عاديين بحكم العرف السياسي ولكن أخلاق العصابة في حكومة بولندا مع هؤلاء الأربعة أعطتهم هذه القيمة.

أما المئات من اليهود فقد بقوا ليتموا وسائل التعذيب التي أرادوها.

من هنا فإن زيارة شمعون لإسبانيا أتت على هذا النسق ولكن من طوع أسبانيا لأن تستقبله وهي العدو الثاني في التاريخ لليهود إذا ما حذفنا أن عدوان السبي أصبح صديقاً لليهود فالعدو الأول كما يتصور اليهود هو الإسلام والعدو الثاني الأسبان والعدو الثالث الألمان والعدو الرابع هم العرب الآن.

ولعلّ الليالي الحبالى تلد العدو الخامس.

إن الذي طوع أسبانيا هو إلحاح أصدقاء اليهود، أعني أوروبا الغربية والولايات المتحدة كبعض الثمن لدخول أسبانيا في حلف الأطلسي وفي السوق المشتركة.

إن السنة هؤلاء مع العرب على منابر «هايد بارك» الكثيرة ولكن عملهم مع اليهود.

الطائفية والإمبراطور

- ولبس مناحيم بيجن عنفوان الإمبراطور العالمي حتى إن هتلر لم يكن مثله في الدعاوى العريضة، والسباب القذر، وحتى نيرون لم يكن من طرازه، فكل الطغاة أصبح مناحيم بيجن أشد شراً منهم.

إنه اليوم هولوكو وليس بعيداً أن يكون من نسله، فهو خزري أشكنازي لا يبعد أن يكون من بقايا المغولية الهولاكية فجنكيز خان خلف طاغيتين.. هولوكو ومناحيم بيجن.

إنه اليوم الإمبراطور على صورتين.. صورة التدمير والقتل والتخريب في لبنان وعلى الأمة العربية كلها ومع هذا لا يصفه أعوانه بالإرهابي، وإن بدا الألسنة في أوروبا أن قالوا إنه نازي فاش، حتى الرئيس ميتران وصف التدمير في بيروت وفي لبنان كالتدمير الذي أحدثه النازيون في «الأودر» التي إذا ما ذكرها الإفرانسي بكى من أجلها ليعيش حقه على الألمان ومن أين أصبح هذا الإرهابي إمبراطوراً يسب الرئيس الألماني ويهدد الرئيس الإفرنسي ويهزأ بمارجريت تاتشر ويسقط هيبة الولايات المتحدة حتى لأحسب أن أي رئيس للولايات المتحدة من بداية حرب الاستقلال إلى الحرب الأهلية إلى الحرين العامتين إلى الموقف المعقد مع الصين والموقف المتأزم مع الاتحاد السوفياتي والموقف المضطرب مع العرب والموقف الخاسر في فيتنام

لأحسب أن رئيساً يشعر بضيق يحاصره أكثر من هذا التضيق الذي أحكم نطاقه هذا اليهودي الخزري الأشكنازي.. مناحيم بيجن.. على البيت الأبيض.

إن مناحيم بيجن لم يصبح إمبراطوراً على هذه الصورة إلا لأن الاتحاد السوفياتي سكت عنه، ولأن الرئيس ريجان قد أضاء له الضوء الأخضر ليغزو لبنان، فقد قال الرئيس السابق جيرالد فورد إن ريجان أذن لمناحيم بيجن أن يغزو لبنان ولكن بيجن قد تمادى.. شهادة أمريكي عظيم اتهم خصيمه واعتذر عنه.. ذلك من أدب السياسة أو بلاغة السياسي.

أما الصورة الثانية فقد أصبح بيجن إمبراطوراً لأن الذين سبهم من الرؤساء اعتذروا له وأصبح إمبراطوراً لأن العرب لم يصمدوا له ولم يتصدوا، وإنما أبيض وجه العرب حين صمدت منظمة التحرير ومن معها من اللبنانيين الصادقين فتصدت تحجز إسرائيل أن تفتح بيروت، فإسرائيل قد تعوّدت أن تنتصر في حرب خاطفة ولكن المساكين كان الله معهم قد حجزوا هذه الطاغية.

إن الإمبراطور بيجن من أجل ثمانية من اليهود هدد فرنسا كلها، لم يسأل عن صداقة ميثران ولا عن صداقة جيموليه فقال إنه سيأمر شباب اليهود داخل فرنسا ليحموا اليهود. ثمانية من اليهود قتلوا تقبل فرنسا هذا التهديد وتتلافى وقوعه تجند شرطة جديدة لحماية اليهود كأن الدنيا كلها قد أصبحت تجر اليهود إلى المقبرة فإن فلسطين هي مقبرة اليهود إن لم يكن اليوم فغداً.

إن هؤلاء الأشكنازيين أحسب أن هذا الأثر قد وصفهم هم لا غيرهم

«أن الله خلق خلقاً من غضبه وأسكنهم بالمشرق يسلطهم على من يعذب عباده».

إنهم سيعذبون فإنهم أبناء بابك الخرمي لعنه الله، ولكنه يوم يصابون «بالنغف» كما في حديث النواس بن سمعان وهو صحيح تصبح أرض فلسطين أرضاً منتنة من عفونة الجثث اليهودية التي تهلك في فلسطين لا يجدون قبراً وإنما يقبرون في البحر.

إنها نازلة فأين المساجد وقنوت النوازل؟

هل هي مصادفة

- لا أدري.. أهى مصادفة أن تشن إسرائيل الحرب على لبنان.. في الوقت الذي تجري فيه لعبة كرة القدم في إسبانيا.. تحت اسم المجد الكروي «كأس العالم».

وإذا ما صرفنا النظر عن المصادفة فهل كان ذلك التخطيط من إسرائيل أن تشن الحرب في هذا الوقت لأن الإنسان في هذه الدنيا قد جن جنوناً كروياً..

فإسرائيل تستمرى المأساة وتضع الكارثة في الوقت الذي ينشغل فيه الإنسان حتى شباب العرب - بهذه الملهاة.

ولتكن المصادفة.. وليكن التخطيط.. لكن البراعة في ذلك كله هي أن الغزو قد وافق شهراً انتصرت فيه إسرائيل في حرب ١٩٦٧.

كلاهما في واقع التخطيط سيان، فالمصادفة والتخطيط أعطت الخطوة لإسرائيل أن ينشغل عنها الناس بهذه الملهاة.

فقد سمعت أن عيوناً أدمعت.. وأعصاباً توترت.. وقد بالغوا أن أمماً أجهضت لأن البرازيل هزمت أمام إيطاليا.. مع أن انتصار إيطاليا انتصار الأم اللاتينية على الابنة اللاتينية والعجيب أن يتلهى العرب عن ما هو واقع في لبنان..

أكاد أسأل هل دمعت عين..؟ هل توترت أعصاب.. هل.. وهل..
إلى آخر ما وقع من أجل البرازيل لا من أجل لبنان..
ولا أعتذر من كلمة البراعة أصف بها العدو، فحكاية أنه غادر أو
مخاتل أو يمارس المكر إلى آخر ما هنالك، كلام لا يضع من قيمة النصر،
فالاعتراف بانتصار العدو مقدمة لعمل عربي يحاول الانتصار عليها..
فالتقليل من شأن العدو يساوي التقليل من الجهد العربي..
إن هذا المجد الكروي لإيطاليا والهزيمة للبرازيل قد أعطت الدليل على
أن بعض العرب يقولون أنا ومشاعري.. أنا وحياتي ومن بعدي الطوفان..
وظاهرة أخرى: فهذا الغضب من أجل هزيمة البرازيل لم يعادله غضب
عربي من أجل التصرف القذر الذي أخرج الجزائر من كأس العالم..
أتغضبون للبرازيل ولا تغضبون للجزائر تلك مشكلة ستضاف لها مشاكل
من هذا القبيل.. حتى يهزم المجد الكروي في مشاعر الناس.. وتنتصر
مشاعر الحق على العدو في مشاعر الإنسان العربي.

السفهاء يضحكون

أمور يضحك السفهاء منها ويبكي من عواقبها اللبيب

فالسفهاء ما زالوا يضحكون لما تفعله إسرائيل في الأمة العربية كلها. فكل ما فعلت في فلسطين وما تفعله الآن في لبنان ما هو إلا ضحكة السفهاء على العرب، لكنها ليست ضحكة الأصدقاء وإنما هي أضحوة الشقاق. أمة تنهب أرضها ويقتل أبناؤها وتبكي الفواطم والعواتك والزنانب.

ليس هو عمل اليهود وحدهم ليس هو عمل القوى العظمى وحدها، وإنما هو عمل الضعفاء في أنفسهم، خطباء شذق على منابر «هايد بارك» وفصحاء لسن يشتم بعضهم بعضاً، يقتلون قوتهم بالسباب ويعطون لإسرائيل قوة ما كانت إلا من استضعاف أنفسهم.

أما بكاء اللبيب فقد أصبح لا يذرف دمعةً لأن الدم المسفوح ينكر على الدموع أن تكون ثمناً له، الدم المراق في لبنان لا تكافئه الدموع. إن بكاء اللبيب صمت فيه التعذيب كل التعذيب، ومنه كلام يقال للصديق: كن صديق نفسك فاليهود لن يصدقوا مع صديق.

والسؤال الملح عن هذه السخرية التي تفعلها إسرائيل تطلب رد أسير واحد وإرجاع الجثث لتسعة من قتلهم ثم تزيد في السخرية ترسل يهودياً

من جيشها المحاصر لبيروت يستأسر لتنسف موافقتها تشترط إرجاع الأسير الأول وإرجاع الأسير الثاني، وفيليب حبيب الشامي المتأمر ك يحمل هذا الشرط ولا يقول لإسرائيل سائلاً عن مصير ألوف الأسرى من الفلسطينيين واللبنانيين. ما مصيرهم؟!

تنسف المفاوضات والاتفاق من أجل أسيرين يهوديين ولا يسأل فيليب حبيب ولا غيره من الذين ضحكوا أو الذين بكوا عن مصير الأسرى الفلسطينيين واللبنانيين؟!

هل ظلم أشد من هذا الظلم تباركه الولايات المتحدة ويتعاطف معه الاتحاد السوفياتي ولا نسمع كلمة من السوق المشتركة؟ إنه ظلم هو فجيرة التاريخ تاريخ الإنسانية جمعاء.

والسؤال الآخر الذي لم يسأله فيليب حبيب عن تحقيق المطلب الأمريكي أعني إخراج القوى الأجنبية من لبنان، فالفلسطينيون عرب ولبنان أرضهم رغم أنف كل ماروني لأن كل شبر من أرض العرب هو أرض للفلسطينيين كما أن كل شبر من فلسطين ولبنان هو أرض لكل عربي. إن المطلب الأمريكي أن ينسحب الأجانب الفلسطيني والسوري والإسرائيلي فلماذا لا نسمع عن الموعد المحدد لانسحاب إسرائيل؟!

سخرية مرة إن كانت على العرب اليوم فهي على تاريخ أوروبا وأمريكا وحتى على تاريخ القارات جميعها.

إن إسرائيل لا تريد الانسحاب من لبنان وبعض اللبنانيين قد يقولون عنها إنها الظئر الحنون حين ابتعدت فرنسا الأم الحنون عن نصره اللبناني. إن التاريخ سيفضح الأقوياء الذين تأمروا على لبنان من خلال تأمرهم على العرب فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وإن ذهب مع الريح!

- أمسكت إسرائيل بزمام الحرب فبعد حين وآخر تضرب ضربة قاصمة يسجلها التاريخ وينفعل بها العرب، فحارب العرب على قدر ما أطاقوا لكن حربيهم لا يخوضونها إلا فرادى متساندين.

إسرائيل تملك سلاحين.. الحقد والوفرة من السلاح، فحين أرسلت الولايات المتحدة الأسلحة أيام حرب العبور في جسر جوي شعرت بالخرج من حلفائها الذين منعوا عبور الجسر الجوي على أجوائهم، وشعرت بالخرج أكثر لأنها دخلت الحرب مع إسرائيل دون إعلان، فوجدت نفسها لا تكرر العودة إلى جسر جوي فاختلفت هي وإسرائيل ومن إichاعات الكهنوت اليهودي فكرة «التعاون الاستراتيجي» فأخذت من مستودعات «البنجاجون» الأسلحة المدمرة وحتى المحرمة تخزن في مستودعات في إسرائيل تحت اسم أنها أمريكية وأنها للاستعمال الأمريكي إذا مست الحاجة إلى ذلك.

بينما اجتياح لبنان بالغزو الإسرائيلي واستعمال إسرائيل للأسلحة المحرمة قد فضح هذه الخطة لأن إسرائيل حين غزت لبنان وفي الضوء الأخضر من الولايات المتحدة لا بد وأنها قد وضعت في حسابها أن يخوض بعض العرب الحرب دفاعاً عن الفلسطينيين، فأعدت ما لديها من

قوة مخزونة تجاه كل دولة عربية تجاورها. تجاه سوريا أو الأردن ومصر، فإن لديها من قوة السلاح ما تراه قوة تخوض بها الحرب الشاملة. كل هذا لدى إسرائيل أما العرب فلديهم الصبر والانتظار وبعض التسامح والأمل في الاتحاد السوفياتي والأمل بصورة أخرى في الولايات المتحدة فلعلها حين تفضح خططها تضغط على إسرائيل، وكأنما الولايات المتحدة تعرف ذلك فطرحت مبادرة الرئيس ريجان فأعطت شحنة مخدرة للصابرين والمتسامحين والآملين!!

إن الحرب تملك إسرائيل كل القوة لها، ولكن لدى العرب بعض القوة في الرأي العالمي الذي قد وضع إسرائيل في موضع النازية وفي الولايات المتحدة التي قد يستبدل شعبها عقدة فيتنام بعقدة لبنان خصوصاً بعد مجزرة صبرا وشاتيلا.

كلام لا بد أن نقوله وإن ذهب مع الريح، ولكن قد أجد فيه بعض ما يريح.

طبع في موسكو وواشنطن!

- دمشق على مرمى مدفعية اليهود هكذا توعد وهدد اليهودي (شارون).. يطلب من سوريا أن تنسحب من لبنان وأن تزول صواريخ سام من أرض البقاع العربية الشامية وما توقع أرييل شارون إلا حينما أبيع له بخطاب بعثه الرئيس ريجان إلى مناحيم بيغن نشرت إسرائيل الفقرة الخاصة تعلن فيها الولايات المتحدة موافقتها على سحب الصواريخ، الخطاب أباح لإسرائيل ذلك وكان من شرف العلاقة الدبلوماسية أن لا تذيع إسرائيل هذه الفقرة توضح أو تفضح السياسة الأمريكية فقد قال لسان أمريكي (إن إسرائيل خالفت العرف الدبلوماسي) ولكنني أعتقد أن مناحيم بيغن لا يذيع هذه الفقرة دون موافقة وزير خارجية أمريكا ألكسندر هيج - فلو لم تكن الإدارة الأمريكية قد وافقت على إذاعة هذه الفقرة لما كان الموقف احتجاجاً في صورة اعتذار.. أو اعتذار على صورة احتجاج - من هنا يتضح لنا أن إسرائيل قد أبيع لها أن تجتاح لبنان ولكن من الذي أباح أها الولايات المتحدة وحدها أم هم المليشيات أم هو الصمود دون التصدي أم هو الاتحاد السوفياتي حين طلب أن تنسحب إسرائيل بقوة الطلب الذي أرسله الشاذلي القليبي إلى الرئيس ريجان فالاتحاد السوفياتي أصبح بهذه الرسالة قد خيب الظن فيه نحو أصدقائه الذين ظنوا أنه معهم إلى أقصى حد.. كل الدنيا طلبت إسرائيل بالجلاء وإمبراطورية الكرملين من هؤلاء طلب ولا غيره

أن في هذا التصرف من الاتحاد السوفيتي إباحة لإسرائيل أن تفعل ما تريد في لبنان ضد سوريا أشد وأقوى من إباحة الولايات المتحدة فقوة الردع عند إمبراطورية الكرملين إذا ما تخاذلت أمام هذا الطغيان الإسرائيلي فإنها إمبراطورية البيت الأبيض على طريق واحد إن مناحيم بيغن يوضح أثر الرسالة هذه (إنهم في القدس لم يشعروا بأي تأثير لرسالة الاتحاد السوفياتي) ولعلّ الأيام تبدي لمن كان جاهلاً عما جرى بين وزير خارجية الكرملين ووزير خارجية البيت الأبيض في نيويورك فلعلّ كل منهما قال للآخر تبيح لنا ونبيح لك ألم يرضيكم أن نسكت عن الأفغان فقال الآخر ألا يرضيكم أن نسكت عن فوكالاند وأن نسكت عن إسرائيل في لبنان أي إنهما تصالحا على: نبيح لكم وتبيحون لنا وهكذا أي تحرك ينبغي أن نعرف أنه طبع في موسكو طبع في واشنطن.

الأفارقة وإسرائيل

- كانت هزيمة لإسرائيل أن قاطعتها الدول الأفريقية حرباً على العنصرية التي تئن منها القارة في كل بقعة من بقاعها وإن كانت مجسدة الآن في جنوب إفريقيا كلها.. فلا يزال البيض يرهقون السود.. فالحرب على العنصرية قبل الانتصار للعرب هي الدافع لأفريقيا إن قاطعت إسرائيل لا تكون معها علاقات سياسية!

فحمد العرب كلهم لأفريقيا ذلك فوجدت إفريقيا نفسها أمام عون عربي كبير صنعها شكر العرب لموقفها.. وحب العرب بقارتهم السمرء فالوشائج بين العرب شرق السويس.. والعرب غرب السويس في الشمال الأفريقي قوية الصلة بكل القارة الأفريقية الإسلام رسخها.. والحج أعلى وجودها كل هذا لا يعجب إسرائيل فسعت سعيها الحثيث لدى بعض الدول الإفريقية أن تعيد معها العلاقات.. ولكن يقظة العرب وعونهم ومواقفهم مع أفريقيا أخرت أن تستجيب دولة إفريقية لمطلب إسرائيل؟

وقد تكون الوحدة الإفريقية في منظماتها الحاجز القوي أيضاً لأن الدول العربية الإفريقية قد تتأزم علاقاتها مع منظمة الوحدة الإفريقية لكن تطبيع العلاقات بين مصر وإسرائيل قد أحدث هزة بدأت إسرائيل تراها فرصة يجب أن تقتنصها فسارع رجال منها إلى جس النبض في بعض الدول

الأفريقية.. وحرصت إسرائيل أن تستعجل فإذا فرنسا في ظل الاشتراكية تستجيب لهذا الاستعجال تعد أن تمارس الضغط على دول إفريقية لتعيد العلاقات مع إسرائيل..

وهذا لم يتضح من زيارة الرئيس ميثران بكلمة معلنة منه.. وإنما أعلن ذلك وزير خارجية إسرائيل شامير ولعلّ مساعي فرنسا بدأت.. ولعلّ الولايات المتحدة لن تتأخر عن ذلك.. ويتضح كل هذا من موقف الرئيس السنغالي عبده ضيوف فقبل أن يزور المملكة العربية السعودية صرح أنه لن يعيد العلاقات مع إسرائيل.. وبعد تمام الزيارة أكد ذلك بوضوح ويعني هذا أن طلباً قد وجه إليه من فرنسا أولاً و من إسرائيل أولاً أو من الولايات المتحدة ثانياً.. فإسرائيل وفرنسا في الموقف الموحد..

إن الرئيس عبده ضيوف قد أعلن موقفه.. وكأنه في الوقت نفسه قد أعلن أن حكومات إفريقية قد بدأت في طريق الاستجابة.. ولا يبعد ذلك عن بعض هذه الحكومات مادامت منظمة الوحدة الإفريقية في طريق الانشطار.. ومادامت بعض الدول العربية في طريق التأخر عن نيل الانتصار.

العصابة قتلته

- واتهمت إسرائيل منظمة التحرير بأنها هي التي قتلت سفير إسرائيل في باريس. فأرادت بهذا الاتهام أن تعطيها الولايات المتحدة الضوء الأخضر لتشن غارة على جنوب لبنان انتقاماً من قتلة الدبلوماسي اليهودي. وليس في وقاحة اليهود إلا أن يضعوا التهمة على منظمة التحرير. وحين سمعت خبر اغتيال الدبلوماسي وأن الذي اغتالته كانت امرأة، فقلت لبعض الصحاب إنها امرأة يهودية مجنونة، أمروها أن تغتال سفيرهم.. فإسرائيل العصابة كثيراً ما مارست ذلك، لأنها بذلك تجد من يعينها على مهاجمة الجنوب اللبناني. إنها امرأة ولا بد أن حولها من أحاطها بحماية وأنقذها، لئلا يمسك بها البوليس الفرنسي، ليخفي معالم جريمتهم - أعني جريمة اليهود - والعصابة حين فعلت ذلك أرادت أن تصيد عصفورين بحجر واحد. تخرج الحكومة الفرنسية، وتجد المبرر لضرب المقاومة الفلسطينية. ولكن الرئيس ميثران، وحتى وزير خارجيته كلود شيسون، لم يكونا جيموليه، وما صارا إلى الديجولية. إنما هما شرف فرنسا، فلا يمكن أن يقبلا هذا الاتهام تكيّله إسرائيل إلى منظمة التحرير، لأن قبول هذا الاتهام تسخير لفرنسا، وسخرية لها. والأوضاع العالمية وحاجة فرنسا إلى من صادقها من العرب ومن تريد أن يكون لها صديق منهم أيضاً يلزمها ألا تخضع للتسخير اليهودي. فإذا رئيس الوزراء ووزير الخارجية، وقبلهما الرئيس ميثران، قد كذب كل منهم

ما ادعته إسرائيل . وأحسبها إن لم تكن نقطة التحول في العلاقة بين إسرائيل وفرنسا، فقد تكون بداية أعلن بها كلود شيسون أنه كان في تل أبيب يوم أن زارها رجلاً فرنسياً واشتراكياً قد أسقط حينذاك المسؤولية يلتزم بها وزير خارجية، ولكنه حين عاد وجد أمامه مسؤولية الدولة، فبصروه ألا يكون مع إسرائيل إلى هذا الحد. فحياد فرنسا، ولو مؤقت، يصون كرامة فرنسا.

إن إسرائيل العصابة لا بد أن تسلك أسلوب النازية في الاغتيالات، كما أنها قد سلكت بعض السوابق البريطانية. فبريطانيا يوم كانت العظمى هي التي اغتالت السردار في مصر، لتجد المبرر في إسقاط سعد زغلول وإملاء الشروط الظالمة المنكرة على مصر. كما هو معروف من تاريخ تلك الأيام. إن الخطأ في التعامل مع إسرائيل على أنها دولة، مع أنها ليست كذلك، وإنما هي عصابة.

وأخيراً.. فإن نفت الحكومة الفرنسية التهمة عن منظمة التحرير أول الأمر فإنها بالأمس وكتحقيقات الشرطة لديها أعلنت الحكومة الفرنسية أن المسدس تشيكوسلوفاكي وأنه نفسه الذي اغتيل به مسؤول السفارة الأمريكية في باريس.

ولا يعني هذا إلا التبرئة لإسرائيل من أنها هي التي اغتالت سفيرها..

تجارة الأخبار

لا فائدة من التعليق على الأخبار، فوكالات الأنباء لم تعد صادقة فيما تذيع لأنها لا تتحرى الصدق ولأن الصدق إذا ما حرصت عليه يقل كسبها من الذين يتعاملون معها.. إنها تجارة تكسب من وراء هذه الأخبار. ولو لم يكن هناك خبر، لطبخت خبراً كاذباً. وبهذا أصبحت من عوامل التسلية، يلهو السامع بما يعجب أو ما يكرب. فأصبح الإنسان في هذه الدنيا أذناً تصنعها الألسنة جوفاً يبتلع الأخبار.

ومن الزيف الذي سمعناه أن طائرات إسرائيل، وهي تحلق على سواحل لبنان، قد تحرشت تتعرض لطائرات الأسطول السادس، حول ساحل لبنان. ويزيد الخبر زيفاً على زيف فيقول إن قائد حلف الأطلسي، قد احتج على إسرائيل كأن إسرائيل قد أصبحت قوة تتحدى الأسطول السادس كأنما هي في قوة الاتحاد السوفياتي.

ولنترك الزيف والكذب لنظهر الحقيقة فأولاً أن الأسطول السادس وقد أصبح على ساحل لبنان ما وجد هناك إلا لحماية إسرائيل، يضرب حصاراً لئلا يصل ما ترفض إسرائيل. وثانياً لئلا يخرج أحد من لبنان لا تريد إسرائيل خروجه.

فالتائرات الأمريكية الإسرائيلية تداعب طائرات الأسطول الأمريكي،

فالصورة أنها لإعلان الوجود الأمريكي على ساحل لبنان، ولإعلان التحدي والتصدي لما يسمونه القوة متعددة الجنسيات التي وافقت أمريكا على وصولها إلى لبنان، والتي تأخرت حكومة لبنان إلى الآن أن تحدد مطلبها. فإسرائيل لا تريد هذه القوة، والولايات المتحدة التي أعلنت أنها مشاركة فيها كمظهر شكلي لا تريد دخولها إلى لبنان. ومع هذا كله يريدون إخراج المقاومة الفلسطينية دون ضمان لحمايتها من غدر اليهود. فإسرائيل التي تعبث هذا العبث وتقتل وتدمر هل يؤتمن موقفها من أن تكون الغادرة لشن غارات على الفلسطينيين وهم ينسحبون؟

إن إسرائيل قد سدت الساحل على كل السفن في عرض البحر واقفة تنتظر إذن حكومة لبنان بينما الأذن لن يكون إلا إسرائيلياً أمريكياً أو أمريكياً إسرائيلياً. فتحرش الطائرات الإسرائيلية لعبة لإعلان التحدي وفرض الطغيان.

سلطان اليهود أضاع أخلاق الرجال

- وأرسل البابا كلمة صارخة حمل على الذين قتلوا ثمانية من اليهود في مطعم يهودي في فرنسا.

فالبابا أظهر عاطفته على اليهود ولكنه قد نسي أو تناسى النازية أو الفاشية الجديدة التي يمارسها اليهود في لبنان.. لبنان الغالية في عواطف البابا لأن كهنوت الفاتيكان يعرف أن المارونيين رعاياه في لبنان كما الكاثوليك في كل العالم، ولكن يظهر أن هذا التناسي جاء من أن إسرائيل تقتل المسلمين والأرثوذكس كأنما المسيحيين من غير الكاثوليك ليسوا في عاطفة البابا..

إن إسرائيل قتلت الألوف من الأطفال في لبنان والنساء ودمرت العمارات ومنعت تطبيب الجرحى.. تريد الموت للجميع.

كل ذلك لم يتحرك من أجله البابا مع أنه يحمل اسم يوحنا أي يحيى عليه السلام وهو يعرف - أعني البابا - أن اليهود قتلوا يحيى من أجل الغانية «سالومي» يعرف كل ذلك البابا، ولكن أصبح لليهود سلطان على الجيوب تلاشى معه السلطان على القلوب.

إن صوت البابا من أجل اليهود هو نكسة يغضب منها الحواريون.
وجاء البابا السياسي أمين هيئة الأمم المتحدة يعيب على قتلة اليهود في
المطعم وما سمعناه أن عاب على إسرائيل وهي تقتل الألوف من اللبنانيين.
لقد حذف من عاطفته الميثاق ومسؤولية الأمانة لأن سلطان الكاثوليك
كان هو الدافع مع أن الأمل فيه أن ينكر على اليهود ما فعلوه في لبنان
وكيف أهانوا هيئة الأمم وضربوا بقراراتها عرض الحائط مع أن المطلوب
منه أن يكون هو الخط الأول للدفاع عن قرارات هيئة الأمم والميثاق.
إن إسرائيل قد جعلت من مجلس الأمن وهيئة الأمم والرأي العام
العالمي منابر في حديقة «هايد بارك» وكان المطلوب منه مرة أخرى حيث
تسخر إسرائيل من قرارات هيئة الأمم أن يرفض أي قرار بحق الفيتو أن
يعتزل المركز ليكون إنساناً لكن سلطان اليهود أضاع أخلاق الرجال.

اليهود . . والتجنيد في أمريكا

- وهل هناك ما يمنع من أن أقمص عواطف مجند أمريكي لأطرح أسئلة يعجز الواقع عن الإجابة عنها . . وتستجيب الوقائع لأن تجيب عنها . . !

فالواقع . . وبالمخدرات تتجرعها عقول ما زالت مخدوعة بعواطفها نحو اليهود تتكسر الإجابة التي يريدونها المجند الأمريكي . . بينما الوقائع والأحداث وآلاف المجندين من الشعب الأمريكي في الحروب التي خاضتها الولايات المتحدة . . سواء كانت الحرب العامة الأولى أو الثانية . . أو الحروب المحلية الأخرى التي تلت . . فهي التي لديها الإجابة ولو في صفحات من التاريخ إن لم يتسع انتشارها الآن بعوامل التعرية التي يمارسها اليهود ضد أي كتاب أو خبر يفضح ما يفعلون . . ؟

إن هذا المجند الأمريكي تصور أنه يطرح هذا السؤال أولاً . . فيقول:

كم عدد المجندين من اليهود والصهاينة الذين خاضوا الحروب تحت العلم الأمريكي . . ؟

ففي الحربين العالميتين (الأولى والثانية) قد لا يكون هذا السؤال يجد الإجابة في إحصاء يبين عدد اليهود . . فقد كانوا قلة لم يصل سلطانهم إلى هذه المواقع التي وصل إليها الآن! ولكن:

كم عدد المجندين في الحرب الكورية من اليهود..؟ وفي الحرب
الفيتنامية؟ أو هو كم عددهم الآن في الجيش الأمريكي في أوروبا؟
ثم كم سيكون عددهم في قوة الطوارئ السريعة الانتشار..؟
إن الإحصائيات ستفجع المجند الأمريكي من الشعب الأمريكي الذي لا
يحمل إلا ولاءً واحداً للعلم الأمريكي..؟!

على العكس من اليهود الذين يدينون لأكثر من ولاء للشيوعية..
لإسرائيل. وبعد ذلك تستراً للولايات المتحدة الأمريكية!

لقد تقمصت عواطف المجند الأمريكي لأطرح سؤالاً كعربي.. سمع
صرخات إسرائيل تصر على أن تمنع الولايات المتحدة من أن تباع السلاح
للعرب وللمملكة العربية السعودية بالذات بحجة الغانية للعب.. فقد
قالوا: إن بيع هذه الطائرات للمملكة العربية السعودية يكشف تحركات
الطيران الإسرائيلي حجة ليس فيها شيء من الولاء للولايات المتحدة
الأميركية.. فكل الشيء فيها أنها عجرفة وخطرة على الولايات المتحدة
الأميركية؟!

فهل تستطيع الولايات المتحدة أن تفرض على إسرائيل موطن قدم
لجندي أمريكي.. لو استطاعت أمريكا ذلك لأمكنها أن تستغني عن القوة
المتعددة الجنسيات تحمي سلامة إسرائيل من مصر.. بل تحمي إسرائيل لا
من مصر وإنما حينما تخوض إسرائيل حرباً ضد أي بلد عربي..

فهذه القوات المتعددة الجنسيات هي كقوة الطوارئ حماية لعدوان
إسرائيل وطغيانه والخضوع تطيع به الولايات المتحدة إسرائيل فلا تباع
السلاح للعرب هو ليس هو حماية إسرائيل.. وإنما هو العطاء لإسرائيل
لأن تشهر حرباً على أرض عربية وقتما تشاء وكيفما تشاء..!

استجداء اليهود

- في إسرائيل صراخ وضجة حين اقترح وزير ماليتهم التقشف في الميزانية والتجميد لبناء المستعمرات وصدرت الميزانية وليس فيها التجميد للمستعمرات بصراحة، فهل كان الصراخ عن ثقة بأن المال ينقص إسرائيل. أم كان ذلك كما هو الصحيح حملة استجداء لتجنيد اليهودية العالمية والنزح من حصيلة الضريبة يدفعها الشعب الأمريكي؟

لا شك عندي أن هذا الضجيج وتلك الصرخات قد استنجدت باليهودية العالمية والصهيونية أن تغيث ميزانية إسرائيل، وإلا فلا بناء للمستعمرات.

هكذا دأب اليهود، فنحن نخدع أنفسنا حينما نذيع الحين بعد الآخر بأن إسرائيل تعيش تحت أزمة اقتصادية فما دام العون يمد يده لها يسرع بالاستجابة فلا معنى لأن نفرح بأن إسرائيل تعيش أزمة اقتصادية.

فادعاء الأزمة في إسرائيل استغاثة من الأعوان وحرب التجويع لساكناً الضفة الغربية وغزة من هؤلاء الذين لا يستطيعون المقاومة. والذين يعيشون المأساة الآن حين قُتلت المقاومة.

فإسرائيل لن يجوع يهودي فيها. فالمدد موجود. أما الإعلان عن الإفلاس والأزمة فمخطط لإرهاق الشعب الفلسطيني حتى إذا ما جاع وسلط عليه الإرهاب يهاجر، فإسرائيل جادة كل الجد في تفرغ الأرض.

فلو أن هناك إحصاء للذين هاجروا فأفرغت الأرض منهم لكانت هناك الألو ف والألو ف تركوا الأرض لإسرائيل مرهقين، سلط عليهم الإرهاب. حتى إني أجريت حواراً مع فلسطيني مثقف، كان هنا.. قلت له:

ستنجلي الغمة لتعود إلى فلسطين.. فقال: متى؟!

قلت: حين يتعلم العرب صناعة الموت، حين يأتلفون ولا يختلفون حين لا يسمحون لمن سكت لسانه ونطق سنانة يسلط الإرهاب على المقاومة بالصورة البشعة التي هي كأشع ما تكون من صنع اليهود في فلسطين.

إن إسرائيل ستبني المستعمرات، وأن إسرائيل بعد حين ستجد الأرض فارغة ويصبح الذين سيكون على فلسطين تأخذهم صحوة ليكون بكاؤهم على أنفسهم..

ثم قال: لن أعود إلى فلسطين!

قلت: لماذا؟!

قال: ليس لي بيت وليست لي أرض.

قلت: دعني لا أسمعك بعد الآن وإياك أن تقول.. أنا فلسطيني..

القرصنة

- و مر حادث القرصنة خبراً دونما تعليق، كأنما المعلقين قد سئموا طغيان اليهود، فلم يعودوا قادرين على الملاحظة لما تفعله إسرائيل وليس ذلك عن عجز أصيبت به عواطفهم، أعني عواطف المعلقين. وإنما هو السأم والملل، فينصرف الكاتب إلى كلمة حق «إنا لله وإنا إليه راجعون».

فالقرصنة التي أعنيها هي سَوْقُ السفينة القبرصية تحمل عرباً لبنانيين، تسوقها زوارق اليهود إلى ميناء حيفا أسرى، بل وفيهم سبايا من بنات العرب.

أهي عملية إذلال، أم هي عملية غطسة؟

كل ذلك قد كان. ولكن هذه العملية وفي تقديري، أو هو يقيني، إنه إعلان عن فرض الحصار في غرب بيروت وليس على شرقها. وذلك ليعلم من هم غرب بيروت من المسلمين سُنة وشيعة، إمامية ودروزاً، بأنه لن يصل إليهم سلاح عبر البحر، يفقدون بعدهم قوة المقاومة لمن يقاومون.

فشرق بيروت وإن قل المدد من السلاح لهم من الأولين الذين أمدوهم، فإن البحر مفتوح يتلقون المدد منه، فإسرائيل لم تحاصره، والذين هم مع شرق بيروت لا ييخلون بمدد من السلاح.

من هنا، أحسب أن وليد جنبلاط قد سحب القوة التي في يده من

غرب بيروت إلى الجبل، يمتنع بالجبل وبالكثرة من أعوانه، وبالمدد من أعوانه أيضاً على شراسة المقاومة ضده.

ويبقى الآخرون الذين أصبحوا بين نارين.. نار إسرائيل في الجنوب، والنار الأخرى من شرق بيروت.

ومرة أخرى.. لا يزال لبنان في هذا الحريق، صنعه أبنائه أولاً، وبدأت تصنعه قوى أخرى.

ولئن سكنت بيروت في هذه الفترة فقد بدأ المردة يتمردون على الوفاق في الشمال، في طرابلس المسلمة.

الرواية بعد لم تتم فصولاً.

لو لم أكن عربياً؟

- ولو لم أكن عربياً لتمنيت أن يطول أمد المفاوضات في لبنان، تفرض إسرائيل ما تريد ويتنصب عضل لبنان ليرفض، فإذا ما طال الأمد بهذا العناد الإسرائيلي فلن يخسر لبنان أكثر مما خسر، ولكن تخسر الولايات المتحدة كثيراً من هيبتها وسمعتها.

فلقد شعر الرئيس ريجان بكل ذلك، فإذا هو يصدر أمراً يمنع به شحن ٧٥ طائرة من طراز «إف ١٦» منحت لإسرائيل من قبل، فلا تشحن إلا بعد الجلاء عن لبنان. ظاهرة من التهديد، فهل تنصاع إسرائيل لهذا التهديد؟

ولئن قال أحدهم من الذين لا يصدقون هذا التطور في سياسة الولايات المتحدة أو هو التغيير، ليس ضد إسرائيل مائة في المائة، وإنما هو قد يكون فيه استرضاء لأصدقاء الولايات المتحدة من العرب، فإن هؤلاء الذين لا يصدقون يزعمون أن إسرائيل ليست الآن في حاجة إلى هذه الطائرات، فعندها ما يكفيها للدفاع، أو ما يزيد على كفايتها في الهجوم وإنما كان المنع قد وقت له ليكون تكديماً عملياً لبيان الاتحاد السوفياتي الذي حذر إسرائيل من الهجوم على سوريا، يعني أن هذا يعلن أن إسرائيل لن تشحن لها الطائرات لأنها ليست قد وضعت خطتها للهجوم على سوريا. ولكني لا أصدق هذا الاتهام، بل أعتقد أن الرئيس ريجان جاد كل الجد لتجلبو

إسرائيل عن لبنان لأنه يطمع في أن يكون لبنان صديقاً للولايات المتحدة، رديفاً يمتد به الخط من لبنان إلى تطوان. هذا من صالح الولايات المتحدة، فالمنع ضغط على إسرائيل، وإسرائيل في الوقت نفسه لا تريد أن يكون لبنان متأمركاً، لأن وجود أمريكا في لبنان قد يسبب غضاباً للاتحاد السوفياتي، تحرص إسرائيل ألا يكون، لا حماية لأمريكا وإنما عوناً خفياً للاتحاد السوفياتي.

حبذا لو أن الرئيس ريجان يمنع هذه الطائرات، وليضيف إلى ذلك منعاً آخر وهو منح إسرائيل أكثر من ٤٠٠ مليون دولار عوناً فوق كل عون. فقد أعلن الرئيس السابق جيرالد فورد في حديثه لجريدة «الجزيرة» تخطيطه للكونجرس إن منح إسرائيل هذا العون، فإذا كان هناك ضغط أمريكي فليكن منع العون من كل لون.

وماذا يفيد منع الطائرات في الضغط على إسرائيل إذا ما جلت عن لبنان لتجلس على مائدة المفاوضات؟ فالجدد كل الجدد أن تعطي الولايات المتحدة أصدقاءها من العرب كل ما يحملهم على تصديق هذا التطور في سياسة الولايات المتحدة.

مناورة للاسترخاء

- وهل بدأ الموقف الأمريكي يحدث تأثيراً في إسرائيل؟ أم أن ما ينشره بعض الصحفيين اليهود وما يصرح به بعض الوزراء في حكومة إسرائيل هو من قبيل المناورة، يسمحون بالموقف المعارض ليصل أسلوب المعارضة إلى درجة التكذيب لرئيس الحكومة، فقد نسفوا كل تصريحات بيجين وشارون وما أدلوا به لدى اللجنة القانونية نسفاً حين قالوا إنهم كذابون أو إنهما كاذبان! ذلك أن مذبحه «صبرا» و «شاتيلا» قد ساقوا لمباشرتها سعد حداد بإذن منه وأسلحة منه وبمخطط مدروس، فمناحيم بيجن كرئيس حكومة لا يقبل منه أنه لا يعلم بهذه المذبحة إلا بعد حين. هم اليهود قوالون للكذب سماعون للكذب، أكالون للسحت في عقيدتهم إباحة سفك الدماء لكل أبناء الأمم غسلت أفئدتهم بعقيدة المخلص فلا ذنب على يهودي اقترافهم كل ما يريدونه حلال، كل ما يشتهونه عطاء لهم خاصة، فقد استباحوا في كل تاريخهم الدماء والأعراض.

أكاد أميل إلى أن هذه المعارضة قد خططوا لها لتكون مناورة تسترخي بها حملة الإدارة الأمريكية كما هو جار في أكثر من مرة غير أنني أريد أن أسأل الإدارة الأمريكية: هل لديها علم بتاريخ اليهود ولماذا عذبهم الأسبان وأحرقهم هتلر، كما أن الشعب الأمريكي في أكثر من ولاية مازال يكن

البغضاء والاحتقار لليهود؟ وهل سألوا أنفسهم: لماذا يتكلم اليهود ويعيشون في ظلام الحارات والأقبية؟ فلو قرأ هؤلاء المخدرون بالدعاية اليهودية الأسباب التي جعلت اليهود يخربون أي بلد حلوا فيه. أنهم إن فعلوا ذلك سيجدون أن سكوتهم عن طغيان إسرائيل في الأرض العربية على الشعب الفلسطيني على الأمة العربية ظلم من إمبراطورية تدعي أنها صانعة السلام ولم يكن السكوت وحده ولكن العون بالسلاح والنفوذ وتعطيل مجلس الأمن.. كل ذلك يجعل الولايات المتحدة شريكاً في كل ما طغت به إسرائيل وكم نحب أن الولايات المتحدة تنزع نفسها من هذا السلوك الذي يحطم صداقتها مع العرب ويجد الاتحاد السوفياتي مجالاً واسعاً لنفذه.

إن قوة السلاح في يد الولايات المتحدة أصبحت معطلة في مواجهة الاتحاد السوفياتي كما أن قوة الاتحاد السوفياتي أصبحت معطلة في مواجهة الولايات المتحدة ولكن الموقف مع إسرائيل ليس سلاحاً في يد الولايات المتحدة ضد الاتحاد السوفياتي وإنما هو سلاح ضد الولايات المتحدة وفي يد الاتحاد السوفياتي!

أسلوب اليهود

- بعض مراكز الإعلام العربية تنشر أخباراً عن إسرائيل فرحة بها، كأنما تزف البشرى للعرب حين تخبرنا بأن في إسرائيل أزمات، وأن السلام سيتحقق بالانتخابات، وأن البوليس الإسرائيلي أمسك بإرهابيين من اليهود، قتالين ومدمرين يريدون تفجير السيارات الحافلات التي يملكها الفلسطينيون ..

إن هذه الأخبار التي تعلنها إسرائيل، حتى تستحوذ على الرأي العام العالمي على أنها ديمقراطية، وتخدر الشعوب العربية حين يظن العرب أن هذه الأزمات تنال من إسرائيل ..

مع أن الواقع عند الذين عرفوا تاريخ اليهود وقرأوا البروتوكولات وسمعوا عن التلمود وعن العصابات المدمرة والنهليست، يعرفون أن اليهود يفتعلون ذلك للتدجيل والتمويه.

وهم بالفعل قد وصلوا إلى حد أن الإعلام العربي قد انخدع بذلك. وحرام أن لا نزال المخدوعين!

وعلى صورة أخرى، يذيعون عن الحاخام المتطرف «كاهان» بأنهم لا يقرّون أسلوبه، مع أن كل ما يجري داخل إسرائيل مما يذيعون انهم لا يريدونه، هو من تخطيط وضعته الحكومة وأقره الكهنوت اليهودي العالمي.

فلا أظن - وأنا على يقين - أن أي يهودي أعلنوا أنه متطرف إلا وهو صورة من بيجن أيام بن غوريون. فاليهود شعب تتوحد تصرفاته بكل الأذى وعلى كل إنسان، وإن افترقوا في بناء الفرد اليهودي. فالفرد اليهودي يبني ذاته ولكنه يتفانى إذا ما دعت إليه رسالة الكهنوت اليهودي.

هذه القلة ما صمدت أمام العذاب والتشريد وسكن السرايب إلا بعاملين. . الفرد يبني ذاته، والكل للجماعة. فما يناله الفرد متعة لذاته وسلاح في يد اليهودية العالمية. .

كليمنصو واليونان

- وتبرعت اليونان، ترسل سفناً خمساً يبحر عليها الفلسطينى الطريد من بلده، المشرّد من أرضه، المقتول برصاصة أخيه وسلاح اليهود. تبرعت اليونان كأنها أضافت إلى مجد الفلسفة وثقافة الإنسان العريقة في القدم مجداً جديداً يعرفه العرب الآن كما قد عرفه العرب قبل الآن.

تبرعت بهذه السفن كأنما هي تشير إلى الدنيا تقول.. إن فيثاغورس وإقليدس وسقراط وأرسطو وأفلاطون وهوميروس هم الأصدقاء المعلمون لكثير من فروع العلم، لابن سينا والفارابي وابن رشد وجابر بن حيان ومحمد بن موسى الخوارزمي والبيروني ومن إليهم من الذين حين أظلمت الدنيا على حضارة اليونان أشرق بها اللسان العربي على دنيا الإنسان اليوم. فما من إنسان اليوم إلا وعليه بصمتان.. على الخد الأيمن بصمة العرب المسلمين، وعلى الخد الأيسر بصمة الإغريق.

اليونان تبرعت بهذه السفن، واليهود ومن إليهم يهددون بالفرع والخطر على هذه السفن. وجرت المفاوضات وجيوش الغرب في لبنان لم تحرك ساكناً لردع إسرائيل، غير أن فرنسا لسبب أو لآخر، ولعلّ السبب الأقوى هو أن فرنسا طريق الحضارة إلى الغرب عبر جبال البرنات (البرانس)، أشفقت على نفسها ألا تكون نصير حضارة، احترقت نفسها أن تكون

حارسة حقوق الإنسان، تضغط على عواطفها مع اليهود حين طغت عليها عاطفة حضارة، فإذا هي ترسل أسطولها يحمي سفن اليونان، يحمي الفلسطيني ياسر عرفات كما يحمي البنات والأمهات من غائلة اليهود.

أربعة آلاف فلسطيني تحميهم فرنسا، فمهما كانت الأسباب فإن فرنسا قد وضعت قيداً من الدين على العرب، كما وضعت الإدانة على بعض العرب، وعلى الإمبراطوريتين اللتين لم يتبرعا بالضوء الأحمر أمام إسرائيل. ولعلّ فرنسا حين أرسلت حاملة الطائرات «كليمنصو» لم تنس كما ينسى العرب أبطالهم.

إن «كليمنصو» كان رئيس الوزراء في فرنسا أيام الحرب العالمية الأولى، أطلق عليه شعبه الفرنسي لقب «النمر» منقذ فرنسا.

ورغم أن «كليمنصو» كما وصفه حليفه «لويد جورج» رئيس الوزارة البريطانية حينذاك بأنه نابليون، فقد سألوا «لويد» جورج حين خرج من القاعة في قصر «فرساي».. ماذا تركت في القاعة.. أو من تركت في القاعة؟

قال: تركت رجلين، أحدهما يريد أن يكون نابليون، يعني «كليمنصو»، والآخر يريد أن يكون المسيح، يعني الرئيس ويلسون رئيس الولايات المتحدة حينذاك.

قال: «لويد جورج» ذلك لأنه أراد أن يرث الإمبراطورية العثمانية كلها، و «كليمنصو» أراد أن يتقاسم معه التركة، بينما «ويلسون» بالمبادئ الأربعة عشر لا يريد للعالم أن يكون تركة بين الإمبراطوريتين.. إنجلترا وفرنسا.

وحجب الفرنسيون أصواتهم عن انتخاب «كليمنصو» رئيساً للجمهورية،

فاعتزل، وهناك مُلحة نذكرها، فقد كان يتريض في إحدى الحدائق في باريس، فإذا فتاة تسأل أمها.. من هذا الجالس هناك؟!

قالت: إنه النمر.. منقذ فرنسا.. مسيو «كليمنصو».

فقالت الفتاة لأمها: أهو مثل «جان دارك»؟!

قالت الأم: نعم.

فقالت الفتاة: لماذا لم يحرقوه؟!

وسمع «كليمنصو» ذلك فقال بحسرة العظيم وشقاء العظيم:

ها أنا أنتظر الإحراق منذ الآن!

وإضافة إلى سيرة «كليمنصو» فقد قال كلمة مجنحة يصف رئيس الجمهورية «بونكاريه» ووزير الخارجية «باريان».

قال: «بنكاريه» يعرف كل شيء ولا يفهم شيئاً.. و «باريان» لا يعرف شيئاً ويفهم كل شيء!!

وهكذا فرنسا: لم تحرق «كليمنصو». بل إنها زخرفت اسمه تطلقه على حامله طائرات تحرس حقوق الإنسان من طغيان اليهود.

المتطرفون اليهود

- وأذاعت وكالات الأنباء أن بعض اليهود أرادوا تفجير المتفجرات في المسجد الأقصى، يهدمونه بعد أن حرّقوه وتضاربت الأخبار، هما يهوديان هربا من الحراس، ثم قالوا إنهم اليهود المتطرفون، ثم خرجت الإذاعات العربية تعلن اعتراف رئيس البوليس الإسرائيلي بأن هؤلاء المتطرفين هم من اليهود. وعجبت أن يكون هذا الاعتراف مقنعاً.

كل اليهود بالنسبة للمساجد سواء، وإنما إعلان أنهم متطرفون تبرئة لحكومة إسرائيل، ونذيع هذه التبرئة على لسان رئيس البوليس. مع أن الحقيقة أن هؤلاء لم يصنعوا ما صنعوا إلا بعلم الحكومة وتخطيطها أرجافاً بأهل المسجد وإعلاناً للعرب وغيرهم أن الحكومة بريئة.

هذا أدب اليهود، يتبرأون مما يخططون ويفعلون. وهذا أيضاً دأبنا نصدق التبرئة لهم.

ولكن ألم يكن الوضع الجديد في إسرائيل بهذا الحلف بينها وبين الولايات المتحدة نضعه في موقف المسؤولية؟

لقد كان العون الأمريكي أخلاقياً، وأصبح العون تعاقدياً. أفلا يكون هذا التعاقد مسؤولاً عن كل ما تفعله إسرائيل؟

إن هذا السؤال ليس له جواب. وإنما الجواب أن إسرائيل تفعل ما

تريد وأنه السكوت من أعوانها على كل ذلك . كأنما العون أخلاقياً يُعطى
لإسرائيل ، والاعتراض على حرق المسجد والعبث بالمعابد الإسلامية
والمسيحية أمر لا يُرفض أخلاقياً؟!

هكذا تكون المفارقة في التعامل أخلاقياً؟!

إن الأخلاق اليوم في هذا الوضع هي كالحرية أيام الثورة الفرنسية،
فحين طعنت «شرلوت كورداي» الفتاة الفرنسية أحد زعماء الثورة الدمويين
«مارا» قالت «شرلوت كورداي»:

«آه.. أيتها الحرية.. كم من جرائم ترتكب باسمك!» ويصح لنا الآن
أن نقول:

«آه.. أيتها الأخلاق.. كم من جرائم ترتكب باسمك!»

إنسحاب إسرائيل

- وتوالت الأخبار يزعمون أن إسرائيل تريد الانسحاب من جنوب لبنان، شمعون بيريز جعله مبدأ، وشامير ينفيه حيناً ويعترف به حيناً.

إن إنسحاب إسرائيل من جنوب لبنان لا أتصور إلا أن إسرائيل ستقبض ثمن الانسحاب. لا لأنها تريد امتلاك الأرض وإنما كل ما تريده أن يكون جنوب لبنان كسيناء تخوض الحرب في غير ما تزعم أنه أرضها، فإسرائيل لم تشن عليها حرب داخل فلسطين المحتلة، وإنما كل الحروب التي خاضتها أو الحروب التي قاومتها ما كانت إلا في سيناء وإلا في الجولان.

فهي تريد من جنوب لبنان إذا ما وقعت حرب بينها وبين سوريا أن يكون هو الميدان، تشن الحرب منه أو تقف للدفاع فيه تتوقى أن تشن الحرب عليها في فلسطين.

فهل ضمنت ذلك؟

أحسب أنها ما زالت تعتمد على أنطوان لحد ومن إليه من هؤلاء اللبنانيين الذين في الظاهر انشقوا على كل لبنان. وفي الباطن لم ينشقوا إلا على بعض اللبنانيين.

فالجيش بقيادة أنطوان لحد في جنوب لبنان عون لإسرائيل، سيكون هو خط الدفاع الأول عنها إذا ما انسحبت.

والثمن الثاني هو التقتيل للفلسطينيين والوعد من الحريصين على السلامة لإسرائيل والسلامة منها عليهم لا بد وأنهم يوفون بالوعد يحاربون البقية من الفلسطينيين.

أمر دُبّر بليل، يفرح سامع الخبر بأنه الانسحاب، ويجزع عارف الخبر بأنه ضربة يتم بها شتات الوحدة بين اللبنانيين.

وبدأت إسرائيل تدفع الثمن على صورة أخرى للذين هم معها، تضرب من البحر غرب بيروت.

إن الانسحاب ما هو إلا احتلال مقنّع لأرض لبنانية والغريب أن هذا الاحتلال تقوم على حراسته مع الميليشيات المنشقة أكثر من جهة أولها قوات أمن الأمم المتحدة. سلاماً لإسرائيل وحرباً غير مباشرة على من يحارب إسرائيل...!

طغيان اليهود قاتلهم

- إن تاريخ اليهود بعد ملك الرسول النبي سليمان عليه السلام وقبل انتصار داود عليه السلام عرفنا منهم أنهم كانوا الطغاة على أنفسهم، لأن عصيان الشعب ينحرف عن عقيدته وينجرف نحو شهواته يحدث الفرقة وتشتت الفكر. ذلك السبب في أن كتب عليهم الله الذل والمهانة، فمهما اعتزوا في أي وقت فما كان ذلك رافعاً عنهم الذل والإهانة. طغيانهم كان من عذاب الله لهم أن تم عليهم السبي فأفسدهم السبي إفساداً مع فساد، فتفرقوا يتبعثرون في كل أرض، فلا يظن ظان أن عقيدة التوراة هي التي جمعتهم. إنهم لا يؤمنون بالبعث ولا بالعقاب والثواب ولا بالجنة والنار، فانتفت العقيدة الرادعة فتكوّنت لديهم عقد استحالت إلى عقيدة عمل هي عمل الشهوات وقتل الإنسان وتخريب في كل مكان. فكلما طغوا من حيث حققوا شهواتهم كان الطغيان هو الذي يهلكهم.

هلكوا في كل شرق، وتهالكوا في كل الشرق، وحين اعتز لهم سلطان في الغرب وفي أوروبا بالذات ومارسوا السحر والشعوذة وامتصاص الدماء، كانت أوروبا حرباً عليهم، فليست النازية أول من حاربهم وقتلهم.

وإنهم الآن قد ملكوا سلطان الطغيان بهذا الجيل من الناس، والنذر قريبة تبشر بأن طغيانهم سيهلكهم. فإذا ما أهلكهم الطغيان تنصب المذلة

على أنصارهم. نصرهم بعض من في الغرب فأين هم الآن من عز
الإمبراطوريات؟

إنهم يعيشون الخوف من صواريخ نصبت ضدهم وصواريخ هي ضدهم
وإن نصبت حماية لهم.

ما استمر لهم طغيان إلا أصابهم بالهلاك، وأصاب كل من ناصرهم
بالذلة. أفليس استجداء الود من الاتحاد السوفياتي ضرباً من الخوف، أو
ضربة من الذل؟

استرخاء اليهود

- وأصبحت إسرائيل على مقاعد المسرح تشاهد التمثيلية التي تمتزج فيها المأساة مع الملهاة تمثل على مسرح لبنان. هي التي ألقت الرواية وهي التي أخرجتها وشاركت في تمثيل دورها. أما ديكور المسرح فقد صنعه الآخرون من كل طرف في هذه المأساة أو هذه الملهاة. فكل الذين مثلوا على المسرح بطل ولعلها الرواية الوحيدة التي كل من مثل فيها أبطال لأن هؤلاء الأبطال يريد كل منهم أن يكون غانماً لا غارماً.

وبدأت إسرائيل عملية الإسترخاء كأنها لم تفعل شيئاً. فاستقالة مناحيم بيغن استرخاء، ومطالبة الوقت في عدم تشكيل الوزارة استرخاء، تكسب منه إسرائيل امتصاص النقمة، وتستريح وقتاً لتنفيذ جديد حتى إنهم «أعني الإسرائيليين» قذفوا الدنيا بجرعة مخدرة يزعمون تشكيل حكومة إئتلافية يشترك فيها من يسمونه حزب العمل.

وتبدأ الجرعة بمخدرها الأقوى حين أذاعوا أن حزب العمل يشترط تجميد بناء المستعمرات في الضفة الغربية وغزة والجولان، كما يشترط الانسحاب الكامل من لبنان.

إن هذه الجرعة مخدر قوي يحدث الانتعاش في بعض العرب ويزيد الابتئاس في بعض العرب وتتضح الضحكات والقهقهات في أشداق اليهود وبراطم الأصدقاء.

إن الرواية لم تتم فصلاً!

خبر وتعليق

وزير الحرب الإسرائيلي اليهودي كان في رومانيا وحين وصل إلى فلسطين صرح بأن إسرائيل لن توافق على أن تكون مستجيبة لمؤتمر يعقد لتسوية ما يسميه «مشكلة الشرق الأوسط».

هذا الخبر يطرح أسئلة وتأتي الإجابة كما يلي:

(١) لا بد أن إسرائيل أحست ومن الأخبار المتناثرة ولا أقول المعلومات المؤكدة لا بد أنها علمت من خلال البيانات المشتركة التي صدرت عن موسكو بأن الاتحاد السوفياتي يوافق على انعقاد هذا المؤتمر.

(٢) ولا بد أن تتحرك إسرائيل، تضع الاتحاد السوفياتي في صورة ما تريد وما تفرض وما ينبغي للاتحاد السوفياتي أن يكون على علم به.

(٣) وليست هناك علاقات بين إسرائيل والاتحاد السوفياتي كما هو معروف.

(٤) فرحل وزير الحرب إلى الباب المفتوح بينه وبين الاتحاد السوفياتي إلى رومانيا هي الدولة الوحيدة من إمبراطورية حلف وارسو التي أبقت علاقاتها مع إسرائيل كما بقيت بأسلوب أو بآخر أن تسير على علاقات حسنة مع بعض الدول العربية.

(٥) فرومانيا كانت الباب الأول وسيطاً لزيارة القدس حين زارها أنور

السادات وما زالت هي الوسيط بين إسرائيل والاتحاد السوفياتي وكانت زيارة وزير الحرب قد منحته الخبر اليقين .

(٦) والخبر اليقين هو أن الاتحاد السوفياتي أعلن استعداداه لهذا المؤتمر ولا يستطيع أن يكذب نفسه ولكي يكون الاتحاد السوفياتي في حل من هذا الخبر نصحت رومانيا لإسرائيل ألا تنسحب .

فالاتحاد السوفياتي لن يجزع من هذا الرفض بل تلك هي رغبته تلقاها وزير الحرب الإسرائيلي في بخارست ويعني ذلك مرة أخرى العطاء للولايات المتحدة ألا يكون رفض هذا المؤتمر يأتي منها فليأت من إسرائيل ، فكلا الإمبراطوريتين أصبحتا في حل لأن ذلك هو ما تريده ليبقى الوضع على ما هو عليه ، تكسب كل منهما النفوذ وتجربة السلاح وثمان السلاح من العرب الذين يشترون السلاح !

أمريكا لا تريد

وأصدر مجلس الأمن القرار تلو القرار يطلب من إسرائيل إيقاف القتال والانسحاب حول بيروت بعض هذه القرارات وقعتها الولايات المتحدة وبعضها امتنعت عن توقيعها، ولعلّ امتناعها عن توقيع القرار الأخير الذي تبنته أسبانيا والأردن كان بشفاعة الاتحاد السوفياتي، لأنه صاحب القرار كمشروع قدمه لمجلس الأمن تبنته أسبانيا والأردن.

رفضت إسرائيل هذه القرارات لأنها وكما كانت من قبل لم تعد تحترم مجلس الأمن وهيئة الأمم بل إنها في أكثر مواقفها تسخر منهما.. فهل كل ما تفعله إسرائيل لا يستند إلى تأييد الولايات المتحدة وإن تظاهرت بأنها غير راضية عن إسرائيل فيما تفعله من التدمير والتخريب والقتل والتجويع للملايين من اللبنانيين والفلسطينيين الذين تجتاح أرضهم بينما لبنانيون آخرون يفتحون الطريق لها ولم يعد يهتمون بتدمير بيروت لأن الحقد الصليبي قد تحالف مع الحقد اليهودي. كل منهما لا يشغله إلا تدمير العربي المسلم.

وزادت إسرائيل في عجرفتها وغطرستها فهي لم تعد ترفض قرارات هيئة الأمم ومجلس الأمن فحسب.. بل إنها أعلنت رفض التحذير الأمريكي حيث أذاعوا أن مناحيم بيغن حين سمع أو حين وصل إليه أن الولايات المتحدة ستمارس فرض العقوبات، فقال: «إن تهديد الرئيس ريجان» يحاول

به فرض العقوبات على إسرائيل لن يخضع له إسرائيل.. فليس هناك قوة على الأرض تحمل إسرائيل على الركوع «فماذا يعني ذلك»؟

إن الإجابة تحتل صورتين، فإما أنه وقد امتلأت مستودعاته بالسلاح الأمريكي والعون الأمريكي فأخذ يتحداها بقوتها التي أعطته.. لأنها لا تستطيع أن تسحبها ولا تستطيع أن تلزمه بالقانون الذي يحرم عليه استعمالها في العدوان، كما أنها لا تستطيع أن تشن قوة رادعة عليها.

أما الاحتمال الثاني وهو الأقرب إلى الصواب فإن هذا التهديد من مناحيم بيغن ما هو إلا تهديد أمريكي على لسان بيغن كوسيلة من رسائل الاعتذار، تعتذر به الولايات المتحدة أمام أصدقائها، أمام رجال من الأمريكان، بل وأمام الرأي العام العالمي.. كأنما تقول: حذرنا إسرائيل بفرض العقوبات فرفضت إسرائيل ولكننا لا نستطيع أن نفرض هذه العقوبات لأن أخلاقيات الولايات المتحدة لا تطيق ذلك. ولأنها تخشى أن إسرائيل تتمادى منطلقة بكل القوة لديها لتدمير كل لبنان وما هو أكثر من لبنان..

وليكن الفهم الصحيح بعد ذلك أن الولايات المتحدة تريد احتلال لبنان والقضاء على الفلسطينيين ليكون ساحل البحر الأبيض الجنوبي من الأسكندرية إلى الدار البيضاء منطقة نفوذها، جناحاً أيمن لحلف الأطلسي. بينما هي قد تركت شرق آسيا وغرب أفريقيا ليكونا بعد جناحاً أيسر لحلف وارسو يطوق الجناح الأيمن.

إن الولايات المتحدة قادرة على ردع إسرائيل لو أرادت، كقدرة الجنرال إيزنهاور، ريجان في فرض الجلاء عن سيناء. ولكنها لا تريد.

هتلر واليهود

- لو أن اليهود نظروا إلى ما هم فيه الآن من هذا السلطان العالمي، سلطان أداروا به سياسة الولايات المتحدة، وسلطان أعطوا به للاتحاد السوفياتي حق المشاركة للولايات المتحدة في أكثر من مكان.

لو نظروا إلى هذه المكانة لحمدوا للنازية وهتلر بالذات ذلك العذاب الذي يدعون أنه وقع عليهم. فاليهود اليوم في الولايات المتحدة هم السياسة وهم الإدارة وهم الإعلام والمال، كأنما الشعب الأمريكي أصبح مسخراً لهم، ولم يكن هذا إلا عطاء هتلر، عذبهم كما قالوا فانتشروا يهاجرون إلى الولايات المتحدة.

وبالمخطط الرهيب بدأت هجرة اليهود تترى من كل أوروبا ومن بولندا ومن روسيا، فأنت لا تجد شعباً من شعوب الأرض تستغل فيه العنصرية كأنما كل اليهود يهودي واحد. لكنهم يريدون أن تستمر شكواهم من ألمانيا لتتسع هجرة أكثر إلى الولايات المتحدة ولتقول وسائل الإعلام للشعب الأمريكي.. أنت الملجأ فأياك أن تنقلب علينا كما انقلبت النازية.

إنهم لا يقولون ذلك صراحة يتوجهون بها إلى الشعب الأمريكي وإنما يقولونها بالحملة المسعورة ضد الشعب الألماني.

لقد أصبح رجال كبار في الولايات المتحدة من هؤلاء اليهود، كجاروج

أستاذ الرئيس ترومان، وكيسنجر الأستاذ المنتشر في الإدارة الأمريكية، وغير هذين كثير.

إن الشعب الأمريكي قد خدع بدعاية اليهود، وإلا فإن فورد ومورغانو وغيرهما حذروا من هجرة اليهود، ولكن مأمور الجوازات الذي نظر إلى أديسون فقال: .. هل يصلح هذا مهاجراً إلى أمريكا؟! .. هذا المأمور هو الذي ملأ نيويورك بهؤلاء اليهود.

تصوروا لو أن مأمور الجوازات منع أديسون، فكم هي الخسارة التي تخسرها الولايات المتحدة بل المدينة كلها.

لقد كان من حظ المدينة أن سمح مأمور الجوازات لأديسون.

إن الشعب الأمريكي في إبان ثورته كان مديناً لتوماس بين، ناصرهم ونصح لهم، ولكنه حين مات بخلوا عليه بقبر يدفن فيه، لأنه يهودي. لم يمنحوه أشباراً من الأرض. ذلك لأن الرواد والساسة الأولين كانوا حرباً على اليهود، فهناك شعاراً في أكثر من ولاية.. «ممنوع دخول الكلاب واليهود»!

أما اليوم فهم كل شيء، حتى إن اغتيال كينيدي والمغتال له يهودي قد دفنت القصة لأنهم اليهود!

صناع السلاح وتجار السلاح

- ولعلّي لا أفزع ولا أتورع.. أن أرسل تهنئة إلى ألكسندر هيج.. فمن حق الرجل الذي يسعى إلى أن ينال مآربه إذا ما تحقق له المآرب بأي وسيلة.. أن ترف له التهاني ولو كانت هذه الوسيلة الدم المراق في لبنان.. والاجتياح اليهودي الصهيوني لأرض عربية قد أعطها ألكسندر هيج معنى ما يتمتع به من عقوق لأصدقائه العرب..

فالوسيلة عنده هي الوصول إلى أن يضع في بنك الانتخابات الأمريكية رصيذاً لدى «الكهنوت الصهيوني» وقد نجح في ذلك..

إن هذا الجنرال ما استطاع أن يسفك دماً وهو قائد لحلف الأطلسي لأن مشاعر العسكري فيه يتلمظ بها على الدم، وقد وجد في إمكانه وهو وزير خارجية إمبراطورية البيت الأبيض أن تزوج فيه الرغبة لكي يزيد من رصيده لدى الكهنوت الصهيوني، والرغبة في أن يرى دماً يسيل.. عربياً ومسلماً.. ومسيحياً صادق الوطنية فالحافظ لديه هو أنه الجنرال.. لا يريد أن يذوب كما ذاب «ماكارتير» الإمبراطور الأبيض.. وإنما يريد أن يكون في حياة البيت خلفاً للجنرال «إيزنهاور» لكن.. هل لدى الشعب الأمريكي قليل من الحب والتقدير للجنرال ألكسندر هيج كما هو التقدير الباقي في التاريخ الأمريكي لـ «ماكارتير» أو التعظيم للجنرال «إيزنهاور»؟

إنه وقد حرص على أن يكون لديه رصيد لدى الكهنوت اليهودي لا يسأل عن أي رصيد له عند الشعب الأمريكي.. فكل ما يبتغيه هو أن يكون رئيس الولايات المتحدة بعد رونالد ريجان.

ولعلّ اليهود أعطوه هذا الضمان فأضاء الضوء الأخضر لإسرائيل أن تفعل ما فعلت في لبنان..

ولعلّ اليهود أعطوه هذا الضمان فأضاء الضوء الأخضر لإسرائيل أن تفعل ما فعلت في لبنان..

ولعلّه قد جرى في خاطري.. أن عقدة فيتنام بدأت تتلاشى ورجوت أن تحل في وجدان الشعب الأمريكي عقدة لبنان لتكون هذه العقدة نقطة السقوط لألكسندر هيج..

ولكنني وقد استرخيت مدعو إلى التصحيح أن عقدة فيتنام قد تلاشت على أقل تقدير في وجدان ألكسندر هيج ولكن لن تحل بعدها عقدة لبنان، لأن الولايات المتحدة في فيتنام كانت تحارب بسلاح أمريكي وجندي أمريكي.. فالعقدة جاءت من الدم الأمريكي وقد سال في لبنان.. لا من خسارة السلاح..

أما في لبنان فلن تكون عقدة لأن أمريكا خاضت الحرب في لبنان بالسلاح فلم يسفك دم أمريكي يصنع العقدة.

أفلا يستحق بعد ألكسندر هيج تهنئة في زمن وما أسرع أن تكون التهنئات للذين لا يبالون بحياة الشعوب؟! يصرحون بأنهم صناع السلام وحفاظه بينما هم تجار السلاح وصناع الحروب.. ومصاصو الدماء.

إسرائيل و «بيرل هاربر» أخرى

- ولست بصدد أن ألقى التبعات على أحد من الأطراف التي صنعت المأساة في لبنان، فهم كثر يحسبون أنهم يحسنون صنعا، بل ويعتقدون أنهم هم الذين ينقذون لبنان أو حتى يفاخرون بأنهم صنعوا المأساة يتجنبون أن تكون الكارثة. فما أكثر الذين تلطخت أيديهم بالدم اللبناني، واتسخت مساعيهم حين زعموا أنهم يصونون استقلال لبنان ووحدة لبنان، كأنهم في طغيانهم يظنون أن الدنيا عميت أن تبصر وأن ألسنتها خرساء، مع أن التاريخ بسيط، والجريمة بلقاء قد انتشرت أضواؤها. فإن وضعت التبعات على أطراف خارج لبنان فإنها شكلاً وموضوعاً على أطراف عربية سواء من تطرف أو تطرف، وعلى طرفي الصراع العالمي - أعني إمبراطورية البيت الأبيض وإمبراطورية الكرملين.

كل هذا لا أعني نفسي به الآن وإنما أريد أن أطرح احتمالاً افترض وقوعه، ذلكم أن تقع الكارثة على صورة من «بيرل هاربر» أخرى.

إن لبنان المأساة لم تعد المأساة فيه مقصورة عليه، فهي مأساة على الأمة العربية كلها. ولكن ما افترضه من وقوع هذا الاحتمال هو أن يسقط فدائي بطائرة على البارجة «إيزنهاور» أو البارجة «نيوجرسي» أو أن تقذف

هاتان البارجتان بصاروخ، أو يلقي على إحدهما ضفدع بحري قنبلة، فإذا ما وقع ذلك.. ألا تجد الولايات المتحدة نفسها في وضع المنتقم من الذي فعل ذلك، تلقي بثقل القوة على من تتهم؟

أنها لن تستأني قليلاً حتى تعرف من فعل ذلك. وهنا أطرح السؤال:

من الذي يفعل ذلك؟ سوريا بصاروخ؟! فدائي فلسطين؟! لبناني حانق؟ أم أجير يلبس ثوباً عربياً استأجرته عصابة تريد أن يحترق العرب كلهم؟!

إنني على يقين أن العرب كل العرب لن يفعلوا ذلك. لأنهم يحسبون ألف حساب لقوة الولايات المتحدة وانتقامها، ولأنهم لا يطمئنون إلى موقف رادع من الاتحاد السوفياتي، إذن فإنني على حد تعبير «أميل زولا» أني أتهم إسرائيل.

فسلوك اليهود وأخلاق اليهود وحقدهم يعطيني البرهان على صحة الاتهام. إنهم لم يغزوا لبنان إلا حين أشعل الضوء الأخضر من الولايات المتحدة وحين أطفئ الضوء الأحمر من الاتحاد السوفياتي، يعني الإباحة من جانب آخر.. لكن إسرائيل وقد حققت بغيتها في الجنوب بدأت تشعر بشيء من الإزعاج الأمريكي هو الطلب بالانسحاب من لبنان، وهي لا تريد ذلك، فأصبح لبنان بين شقي الرحى. إسرائيل لا تنسحب بحجة كاذبة هي وجود سوريا في البقاع، وسوريا بالحجة الواضحة بأنها لا تستطيع أن تترك خط الدفاع الأول عنها تستبيحه إسرائيل.

إن الضغط الأمريكي على إسرائيل كما هو ظاهر ليس تبرعاً لإنقاذ لبنان واستقلاله وإنما هو الاستحواذ على لبنان كله قاعدة أمريكية. وإسرائيل بنوازعها ودوافعها وعلاقاتها الخفية مع الاتحاد السوفياتي لا تريد أن يكون لبنان للولايات المتحدة، فمن مصالحها أن يظل لبنان على هذا الوضع.

من هنا قد يجازف إسرائيلي يهودي بأي أسلوب يدمر به إحدى البارجتين الأمريكيتين، فإذا ألسنة الإعلام العالمية بالإيعاز اليهودي تضع التهمة على عربي، لأن منطق الدفاع عن أرضه يبرر هذا الاتهام. أما أن يكون الاتهام على اليهود فمن المؤسف أن تكون الولايات المتحدة هي أول من يبرؤها، ينفي التهمة عنها.

إن تعاليم التلمود والبروتوكولات والحق المزمّن السرمدي في اليهود يجعلني افترض أن اليهود ربما يفعلون ذلك، وهم قادرون على أسلوب التدمير، وهم بذلك بعد سينشدون ويرقصون على نغمات موسيقاهم المقدسة «جيلا هافانا».

فحذار من وقوع ذلك!

ثم إن الأساطيل لم تعد صالحة لشن الحرب كقوة مسلحة، إنها لحمل الجنود، إنها تحمل التجارة. أما أن تكون سلاحاً يحارب فقد انتهى خطر الأساطيل.. فمثلاً.. ماذا صنع الأسطول البريطاني في المحيط الهندي ضد اليابان؟ فدائي ياباني أسقط طائرته على عروس الأسطول البريطاني البارجة «ريبالس» فأغرقها.

إن الأسطول البريطاني قد نفع في حصار ألمانيا أو في حملة إنزال، ولم ينفع في إلقاء قنبلة على ألمانيا، والأسطول البريطاني في «فوكلاند» قد تحطم بعضه بالطيران الأرجنتيني والصواريخ الفرنسية. إن السلاح اليوم هو الطائرات والصواريخ والدبابات والمشاة، حتى الغواصات لم تنفع إلا لأنها تحمل صواريخ، ويقل تعرضها للإغراق. من هنا فإن الخطر كل الخطر من وقوع «بيرل هاربر» أخرى يكمن في وجود البارجتين الأمريكيتين.

وسؤال ثانٍ: ما الذي اضطر الولايات المتحدة إلى هذا الأسطول؟

إنها إسرائيل، لم تسمح لجندي أمريكي أن يمر عبرها، واليونان أبت على الولايات المتحدة ذلك، وتركيا لم تستجب لذلك.

إني لا أخشى الكارثة، والحل في يد اللبنانيين أولاً والسوريين أولاً، إذا ما صرفنا النظر عن ما تفرضه الولايات المتحدة أو ما يفرضه الاتحاد السوفياتي . .

فحذار . . حذار من «بيرل هاربر» أخرى!

والولايات المتحدة هي القادرة على ألا تكون بأسلوب أو بآخر.

ذنب الضب

- والمشكلة الآن التي تعصر العرب عصراً وترض لبنان رضاً هي ذنب الضب.

فإسرائيل أصبحت تحتل أكثر الأرض اللبنانية، وتلك مأساة، أما الكارثة فإنها تأتي حينما تحتل إسرائيل عاطفة لبنانية في الذين فتحوا لها الطريق والذين ما زالوا حيارى بين العاطفة العربية في وجدانهم، وبين التعاطف مع إسرائيل لسبب أو لآخر.

إن إسرائيل وعلى لسان أمريكي تصرح بأنها ستجلبو عن لبنان، ولكنها تشترط جلاء القوات السورية من الأرض التي استحوذت عليها في لبنان «سهل البقاع» والوسيط يتحرك هذه الأشهر ليتم الجلاء، ولكنه يسير مع هوى إسرائيل كاشتراطها جلاء القوات السورية والمقاومة الفلسطينية.

ويأتي بعد هذا الكلام وضع سوريا وضعاً تستغله إسرائيل وتتحمل سوريا بهذا الزعم أنها السبب في عدم جلاء إسرائيل. ولنفترض أن سوريا كذلك، فلماذا لا تلتزم أمريكا بالضغط على إسرائيل أن يتم جلاؤها عن لبنان الذي احتلته بالغزو ومارست القتل والتدمير، فلو كان صحيحاً أن إسرائيل تريد الجلاء كما هو ادعاؤها وكما هو التأييد الأمريكي لهذا الادعاء وكما هو الالتزام بالمعاهدة التي ما كانت إلا لأجل هذا الجلاء معاهدتها بينها وبين

الحكومة اللبنانية، لما تلاعبت بهذا الاشتراط لجلاء القوات السورية.

هي الغازية والقاتلة فالجلاء لها أولاً، ثم يأتي الكلام عن التصرف السوري، واليقين أن سوريا ستجلبو عن لبنان إذا ما جلت إسرائيل.

لماذا الولايات المتحدة لا تلزم إسرائيل بالجلاء أولاً ثم يتحرك العرب في الاتجاه السوري لماذا لم يتركوا العرب وشأنهم هل هي إسرائيل المتعنتة. نعم هل هي الولايات المتحدة التي لم يكن لديها الحزم على إسرائيل لا، أم أن هناك طرفاً عربياً كالمنشق سعد حداد ومن إليه أشد حرصاً على بقاء إسرائيل في لبنان؟

إن إسرائيل وقد فقدت عمق سيناء تريد أن يكون لها العمق الشرقي في لبنان، لأنها لن تحارب من داخل الأرض التي تحتلها. . فلسطين، بل إنها تريد التحرك للعدوان من لبنان أو الجولان كما كان تحركها من سيناء.

لهذا فالأمر في يد الولايات المتحدة إذا ما أرادت أن تكون لبنان دولة مستقلة حليفاً غير معلن في الجناح الأيمن لحلف الأطلسي.

وإني لأتحدى أن أجد سياسياً أمريكياً يزعم أن إسرائيل ستكون موطناً أو ملجأ لجيش أمريكي أو أسطول أمريكي إذا ما اصطدم حلف الأطلسي بحلف وارسو.

إن اليهود للاتحاد السوفياتي في نهاية الأمر، وعلى شعب الولايات المتحدة في كل أمر، وأوروبا الغربية تعرف ذلك ولكن العجز والتعجز حرم أوروبا من أن تكون قوة على صديق فيما زعموا لن يكون إلا عليهم، فهو إن لم يكن مع حلف وارسو فإنه لن يكون مع حلف الأطلسي.

لو ملكت أوروبا قوة الفعل لما كان هذا موقفها العاجز.

لقد حرموا الرحمة

عجيب أمر اليهود.. فهم في كل مكان.. وفي إسرائيل بالذات تجتمع فيهم المتناقضات.. تتزوج ولا تزوج فإسرائيل حكومة ديمقراطية لها برلمان، يحتضنها الغرب بهذا الزعم.. بينما هي وفي الوقت نفسه دكتاتورية نازية في كل ما تتصرف به.. لا مع الفلسطينيين وإنما مع شعبها.. الإشكناز في موضع الامتياز واليهود والمهجرون من أفريقيا وآسيا.. وحتى اليمن والسود مضطهدون.

وهي رأسمالية بكل معنى الكلمة.. تتعامل مع أمريكا والغرب على هذه الصورة.. بينما هي اشتراكية شيوعية تلبس ثوب الاشتراكيين كأنما مناحم بيجن الزميل والنديد لكرايسكي.. وفيلي برانت..

وفي ازدواجية بين الاشتراكية الغربية والشيوعية الشرقية نرى لها كل القيمة في الزمالة الشيوعية سواء لدى الذين لا يزالون حديثي عهد بالنظرية الشيوعية أو الذين أقدم عهداً بالشيوعية العملية كالاتحاد السوفياتي مثلاً.

كيف تم هذا التزاوج بين المتناقضات؟!

لقد تم بصورة من التنسيق.. لأن العصابة لا تعيش لا تنفذ أغراضها إلا إذا ألبست كل الأثواب.. تختفي أمام من لا تتعامل معه.. وتظهر بما

يرضي الذين تتعامل معهم، حتى إذا تغير الموقف أخفت ما أبدت من قبل، وأبرزت ما أخفت.

ولسنا في هذا نذم اليهود بقدر ما نعطي الصورة للذين يعيشون تحت طغيانها وهم كل الناس.. فهي لا تسلب العرب أرضهم ولا تقتل إنسانهم فحسب وإنما هي سلبت من ألمانيا مثلاً أن تكون ألمانيا الذي لا ينعت وزير خارجيتها على صورة المعتذر لمناحيم بيغن مع أن هذا السفاح (مناحيم بيغن) قد أهدر كل قيمة له (شميدت) كما أنها (وأعني إسرائيل) ما زالت تسلب الولايات المتحدة هيبتها حتى إنها - ومع طول الوقت - ستسحب بساط الصداقة المزخرف في استقبال الولايات المتحدة من تحت أقدام الساسة الأمريكيين.

وبكل القدرة تصور الاتحاد السوفياتي الطاغية على حقوق الإنسان.. فإذا إمبراطورية الكرملين تسترضي إسرائيل.. تهجر لها القوة البشرية.

إنها عصاب.. ازدوجت فيها كل المتناقضات حتى إن تعامل العرب معها لم يكن على صورة التزاوج. فقد وضعوا العرب في ازدواجية السلوك مضطرين إلى ذلك غير مختارين ويحسبون أنفسهم أنهم يمارسون مع إسرائيل حق الاختيار بينما هم وتحت سلطان إسرائيل الطاغية لا يصنعون إلا ما يقضي به الاضطرار.

وكيف تم ذلك؟

لقد تم من فجر التاريخ.. إلى دهر التاريخ.. حين ذاق اليهودي العذاب فأصبح يستمرئه إن لم يصب عليه منه ممن يعاديهم فإنه يصبونه على أنفسهم كأنما كل هذا التعذيب منهم.. لإنسان الأرض العربية إنما هو الانتقام من العذاب الذي صنعه التاريخ عليهم من يوم الظلة في سيناء إلى

أيام الحريق النازي.. إلى أيام قابلة لا بد وأن يحرق العربي هؤلاء اليهود.
قد لا يكون الوقت مع العرب اليوم.. ولكن الأمن هو الذي يأخذونه
ليكونوا المخلصين للإنسان كله من جبروت اليهود وطغيانهم.
إن اليهود قد حرموا الرحمة حين خدعوا أنفسهم بأنهم لا يسألون عن
جريمة ولا يعذبون لأن المخلص يحمل عنهم ذلك.. ولكن المخلص
سيكون سلاحاً عربياً يخلص الإنسانية منهم.

عن اليهود

- واليهود يقدسون البغايا والراقصات ويدنسون الأنبياء والرسل، فلماذا؟! إنهم بهذه البغضاء التي حملتهم على قتل الأنبياء وعصيان الرسل قد أباحوا لأنفسهم التحلل من كل قيد في شريعة التوراة وأخلاق الإنجيل. فهم حين استباحوا بهذه البغضاء تدنيس الأنبياء قد شرعوا لأنفسهم ألا يتقيدوا بشريعة أو خلق. لم يحترموا موسى ولا داود وسليمان حتى انتسابهم ليعقوب إسرائيل لم يكن إلا تعصباً عنصرياً أرادوا أن يمتازوا به على كل بني الإنسان.

فهم يرون أنفسهم صفوة الخلق، شعب الله المختار، ولكن ما هي العلاقة الدينية والأخلاقية التي تقربهم من الله، لقد أباحوا سب الأنبياء، بينما هم يجعلون «استير» و «سالومي» وغيرهما من هؤلاء البغايا قديسات، يحفظون لأستير نجاتهم من السبي حين بذلت عرضها، ولا يحفظون لموسى أن كان على يده بني رسول. وبالمعجزة نجاتهم من فرعون. كأن موسى مسخر لهم. أما البغايا فلهن التقديس والحب..

فتقدس البغايا استحلوا به ألا يسألوا «الأنثى اليهودية» عن الأب.. لمن ولدت من الأطفال، لا يسألون عن الأب لأن ابن الأنثى هو يهودي ولو كان أبوه على غير اليهودية.

وحين وصفوا الأنبياء بما برأهم الله منه جعلوا ذلك تحليلاً للتفسخ والانحلال إلى درجة إباحة البغاء.. مع أن شريعة التوراة فيها حد الرجم للزاني المحصن، لكنهم وكما قال الحبر الصحابي الجليل «عبد الله بن سلام» وهو يقرر حد البغاء موجوداً في التوراة، يخبر بذلك رسول الله ﷺ لكنهم كما قال «قوم بهتان» يحرفون الكلم عن مواضعه..

هكذا احترموا البغضاء فاحترقوا بها، لأن البغض للأنبياء حرمان من روحانية الفؤاد فالمبغضون يحرمون أنفسهم من رقة القلوب.

إن اليهود قد جعلوا أنفسهم حراس الحق الذي صنعوا هم فاصطنعوا البغضاء للرسول والأنبياء ليزيلوا عن كاهلهم القيد بالشرعية، فحراسة الحق هي في حب الحق لا في بغضاء الذين أرسلهم الله هداة للحق.

إن البغض يعيش في حرمان حتى لو امتلك الدنيا كلها، فالحب هو ملاك الأخلاق بلا إفراط ولا تفريط فاليهود افراطوا بحب البغايا وفرطوا حين أبغضوا الأنبياء. إنهم طول حياتهم لا يعيشون تحت قائد تنتظم به الشريعة لأنهم احترفوا أن يكونوا عصابة يتزعمها من يختارونه لزعامة العصابة. والعصابة من خلائقها التعصب للباطل الذي يعتقدون، وللبغضاء التي يمارسون. وقد حرمهم الله أن يكون لهم ملك، فدعوة الرسول النبي سليمان: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (ص: ٣٥).

اليهود قوم بهت

- وصدق الحبر اليهودي صاحب رسول الله عبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه، قال للرسول عليه الصلاة والسلام: إن اليهود «قوم بهت» أي أصحاب بهتان يحرفون الكلم عن مواضعه سماعون للكذب بل صناعون للكذب، تركوا الصدق في عقيدة التوراة وصنعوا الكذب في عقد التلمود والبروتوكولات، فما عليهم أن يكذبوا هذه الكذبة اليوم ولكن المعابة بل والجريمة أن يجدوا من يصدقهم من الذين أكلهم حين أكل عقولهم وعواطفهم تخدير اليهود.

قالوا: إن حملة أثيرت في الكنيست أي البرلمان اليهودي على الطاغية وزير الحرب «إريل شارون» لأنه لم يستأذن مناحيم بيغن رئيس الوزراء في دفع الطيران الإسرائيلي يغير على لبنان مدة عشر ساعات متواصلة، فكان التدمير أفضح من تدمير الطيران النازي للندن، ومن تدمير الطيران الأمريكي للمدن الألمانية. قالوا: إن إريل شارون قد عرض إسرائيل إلى غضبة عالمية وبرأوا مناحيم بيغن أن يكون قد علم بما فعل شارون، وتحمل شارون أنه لم يستأذن رئيسه.. فعل ذلك دون أمره وكانت هذه من شارون كذبة ومن مناحيم بيغن كذبة أكبر، فقد أراد بيغن بهذا أن يزوغ من غضبة الرئيس ريجان وأراد شارون أن يلبس الفخار، فالتدمير الفظيع في وجدان اليهودي

طبيعة يفخر إن استجاب لها. إن كذبة شارون تصغر أمام كذبة بيجن وإلا فلو صح أن شارون أمر الطيران ساعة أو ساعتين فإن لم يعلنه شارون بذلك فوسائل إعلامه كثيرة، لنصدق أنه لم يأمر ولم يستأذن، ولنصدق أن الساعات الأولى لم يعلم عنها ولكن كيف يقبل من رئيس وزراء يخوض حرباً لا يعلم عن غارات طيرانه مدة عشر ساعات؟!!

لقد استأذنه شارون بل هي خطة بيجن قبل شارون، ولكن قد تلاشت أمام هذه الكذبة غضبة الرئيس ريجان أكسبت بيجن أن اعتذر وأكسبت شارون أن افتخر، ووضعت العالم في نطاق السخرية اليهودية كما أنها دمرت العمارات وقتلت الإنسان في لبنان.. كل ذلك تحايلوا عليه بالكذب ليصدقهم الذين ما زالوا يتعاملون بالصدق مع اليهود وبالكذب مع العرب.

إن القوى العظمى كلامها تحذير وتحذيرها لا يطفى الضوء الأخضر الذي أضيء لإسرائيل، وإنما هو ما زال يضغط على الضوء الأحمر يحجزون به العرب أن يحاربوا إسرائيل كأنما السلاح الذي باعوا قد أصبح في يد من تأكله نار الحرب ليس قادراً على الردع لأن السلاح في المستودع أخشاب تحترق بالصدأ وإنسانها يحترق بالردى.

وسجل التاريخ النعمة

- وألقيت خطاباً في يوم احتفل فيه الفلسطينيون بذكرى العام الثامن عشر الذي نظمته مكتب «فتح» بجدة يحيي فيه الطلقة الأولى أعطتنا الكرامة في يوم الكرامة أعني معركة الكرامة التي أعطت للفلسطينيين كفاءة المحارب وإيمانه بأن الدم الفلسطيني يثار له حين يسفك دم اليهودي. فالفلسطيني لا يدافع عن أرضه فحسب وإنما هو الخط الأول للدفاع عن الأرض العربية كلها وبالأحرى الأرض العربية شرق السويس.

وكان خطابي خلاصة كلمتين، أشيد بالوفاء وأمقت الجفاء، فالوفاء في قلبي: «ما تعودت المملكة العربية السعودية من عهد البطل عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود إلى عهد ابنه الملك فهد بن عبد العزيز أن تكيل لفلسطين إلا بصاع واحد، فليس لديها صاعان.. صاع الوفاء وصاع الجفاء، ما كالت إلا بصاع الوفاء، ضريبة التراث ونداء الأرض وبكاء المسجد الأقصى ودموع الأمهات والبنات».

أما الجفاء فانتزعت الكلمة عنه من التاريخ، فحين تكالب الأسبان تسانداهم أوروبا كلها مساندة الصليب للصليب، حتى المدفعية كانت من بريطانيا حين تكالبت على قومي العرب في الأندلس وعلى عدونا التاريخي اليهود، صرخ العرب بل صرخ الإسلام، يدعو سلطاناً مسلماً إلى النجدة،

فما أنجد العربي المسلم وإنما استقبل اليهودي الذي وصل إلى الأناضول، يومها كان السلطان سليمان القانوني القوة العظمى في كآن البحر الأبيض بحيرة عثمانية، وأرض البلقان كلها تحت سلطانه طلبوا إليه النجدة فما أنجد، بينما هو من أجل السيدة الأولى في بلاطه - وكانت فرنسية - قد دعتة إلى نجدة فرنسا يفك إمبراطورها من أسر النمسا، فاستجاب لدموع أنثاه، وسار بجيش جرار يعبر البلقان حتى وصل إلى أسوار فيينا يكتسح الأرض أسطوله فارغاً من جنوده لحملوا من أرض المغرب المجاهد في قوة أكثر من قوة طارق وإن تكن أقل كفاءة من قوة طارق.

فالكفاءة كانت الإيمان. لم ينجد الأندلسيين وقد عناه الشاعر الكبير أبو البقاء الرندي في قصيدته التي مطلعها:

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغرب طيب العيش إنسان

كان يعنيه بهذه الأبيات:

تبكي الحنيفية البيضاء من أسف	كما بكى لفراق الألف هيمان
تلك المصيبة أنست ما تقدمها	وما لها من طوال الدهر نسيان
يا راكبين عناق الخيل ضامرة	كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة	كأنها في ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعة	لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس	فقد سرى بحديث القوم ركبان؟

وهكذا يسجل التاريخ النعمة على من عى وانشق، وكان عقاب مس الدولة العثمانية بعد، فقد استغول يهود الأندلس حين دخلوا في الإسلام نفاقاً ومازالوا هم اليهود - أعني «يهود الدنما»..

صناعة الموت

- ومن المفارقات ومن بعض الموافقات، تعجب منه حتى إنك حين تصحو تسقط هذا الحال الذي أنت فيه، إذ لبست الحزن على الماضي كأن ذلك الحزن ما كان إلا هروباً من حاضرك الذي أنت فيه.

فالمفارقات تجدها عند الأديب ناشراً أو شاعراً.. تمر به فترة يلبسه الحزن على الأندلس كأنه قد نسي أن فلسطين هي الأندلس الثانية بل هي أشد وأن لبنان هي الأندلس الثالثة بل هما الأشد.

إن الأندلس الأولى أخرج أهلها الملك العرب منها.. أما فلسطين فأخرج اليهود أهلها منها، فالإسبان انتصروا لأرضهم وإن كان الأسلوب عتياً جباراً، أما اليهود فقد احتلوا أرضاً عربية.

أما الأندلس الثالثة لبنان فاحتلها اليهود بحبل من الناس.. بعضهم من اللبنانيين المنشقين على رأسهم سعد حداد وعلى رأس سعد حداد حدادون كثيرون.. ينسي الأديب مأساة اليوم طوابع كارثة ويتذكر مأساة الأمس رجعة لا يكثر بها.

وأما الموافقات فهي على صورتين: فالصورة الأولى أظهرتها ملامح السلطان العظيم محمود نور الدين زنكي قال له بعض أصحابه: لماذا لا نراك تضحك أو تبتمس؟ قال: كيف أضحك.. كيف ابتسم والمسجد

الأقصى «بيت المقدس» لا أجد فيه مكان سجدة لمسلم.. لا أرى فيه راکعاً يصلي.

أما الصورة الثانية فلم تظهر على وجوه الرجال وإنما في دموع الأمهات العواتك والفواطم والزبانب والرقيات وعلى وجه طفل في مدرسة لما يبلغ التاسعة من عمره.. كان ساهماً أبعد نفسه عن المكان الذي هو فيه وعن لداته من التلامذة.. فقد شغل بعظيم فقال له زميله «ليش أنت حزين؟!» قال: إني أكاد أبكي من أجل فلسطين.. من أجل لبنان.. كأنما هذا الطفل قد عبر عن الأبوة والأمومة.. أبوة الأعراق وأمومة الأرض فإن الأرض في فلسطين وفي لبنان هي التي تبكي لا على إنسانها فحسب.. وإنما من بعض إنسانها.

إن هذا الطفل ينتمي إلى الجيل الجديد الذي يتلمظ على الثأر لأن الأجيال التي تقع عليها الكارثة تصبح في تيه من فظاعة الكارثة.. أما الأجيال الوارثون فإنهم سيكونون الكارثة تكتسح الكارثة. فإسرائيل حينما تريد تفريغ الأرض من إنسانها الفلسطيني تجهل أن فلسطين أرض مقدسة هي ملك الملايين عرباً ومسلمين فإن نزح فلسطيني عنها فإن كل عربي وكل فلسطيني هو مسلم.. تكون بهم العودة يوم يتعلمون صناعة الموت ويمارسون الحقد.

حليب الأمهات ودموعهن

- وأعلنت إسرائيل ساخرة من كل الاعتبارات أنها لن تعامل أسرى الفلسطينيين معاملة أسرى الحرب لأنهم في منطق الوقاحة وبأسلوب الغطرسة لا تراهم إلا إرهابيين.

أعلنت ذلك ولم يعترض أحد من الذين وقعوا الموائيق.. فلا إمبراطورية البيت الأبيض احترمت نفسها لئلا تكون ضالعة مع إسرائيل في هذا العدوان.. أفلم يكفه المدد لعدوان إسرائيل بالسلاح؟! وحتى الاتحاد السوفياتي لم يعلن اعتراضه على ذلك.. أفلم يكفه المدد لإسرائيل بالقوة البشرية؟! وغير هاتين الإمبراطوريتين لم ينكر أحد ذلك.. لم تنكره إلا الهيئة الدولية للصليب الأحمر.. كل ذلك لا يعني إلا أنها مؤامرة واسعة النطاق، وحتى العرب لم نسمع إنكاراً من أحد منهم.

لتفعل إسرائيل كل ذلك.. فهناك القصاص العادل إن لم يكن في وقت فالزمن كفيل به.. فكل الذين أعانوا إسرائيل وجدوا الفرصة لتفريغ الأرض من سكانها. إنهم لا يوجهون هذا العون لإسرائيل بالسكوت عن طغيانها إلا لأنهم يريدون أن يكيلوا الصاع صاعين للأمة العربية.. فالفلسطيني سيتجسد الحقد في وجدانه وفي كل تصرفاته ليمارس طغياناً على الدنيا كلها التي ظلمته، فإن الفلسطيني اليوم هو المرحلة الثانية من فقدان الأرض ومن بذل

الدماء.. فاليهود الذين لم يجدوا أرضاً يعيشون عليها قد فعلوا الأفاعيل، فكل جمعية هدامة كانت من صنع اليهود.. هم الذين يشعلون الحرب، يقطعون اليد التي تمتد لهم بعون. لقد استغلوا في الغرب فكانوا صناع الدمار لألمانيا، وقد استقبلهم السليمانان بعد نكبتهم في الأندلس فإذا هم العون للاستعمار الفرنسي في المغرب.. لم يستطيعوا الوفاء بحكم طبائعهم أن يحترموا البلد الذي أوامهم حين أستقبلهم السلطان سليمان.

وفي الدولة العثمانية أعلنوا إسلامهم كذباً كما فعلوا في المغرب فإذا هم الذين دمروا الدولة العثمانية بجلب المذهب وبإغراء الدولة لأن تكون الصديق لألمانيا والعدو لبريطانيا فهم الزعماء الذين منحوا ألمانيا خط برلين بغداد.

وهكذا سينقلب الفلسطيني وبكل الحقد يثار لنفسه.. يقتل ويدمر ولا يجد في نفسه أي تقبل لأي لوم.. فالذين فقدوا أرضهم سيذبحون أعراض الآخرين.

وإن إسرائيل بهذه القسوة والجور ستضع أو هي وضعت الفلسطيني في موضع صلب ما كان يريده ولكن الظلم الذي احتل أرضه وشرده أهله سيحمله على الانتقام.. وأي انتقام أفضع من أن يكون شعب يرضع أبناءه من أثداء أمهات.. فبقدر ما تدر أثداء الأمهات من غذاء الطفل يسيل الدمع من عيون الأمهات فكأنما الطفل يشرب حليب الأمهات ودموع الأمهات..

إن السلطان سليمان القانوني قد استقبل اليهود وكانت لديه القوة أن يحجز محاكم التفتيش في أسبانيا عن اغتيال العرب المسلمين فقد حدث يوماً للسلطان سليمان إمبراطور الدنيا أن ينقذ الإمبراطور الفرنسي من أسر النمسا بجيش جرار ولم يفعل للمسلمين ولديه الأسطول القوي أي عون

كأنما صورة السلطان سليمان قد تزوجت معها صورة الذين في إمكانهم أن ينصروا الفلسطينيين فانخذلوا وتخاذلوا.

إن اليهود الذين استقبلهم السلطان سليمان كانوا يسمون في تركيا «يهود الدنما» نشأ زعماء كان في يدهم سلطان الدولة.

هؤلاء المارونيين

- وكانت سالومي يهودية.. أغرت الشر أن يكيد ليحيى الرسول النبي «يوحنا». فقتلوه إرضاء لها، لأنها اللعوب، لم تكن علبة ليل، وإنما كانت غانية تفرض على القصر أن يلحق قدميها، فإذا هي تلحق الدم الطاهر، فاليهود قتلة الأنبياء، يقدسون البغايا، يقتلون النبي من أجل باغية.. وجاءت سالومي المارونية، العربية لغة وموطناً، والمسيحية مارونية المذهب. كل ذلك يمنعها أن تكون متهودة العواطف، ولكنها مارونية ما زالت تعيش بوجدان روماني، سالومي هذه اللبنانية، رقصت في ساحة من أرض بيروت، تستقبل المجند اليهودي، باسمه، ما رقصت جوارحها وإنما رقصت جوانحها، فالوجدان الروماني قد عفى عن اليهود حين أفتى يوحنا بابا الفاتيكان، بأن اليهود لم يقتلوا المسيح بن مريم، فلقد برأ اليهود.. وما كانت سالومي في تعصبها الماروني.. إلا الغافرة لليهود قبل أن يغفر البابا يوحنا.. لقد أقبلت عليه تعطيه وردة، كأنما الوردة بلون الدم تتشفى بها لترى الدم على صورتين: الصورة في الوردة والصورة في الدم المسفوح، دم اللبناني مسلماً ومسيحياً غير ماروني وسورياً وفلسطينياً، ولم تكن هي المبتدعة لتقديم الورد إلى الأعداء. فلقد سبقتها أمهات وجدات مارونيات، قدمن الورد للتتار، لجنكيز خان وهولاكو، وقدمن الورد لتيمورلنك. وقدمن باقات من الزهور للأم الحنون فرنسا. تلك سوابق كما أن الآباء والأجداد

من المارونيين قد شغبوا على معاوية ابن أبي سفيان. وكانت المعجزة الأولى التي أعرفها من كسرى العرب هي أنه هادنهم فأرضاهم بالمال، فأبقى عليهم. فإذا هم قوة بعده يشغبون على عبد الملك يضطرونه وقد كان في موقف حرج، فابن الزبير في مكة وابن الزبير في العراق والخوارج كذلك، إلى أن يرضى القيصر في القسطنطينية بكثير من المال ويترضاهم كذلك. وقد كانت تلك عجزة من عبد الملك أن أبقى عليهم.

ولا أدري لعلّ معاوية وعبد الملك ما كانا ليستطيعا أن يجدا قوة في الشام تحارب هؤلاء. فالغساني والكلبي والبحرني وقد استحوذوا على الشام كلها لا يطيعونهما أن يقتلا هؤلاء.

مأساة أن تستقبل عربية، ولو كانت غير مسلمة يهودياً يحتل أرضها. ولكن هؤلاء المارونيين لم يشذوا عن ماضيهم. أما الأرثوذكس فهم قد عاشوا الويل من هؤلاء بحكم العداوة التي ضربت على النصارى جميعاً. فالأرثوذكس مازالوا مواطنين عرباً. أسألوا عنهم في مصر وفي الشام لا تجدونهم كالمارونيين وحتى لا يأخذني سوء الظن بأن موقفهم حين أيدوا دعوة التضامن الإسلامي ما كانوا يتعاطفون مع هذه الدعوة عن عقيدة وإنما عن هذه العقدة ضد القومية العربية، ضد العرب كلهم مسلمين أو قوميين..

عرويات

عقيدة . . لا عقدة!!

- وأصاغت الدنيا بسمعها، يستجيب عالمها الإسلامي، للنداء الذي فرض به رئيس المؤتمر الإسلامي، مؤتمر القمة المنعقد في مكة، الملك خالد بن عبد العزيز، التوقف عن الأعمال في يوم واحد. . استجاب له المسلمون والعرب، على صورة إيجابية، واستجاب له الآخرون، على صورة من التخوف، لأن الغرب كل الغرب، يحاذر من أن تجتمع الكلمة، في القارتين آسيا وأفريقيا، في وحدة، أبرز التوقف أن هذا الضيم الذي تصبه إسرائيل على العرب، وعلى مقدساتهم، ما هو إلا ضيم بمصالح الغرب، وطمأنينة الشرق، لكن اثنين لم يستجيبا إليه، الأول «مناحيم بيجن» والثاني «القذافي».

فاليهودي بيجن، يرى في هذا التوقف وفي أي مشروع عرض على مجلس الأمن، وفيما ينتج من قرار في هيئة الأمم، على أنه الابتزاز، لحق اليهود، وهو يعرف أن هذه الكلمة، تروج لدى الذين يعيشون في الجرعات المخدرة، جرعات اليهود، وإلا فأى ابتزاز أشد وأشر مما صنع «بيجن» وعصابته في المسجد الأقصى، يقتل الإنسان المسلم، ليسخر من كل المواثيق. . ولكنه في الوقت نفسه، وبفعلته تلك، قد أعلن للذين يجدفون له من بعض العرب، المنعزلين عن أمتهم، أن «اليهودي» ليس حضارياً،

فتخريب «قبة الصخرة» وتحريق المساجد، والخفريات لتحطيم الآثار، عمل بربري يقتل الحضارة.

فعلى الذين يدعون أن إسرائيل «غزو حضاري» ينبغي أن يعرفوا إنما «إسرائيل» بالعقلية اليهودية، «البرابرة» ولو لبسوا كل ما صنعتها المدنية.

أما «القذافي» فلا أحسبه كما تعودنا منه، إلا الرافض لكل موقف عربي أو مسلم، يحرص اليهود.. فهو بما أسلف وبرفضه الاستجابة للتوقف، إن قصد الشذوذ عن التضامن والوحدة، فالمهم العامل الذي يحقق أغراضه في هدم كل ما هو عربي، كل ما هو مسلم.

فالعقيد «القذافي» ليس صاحب عقدة، وإنما هو صاحب «عقيدة» يعمل لها، وستنبؤنا الأيام عن هذه الـ «عقيدة» التي أراد إخفاءها وأنه ليتستر تحت وصمة الجنون..

ومهما تكن عند امرئ من خليفة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

أمس هو اليوم عن العرب

- وترثت قليلاً في تاريخنا، استمد منه رؤية جديدة ليست كظاهرة أو مضت لحظة ثم أظلمت، وإنما كحقيقة واقعة نورها لا يظلم. فما هي تلك الحقيقة؟

هي عن الحرب، عن الجهاد، عن الدفاع، فالحرب قد ترفع الإسلام حين ارتفع بالتسمية الجديدة لها، ألا وهي التسمية للحرب بالجهاد. كأنما تجنب أن تكون الحرب غرضاً لذاتها وليست مطلباً لما يريده الإسلام من نشر الدعوة وتخليص الإنسان من عبوديته لغير الله، من عبوديته للوثن حجراً أو تمثالاً أو حتى إنساناً. وكأنما أراد أن يكون الجهاد اندفاعاً لتحقيق مطالب الإسلام ودفاعاً عن الإسلام ومسجده وترايه وتراثه.

ومن هذه المقدمة كانت النظرة التي ترثت أتفهم إحياءها، فوجدتني أرى في العرب الأمة الواحدة التي وحدها الإسلام. أراهم إذا ما حاربوا مهاجمين انتصروا فلم يnehزموا في أي حرب باسم الجهاد، شنوها مهاجمين. فقد كان الهجوم هو النصر. أما إذا ما استكانوا يقفون مدافعين فما أكثر ما هزموا.

«إن هاجموا انتصروا وإن دافعوا انهزموا»؛

فليقرأ من يريد أن يفهم ذلك أو من أراد ألا يقبل ذلك.. تاريخنا

ليعرف أن النصر كان بالجهاد المهاجم، وأن الهزيمة كانت على الجهد المدافع.

إن الهجوم كجهاد فرض كفاية تطوع، ولكنه قد يصبح فرض عين في هذا الوضع الذي نحن فيه، أعني وضع الأمة العربية هذه الأيام. فالفرقة والأقليمية والزعامات قد تنكرت للهجوم، وأصبح كل إقليم يباهي بأنه أعد نفسه للدفاع!

تلك خسارة أن يضيع الهجوم في الأمة الواحدة، وأن يصبح الدفاع في الشعوب غير المتحدة!

الوجه الجديد للتاريخ العربي

- ولأول مرة زغردت الفواطم والزينبات والرقيات والعواتك من أمهاتنا في فلسطين ومن كل الأمهات والبنات في الأرض العربية.. ترسل التحية وترفع أكف الضراعة إلى الله.. أرسلنا التحية للمقاومة الفلسطينية والانتفاضة ورفعنا الأكف إلى السماء بالضراعة نسأل الله أن يمنح النصر للمقاومة الفلسطينية التي كانت بحق قوة الصمود والتصدي.. تواجه اليهود التي اجتاحت لبنان بألوف الدبابات وألوف الجنود ومئات الطائرات.. تريد أن تقضي على الفلسطينيين وعلى الصادقين اللبنانيين.. فلقد ظنت إسرائيل أنها ستكسب الموقف.. تنال النصر في حرب خاطفة.. تنتهي في بضع ساعات فاستهانت بالمقاومة فإذا هي وقد مضت الأيام لم تحرز ما تريده.. لأن المقاومة التي امتلأت قلوب رجالها بالإيمان أكثر من امتلاء أيديها بالسلاح.. تكلف اليهود الكثير، فقد تعودت اليهود أن تنال بغيتها بالحرب الخاطفة، لأنها تغتني فرصة أن تحارب في جبهة واحدة.. تخشى أن تشن عليها حرب من جبهة أخرى.

إن الصمود والتصدي من المقاومة وبكل التضحيات قد أقامت العالم وأقعدته لتقول للولايات المتحدة وللإسكندر هيج بالذات كفى طغياناً (!!)

إن الرئيس قد تحدث في لندن يحبذ الحرب أن تكون لهدف وهو بهذا

يقول للعولنا كلها إن إسرائيل حين غزت لبنان لتقتل الفلسطينيين واللبنانيين . كانت تحارب هكذا هو الدفاع عن الذات . . كذبة صفراء قد انقلب اصفرارها إلى سواد .

إن الإسكندر هيـج قد عاد بالولايات المتحدة إلى عهد ترومان وجونسون ، وأي عودة إلى ذلك العهد البغيض أكثر من تهديد سوريا . . يهددونـها إن دخلت هذه الحرب ضد إسرائيل فإنها تخوض حرباً ضد الولايات المتحدة . إن المقاومة الفلسطينية قد أبيض بها وجه التاريخ العربي بأرواح الشهداء الذين يقتلون دفاعاً عن عقيدتهم وأرضهم وعرضهم .

إن المساجد قد ارتفعت بها الصلوات . . تسأل الله النصر للفلسطينيين بينما خرست الكنائس في لبنان ، فلأول مرة في الأرض العربية تتكلم المساجد وتصمت الكنائس . . إنها لحرب صليبية . . يتربقب الماروني في لبنان النصر لليهود والهزيمة للمسلمين وللعرب . . إن هذا الطابور الخامس في لبنان قد كفر بكل شيء حتى بعروبه . . وإن مضى هذه الأيام قد ضاعت بها فرص الحرب الخاطفة فالهزيمة لإسرائيل إن لم تكن اليوم فغداً . . فاللهم إنها أرض إسلامك ومسجدك فاقطع العون عن إسرائيل اليهود حين تقطع عنهم عون الحبل من الناس بما شئت وكيف شئت إنك على كل شيء قدير . . والتحية من كل طفل ومن كل شيخ لكل فلسطيني قاتل فانتصر أو قتل فاستشهد .

صهر أم قهر

- وكأن ما كتب على العرب وعن العرب ما يحزن، أفهي عملية صهر تنصهر بها النفوس فترجع الأرواح إلى إيمانها؟ أم هي عملية قهر لا تتأثر بها النفوس فكلما قهرها أمر حزننا وما انتهت.

إن القهر والمأساة والهزيمة قد ترحب الشعوب بكل ذلك إذا ما أحدث كل ذلك اليقظة فعملت لأن تقهر القهر، وقد مرت بالشعوب العربية قبل الإسلام وبالإسلام حضارات ازدهت وانتصارات كبرى حتى إذا سطع نور الإسلام كان العرب يمرون بمرحلة القهر، ولكنه كان إرهاباً ليجد الإسلام أمة قهرت حين تشتت وحين أصبحت حائرة تعبد الوثن ويرى كل قبيل منها أنه إله نفسه. فعبادة الوثن لم تكن قاصرة على تأليه الوثن فحسب بل كان عابد الوثن يؤله نفسه. يحسب أن في ذلك الاستقلال، بينما هو الإذلال!

وانتشر الإسلام بين العرب، بعضهم دخل الإيمان قلبه من أول وهلة وبعضهم تأصل الإيمان في قلبه حين ابتهلت نفسه لله وحده. فالوضع إذن ما أراد العرب أن يقهروا القهر ألا يكون القاهر إلا الله، تعمروا بالإيمان نفوسهم وتعمروا بالجهاد سيوفهم «ويا خيل الله اركبي».

العربي اليوم انفرادي ينفرد بنفسه، وانفرادي ينفرد في إقليمه، كل فرد يحمد نجاته كل قبيل يخضع لسلطانه، فلا سبيل لقهر القهر إلا أن تعود

الأمّة إلى قول مالك بن أنس «لا يصلح آخر هذه الأمّة إلا ما أصلح أولها».

إن الانفرادية والإقليمية شعوبية تحدث الحرب الأهلية الصامتة، كأنما كل ذلك السلاح القاهر في يد أعدائهم. إنهم عدد بلا مدد، لم يأكلهم عدوهم إلا حين أكلوا هم أنفسهم.

إن الحريق في فلسطين والدماء في لبنان والصمود الذي أصبح جموداً والتصدي الذي أصبح تردّد أعطى اليهود السلاح. لو كان لي رأي لقلت اتركوا الحملة الكلامية على كل أعدائكم، لا تقولوا: أمريكا أو روسيا أو أوروبا أو اليهود، وإنما قولوا على أنفسكم القول الذي يصف ما أنتم فيه، فحينما تحاربون قهركم لأنفسكم تستطيعون أن تقهروا عدوكم.

إن الصراخ من الأعداء قبيلة غير مباشرة تحدث حريقاً في أرضكم وعلى أجسادكم فيتشفّى عدوكم بما أنتم عليه من هذا الصراخ، فلو أمسك أحد البطاشين منا الكرياج وضرب ضعيفاً فإن صراخ الضعيف يشفي غليله لكنني رغم كل ذلك متفائل:

لم نعد بما لقينا نبالي بسهام رمي العدا أم نبال

ما قالها المستسلم الخانع، وإنما قالها من يريد أن يتلقى النبال ليكيل نبالاً من قوسه إلى صدر عدوه، ورضي الله عن فارس اليمن عمرو بن معد يكرب الزبيدي حين قال:

ولو أن قومي أنطقني رماحهم نطقت.. ولكن الرماح أجرت

المشرق

- لا أدري ما هي العقدة التي رسخت الجفوة للمشرق فأعربت عنها
أسطورة يمنية، أو بعبارة أدق مثل يماني.

فأهلنا في اليمن - وكل العرب أهلنا - لديهم هذا المثل: «إذا جاك
قرص من المشرق لَقُّهُ فِهْرًا».

ومعنى ذلك لو كنت جائعاً في حاجة إلى رغيف وأقبل عليك هذا
الرغيف من المشرق فأبعده عنك.. أطرده بحجر لئلا يصل إليك. فما
سبب هذا المثل؟

أحسب أن الإجابة تأتي من استقراء التاريخ واستنباط التاريخ. فالريح
الصرصر العاتية أهلكت قوم عاد، وأفرغت الربع الخالي من ساكنه، وزفيف
الرمال، كل ذلك كان من المشرق. وانحسار العروبة التي أشرق بها ذو
القرنين «المصعب بن الحارث»، فقد وصل إلى مطلع الشمس، فإذا الشرق
يطرد العروبة، وجائحة قمبيز حتى احتل مصر وهو فارسي، وبطشة رستم
ذي الأكتاف يدمر ملك الضيزن. يهلك عبدة وطياً وبقية من قحطان.

كل هذا تحمل اليمن مشقاته، وكان ذلك قبل الإسلام. وبعد الإسلام
انحسرت العروبة من المشرق يوم سقط العرب صرعى خلافتهم. وجاءت

موجة التتار فإذا المثل اليمني عقدة جاهلية أصبحت تعقيداً اجتماعياً بين العرب والقصبي والداني في المشرق.

وحفظنا مثلاً جديداً تعرفه العامة.. «غرب سنة ولا تشرق يوم!». فلعلّ فقه التاريخ يهدينا إلى التحقيق أول ما يكون بالاستقراء، وأدق ما يكون بالدراية والاستنباط. لكن انحسار العروبة من المشرق قد أبقى على تأثيرها بنشر الإسلام في هذا المشرق.. فلئن ابتعدوا عن العرب قوميين فهم لن يتعدوا عن لغة العرب.. لغة القرآن وهم المسلمون.

عنجهية العصر الفيكتوري

- وحين أعلنت اللجنة السباعية العربية المنبثقة عن قمة فاس المسيرة إلى لندن تزورها كعضو دائم في مجلس الأمن كأحد الدول الخمس مالكة «الفيثو»، حين ذلك لبست مارجريت تاتشر الرئيس لمجلس وزراء بريطانيا عنجهية العصر الفيكتوري، فقالت: إن عضواً من منظمة التحرير لا يمكن استقباله «لأن هذا لا يرضي بريطانيا»، فلقد كانت عبارة «لا يرضي بريطانيا» أسطولاً إمبراطورياً يعبر البحار في كتاب مخطوط موقع بلقب «خادمكم المطيع». أما وزير خارجية بريطانيا فرانسيس بييم فقد لبس قبعة «غلاستون» وجلباب «دزرائيلي» ومجد «لويد جورج» فتعنجه هو الآخر كأنما انتصاره في «الفوكلاند» أعطاه ذكرى انتصارات بريطانيا في حروب المستعمرات. ولكن ما تصرف به السياسة قد نالت منه التجارة، فأسرع الوسطاء.. لورد كارنجتون الذي أصبح داعية تجارياً ولورد آخر وشركات أخرى وسياسيون آخرون، فقد أرجف بهم خوف أن يحرمهم العرب من الشراء ومن التعامل مع الخبراء والأطباء فكلهم أخذ يسعى لتخفيف ما أتت به السياسة، فلقد أسرعوا قبل أن يسرع العرب أعني أن رد الفعل في داخل بريطانيا قد أظهره ليحولوا دون وقوعه إذا ما تفاءلنا أو يخبثوا متى يقع أو كيف يقع أو هل سيقع من العرب ما يشعروهم بالغاندية الجديدة.

وعلى كل حال فإن التراجع البريطاني قد بدأت ظواهر جديدة له تحول دون المقاطعة، ولكن هل تصوت بريطانيا مع القرار في مجلس الأمن؟!
الإجابة ستكون بعد. أما الذين سيصوتون كما عودونا فالدول الثلاث إذا ما ثبت موقف فرنسا على ما أعلنت، أما الولايات المتحدة فلا أحسب أنها إلا وتستعمل حق الرفض وإن سايرت مبادرة «ريجان» امتنعت عن التصويت إلا إذا سلكت الولايات المتحدة أحد طريقتين:
طريق الجد مع السلام، أو الطريق الآخر ليكن القرار وإسرائيل لن تنفذ!

إن بريطانيا فيما صنعت مقيدة بوعد بلفور وذلك أسوأ ما فعلت، وأحسبني وقد رضيت كثيراً عما تعلمته من شيخنا محمد عبد القادر الكيلاني الجزائري المصري التركي اليوناني المدني فقد تعلمت أن العرب ليس لهم صديق إلا بريطانيا، ولكني اليوم لا أرتاح إلى هذا الرضى ويرحم الله أستاذنا فقد كان صادق المنزع وإن فاته صواب الرأي فيما علمني.

صور

- وقلنا من قبل: تكلنز عربي بالذهب فاستعبد، وتأمرك بالدولار فجن،
وتبلشف للرغيف فجاع!

وانعكست الصورة فإذا العربي يتكلنز باللغة نصف كلامه عربي والنصف
الآخر إنجليزي، فما احتل وإنما انحل!

وتأمرك عربي بالعداوة والصداقة فاختل، وتبلشف بالعناد وللعناد فاعتل!

فمتى نصفق للعربي إذا ما استقل ولم يستغل؟!!

لعلّ هذه الأيام تزيدنا في هذه الصورة أن نقول وتفرنس عربي للأدب
والفن فإذا البيدق يتفرزن.

خلت الرقاع من الرخاخ فتفرزنت فيها البيادق

وسأل أحدهم آخر ممن يخاف العربي.. هل هو يخاف إسرائيل أم
يخاف عدواً آخر؟ فقال لا شك أنه يخاف إسرائيل ولا ريب أنه يخاف عدواً
غيرها، ولكن أشد الخوف هو خوف العربي من أخيه العربي!

فلو لم يخف العربي أخاه لاجتمع شملهم ولكان لهم شأن لا يخافون
به إسرائيل أو غيرها.

لكن الخرق اتسع على الراقع فما أكثر الفتوك وما أخطر العقوق.

* * *

أجاعته النشأة كأنه قد نشأ في خضراء الدمن حتى إذا واثته الفرصة أن يعيش الترف بعد الشظف جره مركب النقص إلى أن يصول ويجول لا يعبأ بالأصول ولا يخشى الفحول. فإذا هو يتزايد على الكاملين وينتقص من الفاهمين، كل القيمة عنده هي في قول الشاعر:

إذا ما خلى الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا

فحين أكرمه الظروف أصبح لئيمها المتمرد.

احذروا صولة الكريم إذا جاع، وصولة اللئيم إذا شبع!

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

إسرائيل ما زالت تكابر!

- ليست المشكلة أن تتعجرف إسرائيل فتفرض على مصر أن تكون المفاوضات بالنسبة للحكم الذاتي في بيت المقدس.. فعجرفة إسرائيل لا حد لها.. وإنما المشكلة التي تصل إلى درجة المأساة أن يكون التعامل مع إسرائيل على أنها دولة تلتزم بالعهد وتفي بالوعد وتخضع لمعاهدة السلام بينها وبين مصر.. إنها ليست دولة تلتزمها المفاوضات بسلوك أخلاقي أو يحتم عليها الذين تفاوضوا معها أن لا تتعجرف فهي حين تفرض على مصر أن تكون المفاوضات في بيت المقدس فإنها تريد بذلك اعتراف مصر العملي أن كل القدس عاصمة إسرائيل لتضع مصر في الموقف الحرج الذي لا يطاق فأقل تقدير ينجم عن ذلك.. هو فرض الإذلال على مصر.. كما هو الغرض الملح من إسرائيل إذا ما رضخت مصر لهذا الطلب المجحف أن تبقى مصر في قطيعة من أمتها العربية فهي تريد إخراج مصر من أي موقف عربي.. سواء كان ضد إسرائيل أو ضد غير إسرائيل.. فهذا الغير.. الذي لن يكون إسرائيلياً في الظاهر، ما هو إلا لها.. وبها يحطب في حبيلها ليوزع جهد مصر من أن تكون قوية.. كأنما إسرائيل بكل ذلك إذا ما نجحت بهذا الغرض أن تجعل من مصر شعباً ودولة وقيماً لا حظ لها ولا مجال كعطاء منها للأمة العربية أو كحرمان عطائها للأمة العربية لها ولكنها مصر.. قد صبرت على كثير من هذه المكابرة والعجرفة.. أرادت

بكل ذلك أن تضع أمام الولايات المتحدة ما تسقط به إسرائيل هيبة الولايات المتحدة فقد تكون إمبراطورية البيت الأبيض لها رأي آخر ومع إسرائيل ضد بعض الحكومات العربية فإنها.. وفي أغلب الظن أنها لا تريد أن لا تخسر مصر صديقاً الآن.. إن حسني مبارك لن يذهب إلى القدس لأنه لا يستطيع أن تذلل مصر وأن تكون القطيعة «سرمدية» ففي يده الورقة الراحلة ذات وجهين على الوجه الأول أمتة العربية.. وعلى الوجه الثاني صداقة الولايات المتحدة التي لا أحسب أن الولايات المتحدة تفرط فيها لأن الأزمات بدأت تلاحق حلف الأطلسي حتى وصلت إلى جنوب الأطلسي أزمة فولكلاند موقف حاسم يضع الولايات المتحدة أن لا تكون طوعاً لإسرائيل في فرض هذه العجرفة على مصر إن أي طرفين يتفاوضان لا بد أن يكون اختيار المكان بموافقة كل منهما ولكنهم اليهود لا يرقبون إلا ولا ذمة يحرفون الكلام عن مواضعه.. فلعلهم بهذا الموقف يريدون نسف معاهدة السلام فراراً من مفاوضات الحكم الذاتي..

تمتع بكفرك قليلاً

- لا تزال الأصدااء تتردد في مختلف أنحاء العالم الإسلامي.. ضد تجاوزات القذافي وإسفافه.. حتى إن بعض العرب أخذ ينادي بطرده من الهيئات والمنظمات لعزله.

الأستاذ محمد حسين زيدان.. يقول رأيه في واقع القذافي.. وأساليب التعامل معه.. وما هو مطلوب من العرب تجاهه؟

ولعلي أشكر القذافي.. حين وقف هذه المواقف ضد أمته العربية!!
فقد أعلن أنه المرفوض من الرأي الإنساني كله إلا أقلية.. تريد أن تمتصه مرتين.. تسلبه مال شعبه ثم تسلبه قيمته أما القيم التي يرتفع بها زعيم.. فقد أهدرها هو نفسه.. فحين أعلن السباب.. فتح عيون العرب على أنه «نكسة» في تاريخ العرب المعاصر فكأنما هو حين بدأ السباب قد عرض نفسه في «حلبة الانتخاب» يدعو العرب أولاً.. وكل الناس ثانياً.. ليدلوا بأصواتهم يحسب أن الناس معه.. فإذا هو الساقط في الانتخاب.

أما الذين أعطيت لهم كل الأصوات فهم «أقيالنا».. «عواهلنا».. «ملوكنا».. «أمرأونا».. هم الذين نجحوا في الانتخاب.. ولقد اتضح أنك تريد أن تذكر فقط كأنما معلمك.. هذا الشيطان إبليس قد أرشدك.. إلى أن اللعن فيه الإشادة بالذكر.. فأبليس اللعين.. يتنفج.. يفرح حين يذكر باللعن.. فإذا ما سمع إبليس لعنة الله عليه «اللهم ألعن الشيطان».. أعوذ

بالله من الشيطان الرجيم» يصرخ بالفخار.. يقول أنا موجود.. وهكذا أنت.. تلميذ من أوائل الطلبة في.. «جامعة الشيطان».. ف «تمتع بكفرك قليلاً».. لكن السؤال يطرح لا عاتباً ولا غاضباً.. وإنما هو أليس بعض أصدقائك من العرب حين سكتوا عنك.. أصبحوا في نطاق المسؤولية عن كل ما اقترفت؟.. لا نريد من هؤلاء العرب - وهم القلة - أن يكونوا معنا عليك وإنما نريد من بقية ما لديهم من الخلق الكريم.. أن لا يتجافوا عن الخلق الكريم.. نريد منهم أن ينصحوك.. فمن دواعي الرحمة لك منهم.. أن ينصروك بالنصح.. أن يرحموك بالموعظة الحسنة.. لكن أغلب الظن أنهم غير قادرين.. لا من عجزهم خوفاً منك.. وإنما من هذا التعجيز الذي يملئ عليهم من غير العرب - وما يوم حليلة بسر - لا أدري كيف يرضى تلميذ الإمام مسلم إن كانت الكعبة في ليبيا!!! أن يقترح ليكون الحج مرتين في العام.. أن يتلاعب القذافي - هريفة منه - بلفظ من القرآن.. فقد سكتنا عنه طويلاً.. نعظ أنفسنا بأنه الحلم.. ولكن حان الوقت لننشد قول الشاعر:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادٍ تحمي صفوه أن يكدر

ثم هل أقول.. أتركوه لا تلعنوه.. حتى لو لعنتموه إنه يفرح باللعن.. كما يفرح إبليس.. إن الداء يكمن إذا ما تسلط صعلوك فحينما يتسلطن «الصعلوك».. تضع مكارم الأخلاق.. وما أحسن هذا البيت قاله تونسي:

إني لأبرأ من زعامة جاهل.. تبجيله تفنى به الأخلاق

وما أحسن أن يسمع القذافي ومن إليه هذا البيت «لفؤاد الخطيب»:

ظلموا وما علموا بأن وراءهم شعباً.. وإن الله بالمرصاد.

لماذا انقلب القذافي؟!

- كثير هم الذين يزعمون أن «معمر القذافي» لا يصدر إلا كالذي «يتخبطه الشيطان من المس» ويعني هذا كما قلنا أكثر من مرة، أنه غير مسؤول، يرفع عنه العتب والعقاب، لأنه مريض.

غير أن من يدقق في أمره، ويعدد الانقلابات التي انقلب فيها على نفسه، لا يرى إلا أنه يصدر عن مخطط مرسوم، ينجم له تنفيذه وقتاً بعد آخر، ليحدث البلبلة داخل ليبيا، وفي الأمة العربية كلها، حتى إنه ليتطاول، يحدث بلبلة في من حوله، أفريقيا، وفي البعيد عما حوله، آسيوياً، وأوروبياً، وأمريكياً..

فالرجل مولع بالانقلاب، لا يستطيع أن يحدثه في أي بلد آخر، فقد فشلت كل محاولاته.. في القارة الإفريقية، وضد تونس، والمغرب..

وبعد هذه المقدمة.. أطرح السؤال، ألا وهو، كيف تم له، أن يهادن مؤقتاً المغرب وتونس والمملكة العربية السعودية؟ يصنع مهادنته من طرف واحد، يلح طالباً عودة العلاقات، فإذا المملكة العربية السعودية، والمملكة المغربية، والجمهورية التونسية، كلهم قال «مرحبا»، يأملون أن يتم الوفاق، وأن يدعم التضامن.. فشذوذ «القذافي» ومن إليه، هو الحيلولة الكبرى، دون أن يتم التضامن، في كلمة واحدة، ولكنه، وقد استرخى حيناً، كأنما

هو في مجثمه ذئب يتربص، فإذا هو «يروغ» عن هذه المهادنة، روغان الثعلب.. أهى حالة مرضية؟ من إحدى النوبات العصبية؟ لا.. لا.. ثم لا.. إنها حالة مرضية - بضم الميم وتسكين الراء وكسر الضاد - يرضى عنها، ليس هو وحده، وإنما الذين يعيش في الترضي لهم.. فلقد انقلب على المملكة العربية السعودية بالذات، لأن بواذر، قد ظهرت في الأفق، تبشر بانعقاد قمة الجامعة العربية في فاس، فحرص أن يشذ هذا الشذوذ، ليعطل اجتماع مؤتمر القمة، أو ليكون أحد المخربين له.

فالمخطط الذي لديه، هو أن لا يتم توحيد الكلمة، ولا أريد أن أتهم «القذافي» بأنه قد شذ هذا الشذوذ، أطاع هوى في نفسه، ولن أكون شاذاً حين اتهم بعض من ظن أنهم أطاعوا، فحين عرف عنهم، أنهم طاعوا ولم ينصاعوا، فأحب أن يكون هو الإعلان، يتخفون تحت شذوذه، ويظهر «بطلاً» أمامهم، بأنه «الأشجع».

إنه انقلب، لا يسأل عمن يغضب، كل سؤاله أنه أرضى نفسه، وأرضى الذين يتنافسون، على ترضيه، من الذين لا يلتزمون بكلمة، وإنما كل التزامهم، أن يكون بعض الأكبرين، قد رضوا عنهم.

فتنة الناس

- وأريد أن أكيد الذين يتنطعون، يعيرون عليّ إعادة ما كتبت من صور مازال الدافع إليها يتجسّد أكثر وأكثر، فحين كتبتها كنت مغيضاً من بعض الحال، واليوم أعيدها وأنا المغيظ من كل الأحوال!

أعيد ذلك لا عن جفاف، ولا عن نضوب، وإنما هو احتيال المغلوب من واقع ما أكثر العيب فيه.

كنت في القاهرة، أنزل في فندق «غراند أوتيل»، وفي ركن صالة الضيوف أو النزلاء المطلة على الشارع أجلس أنتظر بعض الأصدقاء، عربيين سعوديين، وأقبل رجل طوال يشرق بياضه يلتحف بعباءة سوداء ويعتم بعمامة سوداء، فتخيلته فارسياً أو عراقياً، وأيقنت أنه شيعي، حتى إذا وصل إلى الركن لم يبدأنا بالسلام، وجلس يبسط أوراقه أمامه، فأغاظني الشيخ المسلم أن لا يقرئنا السلام، فقمّت وبنظرة خاطفة نظرت إلى الورق أمامه وقرأت اسمه «رضا الشعبي».

مشيت قليلاً إلى الاستعلامات ورجعت حتى إذا جلست قلت له:

أنت؟!

فتنة الناس وُقينا الفتنا باطل الحمد ومكذوب الثنا

فتهلل يجيب :

نعم .

وسأل . . من أين . . من أنت؟!

ولكي أحرك مشاعره قلت له :

أنا من أبناء المدينة المنورة، عربي سعودي :

وسكت ثم سأله :

ما بالك قد أقبلت لم تقرئنا السلام؟ ألسنا في الإسلام أخوة، أولسنا

في العروبة قوماً؟ أوليست «النجف» على رمال نجد؟!

قال : لقد شغلت فمعدرة .

ثم قلت له : ما بال الحملة تشتد على نوري السعيد .

قال : «لقد ملّهُ المال»!

قلت : رجعت بنا إلى قديم، فقد قالوها للذين قادهم عمر بالعدل لقد

ملّهُ الناس!

قال : وهل يكون الخير فينا إلا إذا احترمنا القديم، ولم نجف الخير

من الجديد؟

ثم نهض يذهب إلى مجمع اللغة، وما أحسبه إلا من عقلاء الرجال

يرحمه الله .

لبنان

- وليس غريباً أن يكون الحديث عن لبنان الشغل الشاغل لكل عربي، والحوار الساخن بين الذين يتعصبون لفريق ضد فريق، وبينما الحوار يجري بين أصدقاء سأل أحدهم:

متى تنتهي الحرب الأهلية في لبنان؟

قلت: لم تعد حرباً أهلية، بل إنها أصبحت حرباً عالمية. فلبنان أصبح دولياً، فعد على أصابعك الجيوش التي داخل لبنان.. الجيش الأمريكي والأسطول الأمريكي، وجيش الكتائب وجيش الحكومة، وميليشيات الجنوب، تركة سعد حداد، وجيش الدروز، فالشيعة، فالسنة، فالمقاومة الفلسطينية، ولا تنس السلاح السوفياتي والموقف السوري ثم أضف إلى ذلك البرهان على أنها حرب عالمية في وجود الجيوش البريطانية والفرنسية والإيطالية، وأخيراً لا آخراً الاحتلال الإسرائيلي المؤيد من كل هذه الجيوش!

فهذه الحرب الأهلية التي أصبحت عالمية لا نتوقع نهاية لها قريباً، بينما النهاية تكمن في «بيضة كولومبس» فكل فريق من هؤلاء أعني الطوائف اللبنانية لا يريد إلا أن يضع البيضة على الطاولة في وضع أفقي وبذلك تتدحرج أما أن تقوم طائفة تضعها رأسياً كما وضعها «كولومبس» يكسر

قاعدتها تكون القاعدة منبسطة فتقف البيضة ولا تتدحرج .

إن هذه البيضة تكمن في إعلان يلغي الطوائف إذا ما أعلن أن لبنان وطن واحد، فلا طوائف ولا تحديد لرجال السلطة وإباحة المؤسسات يتولاها اللبناني المختار من كل اللبنانيين . .

هذا الحل يستطيع به لبنان أن يقول لكل الجيوش . . لقد اتفقنا فارحلوا!

أما أن تصر كل طائفة أو كل طرف دخيل على أن لا تنتهي الحرب الأهلية إلا حينما يكسبها فذلك أمر بعيد كأنما الطائفة التي تقول ذلك تذكرنا بإجابة الجنرال «مكريدي» وهو بريطاني كان في مصر أيام الحرب العالمية الثانية وبريطانيا تلاحقها الهزائم في أكثر من مكان حتى وصل «رومل» إلى «العلمين» في ذلك الوقت العصيب سأله أحدهم:

متى تنتهي هذه الحرب؟

قال الجنرال «مكريدي» بكل الصلف البريطاني وبكل الثقة لشعبه:

«ستنتهي هذه الحرب حينما نكسبها!» .

وكسبوها فعلاً . . ولكن «تشرشل» نظر إلى انتصار بريطانيا على ألمانيا بأنه ليس هو الكسب الكبير، فقال قال: «لقد حاربنا العدو الخطأ» .

ويعني بذلك أن انتصار بريطانيا لم يتم لأنهم - أعني حلفاءها ما استطاعوا أن يحاربوا العدو الخطير . . الاتحاد السوفياتي . .

بين الضحكة . . والأضحوكة

- ولا بد من العودة إلى ما مضى من الأحداث وإلى المواقف التي ذقت الهزيمة من الحدث والمواقف التي عيرت المهزوم وما كان أجدرها أن تعابير نفسها لأنها، وإن لم تهزم في حرب فهي المهزومة بالنكول وبالخوف وبعدم الاحترام للمسؤولية. وهي ليست مسؤولية الأقليم، وإنما هي مسؤولية الأمة، مسؤولية الأرض الواحدة والحضارة المتحدة. والحدث الفاجع اليوم ألا وهو اجتياح اليهود للبنان. فقد عانق الاجتياح اليهودي اجتياح الرغبة الصليبية، واجتياح الرهبة العربية، كأنما إسرائيل حين اجتاحت كان في يدها التلمود والبروتوكولات وكان يرفرف على رأسها سلاح الصليب، تمسكه باليد، تهلك الفلسطينيين واللبناني. فلأن ضحك اليهود فذلك من عملهم وطغيانهم. ولكن ضحكة بعض اللبنانيين هي الأضحوكة التي يتظرف بها العميل، يصفق لانتصار السيد. فالفلسطيني في لبنان والطائفتان المسلمتان في لبنان هم لبنانيون. فالعربي في أي مكان لبناني، واللبناني في أي مكان عربي. ولكن البغضاء والحقن الصليبي بدأ يسخر من الهلال. فالمعركة ليست معركة اليهود مع اللبنانيين فحسب، بل هي معركة اللبناني ضد اللبناني.

ولقد سبق أن نشرت إجابة لي ساعة أن ألقى محاضرة في مدرسة

الشجر في تلك الأيام الكئيبة، أيام شهر يونيو سنة ٦٧ وقد طرح شاب سؤالاً: كيف تم لمليونين من اليهود أن يهزموا مائة مليون عربي؟ قلت أسرع بالإجابة دون أن التفت إلى حذر أو أتجلجج عن مخافة، قلت: لم تهزم إسرائيل مائة مليون عربي، وإنما هي هزمت ثلاثة عشر رئيساً عربياً.

واليوم، وإسرائيل تحرق لبنان، الآباء والأمهات والأطفال والصليب الأحمر والهلال الأحمر والحصار تضربه على نصف مليون لبناني، كل هذا تفعله إسرائيل، والعرب، أعني الزعامات، قد حرموا أنفسهم حتى الانفعال. مع أن المطلوب هو الفعل.

وحتى إن زعامة ما امتدت بيد تساعد أصبحت تكيل السباب للذين طوقوا الأزمة ووضعوا الولايات المتحدة أمام المسؤولية.

لقد احترق هذا الزعيم السباب، فتلك حيلته، ولقد كان الفلسطيني ينتظر منه أن يرسل لقوة سريعة الانتشار التي زعم أنه أعدها لإنقاذ الخليج من الولايات المتحدة، كان الفلسطيني ينتظر منه هذه القوة وما كان يدري أنها الكذبة السوداء تلتطخ بها تاريخ العرب الأبيض.

إن غزو إسرائيل للبنان يهودي بسلح أمريكي وعون أمريكي. فأين سرعة الانتشار؟ فلافتراض وجود هذه القوة لأسأل ما الذي أخرها. هل أقول إن اليهودي حين احتل لبنان كان هو الشفيع للولايات المتحدة ألا يبعث القذافي القوة سريعة الانتشار.

إنها لو كانت موجودة بدون افتراض لكان اليهودي هو الشفيع للولايات المتحدة.

أين الحمية؟!

- وفي الأخبار من تراثنا العربي حفظنا اسم «الحارث بن ظالم المري» وهو من مُرّة غطفان لامرأة يام، كان فارساً فاتكاً اشتهر اسم سيفه، سمعت وصفه الأذن العربية عدنانية وقحطانية.

قالوا إنه اغتال سيد بني عامر خالد بن جعفر، السيد في غطفان كلها وفي مضر كلها. ثم اغتال زهير بن جذيمة سيد عبس والسيد في غطفان وقيس عيلان ومضر الحمراء. نظموا له الخرزات يتوجونه ملكاً على الحلف الأعظم، بل قد تقرب إليه النعمان بن المنذر بن ماء السماء فتزوج ابنته «المتجردة»، اغتاله الحارث بن ظالم فهرب من العدنانية إلى القحطانية في الشام. وفي غفلة اغتاله غساني فأخذ سيف الحارث يصل إلى «عكاظ»، ينادي من يشتري سيف الحارث بن ظالم.

واشرأبت أعناق مضر، فإذا قيس بن زهير بن جذيمة ولي الدم لأبيه زهير يسرع نحو الغساني يتناول السيف يروزه، فهو يعرف سيف ابن عمه غطفانياً مثله. فقال للغساني: كيف وصل لك هذا السيف؟ فأجاب كأنما يعطي المسرة لولي الدم قيس بن زهير يظن أن قيساً يفرح بغساني قتل ابن عمه ولو كان ابن العم قاتل أبيه. فسل السيف قيس يضرب عنق الغساني، يثار لدم ابن عمه ولو كان ابن العم قاتل أبيه!

فمن حميته ألا يرضى بغساني يقتل ابن عمه الغطفاني، لقد نسي أن
الحارث قاتل أبيه يوم أخذته الحمية المضرية العدنانية ترفض قحطانياً يقتل
مضرياً. وأصبح السيف سيف ابن ظالم سلباً لقيس.

إن سيف ابن ظالم قد أثنى عليه جرير حين هجا الفرزدق، فقال:

بسيف أبي رغوان سيف مجاشع

ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

كانت أيام اشتعلت فيها نار الحمية فإذا هي بالإسلام يسطع فيها نور

الحماية، فأين هي الآن؟!!!

صياد العصافير

- إن صياد العصافير تتمثل قصته في دول أوروبا الغربية والولايات المتحدة، والعصافير هم الفلسطينيون حين لم يصبح العرب البزاة الشهب، والصقور الزرق.

نحن العرب اليوم نتجرع الخديعة نخدرنا بها دول الغرب بهذه التصريحات على منابر «هايد بارك» كلام حلو يتبرعون به فيأخذه العرب على أنه عون لهم وخذلان لليهود، كأن العربي يصف كل زعيم في الغرب بأنه قد قلب ظهر المجن ضد إسرائيل.

إن الكلام يرادفه العمل المر، لحظة بلحظة، وقد سبق لنا أن قلنا أن زيارة شمعون بيريز لأسبانيا مهدت لها السوق المشتركة وحلف الأطلسي والهمس الأمريكي.

يريدون من إسبانيا أن تعترف بإسرائيل، وهم في هذه الأيام يمارسون الضغط على «أثينا» ذات الحضارة القديمة التي عرفت للعرب ما صنعوا لأثينا حين علموا الغرب كله فلسفة أثينا، فما عرف الغرب عن حضارة الإغريق إلا عن طريق العالم العربي والكتاب العربي.

إن أثينا أبت أن تعترف بإسرائيل، ولكنهم أعني دول الغرب قد شددوا من الضغط عليها يريدون الاعتراف الكامل بإسرائيل. فهذا العمل المر

يتناساه العرب ، ولكن ماذا يفعلون أمام هذه الحملة الشرسة المبطنة داخل
المخمل الكلامي ، والواضحة في ظاهر الأسنة المشرعة ضد العرب .

ولعلّ اليونان بالحكومة الاشتراكية قد هان عليها تاريخه ، فهي سترغم
على القبول مقابل طعم مادي أو مناصرة في القضية القبرصية كأنما تركيا
العضو الحليف في حلف الأطلسي لا ينفعها ذلك لأن صليبية الغرب لا
يزال حقدتها يشتعل على المسلمين عرباً وأتراكاً ، فهما في متناول اليد
اليوم . . «يد الغرب»!

الأرض

- في حوار مع قارئة، لا تقرأ واقفة، وإنما هي قد أعدت بقراءتها مكاناً، فلا تقرأ إلا جالسة، كأنما هي عرفت نصيحة لأمين الريحاني، يقول: إذا ما أردت أن تستفيد وأنت تقرأ، ينبغي أن تأخذ الكتاب بين يديك أو أي قرطاس تقرأه، فتبدأ القراءة جالساً لأن قراءة الواقفين تأتي سريعة، والقراءة تضيع بسرعة وترسخ بالطمأنينة. . وذكرتُها بهذه النصيحة ثم قلت لها: «وإذا ما أردت أن تكون الفائدة أكثر وأعمق، فعليك أن يشترك القارئان اللذان تقرئين بهما العين والأذن. فقراءة العين اكتشاف، وقراءة الأذن استيعاب. لأن الجرس رنين مثقف، كأنما القراءة بالأعصاب حين تطرب من الحرف أغنية وجدان» ثم قالت: «أين موقف العربي من العربي ومن أرضه ومن القراءة؟».

قلت: «العربي انفرادي النزعة»، فقد يكون جماعياً في الأسرة، حمياً للقبيلة، ولكن مازال قليلاً انفرادياً في الانقياد إلى الشعب أعني الأمة. فما يصاب به من رزايا في كل وقت هو ما تأخذه منه الحمية للأقربين قرابة النسب. أما قرابة السبب أعني العقيدة والحسب فقد يثار بتكرار التوعية وما أسرع ما يتراجع إذا ما مسوا فيه كرامة الانفرادية.

ومن أسباب ذلك أنه لا يقرأ. ويعني ذلك أنه لا يستوعب الثقافة من

تراثه والتوعية يعرف بها ما حوله ومن حوله.. من هنا فعلاقة الإنسان العربي بالإنسان العربي ما أحسنه في صولة الحمية وما أقل أثرها بعمق الانفرادية. فالإنسان العربي كثيراً ما يبتعد عن أخيه العربي. بالقومية والعروبة تأتي الحماسة لها بنت وقت. أما استمرارها فبعيدة عن تعانق الزمن.

أما الأرض فنقيض ذلك كله فلا نجد عربياً إلا أحب أرضه التي عاش عليها كما أحب الأرض العربية في أي إقليم عربي. فما زال حنينه إلى الأندلس وما زال أنيه من أجل فلسطين.. حتى إذا ما انتقل من أرضه التي ولد عليها إلى أرض غير عربية حمل اسم المدينة إلى تلك الأرض التي تكون فيها مجتمع عربي. ينقل الاسم كما ينقل النخلة كما نقل الحصان والجمال. لكن هذا الحب، حب عاطفة، لها وميض خافت يتبعثر لأنه لا يتحرك في سبيله كأنما هو عاشق بالمراسلة فلا ضريبة دم يؤديها إلى الأرض التي أحبها بل كثيراً ما ينغمس هذا الحب في ظلمة الشعبوية، وفي باطل يفرضه سلطان. فليت العربي يتفرد ولا ينفرد.. يتفرد للقراءة.. يتفرد للحمية دفاعاً عن الأرض. ولا ينفرد بالفرقة المذهبية، يتفرد بأن يعرف أنه بوحدة المشاعر والسعي يستطيع أن يصون حبه لأسرته لشعبه لأمة لأرضه. حنينه إلى الأرض لما يأتي بشيء إيجابي وأنيه إلى أرض قتلت الانفرادية.

ولعلّ التغني بالأطال هو البرهان على حب العربي لأرضه.

وسمعت كل ذلك فقالت: «يصلح كلامك خطبة على منبر في جمع حاشد، يفهمه بعضهم ولا يستجيب له بعضهم فإذا أنت نافخ القربة المثقوبة. إن جبران قال خيراً مما قلت، أو لم تعرف كلمته؟

قلت: «لقد بح صوتي وأنا أرددها، فلقد قال: ويل لأمة كل قبيلة فيها

أمة، ويل لأمة تأكل مما لا تحصد، ويل لأمة تشرب مما لا تعصر، ويل لأمة لا تزرع الحقل لتلعب في الزقاق، ويل لأمة تترك الدين إلى المذهب».

وانصرفت وكأنها لم تسمع. لأن صرخات الانفرادية قد شبت منها.
فالآذان لم تعد واعية. فالوضع كما قال شوقي يرحمه الله:
فلان الآذان آذان في منارته وقد تعالى ولا الآذان آذان

النظريات الفلسفية

- وأخذني هذا التقنين حدد به شاعر المهجر الذي هاجر من لبنان ثم عاد إليه هاجر من لبنان فإذا لبنان كله يفخر به، وجاء إلى لبنان وإذا لبنان أصبح فاغراً شذقيه يتأثر بالنظريات الفلسفية التي أصبحت مذهبية.

لعلّ «ميخائيل نعيمة» حينما كان في المهجر كان مع الفلسفة وليس ضدها، ولكنه في لبنان النافذة بكل ما فيه أطل منها «ميخائيل نعيمة» على الأمة العربية كلها. فلقد أصبح ضد الفلسفة. فقد قال:

«ليس من الضروري أن نموت بالنظائر المشعة، فالنظريات الفلسفية قد تقتلنا أيضاً».

قرأت ذلك في مجلة «إقرأ»، فوجدت ميخائيل قد حارب الفرقة بأسلوب شاعري وتقنين فلسفي. فالمأساة في العالم العربي هو أنه قد تبعثر فكراً، فتعثر عقائده وتأثر سلوكه، فإذا هو كما قال جبران ترك الدين إلى المذهب والحقل إلى الزقاق. كأنما العربي يعيش حياة في رعاية المذاهب الفلسفية أو على الأصح في تأثيرها عليه.

لقد لمس «ميخائيل نعيمة» جانب الضعف، فالمأساة تكمن في تشتت الفكر العربي، عقائدي يحارب عقائدياً، طائفي يعتقل طائفيّاً، إقليمي يبتعد عن الأقاليم الأخرى.

لو أن أعداء العرب سلطوا عليهم النظائر المشعة القاتلة لوجدناهم في وحدة يحاربون، فوجد الغرب كما وجد اليهود أن تسليط النظريات ينال من العرب أكثر مما تناله النظائر المشعة.

إن المقارنة بين النظريات والنظائر أسلوب شاعر وفكرة فيلسوف، ولنعم الفلسفة التي تعطي علماً ومعرفة، فميخائيل نعيمة فيلسوف على هذا الخط. ولبئس الفلسفة أن يكون من عطائها التسافه.

والعرب اليوم شبعوا من عطاء الفلسفة المتسافهة والمسفهة، فهم بتأثيرها يتسافهون، فكثير منهم قد سفه نفسه.

ولقد سبق جبران خليل جبران أخاه ميخائيل نعيمة بالكلمة كأنهما قد تسابقا في ميدان واحد. فجبران قال:

«ويل لأمة كل قبيلة فيها أمة، وويل لأمة تأكل مما لا تحصد وتشرب مما لا تعصر، وتترك الدين إلى المذهب والحقل إلى الزقاق»!

كلمة عزاء لمصر

- وهل تمر الكارثة في مصر دون أن نرسل كلمة عزاء إلى شعب مصر.. إلى مصر النيل.. إلى مصر الأزهر.. إلى مصر الفسطاط.. إلى مصر الليث بن سعد.. والشافعي.. وابن القاسم وأشهب وابن الماجشون.. وإلى مصر الطحاوي والسخاوي وابن حجر.. وإلى مصر العبور.

فالخلاف الوقت لا يمنع العلاقة الزمن.. فعروبة مصر وإسلامها تلزمني أن أرسل كلمة عزاء.. ليست نادبة تلطم خديها.. وإنما مذكرة تحتضن بيديها.. فهذه الكارثة تذهب بأرواح القادة.. كأنما كل القيادة جمعت في طائرة واحدة لتخسر مصر قادتها..

إن الفيلد مارشال المشير أحمد بدوي ورفاقه يستاهلون كلمة عزاء.. كما تستاهل مصر كلمة عتاب.. فإني أتحاشى كلمة التأنيب وهي تعيش مرحلة التعذيب.. عذابها الآن أن فقدت هؤلاء الرجال في لحظة واحدة، كأنما خطط لها أن تكون لتخسر مصر ساعة غالية من حياتها.. أفليس من الممكن في تلك اللحظة التي تحطمت بها الطائرة يقتل فيها قائد الجيش وأركان حربه وقادة الفروع فتكون ضربة تضرب بها من عدو.. كأنما هي فيما يكرب العربي خوفاً على مصره.. هي اللحظة أشبه ما تكون بساعة

الفجر يوم ٥ يونيو.. لكن وقى الله شرها؟

إن الجنرال أحمد بدوي، كان أحد قادة العبور.. توج بمجد العبور.. فكيف أصبح اليوم يقود العبرة.. تقاد بها العبرات من الذين يخافون على مصر أن تغتال كما اغتيلت في ٥ يونيو.

هل أقول غفلة من أحمد بدوي نفسه.. لا يفطن فطنة القائد.. لا يركب طائرة إلا وحده.. أو معه على الأكثر اثنا؟!

أما أن تحشد القيادة كلها لتهلك في لحظة واحدة، فما أشد جسارته في هذه الغفلة فما أشد خسارته على صفحات التاريخ!

إن مجد العبور الذي اتضحت به البسمات بعد العبوس كارثة أن تستحيل البسمات إلى دمعات أو همسات من وراء هذا الحادث الجلل!!

إن إرسال كلمة العزاء من حتم التاريخ علينا لا نعبأ بالوقت ونحتفل بالزمن تعود إلينا مصر ونعود بها إلى تضامن مشرق شعارنا الكلمة التي قالها البطل مؤسس هذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية عبد العزيز بن عبد الرحمن تغمده الله برحمته، فقد قالها الكلمة تسمعها أذن اللواء محمد نجيب رئيس جمهورية مصر حينذاك، وقائد الثورة جمال عبد الناصر. فقد قدما إلى الطائف يرحب بهما عبد العزيز فقال لهما: «أنا لا يهمني من يحكم مصر سواء كان الملك فاروق أو أنتم إنما تهمني مصر».

فمن أجل مصر أرسلها دمعة على أحمد بدوي.. ولقد أكبرت حين سمعت خبر المشيعين في الجنازة واحداً من بين المشيعين هو اللواء محمد نجيب قائد جيش.. صديقاً لنا أيام حرب فلسطين.. رئيس جمهورية.. معتزلاً في كسر بيته يخرج يعزي مصر في أحد جنودها.

إن محمد نجيب لكبير لن يخسر باستصغار الدنيا له . فإنها لصغار بين
يديه الآن لا يعبأ بها . . يشيع من كرامة أخلاقه . . وما أحسن الشيع بمكارم
الأخلاق .

الجائع والرغيف

- في الأمثال مثل يقول «الجائع يحلم بالرغيف» أو هو على لسان العامة «الجيعان يحلم بسوق العيش» وكذلك يحلم المحترف لأي حرفة أو النابغ في أي فرع من فروع العلم بما يرجو من حرفته أو ما توحى به إليه حرفته. وكذلك النابغ في فرع من العلوم العملية أو النظرية يحلم بحل المسألة الرياضية أو التصميم الهندسي أو الكشف الطبي كما يحلم المكروب بما يفرج كربته. والمأزوم بما يحل أزمته.

ولقد عرفت أن أستاذنا وكان عالماً رياضياً كثيراً ما يحل المعادلات الجبرية في أحلامه وهو مستغرق في منامه، ذلكم هو أستاذنا السيد حسين طه.

ولقد سقت هذه المقدمة تدليلاً على خطبة ألقيتها وأنا نائم فالتدليل برهان ولكن فيه بعض التدليل أطوع به قارئى.

فلقد كنت نائماً بعد الظهر فإذا بي أحلم بأن بعض قومي من العرب قد تعرضوا لفتنة داخلية فأشرعوا أسلحتهم يتقاتلون وقبل أن يبدؤوا القتال، يسيل به دم الأخ من سلاح أخيه شرع عدو يريد أن يهاجمهم حتى إنه حل في أرضهم ورأيت جمعاً منهم أناشدهم أن يتحدوا، أن يقتلوا الفتنة فغضب

بعضهم، ينالني بما يسيء فذهبت إلى صفهم فألقيت هذه الكلمة وأقسم أن ذلك كان حلمًا.

«اسمعوا: ليتنا لم نرث أمجاد الماضين، ليته لم يكن لنا تاريخ، ليتنا لم نرث حضرة الوسيط، ليتنا لم نفتح في ثمانين عاماً ما هو أشد من الأرض ما اتسع واتسق، هادين مرشدين، بينما الرومان لم يفتحوا مثل فتحنا المسلم العربي في ثمانمائة عام.

وكاد يشغب أحدهم أكلت وجدانه الفتنة فصرخت أقول له ولهم: «أيها الأخ ليس الحرمان ألا تجد وإنما الحرمان أن تفقد ما وجدت» أيها العاق أسقط من وجدانك الشقاق لئلا نفقد ما وجدنا.

وهكذا الكرب، وهكذا المأساة أعيشها عربياً مسلماً أيقظت الكلمات في لساني وأنا نائم ولكن لا حياة لمن تنادي.

ندوة في الكونجرس

- ما كنت معنياً بسماع الإذاعة الأمريكية «صوت أمريكا» من واشنطن، لم أكن لاهياً، ولا زاهداً، وإنما كنت أجد الكفاية حين أسمع إذاعات عربية، أو حين أعمد إلى سماع إذاعة لندن مغرضاً أتسقط زلاتها، فهي مسخرة لليهود، ولا لوم عليها في ذلك، فالغرب كله تفضله إذاعة لندن لأنها واضحة. وأما الساسة فإنهم يتسترون، يمارسون ازدواجية السلوك..

ولكنني وبالمصادفة أخذت أسمع «صوت أمريكا» ليس في كل وقت، وإنما حين تتاح لي فرصة الذهاب إلى مكان، اسمع «صوت أمريكا» وأنا في السيارة..

بعض ما سمعته أدخر التعليق عليه لمقال آخر، أما تعليقي اليوم فعن الندوة بين فئتين من أعضاء الكونجرس. صهيوني تهوّد وعربي تأمرك. كان الحوار بين مجموعتين، فالعضو الصهيوني يمثل دور وزير الخارجية، ينتصب معلماً للإدارة الأمريكية، فهو يقول: إن نقل السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس حق مشروع، يدعو إليه نصر الحليف للحليف، أما عدم نقلها فمذلة للإدارة الأمريكية ينبغي أن تقاومها. لأن عدم موافقة الإدارة على نقل السفارة معناه خضوعها إلى العقاب العربي، ولا ينبغي أن نسمح لدولة عظمى بالخضوع للعقاب.

إن هذا الأمريكي وهو عضو في الكونجرس، قد سخرته اليهودية، فهو لا يبالي أن يسخر من الشعب الأمريكي..

وأخذ الكلمة عضوان عريان مسيحيان، فقال الأول: إن إسرائيل تعامل المسيحيين معاملة كريمة لا تعبث بمقدساتهم، تبيح لهم ممارسة العبادة والطقوس فغضب العربي المسيحي الآخر وقال إن إسرائيل تمارس الضغط والجور والإبادة على كل الفلسطينيين ولا تستثني المسيحيين، وبرهن على ذلك بما أخرج العربي المسيحي الأول..

إن هذا الذي يجري وتذيعه إذاعة واشنطن لا يصل إلى الإعلام العربي، فبعض الإعلام العربي - أرجو العفو من هذه الصراحة - موظف لدى وكالات الأنباء من كل نوع، غربية وشرقية حتى إن بعض الإذاعات العربية تتجافى مع اللفظ العربي لتزهو بلفظ من ألفاظ الفرنجة..

لماذا الإعلام الغربي لا يرفض الكثير من وكالات الأنباء، ولماذا لا يتصرف فيما توزعه عليه وكالات الأنباء؟

ليس هو العجز، وليس، هو العقوق. ولكنه الوهن، ولكنه التهاون.

ولكن كل من هب ودب أصبح يذيع. أما المسيحي العربي الذي كال المدح لإسرائيل، فما أحسبه إلا كاثوليكيًا بينما الثاني أرثوذكسي. ولهذا التفريق خلفية أترك أن يفهمها القارئ..

لغويات

الكلمة في السياق

- الذين يفوتهم التلقين يتعثرون في نطق الكلمة صرفاً وإن أحسنوا نطقها نحواً فإجادة الصرف لا يمتلكها المتكلم إلا بالتلقي والتلقين وكذلك أسماء الرجال فكثيراً ما نخطئ لأننا عرفنا أسماءهم بالقراءة وليست المطابع مكلفة بأن تضع التشكيل فالكلمة قد يتغير معناها إذا لم نعرف مبناها إنك لا تعرف الكلمة إلا من خلال السياق أو السباق وهكذا يصح قول المتنبي:

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

وحين سمع بعض الناس هذا البيت لبشار بن برد رأس المحدثين (أبو معاذ)..

إن في بردي جسماً ناحلاً لو توكت عليه لأنهدم

فجاء يسأله وقد قرأ كلمة (توكت) بضمير المتكلم فقال له كيف ينهدم جسمك هذا الضخم إذا ما توكت عليه مع أنه لو قرأها بضمير المخاطب الحبيبة التي يتغزل فيها بشار فإن المعنى يتضح وانهدام الجسم واقع فلو أن الحبيبة توكت عليه فإن هذا الجسم الضخم سينهدم لا سقوطاً ولا انهداماً وإنما هي هزة الحب فكل القوة في هذا الجسم تذوب أمام ما انفع به الوجدان فإن اللمسة الطرية الناعمة من يد حبيبته يتهدم جسمه كأنما يذوب

من وقدة الحنان ومتعة الوصل فالقراءة الخاطئة بضمير المتكلم ساقط الناقد
أن لا يقتنع بهذا والقارئ الآخر الذي قرأه بضمير المخاطب تغنى بهذا
البيت والشعر كما قالوا (أعذبه أكذبه) وهل كان إلا ناسجاً على نسج بشار
حينما قال:

كفى بجسمي حولاً إنني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني

اللغة الشاعرة

- مما أحمدته للدكتور طه حسين أن قال: إن اللغة الفصحى باقية باقية يشرق بيانها ما دام هذا القرآن.

إن طه حسين حين قال ذلك كان يدافع عن اللغة الفصحى. فهل آخذ فرصة الدفع معه لا بأسلوب الدفاع وإنما باستعراض خاطرة استنار بها فكري حين تذكرت ابن المقفع والجاحظ وبشار وأبا نواس ومهيار وابن الرومي والخوارزمي أبا بكر.

تذكرت هؤلاء الأعاجم في أعراقهم. كيف امتلكوا ثراء ما أكثره ما أقواه ثراء كانوا فيه الأئمة، فقاموسهم واسع واسع وبيانهم لامع لامع.

كيف امتلكوا ذلك وهم أبناء الأعاجم، كيف امتلكوا ناحية النثر والشعر بينما هم إذا ما تحدثوا كان يعترهم؟ لحنهم في الكلام تفوقوا عليه بالجميل والجميل من لحن القول إذا ما كتبوا شعراً أو نثراً.

سألت نفسي كيف امتلكوا ذلك؟ فإذا الوميض الأبيض يسود. إن قالت لي الخاطرة إن اللغة العربية حينما كان قومها أعزاء أباطرة الدنيا وسلاطينها اعتزت بهم الفصحى، فاستعرب الأعاجم حتى كان هؤلاء قد عرفوا العربية حين أعربوا بها.

واليوم حين تبعثر العرب، يوم تداعت عليهم الأمم كتداعي الأكلة على

القصة، يوم ابتز سلطانهم أكثر من عدو استعجم العرب حين فقدت الفصحى عز قومها استعرب الأعاجم، وحين هان قومها استعجم العربي. ولكن التشاؤم أطرده والتفاؤل ألبسه، فما دام هذا القرآن فإن الفصحى باقية سرمدية، وسيتم لها البقاء بانتشار العلم بالجامعيين، بل إن التمام كل التمام أن يعود العالم إلى المسجد جامعة يستنير بها الذين لم يدخلوا الجامعات.

إن افتقار المسجد إلى الدرس والتدريس من الأسباب التي تشقى بها اللغة الفصحى فالمسجد حين كان عامراً بما يسميه السفهاء، الكتب الصفراء. كانت اللغة وكان الفقه وكان العلم كله مشرقاً كأنه نور الصلاة لنور الصلوات.

لا تعجبوا إن قلت إن الذين ذكرتهم لا يتكلمون الفصحى، فقد عرفنا هذا الخبر حين قالوا إن عصر عبد الملك بن مروان لم يكن فيه إلا أربعة يتكلمون الفصحى ولا يلحنون، وهم عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف وعامر الشعبي وابن القرية. حتى إنهم لم يذكروا من بين هؤلاء رجاء بن حيوة والحسن البصري ومن إليهم ومن بعدهم.

اللغة الشاعرة

- وكثيراً ما تعلمت من بعض العامة كلمات عريقة في العربي.. فلقد نشرت من قبل ما يمكن أن أستطرد به الآن كمقدمة لما تعلمته قبل يومين، وأعتذر عن التكرار لأن من قرأ ذلك قد نسيه وهم قلة، وقارئ اليوم أكثرية فأعيد التذكير ولا أسأل عن النكير.

إن كلمة النجاح فيما نعرفه حين نتعامل معاً تعني التفوق.. ولكن إخواننا في الجنوب ذكرونا بلغة عاد وقحطان العربية الأولى التي فصحتها العدنانية بعد حين توسعت في الاستعارة والمجاز.. واتسع لها الترف في الأسواق فالعرب في أي سوق من أسواقهم أشبعوا اللغة العربية ترفاً كما هي أشبعتهم حين توحدت بألسنتهم. ففي العادية الأولى نجح الطعام.. أي طاب ونضج ولعلّ كلمة طاب استعارة.. فالألصق، هي كلمة نضج.. فطاب لعلّها استعارة من طيبه حين يؤكل وحتى نضج توسعت الاستعارة فيها فلان ناضج العقل، ناضج الثقافة، ناضج الأسلوب.. فالحقيقة نضج بمعنى نجح وطاب.. وهكذا نجح توسعت بالاستعارة إلى معنى التفوق والامتياز وكذلك النفيس.. نحن نتعامل بها تعبيراً عن الثمين والغالي، بينما هي في اللغة العادية القديمة عرفت حين نطق بها حضرمي، سائق سيارة قال هذا شارع نفيس.. ليته يعبد، قلت: نفيس (!؟) قال يعني الواسع.. فاتضح لي

أن الحقيقة بمعنى النفيس هو السعة للاتساع ومنه النفس .. التنفس ..
النفساء ..

وأقبل بدوي يسأل: ثوبي تهتر يا ولد (!!) سمعته فأخذت أجري
لأعرف معناها في لسان العرب .. فهو أراد بكلمة تهتر تمزق فإذا الحقيقة
هي كما أراد بينما الاستعارة والمجاز قد توسعت بها إلى المهاترة وهي
تشقيق الكلام حتى اللجاجة .

وبالأمس وسائق سيارتي يماني وتعرضت سيارة أخطأ سائقها كادت
تصطدم بسيارتنا فقال سائقي اليمني: هذا أراد أن «يضبحني» قلت ماذا؟!
«يضبحك» قال: ضيق صدري .. أزعجني فتذكرت الآية الكريمة: ﴿وَالْعَدِيتِ
ضَبْحًا﴾ (العاديات: ١) صوت أجوافها إلى عدن ومنها صوت الثعلب إلى
آخر ما يجده المراجع للسان العرب .

ومرة أخرى .. وفي حادث مماثل قال: «إنه بتكني» قلت: ماذا؟!
وأخذ يترجمها لي كأني أعجمي ومادري أنني أعرفها قرآنيًا: ﴿فَلْيَتَكَنَّ
ءِذَا نَكَحَ الْأُنثَى﴾ (النساء: ١١٩) لقد ترجمها لي فقال: إنه قطعني فالبتك
هو القطع في اللغة .. وكل ما أريده في هذا أن لغة الحضارم واليمنيين
دلالة على الألفاظ الحقيقية التي توسعت في اللغة العدنانية بالاستعارة ولقد
تنبه الزمخشري هذا الأعجمي الذي تعرب كما لم يتعرب أحد مثله فقد
أجاد في كتابه «أساس البلاغة» حين يشرح حقيقة اللفظ ثم يشي باستعماله
المجازي .. ما أحلى لغة العرب .. ما أوسعها .. انظروا إلى كلمة «نهد»
نهد للأمر .. شد حيله .. يؤديه ومنه النهد إلى آخر ما هنالك فدعونا من
تضييق الاشتقاق فقد كان الاشتقاق والتعريب هما الكنز الذي ملأ الأمهات
بألفاظ اللغة الشاعرة .

لغة

- وحين كتبت عن «القرمز» الكلمة المعربة نسييت أن أكتب عن ألفاظ عربية استعجمت. فلدينا كما في القاموس واللسان كلمة «ديماص» تعني الحمام. فهناك نص في القاموس هكذا:
«مغسول غاسول ديماص تماوصه».

فلفظة «ديماص» عربية الأصل حرفت فاستعجمت، وهي تعني الحمام الدمشقي، فلفظة «دمشق» تنطق بلغة الفرنجة «ديمسكس».
ولفظة ثانية قالوا إنها معرفة وهي «الدمقش»، مع أنها عربية تعني الدمشقي.

وكذلك «دومسكو». فالدمقش من الحرير وكذلك القماش الدومسكو كلاهما يعني الدمشقي.

وكما اشتهرت دمشق بالحمامات فقد اشتهرت أيضاً بالنسيج، فقد كان الأباطرة والكاردينالات والقساوسة يلبسون الجوخ أو الحرير أو الكتان مصبوغاً بالأرجوان والأرجوان صبغة يستخرجها الفينيقيون من فلوس السمك، أي قشر السمك، ولكنها ضاعت فلم تعرف هذه الصبغة الآن.

وكذلك لفظة «موزلين» وهو نوع من القماش وأصلها العربي «الموصلي» صناعة الموصل.

وما دام الشيء يذكر، ففي بعض المراجع يقولون إن لفظة «القرآن» حبشية، وهذا خطأ، فالحبشية الأمهرية والعبرية والآرامية كما العربية كلها لهجات ساميات فلفظة «قرآن» إن شاعت في الحبشية فإن مصدرها عربي، فعندنا مادة القراءة أو «قرأ». قرأ قراءة وقرأنا.

كذلك قالوا عن لفظة «استبرق» إنها فارسية أصلها «استبره»، ولست مع هؤلاء. لماذا لا تكون «استبرق» من «البريق» ومن «البرق»، فأصل المادة موجود عربياً فصيحاً، حرير له بريق فقد «استبرق».

أكلوني البراغيث

- أشياخنا الأولون إذا ما شرحوا لنا قاعدة نحوية أو أي معلومات أخرى لا يجمدون على مادة الدرس، بل يتحibون إلينا بأسلوب من الرحمة والرعاية، يدخلون الفرحة على أنفسنا بنصيحة غير مباشرة على صورة من حكاية.

ولما بدأ الدرس نتلقاه على يد أستاذنا السيد محمد صقر، الذي كان أباً ومعلماً، يعلمنا القاعدة في معاملة الجمع معاملة المفرد، وطرح المثل.. قال:

لغة عربية شاذة في قولهم «أكلوني البراغيث» فالصواب أنه يقال..
أكلني البرغوث مفرداً، أو أكلني جمعاً. كما يقال.. عضتني البراغيث.

ولم يقتصر على ذلك، فقد ذكره البرغوث بحكاية، قال:

حام برغوث وهو يطير، يستكشف ما على الأرض. استكبر الجبل واستهول النهر حتى إذا رأى الثور قال.. هذا جبل صغير!

فوقع على قرن الثور كأنه على قمة جبل، أعجبه ذلك فتنفج وتبطر، وقال للثور: أيها الثور الكبير ذو القرن الطويل لقد اثقلت عليك حين وقفت على قرنك، ولن أحرم الذوق، وسأطير وأخفف عنك..

وغضب الثور من هذا البرغوث الصغير، يحتقره فإذا هو يقول:

أيها الحقير.. أنا لم اشعر بوقوفك على قرني حتى أشعر بطيرانك.
وغضب البرغوث يستصرخ البراغيث والبعوض قائلاً هلمّ إلى هذا
المغرور، تعالوا نلقنه درساً يعرف منه قيمة البرغوث والبعوض. قالوا له:
ماذا نصنع؟ لو تكالبنا عليه بالعض لما أثر فيه. فقال البرغوث الزعيم: لا
تعضوه، ولكن أدخلوا في خياشيمه.
ودخل البراغيث والبعوض في خيشوم الثور فإذا هو يضطرب بخوار،
ما استطاع أن ينقذ نفسه من البراغيث التي استضعفها.
وكان الثعلب يشاهد ذلك، قال إنه درس يتلقاه الإنسان حينما يجتمع
الضعفاء ينتصفون من الأقوياء. ولكن هذا الثور غبي فقد تكون القوة مصدر
الغباء. وقد يكون الضعف مصدر الذكاء.
إن الثور أمامه النهر وهو حيوان يعوم، لو نزل في النهر واستنشق الماء
في خياشيمه لهلك البعوض والبراغيث.
وجاء سيد الثور، فجره يغمس رأسه في النهر، كأنما سمع فكر الثعلب
فإذا الثور يستريح، وإذا البراغيث والبعوض قالوا: إن الثعلب علم سيد
الثور التكنولوجيا الحديثة.

التوت . . والرتوت

- حين أفتش تلافيف الذاكرة أجتر بعض ما مضى، أمتح من الذاكرة فذاكرتي ولله الحمد ليست كما يسميها أستاذنا عزيز ضياء، «تلافيف»، وإنما هي «تواليف» كتاب أم أو كتاب حديث أو كلمات مجنحة أرسلها أو أترسل بها أو أترسلها مما أقرأ.

فذاكرتي «هدّاج تيماء»، ولعلّ أستاذنا عزيز سيسألني عن الهدّاج وعن تيماء.

تذكرت خصاماً بين سيدين من أعيان المدينة، وحين انعقدت الدورية وكان الاجتماع في بيتي قال لي بعض الصحاب:
يا أستاذ «أدخل بينهم».

فأجبت به بمثل يحفظه أهل المدينة ولا أظن أنهم ابتدعوه، فقلت:
«أيش يدخّل التوت بين الرتوت»؟! وأوضحت.

المتخاصمان من عليّة القوم، وأنا شجيرة توت ورقي طعام دودة القز، فاتركوني أنسج لكم حريراً فالحري من عطاء اثنين . . التوت وناسجة القز.

وتذكرت هذا المثل وأنا أجتر الذكريات، فأردت أن أعرف معنى الرتوت. فرجعت إلى «اللسان» وإلى «أساس البلاغة» فإذا الحقيقة أن الرت

يجمع على رتوت وهم ذكور الخنازير وفحولها التي فيها شدة وجرأة وشراسة. ولم أرض عن الحقيقة أن تكون الوصف الذي أريد ثم وجدت بعد ذلك ما يصنعه الزمخشري جار الله صاحب الكشاف والأساس، فهو يعرف الحقيقة ثم يعرف المجاز، فإذا المجاز يعني «هو رت من الرتوت، وهو من رتوت الناس، أي من عليتهم وسادتهم».

فأراحي هذا المعنى المجازي، فالتمثل به الذي شاع وذاع لا يعني إلا المجاز، فالتوت الذي لا يؤبه له إلا عند دودة القز لا يحق له أن يدخل بين كبيرين.

من هنا فإن كثيراً من الأمثلة على لسان العامة لها أصل في اللغة وإن ابتعدت بها اللهجة فكثيراً ما استعمل كلمة «يستأهل» وينطقها العامة بالتسهيل «يستاهل» فصّحها المازني يرحمه الله وتفصّحت عنه بها.

القرمز

- وتعودت أن أسمع برنامج أستاذنا وصديقنا عبد الله بن خميس الإذاعي حرصاً على أن أفرح بما كنت أحفظ، وإني لأكثر فرحاً بما يورده من الشعر الشعبي، كأنما القبائل في جزيرتنا وفي نجدنا خاصة قد بقيت حفيظة على ميراثها من الشعر، فهي إن تباعدت عن الفصحى لم تبعد عن الإفصاح بما تحفل به من المعاني الشاعرة وكأنما اللغة الشاعرة لم تحرم أبناءها من معانيها وإن جرت الأيام اختلافاً في مبانيها.

سمع بيتاً من هذا الشعر الشعبي يصف الشفاه بأنها «تقرمزت» أو أنها «مقرمزة» فوقفت، من أين جاءت له هذه الكلمة التركية «قرمزي» أي الأحمر خفيف الحمرة؟

كأنما الشفاه قد جاء وصفها بالقرمز وصفاً ثالثاً مضافاً إلى ما جاء في الفصحى «شفاه لعساء».. «شفاه لمياء»، باللحس واللمى حمرة مسودة و سواد محمر توصف به الشفاه الجميلة والقرمزة هي كذلك.

وزعمت لنفسي أن اللفظة القرمزية دخيلة على هذا الشاعر كما دخلت كلمات أجنبية غيرها، ولكنني لم أقتنع بهذا الزعم لأنني أعرف أن اللغة الفصحى قد تفصح بها كثير من الدخيل، كالزنجيل وما إلى ذلك وأخذت أرجع إلى «لسان العرب» فوجدت أن الفصحى قد فصّحت لفظة «القرمزي» فقد جاء في اللسان ما نصه:

«قرمز: القَرْمَز: صبغ أرمني أحمر يقال إنه من عصارة دود يكون في أجامهم، فارسي معرب، وأنشد شمر لبعض الأعراب:

جاء من الدّهننا ومن أرابه
لا يأكل القَرْمَازُ في صنبه
ولا شِواء الرِّغْفِ مع جُودابه
إلا بقايا فضل ما يؤتى به
من اليرابيع ومن ضبابه

أراد بالقرماز الخبز المَحْجُور، وهو معرب، وورد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ (القصص: ٧٩) قال: كالقرمز هو صبغ أحمر، ويقال إنه حيوان تصبغ به الثياب فلا يكاد ينصل لونه، وهو معرب».

فالحصيلة أن الفصحى أخذت لفظة القرمز تصف به الحمرة في كل شيء، وتخص الشفاه تصفه به.

حرصت على ذلك أنشره، أثبتت لأثبت عمق صلة هذا الشاعر القبلي بلغته الشاعرة يتعامل بها، فإذا لم نشرح ذلك يتغافل السامعون فلا يطبقون الوصف في جماله على الموصوف في جماله..

كما وصفوا الشفاه بالعتاب، واستشهدوا بالبيت من قصيدة يزيد ابن معاوية التي مطلعها:

نالت على يدها ما لم تنله يدي
نقشاً على معصم أوهت به جلدي
وأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت
ورداً وعضت على العتاب بالبرد
ولون العتاب هو لون اللمى!

حافظ وشوقي

- ومهرجوا لشوقي وحافظ، كأنما أرادوا تحقيق قول شوقي:

في مهرجان هزت الدنيا به أعـ طافها واختال فيه المشرق

فانطوى «حافظ» تحت جناح «شوقي» كأنما هم أرادوا أن يحققوا قول
«حافظ»:

أمير القوافي قد أتيت مبيعاً وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

مهرجوا لشوقي وحافظ، وتناسوا شاعر القطرين، «خليل مطران» كأنما
قد لحقت به، الغضبة من مارونيته، مع أنه قد تمصر، بكل ما في الكلمة
من معناها، وكان من أصحاب الأخلاق.

فقد حدثني الأستاذ «مصطفى الصباحي» يرحمه الله، قال:

كنت مساء يوم، أزور «خليل مطران» في الجمعية الزراعية، وإذا برجل
يدخل والأسى قد تلفع به، وطفرت الدموع من عينيه، يقول لخليل مطران:
إن زوجتي تمر في أزمة ولادة عسرة، وليس عندي أجر الطبيب فما كان
من «شاعر القطرين» إلا أن أخرج كيس نقوده، وليس فيه إلا خمسة
جنيهاً، فأعطاهما للسائل.

ولبشنا نتحدث بعد ذلك، ثم قال: «خليل مطران» قم نمش في شوارع القاهرة، نرى الناس، فلا حياة بلا ناس، ولا متعة إلا برؤية الناس، وبينما نحن في أحد الشوارع، وسط القاهرة، وإذا بي أرى السائل، زوج التي تعسرت ولادتها، والذي أخذ الخمسة جنيهات، يتمايل وهو سكران، فقلت عاجلاً لمطران: انظر إلى من سألك فأعطيته آخر ما معك من النقود.

فقال مطران: هيا.. هيا.. تعال ندخل إلى حانوت، نختفي فيه، لئلا يراني.

لقد استحي «خليل مطران» من أن يرى سائلاً كذب عليه، فامتص نقوده، لئلا يدخل عليه المذلة مرتين، السؤال والاستحياء، كأنما الحياء في «مطران» كرم أكثر من كرم النقود.

لقد كان ذلك، يوم كان الناس ناساً، فهذه كلمة سيدتي «عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل» ابنة عم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وزوجه رضي الله عنها.

كان ذلك يوم كان الناس ناساً..

أبو نواس وأبو العتاهية

- ما كاد يفرغ ديوان الشعر بعد بشار بن برد حين قتلوه حتى امتلأ ديوان الشعر بشاعرين من شعراء القمة هما أبو نواس الحسن ابن هانئ، وأبو العتاهية.

وكان أبو نواس على طرف من السوق جالساً بين صحابه وتلامذته ومر كثير من العلية من بني العباس ومن غيرهم فلم يتحرك أبو نواس من مكانه يرد السلام على من أقرأه.. وأقبل راكب حمار فإذا أبو نواس يهب واقفاً يمسك بالحمار ويظل واقفاً يتكلم مع راكب الحمار، كان يسمع أكثر من أن يتكلم، حتى مله الوقوف يرفع رجلاً وأخرى ليستريح. وانتهى حين انصرف راكب الحمار ورجع أبو نواس إلى صحابه، فقالوا له من هذا، تقف وهو راكب حتى تعب. قال ذلكم أبو العتاهية، ليته وقف أطول لأفيد من علمه..

وكان أبو نواس قد سمع بيتين لأبي العتاهية تمنى أن يكونا له ولو ثبت شعره، وهما:

الناس في غفلاتهم ورحى المنية تطحن
لدوا للموت وابنوا للخراب فكل العالمين إلى ذهاب

تمنى ذلك بينما له بيتان لهما رنن وجرسهما أعلى من بيتي أبي
العتاهية، حتى إن رئيس تحرير جريدة من جرائدنا يتباهى بأنه مثقف وقد
أنشدت بهذين البيتين لأبي نواس.

وما الناس إلا هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشف له عن عدو في ثياب صديق

فحين سمعهما هذا المثقف قال إنه المتنبي، قلت له إن حظوة المتنبي
يروي قصائده الدهر جعلك تسرق البيتين من أبي نواس تنسبها للمتنبي..
إنهما لأبي نواس. وجادل فأخذت نفسي إلى المكتبة في بيتي في مكة أريه
البيتين في ديوان أبي نواس..

وقال لي أحدهم: أراك راضياً عن أبي نواس.

قلت: أرضاني عنه الإمام الشافعي حين تتلمذ عليه يتلقى اللغة،
وأرضاني عنه أكثر الإمام سفيان بن عيينة حين شهد له أنه قد تاب من
المجون وترحم عليه.

خلق ينبغي أن تنتهي منه وهو التنقص من صناع التراث، فلا نقول
كتب صفراء أو فلان كذا وكذا.

كاريكاتير المتنبي

- والمتنبيء «أحمد بن الحسين أبو محسد» شاعر ملأ الدنيا، مادحاً وفاخراً، وهجاء.. قد طرز كل ذلك، بأنه الحكيم، صاغ الحكمة، فلن تجد من يكرهه أمر، من المثقفين، والمتأدبين، إلا وفي شعر المتنبي، ما يتمثل به، ما يتنفس به.

لكن هذا الشاعر العظيم - وكان الدهر من رواته - من حلب يصل شعره، إلى قرطبة، في أيام ما أبعد الاتصال فيها، وما أشقى الوصال بها، في فترة كانت الأحداث، أبعد من أبعاد الأرض، وأقرب من أي صلة، صانعة القطيعة.. لكن لغة العرب، ظلت هي القربى.. في «قرطبة» تفرح بالمتنبيء، وفي «شنقيط» يحفظون المتنبيء، وتصفق «بغداد» لأبنها المتنبيء، فالكوفي بغدادي.

هذا الـ «متنبي» قد متع نفسه بأن يكون ساخراً.. فقد قرأت «طه حسين» وهو يقف أمام هذه الأبيات، قالها المتنبيء في شبابه، يصفق لها الدكتور العميد، وهي:

لقد أصبح الجزء المستغير	أسير المنايا أسير العطب
رماء الكناني والعامري	وتلاه للوجه فعل العرب
كلا الرجلين ائتلا قتله	فأيكما غر حر السلب
وأيكما كان من خلفه	فإن به عضة في الذنب؟

قال هذه الأبيات، يسخر من تجمع أناس، ينظرون إلى فأر، قد أماتوه.

والمتنبىء يسخر من «كافور الأخشيدي» أبي المسك كما يسميه، بهذا البيت:

وأسود مشفره نصفه يقال له أنت «بدر» الدجى
وفي بيت آخر، يسخر منه أيضاً:

يستخشن الخز حين يلمسه وكان يبري بظفره القلم
هكذا المتنبىء، بكر الزمان.. ما رأى الناس ثاني المتنبىء.

أما جده - بكسر الجيم - الذي أعلن فيه الحسرة، فهو في هذا البيت:
أفاضل الناس أغراض لذا الزمن ينجو من الهم أخلاهم من الفطن
يرحم الله المتنبىء، شبع فما ترف اللغة الشاغرة، فأشبع اللغة الشاعرة.

حوار غير ساخن

- وعفا الله عن الذين أستقرئهم، لا أتهمهم بالبخل وإنما كل اهتمامهم بما يستملحون، ولا أدري كيف حرموني من أن أسمع ما يكتبه في «عكاظ» الشاب المبدع سعد الثوغي الغامدي الذي يكتب «ورقات شعبية» وتنشر له كل يوم ثلاثاء. لقد فاتتني حلقات أربع من هذا الحوار الساخن، تواضع فلم يسمه «الساخر» وإن كان عميق السخرية، وتراجع عن السخرية فسماه «حوار غير ساخن».

إن هذا الكاتب قد نزع إلى عرق، فهو من السراة، كأنه من أحفاد جابر بن حيّان والخليل بن أحمد، أو كأنه قد أصبح جاحظياً يسير على نهج قد استقام له، ولم أكن أعرفه من قبل، ولكنني عرفته اليوم. فحين سمعت ما كتب طلبت من قارئني أن يأتيني بالحلقات التي فاتت. لقد ذكرني هذا الغامدي برجال ثلاثة كانوا يعطرون السمع بالكلمة الساخرة، لا يريدون منها إلا قتل السخرية التي يلبسها أناس؛ كأنما هم يبنون الكمال للشخصية بنوع من التشذيب والتهديب. هؤلاء الثلاثة اثنان منهم قرأت لهما ولم أعاشرهما. الأستاذ عبد العزيز البشري والأستاذ إبراهيم هلال، فأنت حين تقرأ لهذين تضحك بما يبكي، وتبكي لما أضحك، إن كتاب «المرأة» للبشري قد ضاع مني ولكنني استجلبته مصوراً لأنه أصبح الفقيد المبكي

عليه. عجيب أن يموت كتاب مثل هذا يمتعك حين يجلو الصدا عن نفسك. فالضحك غسيل النفس.

أما الثالث فقد عاشرته، أقرأ له وأسمع منه، ذلك خاتمة الظرفاء في مصر الأستاذ محمد مصطفى حمام يرحمه الله.

فأنت مازني الظرف، بشري الوصف بالكاريكاتير اللفظي، وحمامي الطعنة النجلاء بالدمعة الساخنة والنكتة البارة. أعجبتني كثيراً، فأنا في حاجة لأن أتألم بما يضحك، وأن أتعلم بما يبكي. كيف تأتي لك هذا؟ ولا أقول من أين لك هذا؟ فأنا أسأل عن العطاء ولا أسأل عن الأخذ «تأتي» عطاء لك وعطاء منك، أما الأخرى فأخذ دون عطاء.

لا بد أنك تفكر كثيراً، وبين جوانحك مأساة، تهذبت بالألم حين أعطاك الحب أن تتحفنا بهذه السخونة ل تمنحنا عطاء هو الراحة من المكربات والمكربين، إنك تجرح ولا تدمي، فلديك البلسم الواقى من إسالة الدم، ولكنك لن تستطيع أن تجد في يديك البلسم يقيناً من الدمع تلبسه الابتسامة.

أنت تبسم دمعة، وتدمع بابتسامة.

فالسخرية منك تطرية للمأساة التي علمتك أن تكتب. إن أي إنسان يعيش الألم لا بد أن يكون صاحب قلم، وإن لم يكتب. أما الذي ينعم بالترف فإنه يعيش للترف. فالجياع إلى المعرفة يصلون بالشظف إلى ذروتها، والشباع بالترف ينحدرون إلى كلمات أنت الساخر بها.

أريد أن أعرفك، فقد أخذت على قارئى أن يتحفني بما تكتب.

من الشعر الشعبي عن أنصار الشعر الشعبي

- وأطرح سؤالاً على الأستاذ عبد الله بن خميس، فمن قائل هذه الأبيات من الشعر الشعبي، فإن فيها حلاوة البداوة وطلاوة الحضارة، كما أن فيها صواب الرأي والعفة عن إراقة الدم وشتات القبيلة، فقد قال الفتى شاعرها ولا أعرف اسمه وهو ينسب إلى قبيلة حرب غرب المدينة.. قال:

اللّه من جرح لجأ لا نحتمله لا قادر أكنه ولا قادر يبين

فأجابه الحكيم المسؤول:

إن كان جرحك في الحشا لا تحتمله داوه بما داوى جروح الأولين

فأجابه الفتى:

إن كان بيت المعرفة ذا محله حرام ما ننشد رجالاً عارفين
الصقر ما يسخي بجنحان ثقله والريح ما هباتها طوال السنين

وأعجب العرب بالأبيات فتناشدتها لما فيها من خلق، لأن القصة التي حفظناها من أفواه الرجال تقول إن هذا الفتى كان ابن شيخ القبيلة، فمن حقه أن يرث «الشيخة»، ولكن عمه أخا أبيه عدا على الشيخة فاستولى على

النثر والشعر

- النثر فكر تتحرك به المشاعر لتعرب عنه والشعر مشاعر يحرك الفكر ليعرب عنه. وجاءت الرواية والقصة فكراً يحرك المشاعر لأنها نثر ومشاعر يتحرك بها الفكر لأنها شعر حين تعبر عن أحداث ليست الإحساس: فالقصة أو الرواية تطور جديد في اللغة العربية باعتبارها فكر النثر وشعر الفكر.

من هنا يصدق قول ابن رشيق إن النثر لا يعيش في الرواية، فإن لم يسجل في القراطيس فمصيره ضياع. كما أن الحافظة في عاشق الكلمة لا يترسخ فيها النثر لأنه يصعب أن يحفظ. وإلا إن كان مثلاً أو حكمة أو نفحة مصدور يعرب عنها في كلمة مجنحة.

فالإيجاز قد يكون عوناً للنثر تسير به الرواية. ويتيسر له الحفظ. أما الشعر فما أسرع أن يحفظ وما أشد أن يروى. كأنما النثر عقل. فكر. . أما الشعر فعاطفة حتى ولو كان الشعر رثاءً و هجاءً أو مدحاً. فلئن كان الغزل والوصف والحكمة أقرب ما تكون للتمثل والرواية فإن غير هذه الأغراض يجد المغرضون فيما عدا هذه حافراً يملئ عليهم الحفظ ويدعوهم للتمثل.

إن الرواية النثرية والقصة كذلك ليست شعراً بمعنى الكلمة وهي إن كانت نثراً بمعنى الكلمة أيضاً فإن تحرك الإحساس الذي صنعها وتقبل الإحساس الذي قرأها يعطيها بعض المعنى من الشعر، فالتقسيم إذاً للكلمة

العربية نثر وشعر ومزيج من النثر والشعر إن هذا الرأي قد أجد من يقتنع به وقد أجد من يعارضه. وأنا فرح بالمعارضة لأنني أعتقد أن بعض الاقتناع قد يكون فيه الرفض بالتناسي. أما المعارضة فقد يكون فيها الاحتفال فيبتعد عنه النسيان، فهل أجد مقتنعاً يواكبني أو رافضاً يحاورني؟
أحسبني يائساً من أن أجد

الشعر

- حين أخرستُ ألسنة الشعراء عن الهجاء والثناء والثناء والغزل أصبح بعض المتشاعرين يتهاجون في رفض التراث، ويراثون بكاء على حاضر لا يحقق أغراضهم في جفوة التراث والصفوة نحو ما يرجون اقتباسه من المستوردات، كأنما الفن أصبح في نظرهم سوق الشواربي «سوق الحراج»، ويشنون على واحد منهم نظم قصيدة يهجو بها امرأ القيس أو يرفض شوقي، ويرحب بأدونيس، ويتغزلون في كل علبة ليل.

حين مات الهجاء كان موته مأساة الفروسية، شاعر ينافح من قبيلة. وحين انعدم الرثاء أصبح شعرهم مأساة مبكية يضحكون بها وأبكي أنا وحين تغالوا بالثناء كانت المأساة أنهم يقدسون بطلهم اليوم. ويدنسونه في اليوم التالي. فكم من شاعر أو كاتب قدس بطله يوم كان يمتص حمايته، وأصبح يدنسه ليقتص من تلك الغواية التي كانت يوم التقديس هي الغاية.

إن الشعر في كل مراحلہ نجدياً، حجازياً، عراقياً، أندلسياً، شامياً، مصرياً، هو في كل ذلك قيمة عربية، برهان على حضارة بنتها الكلمة. ودليل على قيم هي زخرف الحضارة ودعايتها. . وقد قلنا من قبل إن كل نهضة بناء كلمة ولكن الناهضين بعده بما يتطرفون به يتطرفون يقتلون الكلمة وما يدرون أنهم القتلة لحضارتهم. .

الكلمة برهان على أن قائلها زعيم كأنه القائم بوضع الدعائم للبناء.
إنهم يفتشون عن القصة، ينكرون أنها ليست عربية، مع أن الشعر في
المعلقات ما هو إلا «سيناريو» لقصة محكمة الدلالة والمفاجأة والحبكة لكنه
المرض جسد الغرض، أو هو الغرض جسد المرض.

تطور الهجاء

- وحتى الهجاء أصابه التطور، كان شعراً ثم أصبح نثراً، خطباً على المنابر، ثم مقالاً في صحيفة وحديثاً في إذاعة، ثم الآن أصبح الهجاء يتأقلم، حين تأقلم الناس في السينما والتلفاز.

كان شعراً تفخر القبيلة بشاعرها، يحميها ليرزأ قبيلة خصيماً بما يهجوهم به، حتى قالوا: ذل قوم لا سفية لهم.

وحين تطور إلى النثر والقصة والمقالة والفيلم أصبح كتاب الأفلام وما إليها لا يهجون أقاليم ابتعدت عنهم أو خاصمتهم. وإنما هم أصبحوا يهجون السينما، غسيل شعبهم. ولم يكن ذلك عن حماسة للأخلاق، وإنما كانت الحماسة الاختلاق، يفتشون عن المعاييب الفردية، يسلبون شعبهم كل محاسنه.

إن هذه الأفلام الرخيصة فيها الجناية على شعوبهم كلها، تزرع الوحشة في شعبهم. وتزرع الشماتة في الشعوب الأخرى، كأنما كل فيلم من هذه يرسخ الاحتقار، شعب يحتقر شعباً.

إن هناك من القصص والمزايا والملاحم ما يمكن أن تترسخ به الفضائل، وتاريخنا مليء بكل ذلك. لكن الحماسة للجيوب قتلت الحماسة للقلوب.

ثم إن هذه الأفلام لكي تجسد المعاييب اتخذت من هرطقة اليهودي «فرويد» ركيزة للتدليل والتحليل لأن هرطقة «فرويد» جعلت من الإنسان حيواناً ولقد سمعت تعريفاً جميلاً من أستاذنا المهدي بن عبود نقله من أحد الفلاسفة الغربيين، وترجمه بهذه الكلمة الرائعة..

إن نظريات «فرويد» الصحيح منها ليس جديداً، والجديد فيها ليس صحيحاً.

إن «فرويد» من حقه على الرسول النبي موسى عليه السلام يزعم أن موسى ليس من بني إسرائيل، وإنما هو كاهن مصري دعا بني إسرائيل إلى أن يطيعوه ليخرجهم من طغيان فرعون.

لقد استطردت وفاء لمعلومة أحب أن يعرفها القارئ.

عن الشعر

- قال شوقي :

والشعر ما لم يكن ذكرى وعاطفة أو حكمة فهو تقطيع وأوزان

ذكرت هذا البيت فإذا هو يأخذني إلى ما طرحه علينا شيخنا أستاذنا محمد العلي التركي يرحمه الله . فقد كنت أحترم الوفاء له لجميل ما صنع لي ، أمتع نفسي بزيارته ، أتلقن لوازعه وقوارعه وفوارعه . وفي إحدى المرات أنشد بيتين للمتنبى ، يصف الشعر ..

إن بعضاً من القريض هذاء ليس شيئاً وبعضه أحكام منه ما يجلب البراعة والفضل ومنه ما يجلب البرسام .

فتلكأت قليلاً كأنما أعترض . فقال الشيخ : هل لك اعتراض ؟ قلت : كان ينبغي أن ينصب البراعة والفضل والبرسام لأن كلاً منها في مكان نصب مفعول به للفعل «يجلب» .

فابتسم الشيخ قائلاً : إن شعره الجيد الرائع ليس الذي يجلب له البراعة والفضل والبرسام وإنما البراعة والفضل والبرسام جالبة نفسها للشاعر . فلا يصدر الشعر الجيد إلا عن براعة وفضل ، كما أن الشعر الرديء لا يصدر إلا عن البرسام . ولا يعني أنه الجنون المطبق ، وإنما بعض الجنون فنون .

فمن الشعر ما يكسبه الجنون فناً رائعاً كما مجنون ليلي ، ومن الشعر ما ينحط به جنون الذين يتعالون بدون اعتلاء .

عبد الفتاح مصطفى

- وكم كنت شديد الرغبة في أن ألقى الأستاذ الشاعر المثقف، والمثقف الأثري. عبد الفتاح مصطفى ولكن هذه الرغبة لم تتحقق.. أعجزتني السنون أن أصل إلى مصر، وحجزتني الظروف أن أجد نفسي في مصر، ولو لفترة قليلة.

فكلما عزمت أن أسافر إليها كان في برنامجي أن أرى عبد الفتاح مصطفى، أتحدث إليه. يحدثني أعلم منه.

فقد كان أزهرياً ولم يكن أزهرياً وأعني بالأزهرية، المصرية البحتة، المصرية الريف والتراث فالأزهر مازال شجرة لا شرقية ولا غربية وعبد الفتاح مصطفى كان لا شرقياً ولا غربياً.

فإن شرق يصل إلى بغداد وإلى أصفهان يبرمج للإذاعة مائة وخمسين حلقة عن الكتاب الأم «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني. يصنع للإذاعة في أكثر من فرع مئات الأغاني كأنما هو على صورة أخرى قد تتلمذ على الأصفهاني فلئن صنع أبو الفرج الأغاني كتاب رواية فقد صنع عبد الفتاح مصطفى الأغاني برامج أصبحت ثباتاً في التراث.

ولم أكن حريصاً على سماع الأغاني التي ينظمها عبد الفتاح مصطفى، وإنما كنت الحريص كل الحرص أن أسمر أذني على المذياع أسمع تمثيلية

من صنعه عن أصحاب الفيل وعن غيرها من ملاحم التراث العربي .
ذلك حين يشرق إلى مكة المكرمة ولئن غرب فالعشق لبني هلال .
فقد كان عبد الفتاح مصطفى عربياً في مصر ومصرياً في العرب لأن
وجدانه كان وجدان المسلم، والمسلم إذا كان مثقفاً: كان عربي الوجدان
وإن استعجم اللسان . .

لم يغن له محمد عبد الوهاب فلم يبخل عبد الوهاب على عبد الفتاح
مصطفى، وإنما بخل على نفسه . فعقدة عبد الوهاب - أمد الله في عمره -
عقدة شوقية . يرفض أن يكون عليه شيخ .

وغنت له أم كلثوم، والكثير من المطربين والمطربات أما أنا فأغنيته
عنه إني تعلمت منه أن «أوزيس» و«أذريس» هما عزيزة وأدريس تفرعن
اللفظ من وراثة السامية فعرّبهما عبد الفتاح مصطفى .

أما المعلومة الثانية فقد تعلمت المفارقة بين تأثير بني هلال في صعيد
مصر وانعدام هذا التأثير في موطن بني هلال «جزيرة العرب» فلقد قال عبد
الفتاح مصطفى إن الأناشيد والأزجال والحكايات كلها تمت إلى قصة بني
هلال كأنما كل صعيد مصر أضاف إلى هلالية العرق هلالية التراث .

والكثير عن عبد الفتاح مصطفى . وما أظن أننا سنحسن إليه إن استعرنا
بعض تمثيلياته التاريخية الملحمية من تراثنا، بل إن ذلك سيكون إحساننا
إلى إعلامنا .

يرحم الله عبد الفتاح مصطفى فقد فجعت بوفاته سمعته خبراً من
«صوت العرب» وخبراً في صحفنا . .

مجاعة الثقافة يا حملة الشهادات

- وتخطينا مجاعة العلم، فما أكثر المدارس وما أكبر الجامعات وما أكثر الدكاترة حاملي الشهادات العليا، ذلك أمر ينبغي أن نصادقه ووضع أن يصدق في عطائه للقارئ. إن العالم «بكسر اللام» يعطي الدرس ويلقي المحاضرة ولكن المسجد والمجلة والجريدة تطلب من الأستاذ الجامعي أن يكون مع الناس، فإن تحركه للناس يعطيه فرصة الظهور بل ويعطيه أن يساهم في زوال المجاعة الثانية، فإذا قلنا قبل إننا قد تخطينا مجاعة العلم فإننا الآن نعيش مجاعة الثقافة. فقد يكون المثقف عالماً وقد يكون العالم مثقفاً ولكن بعض العلماء غير مثقف وبعض المثقفين غير عالم. ومن قرأ منطق «إيسا غوجي» يعرف صدق هذا التعريف. فبين العالم والمثقف هذا الفرق يكاد أن يكون عاماً ولا يمنع أن يكون خاصاً.

إن المثقف تحركه ثقافته أن يكون معطاءً لأنه يصبح دائرة معارف، وليس عجزاً من الجامعي أن يجري وراء الرديف، فكثير من الأطباء أصبحوا كتاباً عظاماً ومثقفين عظماء، حتى إن ثقافتهم حين توسعت حصرت التخصص في مجال ضيق، وليس ذلك عيباً فمطلب التخصص أن يكون مفيداً، وزحام الحياة وإلحاح الفكر والمواهب غيّرت الأستاذ المتخصص في أي فرع من فروع التخصص فجعلته المثقف الذي يتكلم عن تخصصه

ويتوسع في الكلام عن تخصص الآخرين .

إن مجاعة الثقافة التي نعيشها ولا أريد أن أخرج أحداً أو أخرج آخرين - تجعل بعض الناس لم يتخط حدود التخلف، فالعلم تقدم ولا شك، ولكن الثقافة إقدام يسعى به التقدم إلى آفاق أوسع .

ومن يعطينا الثقافة؟ هما اثنان . . القارئ والكتاب ولن تجد الكتاب إلا إذا وجد المؤلف وإلا إذا وجد الجماع الذي يقتني الكتب، وقد يعتذر بعضهم بأنه قد يحرم من كتاب ينبغي أن يقرأه وهذا عذر وارد، لكن لو تطلعنا إلى مسيرة الزمن لوجدنا أننا نحن «جيل التجربة» ومنا مثقفون وكنا نعيش الحرمان من الكتاب قد ولينا وجهنا إلى التراث، ثم جاءت الفسحة فإذا نحن نقرأ المجلة والجريدة والكتاب .

وكنا في ضمان الثقة في أنفسنا وفي من له الحق أن يمنعنا فلم نجد مخافة أوروبية، ولو سألتهم عن الأستاذ حسين سرحان ولو أجبتكم عن حمزة شحاته لقلت لكم إنهما من كبار القراء، ذلك أنهما مثقفان، فالثقافة في أول خطوة تجر القارئ إلى الخطوات المتسعة، فهؤلاء المثقفون من جيلنا - جيل التجربة - لا يزالون في نظر من قرأ لهم ومن عاشرهم أنهم لم ينحرفوا بما قرأوا ولم ينحرفوا عن مبادئهم بأي كتاب قرأوه، فقد أمدهم الكتاب المخالف بمعرفة السلبات لتثبيت الإيجابيات . فالمثقف ينبغي أن يقرأ الإيجابيات والسلبات، فمعرفة السلبات ثقافة تعطي القارئ النجاة من الإنحراف .

أشبعونا ونحن نعيش مجاعة الثقافة يا حملة الشهادات العليا .

طه بن حسين والارتجال

- واستملحت هذا التخليط للاسم يضاف إليه الأب دون ذكر كلمة ابن فلان. فلعلّي أذكر هذه الأملوحة حدثني بها شاب من أبنائنا في نيويورك، استطردها إذ أكتب عن الدكتور طه حسين، فقد قال لي هذا الصديق العربي السعودي إنه رأى ما سماه صاحبه «أطروحة».

تعرض فيها إلى أغاليط طه حسين، فأعجبتي هذه الأغلوطة التي درجنا عليها، تستسيغها آذاننا إذ ألفت جرسها. مع أنها لم تخالف آذاننا لذة السماع لأسلوب العربية الأول.

فصاحب الأطروحة يقول إن طه حسين ينبغي أن يقال «طه بن حسين» يمنع الإضافة التي يكثر فيها المناداة باسم الأب بهذه الإضافة كأنه الاسم لهذا المنادى.

فالعربية الأولى تقول، عمر بن الخطاب ولا تقول عمر الخطاب والحجاج بن يوسف لا الحجاج يوسف.

وحمزة بن عبد المطلب لا حمزة عبد المطلب فكيف جاز لنا الآن أن نقول طه حسين، عبد الله عمر خياط. أو محمد حسين زيدان؟

فعلى رأي صاحب الأطروحة يجب أن يقال.. محمد بن حسين زيدان فكثير من الذين يتلفنون إلي يحسبون أن اسمي «حسين».

ولم أذكر ذلك لأعيبه وإنما هي ملاحظة جديرة بالاعتبار..

بقي أن نتكلم عن الارتجال أنكره طه حسين. حين أصدر كتابه عن الشعر الجاهلي وما إلى ذلك فأثار الضجة الكبرى عليه وإذ أنكر طه حسين الارتجال فإنه أنكر نفسه. فهو من أوائل المرتجلين لأنه أُمي لا يقرأ ولا يكتب وإنما هو يملي مرتجلاً فكل ما كتبه وما ألفه كان ارتجالاً ولا أحسب إلا أنه عدل عن ذلك فما أكثر ما اعتدل فعدل وقد ابتلاه باثنين بصيرين لا يقرآن ولا يكتبان وكانا من أعظم المرتجلين.. وهما عبد المحسن الكاظمي يرتجل القصائد الطوال في حفل كبير، والشيخ عقل يرتجل أكثر من ستين بيتاً إذا ما طرحت عليه بيتاً من الشعر يتهاطل الكلم من فمه نظماً على الوزن والقافية، حتى أصبح الكاظمي وعقل أعجوبيتي الارتجال فعرف أن الحارث بن حلزة قد ارتجل قصيدته المعلقة ومطلعها:

أذنتنا بينها أسماء ربّ ثاوٍ يملُّ منه الثواء

فقد أنكر طه حسين الارتجال على ابن حلزة فابتلاه الله بالكاظمي وعقل. فمن نوادر الكاظمي أنه ارتجل في حفل كبير قصيدة بلغت مائة بيت من جيد الشعر، وكان الكاتب البليغ صاحب الصور اللفظية عبد العزيز البشري حاضراً هذا الحفل، فقال للكاظمي:

- فاتني أن أسمع أول القصيدة فهل تعيدها؟

فأعادها الكاظمي كما ألقاها أول مرة. فكانت أعجوبة الارتجال أما الشيخ عقل فقد كان فتنة المجتمع في مكة المكرمة حين حج فقد طرح عليه أكثر من واحد بيتاً من الشعر فنظم القصيدة على منواله.

واجتمعنا معه في المدينة المنورة فقد جاء يزور السيد أمين الحسيني

وعزت دروزة ورياض الصلح وبشير السعداوي، وكان ذلك في بيت السيد إبراهيم هاشم في الساحة.

فطرحوا أبياتاً وشاركتهم الطرح إذ أنشدت بيت ابن معتوق الموسوي شاعر الاستعارة يتشقق بها نظمه.

هذا العقيق وتلك شم رعانه فامزج عقيق الدمع من عقيانة

فأخذ يلقي قصيدة لا يستطيع أن يسجلها كاتب اختزال. وكان ذلك قبل أن تأتي أجهزة التسجيل. وطرحت عليه بيتي الشاعر المكي «سحرا»:

ظبي جاوى قد سباني لفظه الدر الأنيس
ثغره كنز الالالي ريقه أنقر منيس

فنظم دون تأخير أكثر من ستين بيتاً على هذا المنوال.

وأخيراً، فإن نعت طه حسين بالأمي لم يكن نعتي له، وإنما كان زمناً أطلقه عليه إسماعيل باشا صدقي. فقد كتب طه حسين نقداً جارحاً لرئيس الوزراء صدقي باشا. فقالوا للرئيس لماذا لا ترد عليه؟ فقال: أنا لا أرد على هذا الأمي.

بيرم التونسي

- واحتفلوا في مصر يذكرون بيرم التونسي، ذلك المحمود لدى كل مثقف كل ذواق كل من يطرب لأغنية نظم شعرها بيرم. كل من يصحو على لذعة النقد لقسوة الذين احترفوا فاغترفوا. ولم يغرفوا.

ولست بصدد أن أترجم لمن بضم على التاريخ أن البيئة تصنع المواطن مادام قد ولد فيها ونشأ فأعطوني عن مواطن له أجداد ألف تمصر. فإذا هو ولا ابن عروس. وإذا هو ولا من يدعي أن جده «أحمس» الفرعون الذي انتصر على الهكسوس كبيرم.

إن بيرم التونسي وشوقي أباه التركي ورامي جده الكريدي قد تمصروا. وكأن عطاءهم لمصر عطاء الوطني ما جاء فوقه وطني.

من هنا ما زلت أصر على أن العرب أعراق والعروبة استعراق، فهؤلاء الذين ذكرت عربّتهم مصر فإذا هم أبناءنا تفصحوا بلسان عربي مبين.

ومن هنا مرة أخرى، لقد أعجبتني كلمة شوقي عن بيرم.. «إني لا أخاف على الفصحى إلا من عامية بيرم» كما أعجبتني حفاوة العقاد به وكلمة طه حسين عنه، كأنها كلمة شوقي، لأن طه حسين وشوقي قد خافا على العربية الفصحى من بيرم. لكن هناك ما يعجبني أكثر وأكثر وهو أن يحتفل العالم الجليل الذي كان أحد القلة من العلماء الذين فهموا وفقهوا

نظرية «اينشتاين».. «النسبية» حتى إنه حاور «اينشتاين» وبسط له بعض ما يخالفه فيه. فعالم كهذا مشغول بالأرقام فيزيائي عميد العلوم يحتفل بشعر بيرم لا يقول كلمة مرسلّة كما قالها أولئك. وإنما نصب نفسه يترجم إلى الفرنجة شعر بيرم.. ألا وهو الدكتور علي مصطفى مشرفة رحمه الله.

هكذا العالم إذا لم يكتف بما تخصص به يزيد العلم علماً حين يغترف من الثقافة حتى ولو كانت بشعر عامي.

إن هذا العالم كبرت حين سمعت هذا الخبر كما كبروا عندما قال ابن عبد البر.. أنا حافظ المغرب والمشرق. والتكبير حمد لله أن أجد القدوة للذين نالوا الشهادات أن يعودوا إلى تراثهم..

وكم أود وقد بسط الأستاذ عبد الله بن خميس ديوان الشعر الشعبي. ولا أسميه النبطي. كم أود أن كل مثقف يدرس هذا الديوان من الشعر الشعبي. أحاط به ابن خميس.

الرواية العربية

الذين يحاولون التشكيك في الرواية العربية، في تصورهم أنهم يصلون إلى مكانة، يوصفون بالذكاء والتفطن إلى خبايا الأمور، حتى وصل بهم الشطط إلى إنكار الكثير من الحقائق. وليتهم على يقين فيما وصلوا إليه. ولقد أثار الدكتور طه حسين يرحمه الله ثائرة عليه حينما انتهج أول أمره هذا النهج في التشكيك. وقد اقتصر ذلك على الشعر الجاهلي، فلم يصل به الحد إلى أن يتخطى الشعر الجاهلي وما إليه إلى المساس بالحقائق. فالتشكك في الشعر أخرج، ولو تخطى ذلك إلى غيره لأخرجه. وانتقده رجال أربعة فيما عرفنا حين ذلك: أديب وعالم أزهري ومحام وعالم كيمائي. والنظرة العاجلة تعطي التفوق والانتصار للأديب بليغ الأسلوب ثم للعالم الأزهري ثم للمحامي وبلائي نضع العالم الكيماوي أخيراً. ولكن العكس قد وقع. فالرافعي في كتابه «تحت راية القرآن» قد هجا طه حسين: «خنفساء ذات لون أبيض» فعلى إجلال الرافعي رحمه الله فإنه لم يأت بشيء. والشيخ الخضر حسين، شيخ الأزهر فيما بعد وهو تونسي تمصر، لم ينل من طه حسين فرصة الانتصار عليه في كتابه «نقد كتاب في الشعر الجاهلي» وجاء المحامي الأستاذ لطفي جمعة في كتابه «الشهاب الراصد» فنال الكثير من الانتصار. أما الذي حاز النصر كله فهو الدكتور الأستاذ العميد لكلية العلوم «عبد الرحمن الغمراوي» فقد انتصر كتابه «النقد

التحليلي» كل الانتصار. زانته مقدمة أمير البيان شكيب أرسلان.

ولكن المازني (إبراهيم عبد القادر) صنو العقاد قد أعطانا صورة عن فشل التشكيك في مقال نشره ونقله الأستاذ محب الدين الخطيب في أحد أعداد «السلسلة اللطيفة» التي سماها «الحديقة».

ولعلي إن لم أنس ففي الجزء الخامس منها. وكان عنوان مقال المازني «طه حسين في ميزان التشكيك» تقرأه فإذا الحقيقة لابسة من الظرف الملاحظة مكسوة بالتفكه كساء يحببها إلى ملابس القارئ لها. . والخلاصة لهذا المقال، أعني مقال المازني، هي أن طه حسين طالب علم أزهرى، يقول بعض الشعر. ثم نرى في طه حسين آخر طالباً جامعياً، لم يعرف منه قول الشعر. كان معممًا حين كان أزهرياً، وإذا طه حسين آخر لم يكن معممًا ولا شيخاً، يحوز لقب الدكتور. وأخذ يعدد بأسلوب من التشكيك الأحوال والصفات التي جرت واتصف بها طه حسين. إنه غير واحد لتكون الحصيلة التي أمتعنا بها المازني أن الدكتور طه حسين وهو شخص واحد لو انتهج كاتب منهج التشكيك واتخذ من ذلك قانوناً لقال إن طه حسين غير موجود أو إنه أكثر من شخص واحد.

وعلى صورة أخرى، فقد أنكر الدكتور طه الارتجال على الكثيرين وعلى الحارث بن حلزة في معلقته:

أذنتنا بينها أسماء ربّ ثاوٍ يملُّ منه الثَّواءُ

فإذا الواقع يتبلي الدكتور طه باثنين بصيرين فقدنا نعمة النظر كما فقدناها أثبتا أمامه أن الارتجال موجود. وهما: الشاعر العراقي المتمصر الشيخ عبد المحسن الكاظمي والشيخ المصري واسمه «عقل» فقد كانا يسحان

سحاً بالارتجال. أشرف كل منهما على الناس يرتجل القصيدة والقصائد في لحظة واحدة، لا يمل سماعها حين يرتجل الواحد منهما المائة بيت واقفاً. فإذا الدكتور طه يشك في التشكيك. ويعترف بالارتجال. رحم الله الجميع.

وذكرني بالراعي

- وفي ليلة مضت من ليالي هذا الشهر المبارك شاهدت وسمعت المتحدث في تلفازنا. وقد تبرنس فالمشاهدة له قالت إنه مغربي وجرس الكلام وإشراق البيان أوضح لي أنه مشرقى وحين شاهدته مغربياً أنشدت مطلع الموشح عن صقر قريش. أبدعه أبو علي أحمد شوقي. كان شوقي أحد القلائل من المشاركة الذين عشقوا الأندلس. بينما الكثرة من المغاربة قد امتلأ وجدانهم بحب المشاركة.

أنشدت مطلع الموشح أصف هذا الذي طلع علينا بالبرنس المغربي:
كم بنضو يتنزى ألماً برح الشوق به في الغلس
حن للبان وناجى العلما أين شرق الأرض من أندلس
بلبل علمه البين البيان بات في حبل الشجون ارتبكا

أنشدت هذا المطلع وما جاء بعد وسمعت المتحدث. فإذا هو يذكرني بالرافعي مصطفى صادق بالجرس والرنين وانتقاء اللفظ والتجنيح انتماء لمدرسة الرافعي، كان هذا الذي تبرنس وتحدث قد جمع المشرق والمغرب في بيانه واسترجعت أسأل نفسي كيف أخالف الدكتور عبد الوهاب عزام. فأجد شاعراً وناثراً ومحدثاً يذكرني بالرافعي كأني لم أخضع لحكم عبد الوهاب عزام..

فقد رثى الرافعي بكلمة واحدة.. كاتب لا يذكر بكأحد ولا يذكر بك به أحد.

ولكن هذا المتحامل على نفسه حين سمعت ما أطربني من الجرس والبيان أعربت على لسانه اللغة الشاعرة فزادها إعراباً، وحيث إنني لم أقرأ اسمه وهو يتلفز أخذت أسأل..، من هذا؟

وبعد أن استعصى علي من سألت أن يخبرني باسمه، سألت آخر فقال هو عمر بهاء الأميري فما استكثرت ذلك عليه ذلك أن شامنا وإن أعطت النوايح من الأفراد بالكم القليل فإنها أعطت هذا الكم والكيف الجليل. كأنما دمشق وصنعاء لا يعطيان النابغة إلا بعبقريه الكيف، ولست بصدد الحصر.. بينما البرنس انتساب إلى المغرب. فالمغاربة عطاؤهم كم وفير وكيف عبقرى كثير.

إن عمر بهاء الأميري كأنما هو اغترف البيان من اثنين، من القرآن أجراه على لسانه ولسان أمثاله شيخ الإخوان المسلمين «حسن البنا» ومن الرافعي الذي تمصر بينما هو من عرق شامي.

إن إعجابى بالبهاء هو كإعجابى بأبى ريشة. فكلاهما شامى ومن قران السعد أن اسم كل منهما عمر وحتى الرافعي فهو عمرى العرق.

تحية للبهاء. أسمعته فأطرب. ذلك أنى أتذوق البيان وإن لم أكن من صانعيه. فالبيان يشرق بالإبانة من حناجر تنطلق منها الكلمة. لا يحجزها ضيق حنجرة وتشرق على لسان يعشق الفصاحة.. فصاحة اللغة الشاعرة.

أحمد الغزاوي

- أحمد إبراهيم الغزاوي شاعر قد أعد نفسه قارئاً ممتازاً فقد أكب على التراث، فأتسع له أن يحظى بثروة من اللغة، فالشاعر يضيق به النظم ولو اتسع له إدراك المعاني إذ لم يكن قد شبع من القاموس، كلمات يتسع مجاله حين ينظم، وينتظم له شعر المعاني بالوفر من الألفاظ. فالغزاوي الشاعر كثيراً ما يعارض دون إعلان قصائد الفحول.. ففي إحدى المرات التي قابلته فيها قلت له: كأنما أنت تعارض ابن الرومي في القصيدة ذات القافية الجيمية:

سبيلك فانهج أي نهجيك تنهج طريقان شتى مستقيم وأعوج

فقال: أما وقد عرفتها فمن الفخار للشاعر أن يجد في نفسه الكفاءة لأن يعارض هؤلاء الشوامخ. فحين أنشدته بيت ابن الرومي وهو يعرفه استعاده ينشده هو كأنما هو الجديد عليه. وحين أنشد قصيدة في الرابطة أعجب بها الزعيم اليمني العالم الشيخ عبد الرحمن الأرياني فقال له: أنت في هذه كالطرماح بن الحكم في تلك.

وكنت إذا لقيت يهتز فرحاً إذا ما قلت له: «أهلاً برابع الأحمدين». يفرح بأن يكون في هذا العدد من الثبت في ديوان الشعر. والأحمدون الثلاثة قبله: أحمد المتنبي، أحمد المعري، أحمد شوقي. ولم يكن هذا

الحصر من عندي، فذلك ما جنح به العلامة فريد عصره في اللغة إسعاف النشاشيبي. فقد جاء هذا الحصر يوم كان أحد الطلائع التي شاركت في يوم شوقي صنعته له مجلة «السياسة» وكان صناعه الدكتور محمد حسين هيكل. فقد قال «إسعاف» يكرم شوقي، هذه الكلمة: الشعراء ثلاثة الأحمدون: أحمد المتنبي أحمد المعري أحمد شوقي. فإذا ما ناجيت الغزاوي أو ناغيته يفرح بها كأنما أنا بايعته أميراً جديداً في الشعر.

إن الغزاوي من جيل الصحوة، نبتت في طلائع اليقظة العربية، فاستقلت في الجزيرة زعامات بعد الحرب العالمية الأولى، واستعمرت من الأرض العربية شعوب، فإذا شباب العرب في كل مكان يستيقظون في صحوة بناءة في الذين استقلوا، محاربة في الذين استعمروا. إن جيل الصحوة في مكة وفي المدينة قد جاء بعد جيل الغفوة، فإذا سحراً والأشرم في مكة وعبد الجليل برادة وإبراهيم الأسكوبي وأنور عشقي والعمري يستفيقون من الغفوة، وتغفو بهم أوضاع حتى إذا صحت اليقظة، طلع علينا عمر عرب كأنه الفترة بين جيلين، حتى إذا انتشر فؤاد الخطيب وصبحي الحلبي ومحب الدين الخطيب، استيقظ التحدي في الشباب عمر عرب والغزاوي فحمزة شحاته والعواد وحسين الصبان ومحمد سرور الصبان وحسين سرحان وعبيد مدني وعلي حافظ ومحمود عارف ومحمد حسن فقي وأحمد قنديل وعبد الوهاب آشي وأحمد العربي وضياء الدين رجب وحسين عرب والقرشي. كما استيقظ الناثرون، فإذا المعرض وأدب الحجاز وأدب الصحراء والشعراء الثلاثة يعطون اليقظة صحوة، جلجل فيها صوت الغزاوي شاعراً ملتزماً، انتشر له شعر المدح، تستيقظ به مشاعر الذين يعرفون لهذا الكيان الكبير قيمته، ولموحده عظيم مكانته، كما أن للغزاوي

شعراً أخفاه. كما أخفي أو أخفوا الكثير من شعر فؤاد الخطيب وكما تخفى حمزة شحاته في كثير من شعره.

إن الغزاوي صحوة في اليقظة ويقظة من الصحوة، له مقام كريم ستعرف قدره أجيال بعدنا. وما تأخرت عن الكتابة عنه إلا لأني ما عرفت خبر موته إلا بعد يومين وكنت في الرياض. يرحم الله أحمد الغزاوي فقد حظيت بكثير من تقديره وبالجميل من صدقته فقد كان ذواق كلمة صناع كلمة، يرحمه الله.

ولا أنسى أن المسجدين وانتشار الكتاب والفلاح في مكة والمدارس الكثر في المدينة هي التي أعدت للصحوة واليقظة القدرة على الاستيعاب والكفاءة عن الإعراب.

أعلام

سلطان الأطرش

ما قبل أسبوع كنا جماعة في مجلس . . وفي زيارة خاطفة لصديق لديه مجموعة من الأصدقاء فقال أحدهم: مات سلطان الأطرش . . فأسرعت أقول: لم يمت أمس . . فلقد مات يوم انتهت الثورة السورية . . يوم أن استقلت سوريا. لقد كان بعد الاستقلال يعيش في الرمس، فالبطل إذا لم تستجد به أعمال الفروسية في كل لحظة ينساه الذين يتناهبون عطاء الفارس . . ميراث البطل . . أنا لا أتهمه بأنه كان يعيش في جفوة. ولا أستطيع أن أقول إنه كان يحيا في صفوة. فالوارثون يتغيرون على الموروثين . . إن سلطان الأطرش لم يعزله الاستقلال عملاً وإنما هو عرف الدروز، كان أمير الحرب في قبيل الدروز . . وحين لا حرب يكون له العرف الدرزي . . «عد إلى بيتك يا سلطان» كأنما أبناء معروف والأكثرية الكاثرة منهم عرب خلص . . أنسابهم معروفة، حتى إن الأرسلائي منهم جده النعمان بن المنذر ابن ماء السماء، فهذا العرق العربي كأنما هو قد نزع إلى أعراف قريش في مكة أيام الجاهلية . . فقيادة الحرب في قريش كانت لحرب ابن أمية ورثها عنه أبو سفيان . . وقيادة الخيل لمخزوم والمؤسسات الأخرى قد قسمت بين بطون قريش.

من هنا كان سلطان الأطرش قائد الحرب وحسن الأطرش الأمير في

السلم، وعلماءهم العقل هم المصدر لتحديد الأعراف.. فسلطان الأطرش كان بقايا فرسان الأساطير.. مدحه إيليا أبو ماضي الشاعر المهجري الذي ما هجر شامه ولا عروبتة وإن جاء بعده شعراء لم يهاجروا ولكنهم هجروا شامهم وعروبتهم.. يقول إيليا أبو ماضي:

فيا لك أطرشاً لما دعينا لثأر كان أسمعنا جميعاً

كان ذلك من إيليا أبي ماضي يوم هدّ الفارس الأسطوري سلطان بحصانه يركب الدبابة الفرنسية.. يقتل قائدها المستعمر فإذا «بردى يصفق كالرحيق السلسل» وإذا النيل يستنطق شوقي:

سلام من صبا بردى أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق
ومعذرة اليراعة والقوافي جلال الرزء عن وصف يدق
وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق

لم أكتب هذا راثياً لدرزي.. وإنما كتبتة لفارس عربي، فإن اختلفنا عقائدياً فإنه ليجمعنا ما قاله شوقي:

بيان غير مختلف ونطق بل ويجمعنا تراب واحد ولسان واحد ومصير واحد «ولا يضركم من ضل إذا اهتديتم».

أبو تراب

- علي أبو محمد أبو تراب غلبت عليه الكنيتان كنية الإمام علي كرم الله وجهه يشرق بها وكنية الإمام ابن حزم يرحمه الله قد كلف بها كلفاً شديداً حتى إنه لم يعرف إلا بها. عرفته وما عرفني ولكن المعرفة قد تمت بيننا أيام كنا نعمل سوياً في جريدة «البلاد».

تصاحبه فلا تجد تكلفاً منه ولا يحملك على بعض التكلف فيه بساطة لكن العلم الذي متع به جعله يشمخ بك حين تعرف عنه ولا يشمخ عليك حين أعطاك من علمه الغزير. إنه يعيش عصرنا إنساناً حياً يمشي على الأرض ولكنه يحيا بين المراجع والمصادر والأمهات كأنه قد انحدر من عصر ابن حجر والسخاوي والشوكاني أو نقل إلينا «بهوبال» و «ديوبند» و«وفرتسر» و «بنارس».

لا أعلو به إلى فوق هؤلاء - أعني فوقية الزمن - ولا أنحط به إلى تحت لأنه أحد رجال قلة ليسوا من رجال هذا العصر، فهو لا يخطف الخطفة من المعرفة يتبهرج بها وإنما يغوص عليها في أعماق المصادر والمراجع، لا يتلجلج حين يقول لا أدري وبيتجج بالإجابة حين يدري إذا قال لا أدري طلب أن تمهله ليُدري فتمام المعرفة لديه أنه علامة مراجع ومصادر يعرف المظان ليجد اليقين ذلك أنه لم يفته التلقين وقد شبع من

التلقي فهو تلميذ أبيه الشيخ عبد الحق الهاشمي كأنما هو قد أعده ليكون كامل العدة نحواً وصرفاً وفقهاً وتفسيراً وحديثاً وتاريخاً، فإذا ما خرجت به من علم الأوائل لا يطيق أن يحشر نفسه في علم الأواخر. حريص على أن يكتب كل معرفة عرفها مرح، تزخر حياته بترف النفس وبشاشة الوجدان، من حسن حظّه أنه لم يعرف الترف وإن كان على الشطف الذي يعيشه مترف المائدة إذا ما دعا صديقاً إلى عشاء أو غداء.

يفرح أن يجد عندي بعض المعرفة أو بعض الفهم فإذا ما أصبت قال مرحى بخ بخ، وإذا ما أخطأت علمني الصواب دون استعراض العضلات فالمعرفة عضل العقل ومتعة النفس وإمتاع الصديق. لو شئت أن أطريه لمألت الأسطر ولما ضاق علي قرطاس. لست أستجديه ثناء بثناء فقد أسبغ علي من الثناء ما هو أهله ولا يظنن ظان أن هذه الكلمة مقايضة فلن أبيع له سمسماً مقشوراً بغير مقشور كما هي كلمة ابن المقفع في الكتاب الجليل «كليلة ودمنة».

أبو تراب لا يتباهى بما يعرف وإنما نباهي به أنه لا يسرق كلام غيره مقالات ينشرها بتوقيعه، فصدق المعرفة تعني صدق الأداء..
إنه يحيا الآن فلم أعد أقول له «قتلت أرض عالمها» متعنا الله بحياته.

إلى الأستاذ عبد الله بن خميس

- غبت لا ألقاك طويلاً، كأنما حابس الفيل هو الذي يعجزني عن لقائك. ولعلّي لا أستكثر عليك مكنون ودي وجزيل احترامي، ذلك أنك أنت الذي ابتداء وثق أنني لم أنته.

ذكرتك اليوم وقبل أكثر من يوم جمعة وأن أسمع حديثك تجيب على من يسألك «من قائل هذا البيت». ترصدت أن أسمعك كأني وظفت نفسي أتعلم منك. فأنت في هذا الحديث بعثت الحياة للشعر الشعبي الذي كاد أن يموت من كثرة ما غفلنا عنه من شدة الإهمال له، من تفاهة الإغضاء عنه، أنت بعثت الحياة لا لأنك ناشره فحسب ولا لأنك ذاكره أيضاً، وإنما لروعة الجرس في رنين هذه البداوة فيك، فشعرنا الشعبي أو النبطي كما يسمونه فيه عراقة البداوة تخفي عراقة الحضارة في هؤلاء الشعراء. فالكلمة العربية لها جرس بديع، وحين أسمعها منك يتراقص المفهوم أمامي حين تهتز النبرات منك بذلك المنطوق.

- إن الشعر النبطي أو الشعبي ميراث وتراث في آن، وما زال يتغنى بالأطال، والتغني بالطلل البالي منزع حضاري فيه الحنين إلى البئر إن ذكرها شاعرنا الآن فقد كان حافرها بالأزميل أصحاب الرس الأنباط.

ولئن تغنى بالدمن والربع فقد أعرب عن حنينه إلى الذين بنوا الآثار

العامرة ليس عمرها سبعة آلاف سنة كعمر الأهرام، وإنما عمرها في كل «حجر» سواء كان حجر ثمود أو حجر اليمام أو حجر حمير أو حجر «سلع» البتراء.

إنك حين أحييت هذا الميت الذي لم يقبر إنما تحيي ثقافة جديدة أدعو إلى أن يدرس هذا الشعر في جميع الكليات الأدبية. فالشعر ديوان العرب كما هو قول عمر بن الخطاب أو قول عبد الله بن عباس لنافع بن الأزرق - رضي الله عن عمر وعن الحبر وأبيه.

فلئن كنت قعيدة البيت في أكثر من وقت لست «قعيداً» أنام عن الحرب في سبيل التراث، فرسالتني إليك أقود بها كتيبة تتواكب معك لأنك زعيم كتيبة. أحييك لأحيا معك سامعاً لجرسك، ولعلّ السائلين يقلون أو يكلون، فاطرح أنت أسماء من عندك تسألك، وإني لأسألك عن قائل هذا البيت: ستألف فقدان الذي قد فقدته كإلفك وجدان الذي أنت واجده

ففيه من أنفاس المتنبي، فهل هو له وليس في ديوانه، أم هو لغيره، فقد أهملت، أنا والأستاذ أحمد المبارك، أن نضمن في البحث عنه، وترفعت أن أسأل الأستاذ حسن الكرمي في إذاعة لندن فإذا بي أرتفع بك أسألك.

حاشية

- أريد أن أذكر أخي الأستاذ عبد العزيز الرفاعي بأننا قد أخطأنا في نسبة الشيخ عمر حمدان حين قلنا المحرزي، بالزاي، بينما هو المحرسي، بالسين. كما أوضحه لي الصديق عبد الله بلخير، لأنه عرف ذلك من معرفته لابن الشيخ واسمه مالك الذي احتفل به الرئيس بورقيبة وأكرمه:

وهو بالسين نسبة إلى مدينته في تونس «المحرسة».

عبد الحق النقشبندي

ومات الصديق والزميل الأستاذ عبد الحق النقشبندي . وقد عاش حياة عريضة فيم أثمر ، طويلة . إذ عمر ، كنا زملاء دراسة ، وإن كان يكبرني بأكثر من سنوات خمس ، فقد أدرك المدرسة العثمانية ولم أدركها . وتزامننا في مدرسة واحدة . غير أن أسباباً دعتة ألا يبقى في هذه المدرسة ، فرحل إلى الهند . فهو من عرق هندي . أبوه الشيخ عبد السلام نقشبندي كان من الرجال الذين تمتعوا باحترام عارفيهم فالأستاذ عبد الحق كان وجيهاً ، وإن لم يكن في وجاهة أصحاب الثراء أو الذين ينسون أنهم هاجروا إلى المدينة كأبيهم فأخذتهم الكبرياء ألا يروا مثالنا إلا من المجاورين تلك حقبة مضت وإن أتعبت .

وحين وصل إلى الهند انتظم في جامعة (جيوبند) يكلأه الشيخان خليل أحمد وحسين أحمد . بكل العناية . فأمضى مدة الطلب للعلم سنوات وجاء إلى المدينة يتزيا بزى علماء الهند ، فاستقبلناه صديقاً وكنت أمشي معه يوماً ، نذهب إلى العمرانية ، البستان خارج باب العنبرية ، أهيبىء للشبكة ما يحتاجون إليه حين يتكامل جمعهم نببت هناك تحت رئاسة شيخنا عبد القادر شلبي الطرابلسي . . وبينما نحن نخرج من حارة (ذاروان) التي يسمونها أهل المدينة الآن (ضروان) جرى على لساني في خلال

الحديث معه هذا البيت للمتنبى .

ماذا أريد من الدنيا وأعجبه أني بما أنا باك منه محسود

فقال هذا الشيخ الهندي ، وهو مازال في زيه الدوبندي ، وهو يربت على كتفي : ما شاء الله ما شاء الله تحفظ للمتنبى ؟ قلت : غداً حين تلبس الغترة والعقال تخرج من هذا السؤال إلى زمالة النديد للنديد وضحك ولم يغضب فقال ما كنت أريد أي شيء خطر في بالك . قلت : لا شيء لكن تغيير الزي يعتدل به الأسلوب وتزاملنا أساتذة في مدرسة ، وكان إذا تحرك إلى أمر ، قد يفاجئ به ، ولكنه لا يظهره إلا بعد تفكير وإمعان فاشترك مع السيد عثمان حافظ في تأسيس مكتبة وقد كان من حسن التوفيق أن الصحف والمجلات ، وفي مصر بالذات قد بدأت ترد إلى هذه المكتبة بالسعي الحثيث من عبد الحق النقشبندي فهو بحق أستاذ لجيله ولأجيال بعده . . بهذه المنحة قراءة المجلات والصحف وقد تتلمذت عليها وكانت مجلة السياسة الأسبوعية والمقتطف والهلal ثم الثقافة والرسالة مؤثراً كبيراً في ثقافتني . . أضفنا إلى قراءة التراث إضافة جديدة مما احتفلت به هذه المجلات .

وخرج أكثر جيلنا من المدينة لسبب يتضح من قول ابن المقفع لأمر ما باعت سمسماً مقشراً بغير مقشور» أما أستاذنا عبد الحق النقشبندي فقد أخذ يقول لنفسه «أثبت أحد» وانفرجت سبل العيش في المدينة فإذا هو يعمل في المحاماة موفقاً يكسب ما أعانه على الإقامة .

وسافر إلى العراق فأخذ يكتب عن رحلته بأسلوب إذا ما قرأته كأنما تقرأ أمين الريحاني كتب عدة مقالات كانت حافلة عرفه بها إخواننا في هذا الكيان الكبير . وفي مكة وجدة بالذات .

ولا أدري ما الذي عدل به عن هذا الأسلوب الجميل، رفيع البيان. ولقد كتب في مجلة المنهل كتابات منجمة. ولعلّه قد كتب عني فلم أقرأ ذلك. وآخر مرة رأيته فيها كان ذلك في مؤتمر الأدباء الذي عقد في جامعة الملك عبد العزيز. فرحبت به، أجدد الصداقة معه في كل ما ينبغي لها من الصدق، فنسينا ما كرب به منا من نزوات الشباب وما أغضبنا منه من غطرسة الأستاذ يرحمه الله والعزاء لكل أهله وأصدقائه.

طاهر زمخشري

- الأستاذ «طاهر زمخشري» ليس هو الشاعر الذي قال، وإنما هو الشاعر الذي عجز أن يقول، فالزمخشري الذي قال، أعرب في شعره عن عشقه للجمال، لأنه، وإن لم يكن من أمثلة الجمال إنساناً، في ظاهر الخلق، وإنما كان الجميل إنساناً بما متعه الله به من خلق.

لقد عجز أن يقول، معبراً عن مشاعره، يصور لنا الذين عشقوا أن يعمل لهم خليطاً، صديقاً، يحترف فيغترفون ثم هم بعد لا يعترفون، فما أشد المرارة. في نفس هذا الـ «زمخشري» من هذا العقوق، هو يعرفهم واحداً واحداً، ولكن طيب النفس، وحسن الخلق، نساه أن يذكر. فهو لا يجتر هذه المأساة، وإنما يغتر باسماء، يطرد المأساة، بسخرية، يسكبها شعراً، يتفوق به، حين يعشق الجمال، على كل قبح يأتي به العقوق.

عرفته وهو مكّي المولد، حين سكن المدينة، وعرفني وأنا مدني المولد، حين سكنت مكة، كأني معه قد تعانق فينا، حب المسجدين، من هنا أرفض أن مط لسان صديق له، ينكر شاعريته، مع أنه بهذا الإنكار، الاعتراف بالجميل، فهو ما ذم الزمخشري، وإنما ذم نفسه.

- إن «طاهر زمخشري» اليوم يرقد في أحد مستشفيات لندن، وما كان ليستطيع أن ينفق على تطبيب نفسه، ولكن الاستطاعة أتت باليد الكريمة،

التي تعودنا منها الجميل، يد ابن عبد العزيز الأمير سلطان، فكم هو صناع للجميل، إذا ما ذكرنا اسمه شكر عمله. وقد لبس «الزمخشري» بهذا اللقب فخاراً، حينما لبس لقب «جار الله محمود الزمخشري» صاحب الكتاب (أساس البلاغة).

شفى الله الزمخشري «طاهر» وعفا الله عن الزمخشري «محمود»..
اللهم ارحمنا برحمتك جميعاً.

مع الأستاذ ابن خميس

- في إحدى إجابات الأستاذ الصديق عبد الله بن خميس عن بيت من الشعر في برنامجه الإذاعي من القائل ما كنت أعرف وفاتني أن أحفظ، فالشاعر اسمه الحصين، قال الأستاذ إنه من شعراء الحكمة. ثم قال إن معاوية بن أبي سفيان قد تمثل بهذا البيت وما إليه يوم صفين. كاد أن يترك المعركة حين شعر بفداحة الخسارة وخسارة الحياة.

وأريد أن أسأل فالرواية التي ذكرها الأستاذ ابن خميس لا شك أنها موجودة في مرجع بينما أنني قد حفظت قول معاوية «إني كدت أفر يوم صفين. ولكنني تذكرت قول عمرو بن الأطنابة «شاعر الأنصار».

أبت لي عفتي وأبى بلائي وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإعطائي على الإفقار مالي وإقداми على البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

تذكرها معاوية فثبت. فلقد كان يفكر في أن يترك الحرب أول الأمر ولكن الثبات أعطاه أن يفكر بما رواه عمرو بن العاص من رفع المصاحف. فكان ذلك من معاوية حرباً على الحرب. وانتصاراً بعد فهو إن لم ينتصر بالسيف فقد انتصر بالرأي. وكان أمر ربك قدراً مقدوراً.

أوردت ذلك لأرد على الذين يرون في تعارض الروايات أنها حكايات يضعونها لحساب الزعماء. ففي رأيهم أن معاوية لم يتمثل بهذا أو بذلك. وإنما أشياعه يضعون ذلك على لسانه.

وإن هذا الرأي فيه الحط من قيمة الرواية وفيه العبث بالتاريخ.

فلا يبعد أن معاوية تذكر شعر ابن الحصين وابن الأطنابة، فتحدث في مجلسه عن هذين شاكراً وفاخراً، فتفرعت الرواية كل وما حفظ.

إن التشكيك هدم. واليقين صون للبناء وحرز يحترز به التاريخ ويحترم به التراث.

أمين مدني

- ولعلّ من حق السيد أمين مدني يرحمه الله نديداً وصديقاً وابن التربة الغزلة، وواحد إذا ما كتبنا عنه نعطي المدينة المنورة سيرة شاب من شبابها ورجل من أشياخها كأنما سيرة الذين أدوا بعض واجبهم وما بخلت التربة الغزلة أن ترفع من شأنهم. كأنما الحق لهم قد انتزعوه من أداء الواجب. من حق السيد أن أكتب عنه.

فلقد نشأ السيد في بيت عليّة هو بيت المدني كان لهم شأن وكانت عنهم شؤون اختلفنا معهم، ولكننا لم نختلف عنهم ولم يختلفوا عنا. وإذا ما جمعت الغربية أهل المدينة ولو على بعد فرائخ من طيبة الطيبة جمعهم الأنين والحنين طرحوا أسباب الخلاف واصطلحوا على نتيجة الوفاق فلن تجد اثنين من أبناء المدينة إذا ما أصبحوا خارجها إلا وهما الصديقان الحبيبان.

من هنا لم أكن على وفاق مع السيد أمين في كثير من الأمور. ولكننا لم نصل إلى شقاق، فطبيعة الحياء فيه ونزعة الإستيحاء في حال كل ذلك دون أن تقع الجفوة فقد حلت مكانها الصفوة.

أما أخوه السيد عبيد يرحمه الله، فهو بقية الناس، لم يكن قد أغضب أحداً أو ناصب أحداً خصومة، إليه نرجع، نقتبس منه الصفاء ونلتمس عنده

المعرفة. فالسيد عبيد كان المدرسة الثانية لأخيه أمين مدني فقد أخاه وأباه. أما المدرسة الأولى فأم السידين، العظيمة أبنة السيد أحمد البرزنجي شيخ المدينة ومفتيها أيام كان رجالها يوزنون بميزان الذهب. لقد مات أبو السيد أمين وهو طفل فورث عنه أبناه نجابته، فقد كان السيد عبد الله مدني (الأب) أنجب إخوته.

نشأ هذا الطفل «أمين» تحفظه أمه، يحافظ عليه أخوه، فلم نكن نعرفه أيام حكم الأشراف، كأنما أمه قد تحرزت به لا يخرج من البيت، العلم يأتيه. وأحسب أن هذه الأم الكريمة خضعت لتجربة كانت قاسية.. موت الأب يرحمه الله، وما جرى في المدينة أيام فخري باشا.

كان يلتقط الرجل، يحشره حشراً في القطار يرحلونه إلى الشام فمن حرص الأم أن تخاف ذلك، لأن من الكرامة التي أنعم الله بها على هذه الأم وابنيها هو أنهم لم يخرجوا من المدينة المنورة مع أن كل بيت المدني قد خرجوا، كل الأعمام كانوا في الشام.

فقد حفظته فكل ما يريد يأتيه فما دخل الكتاب وما دخل مدرسة، وإنما كان يتعلم في البيت، حتى إذا شب كان الأشياخ الكبار، يزورون السيد عبيد يتعلم منهم حتى أصبح المثقف الكبير ولم يحرم أمين من علم هؤلاء الأشياخ.. الشيخ العمري، الشيخ محمود الطيب الأنصاري الشيخ إبراهيم البري، ولعلّه اكتسب من خاله شقيق أمه قاضي المدينة الصموت السيد محمد زكي البرزنجي بعض..

لم نعرفه أيام الأشراف ولكننا عرفناه بارزاً بيننا في هذا العهد عهد الكيان الكبير. فقد أحب أخوه أن يدرس «أمين» العلوم العصرية، فاستجاب لذلك مدير المدرسة أستاذنا الدمشقي محمد الحمصي، زميل أستاذنا علي

الطنطاوي فأعد له مكاناً خاصاً يلقنه ما أفاده بالكثير من المعرفة.

ثم اختلطنا به رئيساً لتحرير جريدة المدينة فقد كان الرجل الثاني الذي يرأس تحرير جريدة في المدينة أما الأول فكان السيد حمزة غوث أيام فخري باشا رئيساً لتحرير جريدة الحجاز وأما الثالث فالسيد عثمان حافظ.

واشتد ساعد السيد أمين قارئاً يلتهم التاريخ يخرج لنا - كقارئين - موسوعات من التاريخ.

لقد كان - يرحمه الله - لا يختزن ما عرف. ولا أدري هل أجد عند ابنه «إياد» وأبناء السيد عبيد همة تخرج لنا ما جمعه السيد عبيد أو ما اجتمع للسيد أمين من تاريخ المدينة. ومن طرائف شعرائها، فقد ألححت كثيراً، أطالبهم بما اختزنوا فحرام أن لا نعرف شعر العمري وعبد الجليل برادة وإبراهيم الأسكوبي وأنور عشقي وعبيد مدني، وأحمد عابد وغير هؤلاء.

يرحم الله السيد أمين . .

إلى الأستاذ الرفاعي

- واستقرأت متابعتك لكلمتي فإذا أنت تمنحني ما أنت أهله من الشناء
أستأهله منك فأنت صاحب وجدان أبعدت السواد عنه، فالبياض نظرة
الوجدان الذي يجب فإذا هو يعيش نعمة الراحة من كدرة السواد. وأحب
الآن أن أتابع ما كتبت لأوضح ما أراه يستأهل الإيضاح، كما يلي:

أولاً: قلت إن العلامة صاحب السند العالي الشيخ إبراهيم الكوراني
هو جد صديقنا الأستاذ ضياء الدين رجب (رحمهما الله) لأبيه وليس الأمر
كذلك. إنه الجد الأعلى لأمه. فقد عرفنا أحواله وهم: قاضي المدينة
وشاعرها عمر كردي، وقاضي المدينة عبد الحفيظ كردي، ورئيس ديوان
الإمارة في المدينة أيام الأشرف صالح الكردي، ومدير المدرسة العلوية
في تلك الأيام ياسين الكردي. معروف مقامهم في المدينة وكانت لهم
حظوة في تلك الأيام.

ثانياً: وقلت إنك حظيت حين كنت جاراً للشيخ علي فالح الظاهري
في مكة المكرمة فلمحت من كلامك أنك تحسبه الشيخ فالح الظاهري
صاحب السند العالي الذي جاء ذكره في مقالتي السابق، بينما هو - أعني
علي فالح - ابن الشيخ فالح الظاهري. سكن مكة وكان له مقام كريم
فيها.

وهناك شخص كان أشهر من علي فالح في مكة لدى الشباب اسمه أبو بكر فالح، سمعت أحمد إبراهيم الغزاوي ومحمد سرور الصبان - رحمهما الله - يذكرانه، ولعلّ الصديق الأستاذ عبد الوهاب آشي يعرفه، ولا أدري أهو ابن الشيخ فالح أم حفيده. فعلي إن لقيت أستاذنا عبد الوهاب آشي أسأله، أو أن أحد الذين يقرأون كلمتي هذه وكان قد عرف «أبو بكر فالح» سواء كان من معاصريه أو من أبنائنا الظواهريين الذين كثيراً ما كانوا يسألوني عن الشيخ فالح يشرح لنا الحقيقة.

وزيادة في الإيضاح أحب أن أوضح أن الشيخ فالح الظاهري كان تلميذاً للشريف محمد السنوسي مؤسس الطريقة السنوسية وجد زعماء ليبيا السنوسيين. فقد كان السيد محمد السنوسي يقيم في مكة بعد أن هاجرا من المغرب. وعرفنا من مشايخنا وخصوصاً من الشيخ محمود شويل، تلميذ فالح الظاهري، أن محمد السنوسي كان معاصراً لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، وكان السنوسي طموحاً يعمل لنشر الطريقة السنوسية حتى إذا انتشرت في الحجاز سعى إلى إقامة دولة منفصلة عن الدولة العثمانية وتنتزع الأمر من أمراء مكة. ولكن حين زحف الإمام سعود فأجلى الأتراك عن الحجاز ووقعت الحرب بينه وبين محمد علي غادر السنوسي مكة إلى واحة «جغبوب» في ليبيا.

ولكنه ترك الشيخ فالح في الحجاز وتسلط على تراث حمزة ظافر في ليبيا، وحمزة ظافر مدني الأصل والد محمد ظافر أحد الرجال الأربعة الذين كانوا حول السلطان عبد الحميد وهم أحمد أسعد، أبو الهدى الصيادي الطرقي عزت العابد، ومحمد ظافر.

ثم إن السنوسي كان له تلميذان آخران.. السيد الميرغني المكي

البخاري والسيد الأدريسي. فأرسل السيد الميرغني إلى السودان ليؤسس الطريقة الختمية التي انتشرت هناك، وكان مالها من تنافس مع الطريقة المهدية. وأرسل الإدريسي إلى جيزان فأسسوا الطريقة وأقاموا الإمارة هناك. هذه لمحة من التاريخ، والعهد على رواتها، مع ملاحظة أن بعض أسرة الميرغني لا يزالون في الحجاز بين مكة وجدة.

مع عيسى خليل صباغ

- ولعلّي كتبت من قبل أرسل كلمة ثناء على الأستاذ عيسى خليل صباغ، كتبت ذلك أول ما عرفته حين سمعته مديعاً في إذاعة لندن أيام الحرب العالمية الثانية.

فالهتلريون يصفقون ليونس بحري السائح العراقي الذي ما أضاع نفسه حين كان هتلرياً والذي أضاعه قومه حين ضاع هتلر.

أما الديمقراطيون كما كانوا يزعمون وكنت واحداً منهم فنعجب بجرس صباغ وكمال سرور ولم تكن تلك الحماسة منا نصفق لانتصار الحلفاء لا تعاسة فكرية سببها تزواج الثقافة وتلك أيام مضت لها تاريخ نعيش مأساتها الآن.

إن عيسى خليل صباغ مديع ناجح لا كصاحب صوت فقط وإنما لأنه يجيد اللغة العربية إجادة يتحرى صحة ما يذيع صرفاً ونحواً.

عرفته أول الأمر هكذا ثم حين التقينا توطدت علاقاتنا به صديقاً نكن له كثيراً من التقدير ولم ييخل هو علينا بهذا التقدير.

واليوم أهداني هذا الكتيب بعنوان «كما قالت العرب» يحوي حكماً وأمثالاً عربية ترجمها إلى اللغة الإنجليزية، كأنما هو أراد أن يؤمرك هذه الأمثال، يكنزها كشيء من عطائه للغة العربية، يريد أن تعرف هناك،

وكشيء من عطائه للوطن الذي هاجر إليه، فإذا هو هناك رجل بارز.
إن هذا الكتاب يحوي أمثالاً طرح فيها حنينه وأنينه، لن أستدرك عليه
أنه اقتصر على هذه الأمثال، أو هذه الحكم، فالعاجلة أن يسرع، والآجلة
أن يضيف رديفاً لهذا الكتاب.

وما كتبت ذلك عنه إلا شاكراً، فمن يذكرك لا بد أن ذكره لك ما هي
إلا التعبير عن المودة لابسة حلة من الصداقة، أبقتها الأيام في أفئدة الذين
لم ينحرفوا مع الأيام، ولم ينحرفوا بصوارف الأيام.

شكراً للصديق عيسى، وكم تمنيت أن أراه في الولايات المتحدة حين
كنت هناك قبل أيام، وقد سألت عنه فلم أجده في نيويورك لأنه مازال
يعتصم بالإقامة بالعاصمة (واشنطن).

مع محمد فتحي

- والشيء بالشيء يذكر فما دمنا قد كتبنا عن الأستاذ عيسى خليل صباغ مديعاً ناجحاً له جرس ورنين واحتفال باللغة الشاعرة لغة العرب. فينبغي لنا أن نكتب خاطرة أخرى عن كروان الإذاعة، الأستاذ محمد فتحي فقد كان في إذاعة القاهرة غريداً وفريداً، لا أحسب أن من كان مثله إلا الأستاذ الشاعر شاعر الكرنك أحمد فتحي يرحمه الله.

فهذان الفتحيان فاتحان فقد سمعنا ما يطربنا حين كانا يذيعان، فمحمد فتحي ما زلت أسمع رنين الجرس ساعة إن كان يقدم أم كلثوم في حفلاتها الشهيرة، يتغنى قبل أن تغني أم كلثوم حيث يقول وها هي تلبس ثوباً أزرق.

إن محمد فتحي سمعته كثيراً وتسمعت إليه وهو يحدثني في الرياض فعجزت أن أكون له وإن كنت معه وسمعته بالأمس وفي صوت العرب يقول ما كنت أود أن يقوله كل أحد فقد قال ما بال وسائل الإعلام قد وقفت نفسها تحيي ذكر الفنانين وتتلهى تناسياً أو نسياناً فلم تعد تذكر الرجال الأبطال من العلماء والأدباء أو المفكرين والساسة؟

كان جريئاً إن قال ذلك وكان يبكي إن حرم من أن يكون كأمثال محمد رفعت كما كان فقد عرفنا عنه أن ضابطاً كندياً سمع صوت رفعت وهو في

كندا فآمن وجاء يهرول إلى مصر يعلن إيمانه.

ولا أريد أن أبخس نفسي فقد تحدثت إلى الأستاذ عبد المنعم الصاوي وقد كان وزيراً، فقلت له كيف تقرون هذا المسلك؟ إذا تصافيه مع شعب عربي لم يكن عنوانه هذا الصفاء إلا أن تضيعوا أغانيه فقط لا غير.

أفليس للشعوب العربية علاقة أكثر من علاقة الأغنية؟ فإذا هو يسمع ويعد ولكن لا رأي لمن لا يطاع. فالفنان لا يزال هو المسيطر على توطيد العلاقة بين الشعوب أما المثقفون ورجال السياسة والعلماء فهؤلاء شأنهم مؤجل إلى وقت قد يكون قريباً أو بعيداً.

مشعل السديري

- وأمرنا أن نرد التحية بتحية على صورة أحسن وهذه التحية تلقيها مسطرة معطرة بالود على صفحات «عكاظ» حياني بها الصديق مشعل السديري فوجدتني مقيداً بقيد عقلني به الود والحب وقيدني به كل الأسطر يكتبها مشعل السديري.

فهو لئن كان مقلداً فإنه المكثّر في تسطير البيان، ذلك أنه مشعل وجدان وشعلة بيان واشتعال فنان.

فالقليل منه كثير، وليس ذلك عن عجز أو تعجيز وإنما هو القرف من أن يحترف يصون الموهبة، يهب لها ومنها ما يحفل به فؤاده من عاطفة لا يختطف بها رضا القارئ وإنما هي خطفة من حالة تتاب صاحب الموهبة فإذا هو الواهب والمهّاب.

إن الأسطر التي كتبها استأهلها منه، فواهب الحب لا ينبغي لي أن أتهيب الجفوة من كلمة قائل أن الشيخ والفتى بدأ يتقارضان الثناء.

ومشعل السديري مرة أخرى لم يتحفني بما قطرت به عاطفتي إلا أنه نزع إلى عرق، فالعراقة تبتعد عن الدنيا وتلبس صاحبها المزاي وفي أيام مضت قبل سنوات قال أمير كبير يوجه كلمة إلى أحد جلسائه، يثني بها على مواطن قام بواجب الحفاوة لسموه في بلد بعيد.

فقال الجليس «أنت تستاهلوا». فقلت: ذلك نعم ولكن الأصح أن هذا المواطن ينتمي إلى عرق، حفظ به الجميل فأدى شكر الجميل لسمو الأمير.. فإن الذي له عرق عميق الجذور ينبت ويفرع ويثمر.

وهكذا فلا بدع أن تكون الأصالة في مشعل قد أفرغت وأثمرت لا تبصر إلا ما يزين وتغمض العين عما يشين.
وأخيراً..

ولو أني بليت بهاشمي خؤولته بني عبد المدان
لهان عليّ ما ألقى ولكن تعالوا فانظروا بمن ابتلاني

شكراً لمشعل ولعليّ أراه رؤية عين لا رؤية عقل.

السيد أحمد العربي

- السيد أحمد العربي الأستاذ الجليل ومربي الجيل بحق. فهو أول مدير لتحضير البعثات. مدرسة تخرج منها جيل الوزراء والدكاترة. فهم أول مبتعثين، كالمبادرة الأولى من إعداد الرجال. ذلكم من مخطط الدولة التي ما زالت تفتح مصانع الرجال، ولا أدري، هل لا يزال السيد أحمد العربي في ذاكرة تلامذته، يسألون عنه، ليفرح بهم رجالاً، كما فرح بهم طلاباً.

إن السيد أحمد العربي شريف النسب عياشي هجاري، أعراقه في الأسرة الحسنية في المغرب، كما هي الأعراق التي امتدت من المدينة المنورة إلى ينبع النخل. وكانت هذه العراقة قد زخرفها وزينها، لا بالفخار بها، ولا بالتبجح على غيره، وإنما بالوقار، فقد كان تلميذاً معنا، يحترمه الأساتذة. فلم أر أستاذاً قد اتجه إليه بعتب أو عقاب. فقد امتنع عليه ذلك لأنه منع نفسه أن يكون داعياً لأي أستاذ أن ينهره أو يزجره. كان معنا تلميذاً في ثوب رجل. ورجلاً في ثوب أستاذ. ومن الملاحظ أنه كان عزوفاً، كأنه مع الدرس وليس معه. فقد شهدت العجيب. فهو من فصل قبلنا، وأكبر سنناً منا، وقد غاب أستاذ الفصل. أستاذنا السيد أحمد صقر، فجاءوا بفصله، وكانوا أربعة: السيد أحمد العربي، السيد محمد صقر ابن الأستاذ أحمد صقر وعبد الحق النقشبندي وعثمان حافظ. فاجتمع فصلهم

مع فصلنا، وكان الأستاذ يلقي علينا درساً في النحو، وهو أستاذنا السيد محمد صقر والد السيد أديب صقر. ولا أدري هل استكبروا أن يكونوا معنا، أم أن السيد أحمد كان جالساً ولم يكن حاضراً، فإذا الأستاذ يسأل عن كلمة: «تفاوت» هل هي اسم أم فعل. ولعل السيد أحمد وزملاءه قد سكتوا عن الإجابة عزوفاً أو تجاهلاً. أما تلامذة فصلنا فقد غرتهم «التاء» في كلمة «تفاوت» فكلهم بصوت واحد قالوا إنه فعل مضارع، فرفعت أصبعي أعترض على الإجابة فقلت إنها اسم والدليل حرف الجر والتنوين هكذا «من تفاوت» فأعطاني الأستاذ امتيازاً. وانقطع السيد عن المدرسة، يحضر دروساً في المسجد ويتلقى عن والده العالم الجليل مولاي العربي. فأبوه من أشرف المغرب، حتى إنا سمعنا أن السلطان عبد الحفيظ حين تنازل عن ملكه في المغرب، فحج وزار المسجد النبوي كان يلازمه مولاي العربي. فمولاي العربي إذا ما خاطب السلطان قال مولاي عبد الحفيظ وإذا ما خاطبه السلطان قال مولاي العربي وحتى والدته الشريفة الجليلة لم تسمع من أي مخاطب أو مخاطبة من عارفيها إلا أن تنادي «للأصفية» سيدة جليلة.

وبقي السيد في المدينة طالب علم، نظم الشعر مبكراً. فحين احتدم الخلاف بين تلامذة أستاذنا الشيخ محمد الطيب الأنصاري أستاذ الأخ عبد القدوس الأنصاري ومحمد عبد الله الأنصاري من أهله قبل أن يتلمذ عليه الشيخان محمد الحركان وضياء الدين رجب. احتدم الخلاف بين هؤلاء وبين تلامذة أستاذنا الشيخ عبد القادر الشلبي الطرابلسي اللبناني. وكان الخلاف على النطق بالكلمة «أفعل فعلاء» و «فعلان فعلة». هل يكون نطقهما بالخفض كما هو رأي الشيخ الطيب أم بالفتح كما هو رأي الشيخ

عبد القادر الشلبي. فإذا بي أسمع هذا البيت نظمه أحمد العربي:
ألا انتصبوا يا قوم للفتح واتركوا لهم خفضهم فالمثل بالمثل مغرم
وكنت تلميذاً للشيخ عبد القادر الشلبي رحمه الله قبل أن أتعلق بصداقة
الطبيب الأنصاري، فاختلفت مع الصديق هاشم سمان. نصيراً للصديق علي
كماخي رحمه الله. فإذا تلامذة الشيخ الطبيب يعينون هاشم السمان على
هجائي بقصيدة أحمد العربي:

أبا زيدان عينك أزعجتني من الأقدار والنظر الشئيم
ولا أحفظ منها إلا هذا البيت. مع أنها كانت البادرة الأولى في
إشهاري، فاشتهرت بها، وقد كنت يومها أرمد، فإذا الشيخ محمد سعيد أبو
ناصر يرحمه الله. وقد كان مدير البريد في المدينة يضع ريالاً واحداً قيمة
للقصيدة لمن يأتيه بها وفي دار الضيافة وأنا ذاهب للمسجد لقيت محمد
سعيد أبو ناصر ذاهباً للمسجد أيضاً قلت له خذ القصيدة بلا ريال. وهكذا
الهجاء إن أساء في لحظة واحدة فهو يحسن في كل اللحظات.

وأعلنت الحكومة عن ابتعاث بعض الطلبة قبل تأسيس تحضير البعثات.
فهي المبادرة الأولى بحق. وكدت أذهب ولكن أستاذنا الشيخ محمد علي
التركي قال: تزوج واطلب العلم في المسجد ولا تذهب.

أما أول من ذهب فالسيد أحمد العربي والسيد محمد شطا فالسيد
درعمي من دار العلوم في القاهرة. ولحق بعدهما إبراهيم السويل وعبد الله
عريف وعبد الله الخيال. ثم انتظم الأمر للابتعاث عن طريق مدرسة تحضير
البعثات كما سبق وعن طريق وزارة المعارف بعد وزارة التعليم والوزارات
الأخرى.

وتخرج السيد أحمد العربي أستاذاً كبيراً وكريماً، وشاعراً مجيداً، ولا أعرف من يحسن إلقاء الشعر إحسانه. فكم هو قد أطربنا في قصيدته التي حيا بها أول طيار الشريف عبد الله منديلي. كم هو مطرب أن أسمع هذا البيت حتى الآن:

هذا حراء سائلوه يجبكم فلعلّه سفر من الأسفار

فهل أبناؤه قد جمعوا شعره؟

إن هذه ليست ترجمة للسيد وإنما هي ذكريات. باسم الوفاء لرجل خدم العلم، سواء في بلده لأهله، أو حين رحل إلى أندونيسيا يعلم مسلميها. أمد الله في عمره وجزاه عنا خيراً. بل هي الوفاء لأنه كان نصراً لي حين انتصب هو وصديقه محمد أمين الشنقيطي سفير الأردن سابقاً والدكتور حمزة شلبي يردان على الهجاء بهجاء، كانوا أصدقاء، كبروا ولم يستكبروا.

شكيب والآشي

- وجاء أبو غالب أمير البيان ابن ماء السماء «شكيب أرسلان» إلى المملكة العربية السعودية يحمل الرجعة إلى القومية العربية في نطاق الجامعة الإسلامية فوجدها ممثلة في البطل الملك «عبد العزيز بن عبد الرحمن». وله في ذلك كلام جيد لعلنا ننشره بعد.

- وحل ضيفنا في مكة يتخذ مجلسه في «بيت الشيبى». وكان كبيرهم الشيخ «عبد القادر الشيبى» حياً، كأن ابن ماء السماء أحب أن يكون مجلسه في بيت «ابن عبد الدار». دعوة العرق إلى العرق.

- وخطر على بال أستاذنا وصديقنا «عبد الوهاب آشي» أن يزور الأمير «شكيب» مع أنه خليط لبيت الشيبى وصار الجار للجار. وسلم على الأمير عبد الوهاب آشي. فقال أبو غالب: «هل أنت من وادي آش»؟

إن الأمير «شكيب» بهذا السؤال قد أطربه أن يجد شخصاً من الأندلس ينسب إلى وادي آش الذي يصفه الشاعر.

وقانا لفحة الرمضاء وإِ سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا حنو المروضات على الفطيم
تروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

إنه جمال في هذا الوصف؟ إنه جمال يذوقه الباكون على الفردوس
المفقود والذين يعيشون المأساة في الفردوس الثاني «فلسطين».

ومات الشيخ «عبد القادر الشيبى» فرثاه أبو غالب بقصيدة جاء فيها:

سلاني هل على بعد سلاني وهل كان المغيب سوى العيان
وكيف يكون من ينميه أصل لعبد الدار أو عبد المدان

عبد الله بن عقيل

- هذه ذكرى فاتني أن أسجلها مذاعة، لا أكتبها الآن فآخرًا وإنما أكتبها شاكرًا عن كرامة الرجال حينما يحترمون القيم. هي ذكرى عن وضع وجدتني فيه مع الرجل الكريم «عبد الله بن عقيل». أحد الرجال الذين أدوا واجبهم لمليكتهم ووطنهم، فقد كان رجلاً كريماً من أعيان القصيم أميراً لقصر ابن عقيل حظي بالتكريم من جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن رحمه الله. فما من رجل أدى واجبه وأعطى الثقة حقها إلا ووجد التكريم من البطل الزعيم الإمام السلطان الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن يرحمه الله.

وقد كان هذا الموضع الذي وجدتني فيه في ضحوة يوم من أيام مكة المكرمة. فقد نصبت البلدية صيواناً كبيراً لاستقبال الأمير فيصل بن عبد العزيز وهو قادم من أمريكا بعد أن مثل المملكة في هيئة الأمم يوم التصويت لإقامة إسرائيل وقبل أن يصل سموه وقد امتلأ الصيوان بالمحتفلين وصل عبد الله بن عقيل وتقدم إلى الصيوان الكبير فلم يجد كرسيًا يليق به، ولم يتحرك أحد من الجالسين ليفرغ له كرسیه لأنهم لا يعرفونه. والبلدية لم تكلف رجالاً يعرفون الرجال. ورأيت الرجل الكريم يتقهقر وكنت جالساً على كرسي بعيد عن الكراسي الفخمة فنادت هذا الرجل - تفضل وأخليت

له كرسيي وقبل أن يصل إلى مجلسه الذي أخليته له فطن الصديق عبد الله السعد وقد جاء تواءاً إلى هذا الموقف فأخذ بيد عبد الله بن عقيل يجلسه على كرسي له في صدر المكان أفرغه من الجالس عليه.

ورجعت إلى كرسيي فإذا شاب من عامة الناس قد جلس عليه قلت له إنه كرسيي فقال «هو كرسي فارغ جلست عليه».

إنها فوضى التنظيم. ووقفت حتى انتهى الحفل. وفي اليوم الثاني وأنا في مكنتي في إدارة القصور جاء عبد الله بن عقيل، يكلف نفسه أن يشكر. فحمدت له ذلك. فهل نسي هو ألا يشكر مرة أخرى؟

لم ينس، فقد دخلت إلى مكتب كبير وأنا رئيس تحرير جريدة «الندوة» أستاذ في العودة إلى مكة، فإذا بي أجد «عبد الله بن عقيل» جالساً مع الأكرمين. فلم يكذبني حتى قام من كرسيه «تعال يا محمد اجلس».

قلت: لا.. لا.. سأقف حتى يؤذن لي بالدخول.

فقال «عبد الله بن عقيل» لقد سبقت.

إن هذه الذكرى أنشرها اليوم موعظة للذين لا يعرفون أن يكرموا أنفسهم حين يكرمون رجالاً أكرمين.

الشداد والبيت الكبير من الشعر وتقلد السيف. فعز على الفتى أن يفقد ميراثه وسلطان أبيه على القبيلة فذهب إلى «العرف» الذي حل محل الكاهن ليحكم له أو عليه، كأنه امتداد لأسلوب المنافرة القديم، سلكه وحده، فإذا «العرف» يحكم بأن يقتل عمه ويسترد حقه، كما كانوا يفعلون في الجاهلية. فما رضي الفتى ورجع إلى قبيلته وقد سمع عمه قوله «الصقر ما يسخى بجنحان ثقله» فاستقبل ابن أخيه وتخلّى عن كل شيء وأعطاه حقه.

نصير الشعر الشعبي وحفظته..

فالسؤال الموجه إلى أستاذنا عبد الله بن خميس:

من القائل ومن كان الحكم، ومن أي قبيل، من حرب كان هذا الفتى؟ ويعجبني كمعتر بالشعر الشعبي ولا أسميه النبطي أن أنشد هذين البيتين قالوا لنا إنهما لشاعر من جهينة قال:

الساس طنّف والطنّف عود الساس وركب الرديف وراعي الكور حول
وأصابع الرجلين زادت على الراس وهاذي تهاويل الزمان المهول

ومن الشعر الشعبي حضرياً ما ينشد كأغنية وهي:

حلفت لألبس الفردين وأدخلك يا حوش خير الله
وأشهد كحيل العين أبو خديد ما شاء الله

وكلمة ما شاء الله لا يعني بها الدعاء وإنما يصف الخدين بأنهما بلون الذهب كصفرة الياسمين وهو اسم ريال من الذهب كان بقيمة خمسة جنيهاً كمثله أبو فرج الله.

تعقيبات

الغوغاء

- وحفظنا من كلام الإمام علي بن أبي طالب أبي الحسن حيدرة كرم الله وجهه قوله . الناس ثلاثة . . عالم رباني ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع أتباع كل ناعق .

إن هذه الصفة لرعاع أصبحت قانوناً من قوانين علم النفس والاجتماع، فإذا ما خطب زعيم على المنبر لا يتأثر منه واحد ولا يتأثر به اثنان، ولكن الثلاثة فما فوق ينعدم فيهم الاعتراض . لأن اليقظة تصبح تابعة لمشاعر الآخرين الذين يسمعون ما سمع، فلا تجد هذا الجمع وهو يسمع الخطيب إلا من المرحبين والهتافين .

وقد سمعت كلاماً لزعيم يصف شعبه وهو عربي مات في الحرب العالمية الثانية . قال : إن قومي أو قال شعبي الواحد فيهم رجل . والاثنان رجالان ، والثلاثة رعاع .

وقد اتضحت هذه الصورة للرعاع بما ذكروه عن العربي الصليبية الرجل الأول عند المعتصم رغم عرويته وهو أحمد بن أبي دؤاد تولى كبر الاعتزال حتى عذب الإمام أحمد بن حنبل ناصر السنة رضي الله عنه . فاغتمت الخاصة والعامة فأبغضت أحمد بن أبي دؤاد بغضاً شديداً، حتى إن أهل الكرخ أو هي مدينة أخرى في العراق قالوا عن أهلها لو أن أحدهم ذكر

اسم أحمد بن أبي دؤاد لقتلوه ولكن هذه المدينة، الكرخ أو غيرها، قد شب فيها حريق دمرها، فتوسط ابن أبي دؤاد لدى المعتصم يطلب منه العون لهذه المدينة. وذهب بنفسه يوزع العون بسخاء حتى شمل الذين أضر بهم الحريق. فإذا التاريخ يقول.. لو أن أحداً قال لأهل هذه المدينة «إن زر الثوب ثوب ابن أبي دؤاد متسخ لقتلوه». أفليست هذه الصورة انقلبت بها البغضاء إلى حماية برهان على استجابة الرعاع لما يقال لهم أو لمن يحسن إليهم؟

إهمال النصوص

وكنت أزور في نفسي من أيام مضت أن أضع ملاحظة على ما جاء في كتاب التاريخ العربي القديم والسيرة النبوية.. المقرر كمنهج دراسي لطلبة الصف الأول المتوسط، تأليف أحمد موسى البكري وعكاشة أحمد الجعلي، وتعديل إدارة المناهج والبحوث (ط ٧ - ١٤٠١هـ) فقد أرخوا لمعركة «ذي قار» بين العرب والفرس، فلم يستوفوا الحلية التي أعلنت إشادة رسول الله ﷺ بانتصار العرب على العجم. ففي الحديث المشهور الذي أخرجه الإمام أحمد وكثيرون من أئمة الحديث جاءت هذه الإشارة في قوله ﷺ: «اليوم انتصار العرب من العجم وبي نصروا» فالنصر كان إرهاساً لنصر أعظم هو انتصار العرب بهذا الإسلام، كأنما كان النصر في «ذي قار» فاتحة النصر الكبير بالفتح العظيم، عرف به العرب. جربوا النصر أول مرة أن يتقدموا للنصر في ما يأتي بعد حين توحدوا تحت راية الإسلام. فهل أسأل المؤلفين أم إدارة المناهج والبحوث بوزارة المعارف عن ترك هذا النص لا يضعونه في كتاب دراسي مقرر.

إن إهمال هذا النص سواء كان من المؤلفين أو إدارة المناهج والبحوث أحسب أنهم ما فعلوا ذلك إلا لأحد أمرين:

فإما أنهم استضعفوا الحديث فلم يسألوا عن صحته. فحرموا التلميذ من

معرفة واجب أن يعرفها، وإما أنهم قد خضعوا للمجاملة كأنما حقائق التاريخ تجعلنا أن لا نذكر الحديث الآخر. «اللهم مزق ملكه كل ممزق» وقد مزق الله ملك الأكاسرة. وكان الإرهاص لهذا التمزيق النصر في «ذي قار».

إن الفرس الأكاسرة قد هزموا في «ذي قار» حتى إذا أسلموا كان بهم النصر للحضارة كان منهم الذين «تالوا العلم المعلق بالثريا كان لهم أن امتد الفتح بهم إلى الشرق، وكان بهم أن تحملوا مجازر التتار. وكان بهم أن وقفوا مع الترك تنهزم بهم جميعاً أكثر من عشرين زحفاً سلافيّاً روسياً.

فحقيقة التاريخ على الجاهلية يجب أن تقال، وفخار التاريخ يجب أن يقال ففي الأولى يجب أن لا نبخس أنفسنا، وفي الثانية يجب أن لا نبخس أنفسنا حين نبخس إخواننا في الإسلام.

إن «إياس بن قبيصة» عربي على الذروة طائي قحطاني، لكنه انحدر عن الذروة حيث أصبح في حضيض العمالة للفرس، وهانيء بن مسعود الشيباني جاهلي لكنه أصبح في ذروة العروبة كما هو في ذروة العرق تاريخاً في التاريخ انتصر به العرب كأنما «إياس بن قبيصة» حين أصبح عميلاً للفرس وهو في التاريخ القديم يعطينا صورة من التاريخ الحديث اليوم لا أمس. ولا أريد أن أزيد.

فلئن ضحك «إياس بن قبيصة» آخر اليوم فإن بكاء الشعوب سيأتي بـ «ذي قار» أخرى ألا سحقاً للعملاء.

إن «هانيء بن مسعود» قد ورثه ابن عمه سيدي «المثنى بن حارثة الشيباني» فاستغول فاتحاً مسلماً، كان من عطائه ما سجله التاريخ مقدمة للفتح العظيم كنت أزور هذا فحفزني «مقبل العيسى» أن أكتبه الآن ولينشد

معي هذا البيت :

أمور يضحك العملاء منها وتبكي من عواقبها الشعوب ..

وليعذرني في هذا القلب للبيت ..

وأخيراً فليُنظر القارئ إلى الإعجاز البياني ممن أوتي جوامع الكلم عليه الصلاة والسلام حيث وصف نصر البطل أنه نصر الأمة ووضع العميل ولو كان عربياً في موضع العمالة فجعل الهزيمة له هزيمة لمن استعمله.

المتجردة

ونسلم اسم المتجردة، اشتهرت ببيت النابغة الذبياني:

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

فمن هي؟.. ولماذا تزوجها «النعمان بن المنذر»؟

إنها ابنة «زهير بن جذيمة» رأس عبس قمة غطفان، ذروة قيس عيلان، شطر مصر «زهير بن جذيمة» نظمت له الخرزات ملكاً على الحلف الأعظم أسد وغطفان، كأنه خلف لآكل المزار «حجر بن عدي القحطاني» والد «امرئ القيس» أو سلفاً لطليحة الأسدي. وتزوجها النعمان لأنها الجميلة، فليس في العرب أجمل من بنات النبات حول وادي الرمة وشرق المدينة وحرّة خير. تزوجها «النعمان» لجمالها وليتخذ من «زهير بن جذيمة» ومن كل مضر حلفاء، فربيعة الفرس كان يخافها ابن ماء السماء.

وحلت في القصر فحلي بها القصر، وجاء ابن عمها «النابغة الذبياني» فذبيان وعبس أبوهما بغيض بن غطفان بن قيس عيلان بن الياس بن مضر، فقوي شأن النعمان بهذه الصلة.

والمتجردة قد جاءت بالشراب عليها قميص «بلوزة» كما أنها قد لبست النصيف «فوطه أو جونلة» تحترم نفسها وتكرم ابن عمها، ويأذن ابن ماء السماء.

وسقط النصف، وحاشاها أن تفعل ذلك عمداً، فأطراها ابن عمها
النايخة: «تناولته واتقتنا باليد».

هنا تذكرت الجواهري يوم كنا في تونس، وحين أنشد بيت أذينة:
بيضاء باكرها النعيم فصاغها بلباقة فأدقها وأجلها

قال الجواهري:

- شو؟ فأني فنان أو «مودرن» في باريس يستطيع قول هذا البدوي؟ بلا
سروال بلا كهرباء.

وأخذ يترنح أبو فرات، فأنشدته بيت النايخة فقال:

- نحن عيال على هؤلاء الشعراء.. لا تذكرني بمجد قد أضعناه،
وبشعر قد تركنا تفاعيله مع الزمن ليفعل الزمن فينا هذه التفاهة..

وغريب جداً أن يأتي من ذلك الشظف في بيوت الشعر هذا الشعر
المترف. كأنما الجسم الشظف تحمله روح مترفة. بينما المترف الآن قد
حمل الجسد ترفاً مترهلاً كأنما يذوب من عيشة الترف، بينما كان الشظف
قوة في العضل وترفاً في الوجدان.

ابن هشام

- ومصادفة سمعت الأخ المذيع إبراهيم الذهبي وهو يطرح الأسئلة على أبنائنا تلاميذ مدرسة اليرموك الثانوية في الرياض، فإذا هو يقبل إجابة التلميذ عن اسم ابن هشام صاحب السيرة، إذ قال: ابن إسحاق، محمد بن إسحاق. فقبلها على أن الإجابة صحيحة. وأجذني أستبيح لنفسي على طريقة الحوار أن أصحح الإجابة تعميماً للفائدة وتذكيراً للمذيع الذي أخذ موقف الأستاذ.

- إن مؤلف السيرة هو عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (ت ١٠٠٠ - ٢١٣هـ):

مؤرخ، كان عالماً بالأنساب واللغة وأخبار العرب. ولد ونشأ في البصرة وتوفي بمصر. أشهر كتبه «السيرة النبوية» المعروفة بسيرة ابن هشام، رواها عن ابن إسحاق. وله «القصائد الحميرية» في أخبار اليمن وملوكها في الجاهلية، و«التيجان في ملوك حمير» رواه عن أسد بن موسى، عن ابن سنان، عن وهب بن منبه، و«شرح ما وقع في أشعار السير من الغريب» وغير ذلك.

وقد استقرأت ذلك من كتاب «الأعلام» لخير الدين الزركلي يرحمه

- أما ابن هشام الذي عمت شهرته بين النحاة واللغويين في المشرق والمغرب فهو: عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن يوسف، أو محمد، جمال الدين، ابن هشام (٧٠٨ - ٧٦١هـ): من أئمة العربية. مولده ووفاته بمصر. قال ابن خلدون. ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه. من تصانيفه وأشهر مؤلفاته: «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» و«عمدة الطالب في تحقيق تصريف ابن الحاجب» و«شذور الذهب» و«قطر الندى» و«أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك». وغيرها مما هو مدون في ترجمته في كتاب «الإعلام للزركلي».

- وكم كنت أود أن يكون صاحب هذا البرنامج المذاع معداً للأسئلة محيطاً بكل إجابة لأنه في موقف المعلم.

إلى أسياننا

- في أواخر شهر شعبان سمعت إلى حديث أو هو البرنامج عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس المدني الأصبحي الحميري، فإذا بي أسمع نصاً جديداً عن كلمة أبي جعفر المنصور إلى الإمام مالك حين حظه راغباً إليه أن يوطئ كتاباً يجمع فيه السنة.. فالشيخ الأزهرى الذى تحدث عن ذلك روى كلمة المنصور هكذا: «دع عنك بدع ابن عباس وحيل ابن عمر».. فاستغربت هذا النص لأسباب عدة فالسبب الأول هو أن ما حفظناه بالتفصيل من مشايخنا وما قرأناه بعد هو هكذا «تجنب رخص ابن عباس وشذائد ابن عمر».. فانظروا إلى الفرق بين النصين الأدب الجم مع صاحبي رسول الله فيما حفظنا والاتهام الظالم لحبر الأمة من علمه الله التأويل والفقه في الدين والاتهام الأشد ظلماً لعبد الله بن عمر وما أحسب أن أحداً قد جرؤ على أن يتهم ابن عمر بذلك فكيف قلب الأمر؟ أترى أن هذا الشيخ الأزهرى لم يفهم قيمة الصحابي؟ أم إنه نسي النص فابتدع نصاً من عنده؟ كيف انقلب الأمر يصبح المعلم الحبر الفقيه صاحب بدعة؟ ويصبح صاحب الشذائد المتمسك بالسنة كل التمسك صاحب حيلة.

والسبب الثاني أنه لا يمكنني أن أصدق أن المنصور حفيد عبد الله بن عباس القريب العهد به.. فهو ابن محمد بن علي بن عبد الله ابن

العباس . . كيف أصدق أنه يتهم جده وبه اعتزوا وباسمه نالوا السلطان بل
وبتدبيره كان ذلك يوم حجز نفسه في الطائف . . ولا أصدق أن مالكا كان
يقبل من المنصور اتهام عبد الله بن عمر بأنه صاحب الحيل .

ولعلي بعد، وقد ذكرت ما أعتقد وما هو عندي، أن أجد عند بعض
أشياخنا علماً بهذا النص الذي أورده الشيخ الأزهري فعله من الأكاذيب أو
من أكاذيب الخوارج أو من بغضاء الشيعة .

البغضاء

كذلك الشيخ يؤم المسلمين يوم الجمعة وهو لبناني روى الحديث عن
البر وأعني العيال فالحديث الصحيح هو في قوله عليه الصلاة والسلام
الخلق عيال الله أحبهم إلي أبرهم بعيالي الشيخ فسرهما الخلق عيال الله أي
الذين هم في حاجة إليه عالة عليه فسرهم الخلق أولاد الله . فالعيلة والعالية
هم الذين هم في حاجة للعون وأذيع يوماً ما هذا الحديث أبرهم أي أكثرهم براً
أذيع بأنه اسم إبراهيم أحبهم إليه إبراهيم بعياله وهكذا نغربل وبعون الله
التوفيق .

التفاخر بالأنساب

- وانتهى التفاخر بالأنساب، فالذين اعتلت أنسابهم قد عرفوا ذلك لأنفسهم فصانوها حين زانوها بالعمل النظيف والأسلوب النظيف.. فلقبائل على معرفة من هدفها في كل الأرض العربية.. ونبغت فئات تفاخر بالمدينة والقرية والمقاطعة.. فأكثرية من الذين فاتهم الفخر بالنسب يفوتون على أنفسهم الاحتفال بالسبب.. وحدة الشعب كله.. بوحدة الأمة كلها وكأنما الفاروق أبو حفص عبقرى هذه الأمة المحدث عمر بن الخطاب قد بعد نظره حين قال يخاطب عرباً انتسبوا إلى مدينة أو أقليم فقال «لا تكونوا كالنبيط.. إذا سئل أحدهم قال من قرية كذا أو مدينة كذا قولوا من قبيلة كذا.. وألزمت جرائد الفياء بقسمة الغنائم طوال القرنين الأولين أن لا ينسب عربي إلا إلى قبيلته فلقبائل مجدولة مرتبة في كل جريدة فيء..

وأعانتني هذه المعرفة بكلمة عمر على تحقيق نسبة أجريت طوراً فيها مع أستاذنا الدكتور العميد حسن باشا أحد أعلام الجامعيين في مصر والمتعاقدين أساتذة في جامعة الملك سعود.. ولعلني قد علمت أنه الآن يقيم أستاذاً في مكة المكرمة بجامعة أم القرى.. وكان هذا الحوار معه حين أرسل مقالاً لمجلة الدارة في سنواتها الأولى مصحوباً بنص مكتوب على شاخص فوق قبر «عبد الرحمن خير الحجري المتوفى سنة ٣١هـ فأنكرت

النسبة إلى الحجر وطلبت من المكتبة البحث هل هو من الصحابة الذين كانوا في جيش عمرو ابن العاص لأن القبر والشاخص وجدا في مصر «في الجيزة» فلم يعثر الباحثون على اسمه في الصحابة. . وذهبت إلى الأستاذ العميد أسأله كيف حدد النسبة إلى حجر اليمامة لأنه كأنه قد كتب «الحجري من حجر اليمامة» وقد قلت له حين استقبلني في منزله إن العرب في القرنين الأولين لم ينتسب واحد منهم إلى قرية أو مدينة أو إقليم فكيف نسبت صاحبنا هذا إلى حجر اليمامة. فأنت تعرف أنه لم ينسب أحد إلى حجر ثمود أو حجر اليمامة وإنما النسبة قد شدت بها قبائل اليمن فنسب صاحبنا هذا إلى حجر حمير فضحك وبانت عليه المسرة كأني طالب بليد قد نجح في الامتحان وأخرج كتاباً مؤلفاً للأستاذ الهواري المصدر الذي نقل عنه ما كتب فإذا هو أعني عبد الرحمن خير الحجري حميري من الذين أقطعهم عمرو بن العاص مساكنهم في الجيزة. . وقد سعدت بمسرة الأستاذ كما أسعدني أن تكون الثمرة في هذا التحقيق والحجر للذين فاتهم الافتخار بالنسب فأصبحوا يفاخرون بالقرية والمقاطعة. . أنكر ذلك لأن القبيلة وفيها الفخار حين تستحيل إلى إقليمية فإنها تضع ما تشحن به النفوس من كرب وفرقة .

جزائر ذئبة المهل

وسمعت بيان وزارة الخارجية تعلن عن تأسيس العلاقة السياسية لتعيين السفراء بين المملكة العربية السعودية وبين جزر المالديف وايسلاندا. ولعلّي أكتب عن تبدل الأسماء التي أضاعت المعلومات القديمة.. فكثير من الأقاليم الإفريقية تبدلت أسماؤها مع أن ثبات الأسماء يعطي التاريخ الاتصال الوثيق.. «فسيام» جزئت إلى أقطار سميت بأسماء «والملايو» تجزأت إلى أسماء.. وكنا نعرف «أندونيسيا» بأنها جاوه.. كما نعرف «تبايا» التي أصبحت جاكرتا لأن بيوتاً كبيرة في مكة تنسب إلى البتاوي.. وهكذا تبدل اسم جزائر «ذئبة المهل» إلى جزر مالديف.. كما تبدلت جزيرة سيلان العريقة في القدم كاسم زعمت الأسطورة أن نزول أبينا آدم كان عليها.. وعاصمتها «سرنديب» ألغاه من المعرفة الحديثة اسم «كولومبو» ولعلّ اسم «سرنديب» قد وجد في شعر قد نسب إلى الإمام الشافعي أو إلى الزمخشري كما اختلفت الروايتان.

امطري لؤلؤاً جبال سرنديب وفيضي آبار تكرر تبراً
فلئن عشت لست أعدم قوتاً ولئن مت لست أحرم قبراً
همتي همة الملوك ونفسي نفس حر ترى المذلة كفراً

وكيف تبدل اسم «ذئبة المهل» إلى مالديف؟

لقد عرفت ذلك وأنا في مدينة «لكناو» عام ١٣٥٢هـ وفي ندوة العلماء ضيفاً على الشيخ تقي الدين الهلالي حينذاك. نزلنا عنده لأن الشيخ محمود شويل خال زوجة الهلالي. فوجدت عنده جزءاً من دائرة المعارف الإنجليزية التي ترجمها الجامعيون.. فذكروا جزر المالديف وعلى الهامش تعليق لشيخ العروبة أحمد زكي باشا يقول فيه: إن أصلها «ذئبة المهمل» فاستعجمت هكذا «مهل ذيبة» وأغرقت في الاستعجام فأصبحت «مالديف».

عرفت ذلك وتذكرت نداء الباعة عن الحلاوة ديبة.. يقولون إنها ترد في هذا الجزء حين رجعت إلى المدينة وجدت بين يدي أستاذنا السيد أحمد صقر سؤالاً من مجلس الإدارة يستفتيه: هل توجد على الخريطة جزائر ذيبة (؟) فكانت إجابته أنه لا يوجد على الخريطة هذا الاسم.. وإنما يوجد مدينة «دياب» في فرنسا..

وكانت مشكلة لأن مجلس الإدارة يعرف بحكم التداول وبمنطوق التقارير أن جزائر المالديف هي ذيبة وهي مقررّة بفرمان سلطاني للسيد مكي بافقيه، جد ابننا الصديق حسين بافقيه.. وقد طلبها أن تمنح له أحد الأدباء لأنها غير مقررّة فمنحها لأن اسم مالديف لم يكن مقررّاً.. فتبرعت وبرجاء الصديق السيد إبراهيم العطاس خال حسين بافقيه أن أكتب الفتوى مستنداً إلى ما كتبه أحمد باشا زكي شيخ العروبة فكتب لصاحب التقرير الأصلي فقد أنار ما كتبه فقد وضع فوه للتداون.. كما هو تعبير الإدلاء.. أو التداول والمعلوم بالعرف والتعامل.. فجزائر مالديف أصلها العربي جزائر ذئبة المهمل.

حضري بدوي

- وكثيراً ما تكون المصادفة حافزاً حين تحدد فكرة أو تدعو إلى إبراز هذه الفكرة، فالمصادفة هي أني فتحت المذيع بحركة لا إرادية قتلاً للفراغ وطريراً لأحلام اليقظة، فقد كنت أنتظر الغداء. وما أشق الانتظار على معدة جائعة، وإذا الحديث أو البرنامج أوراق مسافر. وسمعت كلمة «الدوادمي» وأقسم إنني لا أكذب، فحين أسمع كلاماً عن أي قطعة من ترابي. . من وطني. . أفتح أذني أسمع الحديث عن «الدوادمي» لم أعرف اسم المتحدث، ولكن لهجته رسمته أمامي كانت اللهجة حضرية، أو قل هي مكية مدنية، ولكن الموضوع كان فيه عشق البداوة. . الغرام بالأرض.

تكلم عن «الدوادمي» عالم يعرف طبقات الأرض، يتغزل بالأحجار السوداء، وما كاد يتم الحديث عن «الدوادمي» حتى انتقل بسرعة لاهثة كأنما هو يتلهف مسرعاً إلى «القصيم» وإلى «بريدة» بالذات.

كان حديثه علم العاشق، وعشق العالم، عن النبات والتربة والأحجار. أفاض وأجاد حين أثنى على أهله العربيين السعوديين، قبليين وحضرين، كيف أكرموه، وإذا هو في «تبوك» غزلاً شاكراً لأميرها، وعاشقاً لتربتها، كأنما طبقات الأرض من علم «الجيولوجيا» قد أصبحت تتطابق مع عشقه أو هي طبقة جديدة من حجب الأرض.

وأنصت أسمع حريصاً على أن أعرف من هو حتى إذا انتهى البرنامج أعلنوا اسمه.. عالماً جيولوجياً في إحدى كليات الجامعة في المدينة المنورة، وإذا هو ابنها ومن عائلاتها المعروفة، اسمه منير صدقة خاشقجي.

وما أنكرت على هذا العالم الحضري أن يكون بدوياً فالمدينة المنورة وفي خارج السور بالذات بدوية، فهي عاصمة كل القبائل من اليوم الأول لها. كذلك كل القبائل قد أحاطت بها، حتى كانت الهجرة إليها يوم هاجر النبي سيدنا محمد ﷺ.

أفقه التاريخ من ذلك أن وجود القبائل حولها كانت من أسباب النصر. فليس هناك بلد جمعت حولها قبائل العرب أكثر من المدينة المنورة. فلا عجب أن يكون ابنها بدوياً.

وحين عيرونا بأن دار الأيتام لا تضم إلا بدوياً، قلنا وأمام عبد الله السليمان وطلعت حرب باشا أمام الشيخ عبد الله بن بليهد والأمير عبد العزيز بن إبراهيم أن دار الأيتام لتفخر بأنها تعلم البدو. فالبدوي هو الجندي. لا هو الفلاح.. هو ابنها من اليوم الذي رفع فيه إبراهيم القواعد من البيت.

تحية لمنير على ما بدا منه حين تبدى، حضرياً غير آبد.

إن لله جنوداً

- تحدثوا أن عسكري لعرب معاوية بن أبي سفيان قال: إن لله جنوداً من غسل. فالله سبحانه وتعالى هو القاهر فوق عباده. كل ما في الكون مجند يأتمر ويخضع لإرادته وينتقم انتقامه من كل ظالم.

من هذه الدهلزة مقدمة لحقيقة واقعة وكأنها أسطورة. والأسطورة كانت حقيقة فيما مضى زخرفتها الأيام تضيع معالم الحقيقة وتبتهج بالزخرفة معانيها الشعرية وتتأصل معانيها حينما يأتي واقع وكأنه قد انتزع نفسه من تلك الأسطورة..

فقبل أيام تحدث إلي شاب، أخذته هزة من الأيام ونزعة إلى الاستغفار، فقص عليّ هذه الحقيقة على أنها واقعة انطلقت بها السنة تحدثت بها سمعها هو فإذا به يكره الفسوق كأنما هي توبة منه إن لم يسبق له ذنب فإنها التوبة عن الوقوع في ذنب.

قال:

قالت أم لابنها خذني أصل إلى المكتب الذي فرضوا لي عوناً شملوا به أمثالي وركبت السيارة مع ابنها. يصل بها إلى هذا المكتب في المدينة القريبة من القرية. وتركها تنتظر الموظف وكان هناك رجل ترصدها فحين طال انتظارها اقترب منها قال: يا أم فلان فهو يعرفها من كرائم قريته - طال انتظارك تعالي أحملك إلى بيتك فابنك أيضاً قد تأخر..

فقلت في استحياء لا.. لا.. إني أنتظر ولدي..

فاحتال عليها يلاطفها ويقول إن ابنك طلب مني أن أحملك.

فصدقته وركبت معه حتى إذا وصلا إلى مكان خلي حجت الرمضاء
المارين أن يكثرُوا أوقف السيارة وراودها عن نفسها. فأبت وبكت ولكنه
وقد طغى عليه الفسوق اغتصبها..

ولما أن قضى إربه قالت: حسبي الله عليك.. هيا تصل بي إلى القرية.

قال وهل أفعل ذلك لتخبري عني فأنال الجزاء وأفتضح؟

وأخذ يقيدها. وقال: سأقتلك تموت الفضيحة بموتك؟

وساقته نقمة الله أن لا يخنقها، أن لا يذبحها بسكين. بل عمد إلى
حجر بعيد يريد أن يرضها يهشمها وأمسك بالحجر ليحمله فما كاد يرفعه
حتى خرج من تحته داب.. حنش فلدغ الفاسق لدغة صرخته ثم إن الداب
التف عليه يعصره عصراً وينهشه نهشاً. فإذا هو نافق كالحمار.

وبرزت نقمة الله على صورة أخرى. فلقد جاء إنسان يمر في الطريق
نفسه فنظر إلى الكومة المقيدة فاقترب منها يسألها. فأخبرته. وذهب ينظر
إلى الفاسق وهدهد عقله أن يذهب إلى المدينة يخبر رجال الأمن. فجاءوا
معه وأخذوا يصورون المرأة والفاسق الهالك، حتى إذا أتموا التصوير انقلب
الحنش ينساب، فقد أدى مهمته.

فقال أحد الجند.. نقتل الحنش.. فقال السيد القائد.. لا دعوه فهو

جندي من جنود الله.

أنا لا أجزم بأن هذه واقعة لم تنشر حقيقتها بعد، ولكن إن لله جنوداً

من حنش.

ابن القرية

- في لقاء متعت بالحديث والحوار مع أستاذنا الدكتور محمد بن سعد بن حسين الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض. فقد امتعنا بالكثير، ومن مزايا هذا الأستاذ أنه كريم نفس. طويل نفس، وأعني بذلك أنه يحترم من يتحدث إليه. وما ذلك إلا من احترامه لنفسه.

وكان اللقاء في منزل الابن عبد المقصود خوجه يوم احتفى مكرماً الشاعر المصري فاروق جويده. وبينما كنت أسمع للأستاذ ابن حسين أقبل أستاذ من أساتذة اللغة العربية بجامعة الملك عبد العزيز وتحدث إليه واثقاً وسمعته يخبره بأمر ما فإذا هو يقول «المدرء» فقلت له: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة.

فابتسم وقال «المديرون» ثم عقت أتحدث عن الذين حفظنا أنهم لا يلحنون. وقد كانوا أربعة من الرجال في الربع الأخير من القرن الأول أعني في مصر عبد الملك بن مروان وهم عبد الملك بن مروان وعامر بن شراحيل الشعبي والحجاج بن يوسف الثقفي وابن القرية فهؤلاء هم الذين كانوا لا يلحنون إذا ما تكلموا أما غيرهم من معاصريهم وهم كثر فقد كان يجري على ألسنتهم بعض اللحن.

وحين ذكرت ابن القرية التفت إلي الأستاذ الدكتور محمد بن سعد يسألني ما اسم ابن القرية؟

قلت لم أعد أذكر اسمه، أو أنني لم أحفظه فقد قصرت أن أعرف ذلك. ووجدتني أسرع أقرا ترجمة ابن القرية في الأعلام للزركلي حتى إذا وجدتني ألزمت نفسي أن أنشرها تعميماً للنفع.

وتقديرًا لظروف النشر فقد «تلفت» لمكتبي في الدارة أطلب نقل هذه الترجمة ترسل إلى الدكتور ابن حسين، فالإسراع استجابة محمودة عواقبها. وإليكم ترجمة ابن القرية كما هي في الأعلام.

ابن القرية (٠٠٠ - ٨٤هـ).

(٠٠٠ - ٧٠٣م).

أيوب بن زيد بن قيس بن زرارة الهلالي أحد بلغاء الدهر خطيب يضرب به المثل. يقال أبلغ من ابن القرية والقرية أمه.

كان أعرابياً أُمياً يتردد إلى عين التمرد (غربي الكوفة) فاتصل بالحجاج فأعجب بحسن منطقته فأوفده على عبد الملك بن مروان ولما خلع ابن الأشعث الطاعة ببستان بعثه الحجاج إليه رسولاً فالتحق به وشهد معه وقعة دير الجماجم (بظاهر الكوفة) وكان شجاعاً فلما انهزم ابن الأشعث سبق أيوب إلى الحجاج أسيراً، فقال له الحجاج: والله لأزيرنك جهنم. قال: فأرحني فإنني أجد حرها، فأمر به فضربت عنقه ولما رآه قتيلاً قال: لو تركناه حتى نسمع من كلامه:

وهكذا الحجاج أحب صون الأمن بالقضاء على الخوارج أكثر من حبه لمتعة البيان.

من هو المهلبى؟

- «وتلفن» إلي أحدهم يريد أن يعرف من هو الوزير المهلبى الذي كتبت عنه قبل أيام. فأخذت أراجع الأعلام للزركلى فهو موسوعة ميسرة قريبة التناول لأنى لا أريد أن أحمل من أستقرئه مشقة المراجعة في تاريخ بغداد للإمام حافظ المشرق الخطيب البغدادى المعاصر لحافظ المغرب ابن عبد البر.

وإليكم ترجمة الوزير المهلبى تليها ترجمة جده المهلب بن أبى صفرة تغمده الله برحمته، فذلك هو الذى حجز الطابور الخامس وراء قتيبة بن مسلم فاتح المشرق تغمده الله برحمته.

وتجدون أن المهلب بن أبى صفرة جد الوزير المهلبى من الأزد ولا أدري أهو من أزد السراة أم من أزد شنوءة أم من أزد عمان أحسب أنه من أزد السراة.

الوزير المهلبى (٩٠٣م/٩٦٣م):

الحسن بن محمد عبد الله بن هارون من ولد المهلب بن أبى صفرة الأزدي. أبو محمد: من كبار الوزراء الأدباء الشعراء اتصل بمعز الدولة بن بويه، فكان كاتباً في ديوانه، ثم استوزره. وكانت الخلافة للمطيع العباسي. فقربه المطيع، وخلع عليه، ثم لقبه بالوزارة فاجتمعت له وزارة الخليفة

ووزارة السلطان، ولقب بذي الوزارتين وكان من رجال العالم حزمًا ودهاء وكرمًا وشهامة وله شعر رقيق مع فصاحة بالفارسية وعلم برسوم الوزارة. ولد بالبصرة. وتوفي في طريق واسط وحمل إلى بغداد.

المهلب بن أبي صفرة:

هو المهلب بن أبي صفرة ظالم بن سراق الأزدي العتكي، أبو سعيد: أمير بطاش جواد، قال فيه عبد الله بن الزبير: هذا سيد أهل العراق. ولد في دبا، ونشأ بالبصرة، وقدم المدينة مع أبيه في أيام عمر. وولي إمارة البصرة لمصعب بن الزبير وفقئت عينه بسمرقند. وانتدب لقتال الأزارقة، وكانوا قد غلبوا على البلاد، وشرط له أن كل بلد يجلبهم عنه يكون له التصرف في خواجه تلك السنة. فأقام يحاربهم تسعة عشر عاماً لقي فيها منهم الأهوال. وأخيراً تم له الظفر بهم، فقتل كثيرين وشرذ بقيتهم في البلاد. ثم ولاه عبد الملك بن مروان ولاية خراسان، فقدمها سنة ٧٩هـ ومات فيها:

كان شعاره في الحرب «حم». لا ينصرون.. وهو أول من اتخذ الركب من الحديد، وكانت قبل ذلك تعمل من الخشب وأخباره كثيرة.

قراءات

رجل وامرأة

- وفي قصة قرأناها من زمن بعيد وقعت في نابولي المدينة الإيطالية قالوا: كان النبيل الشاب عازفاً أن يقترن بامرأة، فهو كثير الشك، ولا بد أن هذا الشك قد لاحقه من عقدة نمت في الطفل فلم ينج منها الرجل.

كان يكره النساء.. لا يلتفت إلى واحدة رآها.. ولكنه وقد زار مدرسة للبنات رأى واحدة استمرت عيناه ينظر إليها فإذا قلبه قد علق بها.. تغلب الحب على الشك وانتصر الحب فإذا هو يقترن بها، فكتابة الكلمة أو أحداث القصة لا يحدد فيها الزمن.. أحبها فتزوجها يوم أن رآها أو بعد سنوات وزفت إليه في قصره.. أعطاهما كل ما عنده وأعطته ما يريد وأنجبت بنتاً.. وفي تلك اللحظات السعيدة.. وفي أحد النوادي أو الأندية على الأصح انساق إلى صداقة فنان فأصبح الفنان عشيراً يزور البيت، يأنس به الزوج وتأنس به الزوجة فلم يرتب هذا النبيل في الصديق، وعلى حين فجأة انتشر الطاعون فاحتجز نفسه في القصر، ولكن عاملاً دعاه إلى الخروج فأصيب بطعنة كان الموتى من الطاعون هلكى يتساقطون في الشارع فكان أحدهم ولم يدر من أمره شيئاً إلا وهو داخل التابوت في الكنيسة، صحا، واستطاع أن يخرج من التابوت، لباسه الكفن.. فماذا يصنع؟! وسمع أصواتاً داخل الكنيسة بعيداً عن المذبح فأحدث حركة سكت بعدها الصوت

وسمع من هرب.. كانوا لصوصاً وجدوا الطاعون فرصة يسرقون بيوت الموتى.. ذهب إلى حيث كانوا فوجد صندوقاً من الذهب وجواهر وما إلى ذلك، فأخذ ما وجد وأخفاه في مكان آخر في الكنيسة وخرج يلتمس لباساً.. حين خرج من التابوت ما كان معه درهم ولا دينار، ولكن حين وجد الذهب أصبح قادراً على شراء ما يشاء من اللباس.. واشترى اللباس وذهب إلى قصره.. وارتكب الخطأ لم يطرق الباب الكبير وإنما دخل من الباب الخلفي كأنه يتلصص أو يتجسس، فقد اشتعلت في نفسه الريبة التي انعقدت في وجدانه وهو طفل ودخل يمشي فإذا الزوجة وصديقه تحت شجرة، فحين رآهما أسودت الدنيا في عينيه.. صرخ الانتقام في فؤاده، كانا في حالة يشبعان من المسرة لم تسأل عن الزوج الغائب وكأن نابولي ليس فيها طاعون.. خرج لا يلوي على شيء ولم يعد إلى البيت، وإنما تنكر بصورة نبيل جديد يدور حول الصديق.. يذهب به صديقه الخؤون إلى القصر.. فقد تزوج الزوجة.. نسيت حليلها وتزوجت نحليلها.. كان يدخل البيت.. الكلب يعرفه يلحس قدميه.. والبنت تعرفه ترتمي في أحضانه، ولكن الصديق والزوجة وهما في غمرة ما هما فيه عميا فلم يعرفاه.. تحاول البنت أن تنزع النظارة السوداء لكنه كان لا يمكنها. وفي لحظة تصنع الغضب فيها في الأندية.. أعطى للفنان الصديق الخؤون فرصة أن يهيئ.. يجره إلى تلك الإهانة.. يتحداه ويطلبه للمبارزة وقد تمت المبارزة وكان النبيل فارساً يعرف كيف يمسك السيف وسقط الفنان فانكب عليه النبيل الموتور.. يرفع النظارة عن عينيه.. يقول أنا هو. فشقق الفنان شهقة توارى بعدها في تابوت لعله كان التابوت نفسه الذي خرج منه النبيل. وذهب إلى القصر يعزي الزوجة بصورة النبيل الجديد، وبعد مدة أكثر من الزيارة.. خطبها فرضيت من الزواج منه.. وفي حفلة الزواج تزف إليه

بالكنيسة وهي في ثياب العرس وحول المذبح وقد ابتعد القسيس فنظر إليها
ورفع النظارة فلما رآته شهقت شهقة وتوارت في التابوت نفسه.. أي
تابوت.

كان الانتقام فظيماً.. وكانت الخيانة أفظع.

«مكيال من البراغيث»

- من إذاعة صوت العرب وبطريق المصادفة سمعت هذه الحكاية تنسب إلى شخص اسمه أبي الفرج.. ولعلها مأخوذة من تراثنا، ولم أكن قد قرأتها من قبل أو سمعتها.. والذي أثار في أن أعلق عليها الحيلة التي كانت أشبه ما تكون بتصرف المحامي في قصة «تاجر البندقية» أو اليهودي شيلوخ «لأحد المفاهر في الأدب الإنجليزي» شكسبير فالحكاية تقول إن رجلاً في قرية قد هبط إلى المدينة يحمل كميات من خشب الصندل اكثروها فجعلوها على جمال كثر.. فحين أناخ الجمالة الصفر عليها الخشب الأصفر ذي الرائحة العطرية فخشي العطارون من هبوط الأسعار.. إنها كميات كثيرة.. فصرخوا فإذا أحدهم يتولى أمر هذا الجالب للصندل قال دعوه لي فأخذ من تعهد للعطارين كمية خشب الصندل وأشعل فيها النار يستدفيء بها.. يدجل على تاجر الصندل أن لديهم الكثير حتى إنهم يصطلون به، فأخذ الخوف من هذا الجلاب ما دام أنه في بلد لا قيمة للصنادل فيها، فهو حطب، فساومه عطار المدينة حين أرعبه فاتفق معه على أن يشتري كل ما جلب والثلث مكيال يملأه بأي شيء، يعني من الأشياء التي تكال، أرزاً أو تمرّاً أو قمحاً.. وبينما الجلاب يتحسر جاءه أبو الفرج وحين عرف القصة قال هلمّ إلى القاضي.. وعرف القاضي القصة فإذا الشرط واقع الثمن.. ملء مكيال.. ولكن أبا الفرج قال إن المكيال الذي

نأخذه ثمناً للصندل هو مكيال يمالأ بالبراغيث.. النصف ذكور والنصف إناث.. وأصدر القاضي حكمه على المشتري فبطلت الصفقة ونجحت حيلة أبي الفرج.

إن هذه الحيلة هي كتصرف المحامي في قصة «شكسبير».. شرط اليهود شيلوخ على المدين إن لم يسدد ما اقترض فالحزاء أن يقطع رطلاً من لحمه من الساق مثلاً.. وعرض الأمر على القضاء فإذا المحامي يخرج على اليهودي بهذا الطلب: لك أن تقطع الرطل من اللحم ولكن دون أن تسيل قطرة دم.. شرطك اللحم ولم تحتط عن سيل الدم.. فهزم المرابي اليهودي كما هزم العطار الذي اشترى الصندل فأَي الحيلتين أسبق من الأخرى.. حيلة أبي الفرج.. أم حيلة «شكسبير» ما أشبه إحداهما بالأخرى!

بين «حانا» و «دانا»

- هناك مثل يقول بين حانا ودانا ضاعت الحانة ولقد كثرت الدانات والحانات كأنما الإنسان يستجلب الكرب من كثرة الولوغ في الطرب ويستجلب الطرب لعله يستريح من الكرب.

ولقد بلغت من الكبر عتياً.. فابتعدت عن الحانا ولم أقترّب من الدانا.. حانتي ودانتي أن أجتر الذكريات، كأني تلك «الناب» أعجزتها الشيخوخة فأبت إلا أن تبرك في عطنها.. فالعطن وطن «الناب» حنينها إليه وأينها من البعد عنه.. فحانيتها الحنين ودانيتها الأنين.. وهذه الناب التي هي أنا كثر رغاؤها حتى سئمها «الحوار» أعني ابن الناقة وحتى الذلول التياه تبتعد عن الناب.. تخاف أن تكون هي بعد.. وهكذا أصبحت بين قارئين.. شاب كأنه الحوار وآخر كأنه البعير الذلول وأخرى كأنها الناقة الذلول، فاخترت لنفسني أن لا أترك العطن، فالتخلي عن العطن معناه الخروج عن الوطن.

ولكن..

إذا لم تكن إلا الأسنة مركباً فما حيلة المضطر إلا ركوبها

إن الجريدة هي عطن ووطني.. أتعطن بضعة أيام أغيب عنها..

أستجم، أستريح من قارئ يرزأك بأنه لا يعجبه شيء منك ومن قارئ آخر يرزقك الحب.. يريدك أن تكتب وتكتب.. فالقارئ يجفوك مرغماً كأنه يعطيك انتصارك عليه، والقارئ يرضيك كأنما يعطيك انتصارك به.. كلاهما غير مكرب ولكن «الناب» تريد أن تستريح أياماً من الكتابة هذا السماح يمنحني الراحة بعض الوقت فإن استجابوا ما خابوا وإن خيبتوا كان ذلك يثبت تعلقهم بالكاتب الذي ما كتب إلا ليعيش بين الناس وليحيا في نفوس الناس.

مع تركي السديري

- حين وضعت العنوان قال من استقرئه وأملي عليه.. لقد أكثرت تكتب عن تركي السديري قلت:

- أنت إن قرأت لي ما كتبه تركي السديري في عدد جريدة الرياض. ليوم السبت ١٤ ذي القعدة تحت عنوان المواجهة الحضارية بين التشكيك والمواقع المتفجرة. أثرتني تستكتبني. فالموضوع لا الواضع هو ما أثارني أكتب عنه.

إن مقاله هذا كلمات محترقة. أراد أن يحرق بها الترفع عن الجدل مع الإشاعة ومع الإضافة فالإشاعة لن تؤثر إلا في الذين أضاعوا أنفسهم ونحن هنا قد أضعنا الضياع. وجدنا أنفسنا لا تكدرنا الإشاعات. ولا تعيرنا. وإنما المكدر وما أخشاه هو تشيع الذين يجحدون عطاءنا يفرحون بهذه الإشاعات.

فليرسل العربي من هؤلاء العريجة كل الإشاعات. إنها تعطينا قوة العضل فكراً ووجداناً لمقاومتها ولكن المأساة في مقاومة التشيع من قومنا العرب - يتلمظون لهذه الإشاعات يفرحون بها. ليشبعوا مهمة التحقير لا نزعة الكراهية يحسبون أن هذه الإشاعات من عطاء التحقير كأنهم صانعوه فشر أي شر هذا التحقير حبذا لو كانت الكراهية. فهي إثبات لوجود

الكارهين قوة تستطيع أن تمارس الكراهية. كما أن الكراهية تعطي القوة لمن يكرهون. أما التحقير فعجز في وجدان هؤلاء الذين يحتقرون. . وسخرية ينصرف بها هؤلاء الذين يحتفرون الاحتقار وأصحاب ذلك إننا ما زلنا نعطي الجاحدين ولو نسبوا العطاء لغيرنا.

يحسبون أنهم بغوغائية الاحتقار يحجبون نور الشمس. لا تجدهم الشاكرين. فكل ما تجده منهم أنهم الناكرون للعطاء من جحود الذين احتقروا أنفسهم بالجحود.

آفة الإشاعات أن يتشبع لها أخوك العربي ضدك.

فهل هنا إشاعة أشد مرارة من زاعم يتهمنا بأننا نمد العون لإيران؟ إنه يعتذر بهذا الاتهام من مد العون منه لإيران. يريد، ألا يكون وحده عربياً يحارب عربياً.

آفة الإشاعات في هذا التشيع لها. .

حوار مع قارئ

- وجاءني من أُملي عليه، ولم أكن قد أعددت نفسي للإملاء كأني لم أزور موضوعاً أكتبه، فإذا به قد أحس بما أنا فيه فأخذ يثيرني بالحوار. فالحوار مدرستي التي أتعلم منها، أمتع نفسي بما أستجيد. وإني أكثر إمتاعاً لها بكتاب يتعقبني إن مادحاً.. شكرته، وإن مازحاً استملحته، وإن كان شاتماً حمدته. وإن كان في المنزل بين المنزلتين وجدتني أحتمي به، كأنما هو حين كتب أجرى حواراً يستثيرني به لأكتب.

واستقرأت صاحبي ما كتبه الابن الصديق صداقة القارئ للكاتب والكاتب للقارئ واسمه فايز إبراهيم أبو لبن، من جنتي المفضلة «الطائف» أعني جنة الدنيا، تعقبني في مقاله المنشور بعدد «عكاظ» رقم (٦١٢٥) وتاريخ ١٤٠٣/٥/٢٣هـ. وأحسبه تجاوز فهم ما أردت يتيح لنفسه فرصة أن يكتب ليتخذني صديقاً له يثير به الحنين إلى ذكرى اللقب الذي يحمله «أبو لبن» فعندنا في المدينة المنورة هذا اللقب حمله رجل كبير كان شيخ الفرانة يتمتع بمنزلة محترمة. كان من طبقتنا، أعني الطبقة الاجتماعية لا طبقة السن.

ذلك حنين إلى القديم أثبت به أنه - وأعني هذا اللقب - يسير في اتجاه المقال الذي كتبت فجيلنا نحن القدامى - كما ذكرت - يتعلق بالقديم تراثاً

وميراثاً، فأطرب للأغاني القديمة من محمد عبد الوهاب وأم كلثوم ومن إليهما. أما الجديد منهما حين نيفت على الستين فلا أجدني طرباً كطربي بالقديم. لقد اتهمني أنني من أنصار التجديد، نعم.. لا أحاربه، بل أتمنى أن يكون ذلك عمل العقل. أما العاطفة فما زالت مع القديم.

سامحه الله، فكيف أتذكر لابن كثير والمسعودي والطبري وأنا المغرم بالجامعات الأربع جامعتي المسجدين المسجد الحرام ومسجد الرسول ﷺ، والجامعتين في المبردين.. مريد البصرة ومريد الكوفة، حتى إن تسمية المريد قد أخذت من اسم المكان الذي أسس فيه مسجد رسول الله ﷺ، فقد كان مريداً، تعميقاً للصلة.. صلة العطاء والأخذ.

فحنيني للقديم جعلني أقول إن هذه الجامعات الأربع قد بصمت بطبعها كل جامعة بعد.. قلت هذا من قبل، فما من جامعة في دنيا الإسلام إلا وطابع المسجدين وطابع المبردين هو صاحب التأثير فيها كلها.. ولعلك - أيها الفايز - كنت صغير السن فلم تقرأ لي بعد تعليقي على كلمة المستعرب الفرنسي «جاك بيرك» فقد ألقى علينا محاضرة يوم كنت الحفي به حين أهديته «صحيح الآثار» تأليف محمد بن بليهد يرحمه الله.. فقد قال إن الذين لا ماضي لهم لا حاضر لهم ولن يكون لهم مستقبل..

لقد جردتني من الماضي وأنا به حفي وشقي، شقوتي في أنني لا أجد الكثيرين يحتفلون به، كأنما حاضرم جيب يمتلىء وقلب فارغ، إن القلوب لا يملؤها إلا الاحتفال بماضيها لتسعى لبناء حاضرها، ولتسعد بمستقبلها.

أما المحدثون الآن فهم على الطريق، شعراء وناثرون، فينبغي أن نستجيد ما أجادوا وأن تكون أنت ناقوس نقد تبصرهم بما لم يكن جيداً منهم.. لقد أصبحت صديقي حين جعلتني «تكأة» تصل بها إلى غرض.

أخي حمد القاضي . .

- استقرأت رسالتك، وبكل التقدير أنشرها. وكان حسن ظني بك هو الذي جعلني أصدق أنك، «ابن بطوطة» فأنا لم أخترع ذلك وإنما بلغته من بعض الكتابين القارئین، فلا أعتذر لأنني لم أسيء ظناً، فأنا فخور بك شكور لك، ولعلي أستجيب فأكتب للمجلة العربية كما طلبت إذا أذنت لي «عكاظ».

أنشر رسالتك لأجد مكاني في نفسك حين أفتقدك في بعض الذين شاءوا لأنفسهم أن يكونوا وراء أستار في تلفيق بعض ما يغري شاباً يرزؤني فأغفر له لأنه لم يكن من جناتها أصلاً وإنما هي جناية من بعض من بذلت الجهد في استرضائهم لدفن إحن الشباب فلم أستطع، فأسأل الله أن يمتعهم بشيء من لين الجانب ليتروا قسوة التجني.

وإلى القارئ رسالتك:

أستاذي الجليل . . محمد حسين زيدان - حفظه الله .

صادق الوفاء لشخصك، وناصع التقدير لحرفك . . وبعد أطلعت على زاويتكم الجميلة في جريدة «عكاظ» رقم (٦٠٢٠) وتاريخ ١٤٠٣/٢/٨ هـ وهي وإن كنتم تطلقون عليها مسمى «تمر وجمر» إلا أنها في مضمونها «تمر» حلو مأكله . . وليس فيها من «الجمر» شيء .

أستاذي . .

في الوقت الذي أشكرك فيه على محبتك التي أعتر بها . . وأبادلك - إن شاء الله بالأكثر منها - وحيث إنك أشرت في «تمر وجمر» أثناء ردك على من كتبوا عنك . . ومن بينهم «ابن بطوطة» في جريدة «المسائية» أشرت إلى أن ابن بطوطة الذي يكتب رسائله للأدباء هو «حمد القاضي» .

فإنني أوضح لأستاذي أنه ليس لي علاقة - لا من قريب ولا من بعيد - «بابن بطوطة» ولست أنا هو وليس هو أنا. أقول هذا إحقاقاً للحق أولاً، وللأمانة ثانياً، ولأزيل ظنك الذي أشرت إليه ثالثاً.

ولا أدري - أستاذي - على أي أساس «ظننت» أن «ابن بطوطة» هو تلميذك «حمد القاضي» أرجو أن يكون «الحب الكبير» الذي ينبض به قلبك الكبير هو الذي دعاك لهذا الظن» .

لك محبتي التي تتجدد مع الزمن . . ولك صدق إعجابي الذي يزداد كلما قرأت لك يوماً بعد آخر . . وأدعوك - بالمناسبة - إلى تجميلك صفحات «المجلة العربية» بنفحة من عطائك . . وقد طلب مني ذات مرة معالي الشيخ الأديب حسن آل الشيخ الاتصال بك ودعوتك للمشاركة فيها .
فهل ننتظر؟ تحياتي . .

المخلص تلميذك

حمد القاضي

رأس الذنب

- من محفوظاتنا في القراءة ولم يكن ذلك الكتاب الذي نقرؤه هو القراءة الرشيدة أو ذلك الكتاب الذي جاء فيه أن عمر بن الخطاب كان على غير شيء من العظمة لا يعبأ به، فقد كان يحمل الحطب لأبيه حتى إنه جرد عمر بن الخطاب من العظمة التي كانت له حين كان إسلامه عزاً للإسلام فالعزة التي أعز الله بها الإسلام ما كانت إلا لأن عمر كان عزيزاً أما إن كان قد حمل الحطب لأبيه فذلك عمل عزيز أن يخدم الابن أباه ولا عيب في ذلك.

من محفوظاتنا التي كانت في كتاب «مجاني الأدب» أو «كليلة ودمنة» أو «الصادح والباغم» هذه الحكاية.

قالوا إن الأسد والذئب والثعلب قد عقدوا عهداً بينهم فإذا ما صادوا يقتسمون الصيد، فصادوا حماراً وظبياً وأرنباً، فقال الضرغام لأبي النجم «الذئب» . . أقسم بيننا يا أبا النجم فقال الذئب وفي نوازه سلطان العهد: الأمر واضح يا أبا الأشبال، فالحمار لك والظبي لي والأرنب للثعلب. وغضب الأسد فأطار رأس الذئب والتفت إلى الثعلب يقول له: أقسم بيننا يا أبا الحصين. فقال الثعلب: الأمر أوضح من كل الوضوح، فالحمار لغدائك والظبي لعشائك وتخلل بالأرنب فيما بين ذلك.

فانشرح صدر الأسد يضحك، يقول: «من علمك هذا الفقه يا أبا الحصين؟ فقال الثعلب: رأس الذئب الطائر من جثته.

والمغزى أنه لا عهد مع الأقوياء، أو كما قال هتلر: «المعاهدات قصاصة ورق».

شريرة وصغيرة

- وكما هو الخبر في «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني عن «علقة المري» من مرة غطفان لا من مرة يام فمرة غطفان قد انقضت كاسم، ولعلّ بعض من ينتسب إليها قد انتزع إلى الحلف في قبيلة أخرى. أو أن بعضها قد انطوى تحت اسم هلال سليم أما مرة يام فبقيت إلى هذه الأيام.

ف «علقة المري» قد أغنى بناته. لا يزوجهن إلا العلية من قبائل العرب وهكذا هو الشأن في شيوخ القبائل. يختارون للبنات الكفاء من الرجال حسباً ونسباً. وقد كان أحد هؤلاء له بنت يغليها ويعليها. وتسامع الأكفاء فإذا شاب لا يقل عن أبيها جاء يخطبها فما وجد أبوها ما يمنع الاستجابة له، غير أنه اعتذر بأنها لا تزال صغيرة السن.

وكانت الفتاة قد عرفت أخبار خاطبها من جداتها وخالاتها وعماتها. وعرفت اعتذار أبيها، وقد تريث الشاب في النجع ينتظر أن يسمع الجديد حينما تفعل الجدات والأمهات والعمات تحقيق ما يريد. لأنه لم يأت إلا وقد سبر الأرض التي يطؤها، فلجداته وأمهاة وعماته صنيع.

وسمعت الفتاة. وكان اسمها «مزنة» ما جرى من أبيها وتصميم خاطبها على البقاء فتحينت الفرصة وما أسرع ما أتت فقد قال لها أبوها.

«شبي علي النار».

فأعدت الحطب في الوجاق وجاءت بشرارة في الملقاط جمرة صغيرة
وضعتها على الحطب. فقال أبوها:

«إنها يا مزنة شريرة ما تشب النار».

فقالت مزنة لأبيها:

«يا أبت. . ما في النار شريرة ولا في البنات صغيرة».

فنادى الأب عبداً من عبيده يقول له:

«أركب الناقة الشقراء الذلول، والحق بضيفنا أمس حتى إذا وجدته
أخبره أن عروسك حاضرة».

ولم يكذ يبلغ العبد عطن الناقة حتى وافته عجوز من العمات قالت:

لا تركب فخاطب مزنة لا يزال في النجع ضيفاً على فلان.

بلغ الخبر هذا الخاطب فجاء مسرعاً.

فزفت البنت الصغيرة التي قدحت الزناد كجمرة شريرة فإن معظم النار
من مستصغر الشرر. .

مع القراء

مع الشباب

وحين كتبت ترحيبي بالشاب الكاتب فايز أبو لبن وقد طرح الحفاظ على القديم ولم يخف الأخذ من الجديد لم أكن أتوقع أن يكتب إلي رسالة خاصة.

وقد عزمت على نشرها مبتهجاً بها شاكراً لا فاخراً.

فالعجوز قد فرغ من دغدغة العواطف فليس لديه وقت للغضب والفخر كل وقته للقناعة والرضا. فمن نعمة الشيخوخة أن الإنسان إذا ما شاخ شاخت معه عواطف الشباب. فكل شبابه في الشيخوخة أن يذكر يومه الأخير في هذه الحياة. لكن فرحتي برسالته حققت لي ما أنا شديد الرغبة له وهو أن أرى المستقبل في الشباب. فما عرفتنني إلا آخذاً بيد الشباب، فأسقطت من نفسي ما يقوله العيابون للشباب. ولا حاجة لأن أفصح هؤلاء العيايين. .

أنشرها على هذا الأساس:

الوالد الأديب الأستاذ محمد حسين زيدان - الموقر السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تحية من الأعماق أبعثها لك من جنتك المفضلة «الطائف».

والدي: إن ردك وتعليقك على مقالتي المتواضعة في جريدة عكاظ أسعدني جداً وأثلج صدري. فكيف لا وهو من أديب كبير مثلك إنه في

الحقيقة تشريف لي أعتز به عبر السنين .

لقد أثبت لي مدى تفاعل الكاتب مع ما يكتبه له القارئ، ومدى حرص الكاتب الكبير على المتابعة الجيدة لما يكتب عنه، حتى من قارئ عادي جداً مثلي .

لقد كنت في ردك نعم الأب الواسع الصدر ونعم المعلم، لم تكن قاسياً علي بل كنت حنوناً صادقاً مخلصاً، وهذا ما أطربني وأسعدني .

إنني أعلم جيداً أنك لا تنتظر ثناء مني فأنت غني عن الثناء «علم على رأسه نار» ولكن إحساسي وشعوري دفعني لأن أكتب إليك .

دعني أقولها لك بصراحة . لقد كنت أعتقد أن الأدباء الكبار والعلماء الذين أعطاهم الله بسطة في العلم وخاصة في هذا الزمن وبالأخص هنا «عندنا» يسكنون في أبراج عالية لا يهتمهم ما يكتبه صغار القراء . ولا يتنازلون حتى للرد عليهم في أي ظرف من الظروف حتى بت أظن أن هناك سياجاً شائكاً يفصل ما بين القارئ والكاتب، ولكنك أثبت بكل جدارة خطأ ظني ودحضت هذه الفكرة وهذا الاعتقاد الخاطئ في تفكيري .

أخيراً أقول: لك مني الحب والاحترام والتقدير وجزيل الشكر والثناء لا لأنك رددت على مقالتي فقط، بل لأنني تعلمت أشياء من ردك هذا .

أرجو من الله العلي القدير أن يجمعني بك في أقرب فرصة لأتعلم منكم ما تعلمتموه عبر هذه السنين الطوال . فنحن في حاجة إليكم لترشدونا وتوجهونا وتعلمونا، وفقك الله وسدد خطاك وأطال الله في عمرك .

فايز إبراهيم أبو لبن

ابنك المخلص «صغير السن»

الطائف

توضيح لرأي

- واستقرأت السؤال الذي طرحه الصديق عبد الله إبراهيم رجب، فإذا به يحملني على أن أوضح الرأي الذي أعتنقه عن موضوع «ضرورة تدريس الصهيونية لطلابنا من الجنسين وأن تعتبر مادة أساسية في المناهج التعليمية»، تلك الدعوة التي نصح بها الأستاذ محمد محمود حافظ في جريدة «الندوة» بتاريخ ١٢ صفر ١٤٠٣. وقد نشر الأستاذ رجب مقالة أيضاً بجريدة «الندوة» بتاريخ ١٥ صفر ١٤٠٣هـ.

إن هذه الدعوة لا ينبغي أن تكون درساً لطالب لأنه يفقد الحصانة، بل إن التأكيد على زيفها وعلى بغضائها واحترافها التدمير هو المطلوب لأن الصهيونية اسم جديد لليهودية سلكوا بها أيديولوجية جمعت بين التلمود والبروتوكولات وما ورثوه إبان الأسر الفارسي فما انحرف اليهود إلا بعد هذا الأسر. فأبناء السبي كما فطن لذلك أمير المؤمنين في الحديث سيدي سفيان بن عيينه. فقد قال إن الذي خرب التوراة واليهودية هم أبناء السبي الفارسي. هي اليهودية في كل ما تريد. فقد أراد اليهود أن يستكثروا من المؤيدين لهم كأنهم الحبل من الناس. فاليهود القلة من البشر شكلوا من الصهيونية كثرة من البشر. وقد قلنا من قبل إن كل يهودي صهيوني وليس كل صهيوني يهودي العقيدة والجنس، وإنما هو قد تهوّد فكرياً وأيديولوجياً.

أنكر أن تدرس الصهيونية للطالب في المدرسة أو حتى في الجامعة، ولا أتذكر لمتقف قد تحصن بإيمانه وعروبه والثورة لأرضه ضد غاصبها أن يقرأ ما كتب عن الصهيونية. فليست الدعوة هذه يخف بها الباطل كلياً وإنما الباطل أن تكون درساً لطالب، هذا ما لم تفعله أي جامعة إسلامية أو عربية. ومن ناحية أخرى فإن تدريس هذه الأيديولوجية بقصد الحرب ضدها وفهمها كباطل ينبغي أن نرفضه بالحق الذي نعتنقه فإنه قد يمر بعض من تدرس له إلى اعتناقه أفكاراً منها كأنما نريد أن نزرع الصهيونية في أفئدة وعقول أبنائنا وأذكر ويشهد بذلك صاحب الفضيلة والمعالى الشيخ حسن بن عبد الله بن حسن آل الشيخ وزير التعليم العالى الآن أيام كان وزيراً للمعارف. فقد سمح للأستاذ الرئيس معروف الدواليبي أن يلقي محاضرة في جدة عن الشيوعية، وكان الأستاذ عبد الله القصبي وكاتب هذه الأسطر هما اللذان علقا على هذه المحاضرة. وكان تعليقي نوعاً من التجميل والمجاملة للأستاذ الرئيس. وخرجت أذهب إلى الشيخ حسن وزير المعارف - آنذاك - أقول له:

- أرجو ألا يتكرر الحديث عن الشيوعية. فإن بعض من يسمع محاضرة عنها قد يقتنع ولو بفكرة واحدة من الأفكار التي عرضها المحاضر منكرًا لها بينما بعض السامعين قد لا يتنكر لبعض ما سمع.

- وبعد أيام سمعت خطاباً لجمال عبد الناصر يرحمه الله أيام كانت الخصومة بيننا وبينه حادة يقول ما معناه:

- إن السعودية، يعني المملكة العربية السعودية. تبذل جهداً كبيراً في محاربة الشيوعية فليستمرروا في ذلك، فإنهم بصورة أو بأخرى يرسخون فكرها ونوازعها في كثير من السعوديين.

كما أنني قلت من قبل: من السهل اعتناق الإيجابيات ومن الصعب رفضها، اقتناعاً أو حياءً أو خوفاً. كما أنه من السهل وليس من الصعب اعتناق بعض السلبيات عن قناعة أو معاندة أو تطرف أو حتى التطرف. فكثير من الذين تلقى عليهم السلبيات أو يقرأونها يتعرضون لخطر الاعتناق أو بفعل الكراهية لأي إيجابي ضد هذه السلبيات تطرفاً أو تطرفاً كـ بعض الفساق يتباهون بما يفسقون.

أنا لا أنكر حسن النية في الأستاذ محمد محمود حافظ وإنما أنكر أشد النكران هذه الدعوة فإنها خطيرة، ولا أعرف الفائدة من هذه الدعوة بينما لدينا القرآن وقد بيّن لنا هؤلاء المغضوب عليهم الضالين أعداء الإسلام أولهم اليهود أشد الناس عداوة للذين آمنوا. فإذا أردنا أن يفهم أبنائنا من هم اليهود فليقرأوا القرآن، ولا حاجة لدراسة الزيف والباطل. والله الهادي إلى سواء السبيل.

من الرجعي . . ومن التقدمي؟

«وتلفنت» إليّ قارئة، فقالت: لقد تحدثنا حتى استغرقنا الحديث إلى حوار موضوعه: من الرجعي ومن التقدمي . .؟

وكان السبب الذي جرننا إلى ذلك ما قرأناه في تمر وجمرك عن شراء كتابين من التراث. وشراء ابنتك للألياذة وهي من التراث الأقدم لأنها قصة الملحمة الإغريقية.

فحين قرأنا ذلك قالت أخت لنا: انظروا إلى هذه المفارقة، فالأستاذ حين اشترى كتاباً من التراث الإسلامي خطر في بالي أنه رجعي يتعلق بالقديم بينما التي اشترت الإلياذة أصبحت تقدمية عصرية ولو كانت الملحمة التي اشترتها عميقة في القدم . .

وأخذنا ندير الحوار عن هذه المفارقة التي تجاوزت مع مشاعر هذه الفتاة، ترى الكتاب ولو تقادم عليه العهد عصريةً تقدمياً ما دام أنه يؤرخ حقبة من التاريخ ولو كانت الملحمة هذه قد لبست ثوباً أسطورياً. فالجدة والعصرية والتقدمية هي ليست في مضمون الكتاب، ولكنها في مشاعر مقتنيه يتحجب إلى كتاب مصدره الغريب عن أرضه وإنسانها، والقريب من إرضاء التعلق بالعصرية . .؟

قلت يتحجب إلى ذلك ليجد من يطربه بأنه المثقف العصري . . ولقد

كان عطاؤك لي بما خبرتني عطاء أدخل علي الجديد في أن نعرف الرجعية والتقدمية تعريفاً ليس هو التقنين لها.. وإنما هو التقنن في إلقاء التعاريف..

فالرجعية سبة عند الذين أغرثهم المذاهب الجديدة كالشيوعية مثلاً يطرحون التصريح باسم الشيوعية.. ويخففون التعبير باسم القطرية.. ويسمونها التقدمية.. ويتجافون عن الحفاظ على التراث والمبادئ.. والإنسان والأرض والقيم فيحترفون الجفاء لها فيسمونها الرجعية..؟

يخضعون لتدليل أنفسهم.. ويخضعون الثبات والحفاظ والمبادئ وما إليها.. ومن لها إلى السباب المذل.. على ألسنتهم سلاح محارب بينما هذه التقدمية هي الرجعية حين عادت بالإنسان إلى عهد الظفر والناب والغابة..

فقتل المبادئ وتخريب الثبات.. وتعرية الإنسان من الحوافز.. كل ذلك إذلال للإنسان ورجعية إلى سلطان الغوغاء تحت وسائل التجويع باسم الإشباع.. والتخريب باسم التعمير.

فعربدة الوحش في الغابة لا يكاد يفترق عنها من يدعي التقدمية بينما التقدمية هي في التطور واتساع المدى.. في تقبل الجديد والثبات على القديم.. وإعطاء الحوافز بلا إجحاف تحت ضغط سلطان العلية بالإسلام بهذا كله وكتاب التراث الذي اشتريته فيه الدعوة إلى تقدم الإنسان بلا رجعية إلى التفاضل تحت نظام التكافؤ.. ووجود الأفاضل بلا نقيض من الأراذل فالإسلام وإن لم يبلغ الأفضلية فإنه يرتفع بالأرذلية إلى الأفضلية.

وحين شذت فتاتك بما عرفت به رجعتي وتقدمية ابنتي فإنها لم تعبر

إلا عن فرحتها بنور الكهرباء تسهر ليلها وتنام نهارها لترفض نور القنديل . .
مع أن القنديل والمشكاة والشمعة أعطت للإنسانية تقدماً كبيراً راسخاً
بالهويّنا . . وإن أعطى نور الكهرباء تقدماً كثيراً مسرعاً ببعض العثرات من
التعجل . . فالكهرباء نور . . والقنديل ليس ظلاماً . .

حوار مع وزارة الإعلام

وحين أدير حواراً مع وزارة الإعلام فإني واحد من رعاياها. أو من أهلها.. فما زلت مجنداً لا أرفض لها طلباً ولا أتزيد عليها إن لم تجدني أهلاً لهذا الطلب.. فوزارة الإعلام رافد ثقافي لها تأثير في التوعية ولها قيمة في التوجيه. ولن تحرم نفسها من أن تكون محافظة على القيم، فعلى قدر الجهد وباقتحام المعوقات انتصبت قامة الإعلام حين استغنت فأغنت.

من هنا أدير حواراً معها كالتالي:

أولاً: لا بد أنها معي في أن تكون لهجة المذيع في الإذاعة أو التلفاز منضبطة لا تسير إلا على لهجتنا نحن العربيين السعوديين. فلا يتظرف مذيع أن ينطق اسم عربي غرب السويس بلهجة ذلك العربي، أو لا يذيع اسماً عربياً بلهجة ما هم شرق السويس.

حين تتوحد اللهجة تشرق على السنة المذيعين والمتلفزين.

ثانياً: حرصت على ألا أنطق كلمة «تلفزيون» أو «تلفزيون» فقد عرب إخواننا المغاربة هذه الكلمة حين اشتقوا من الجامد. فالاشتقاق من الجامد تعاملت به اللغة الفصحى التي ورثناها، فقد اشتقوا «ذهب» و«فضض» و«حجر» و«جصص» و«خشب» «يقولون» «سيف مذهب» و«خنجر مفضض» و«جدار مجصص».

فالمغاربة اشتقوها كذا، عربوا التلفزيون هكذا.. «تلفاز» ويمكن أن نقول كما تعودت.. تلفز يتلفز تلفزة ومتلفز ومتلفز.. فاللغة العربية تتسع بالاشتقاق، والعامة اشتقت.. تلفن وتكس وكسد قبل أن تقرر ذلك المجامع.

ثالثاً: إن إذاعة لندن أو إذاعة الفرنجة الأخرى إذا ما أخبرت عن زلزال قالت: وقع زلزال في كينيا، أو ضرب روسيا الوسطى زلزال، ولم يقولوا «هزة».. واسمع إذاعتنا وتلفازنا يترك كلمة الزلزال القرآنية الفصيحة إلى كلمة «هزة» مع أن الهزة ليست نقمة، فالهزة إنماء والزلزال إفناء.

فالقرآن الكريم علمنا أن الأرض تهتز وتربوا لتثبت.. «اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج».. فلماذا نرضي التعبير؟ فضرب كلمة قاسية.. وإذا جاءت بعدها «هزة» ارتخت الكلمة.. وليس ذلك من البيان.. فالبیان والفصاحة والاتباع تلزمنا أن نقول زلزالاً، كما هو التعبير القرآني ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالًا﴾ (الزلزلة: ١).

رابعاً: والمذيع الأخ ماجد الشبل مذيع ناجح.. أطرب حين أسمعه ينشد الشعر، ولكني لا أريده أن يخفف الكاف بلهجة العامة. فكلمة «بنك» أصبحت عريقة في العروبة، وقد امتدت عراققتها بالتعريب ورسخت بالحرفين الذلقين من حروف الشفة. فر من لب «فالباء والنون جذبتا كلمة» بنك إلى سهولة العربية. ثم إن «بنك» وإن كانت أعجمية فالقاعدة أنها ساكنة الوسط فلا تمنع من الصرف. أعني تنون بالرفع والنصب والخفض هذا واجب المجند لوزارة الإعلام يعتنق الصدق للصداقة.

إلى عميد كلية الصيدلة بالرياض

والكلمة أرسلها ليس فيها كل الحوار.. وليس منها تصدير المعلومات إلى مورد حافل بالعلم والمعرفة.. وإنما هي استجابة لما طلبه الأساتذة الدكاترة عميداً وأخوة زملاء له فيما تحدثوا عنه في برنامج إذاعي.. - كان الحوار المذاع عن الطب الشعبي والتطبيب بالأعشاب، فقد سمعت من أحد الدكاترة المتحدثين في هذا البرنامج يقول: إن كثيراً من الناس يذكرون لنا فوائد بعض الأعشاب ونطلب منهم أن يحضروا لنا هذه الأعشاب فلم نجدهم قد فعلوا؟ هكذا سمعت.. أو هو كما فهمت.. فجرني ذلك إلى المذاكرة أو التذكير.. فأطرح بياناً عن الصيدليتين اللتين كنا نتعامل معهما.. وهما صيدلية العطار.. وصيدلية السهول والوديان والصحراء.. والجبال.. وهما صيدليتان جمعتا في جمعية الطبيب البدوي أو الحضري اللذين كثيراً ما عالجا مريضهما بما عرفا بطريق التلقي والتجارب.

فمن الأسماء التي أذكرهم بها من نبات أرضنا الحبيبة.. والتي كانت عماداً في ممارسة التطبيب الشعبي.. أذكر الأسماء.. ولا أذكر كيف يتم العلاج بها والأسباب التي إذا ما عرفها الطبيب وصف العشب سواء مما يجلب من الصحراء والسهول أو مما يوجد عند العطار.. وإليك الأسماء التي أعرف فوائدها من خلال ما جربوه معي.. أو ما جربوه مع غيري ممن

أعرفهم.. أو من السماع عن هذه الفوائد من الذين عرفوها.

الشيخ.. الحرمل.. العشر.. الحنظل.. الحبق.. وأخص منه النعناع
المدني.. وقد حضر في بعض الصيدليات باسم النعناع الطبي..
السنمكي.. الورد المجفف، زهرة البنفسج، عرق البنفسج، دب الرواند..
البيلسان. اللبان الشحري.. الكرات.. الثوم.

ومن العطار: الكمون. النانخة والحبة السوداء زيتها للتدفئة والمروخ
والسهيل، واليانسون والفلفل الأسود.. والصبر، وصمغة الريح والحلتيت.

كل هذه يمكنكم أن تحضروها بأنفسكم سواء كانت نباتاً أو عطارة
فليس في إمكان من تحدث معكم أن يحضر كل هذا و بعض هذا..
ولكنكم تستطيعون بالوسائل المتاحة لديكم أن تجلب لكم.. فالعطارون
منتشرون في الرياض وجدة ومكة المكرمة والمدينة المنورة.. وأرضكم
ملئية بهذه الأعشاب.

ولو شئتم أن أتشرف بالحضور لديكم أشرح لكم بعض ما عرفت أو
كل ما أعرف عن التطيب بما ذكرت من الأعشاب أو العطارة.

ولا أنسى حين أرجوكم إذا ما أمطرت نجد وسمعتم أن نفود السر قد
هطل عليها الغيث وهي قريبة من الرياض أن تخرجوا في نسمة تشاهدون
كيف استحالت النفود وتلك الرمال التي كنا لا نمر عليها إلا فجراً أو ليلاً
خشية التغرير حتى إذا ربعت امتلأت بالأزاهير كأنها جنة ترونها تسرون
بها.. تأخذون من أزاهيرها وأعشابها ما يصلح للبحث..

ولعلي أذكركم بما يحفزكم كيف صنع - تشديد النون وكسرها - بذر
الخلة إلى الخلين فبعد أن كانت في صيدلية العطار أصبحت في صيدلية
الأطباء العصريين.

رسالة عن التطبيب

- وكثيراً ما أتجنب ما يشم منه النقد أو التجريح . وحبیب إلی الشاء والمدیح لأن التجريح مئبط ونحن فی مرحلة نخطو بها إلی التقدّم وإسقاط المعوقات أما الشاء والمدیح فأنا كلف بهما يتسع صدري ويتسع كلامي في هذا كله للتشجيع . ولتوضیح بعض القيم والإطراء للأعمال الصالحة وللرجال الذین فعلوا صالحاً .

إنی أبرأ من الذمة ولا أتبرأ من الشاء وقد ينالني من الذین ضاقت صدورهم بذلك بعض العتب إن عدلوا أو كل الغضب إذا لم يعتدلوا فحين كتبت عن الطب والتطبيب والمستشفيات والصیدليات لم أكن سمساراً لأي مستشفى . ولم أكن عمیلاً أترضی الصيدلية . إنما يشرفني أن أكون سمساراً لبلدي فالحق أن في بلدي أطباء ومستشفيات وصیدليات فرحت بهذا كله وأفخر لأنني ذقت المر من العدم .

فأنا من جيل الكي والسفوف والفلفل الأسود الطيب الأبكم أنا من جيل الصبر والحليت والكمون والنانخة والحرمل .

من هنا أجدني أنشر رسالة الأخ عبد الله محمد المسلم من جدة لأجيبه . . إن مائة ريال سعر الكشف هي تساوي عشرة ريالات قبل سنوات . بل إن العشرة ريالات الآن وأجرة السرير خمسمائة ريال نستكثرها

هنا بينما لا نستكثرها هناك. فهي هناك أكثر من ذلك.

إن وجود سرير في المستشفى بالتمريض الجيد والزيارة المتواصلة من الطبيب للمريض تساوي هذه القيمة. فليست الخمسمائة ريال أجرة سرير فقط ولكن هي للتمريض ولمراعاة الطبيب وكل ما يلزم. بل هي أكثر من ذلك لصحة المريض فبدل أن كان ينام في غرفة سيئة التهوية في كسر بيته بلا ممرض.. بلا رقابة بزيارة واحدة من طبيب كشف عليه وأعطاه رشوة كانت قيمتها من قبل توازي الخمسمائة ريال وكانت عشرين ريالاً أصبح ينام في غرفة كملت فيها وسائل التطبيب والتمريض ودقة الرقابة.

ثم إن هذه التسعيرة كانت عن دراسة قيمت بها وزارة الصحة التي تدفع للمستشفى. فلم يعد المستشفى هو المسؤول حتى نحاول التعرض لما دعا إليه الصديق.

إن هذه الإجابة أتحمل مسؤوليتها ولعلّها لا تغضب الصديق ومن حقه أن أنشر رسالته.

الأستاذ العزيز محمد حسين زيدان:

حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله

قرأت كلمتك الممتعة حول الطبيب هنا وهناك. وأعجبني ما قلت غير أنني وددت لو تعرضت في كلمتك تلك إلى مغالاة المستشفيات لدينا في أجور الكشف وفي أجور الغرف. فهل من المعقول أن تكون أجرة الكشف مائة ريال وأجرة الغرفة خمسمائة ريال واحدة إنني أرجو منك ومن كل كاتب يتصدى لمثل هذا الجشع. في دولة العدل والرخاء لا سيما أن هذه

المستشفيات الخاصة تنال الدعم الحكومي السخي أفلا يكون شكراً منها
للحكومة الرشيدة أن تخفف أسعارها تجاوباً مع طموحات الحكومة في أن
يعم الهدوء والرخاء والصحة والتعليم كل فرد في الشعب الوفي .

وفقك الله وسدد خطاك . .

مع خالص تحياتي وحب وإعجاب أحد قرائك والسلام عليكم ورحمة
الله .

تكاثرت الظباء على خراش

- إلى أصدقائي الثلاثة..

أذكر أسماءكم حسب الترتيب الزمني لما كتبتم.. ابن بطوطة وأظنك
حمد القاضي، والكاتب المترسل صاحب الرسالة الموجهة إلي في جزيرة
المساء أو مساء الجزيرة كما كتب عني فأنشدت..

تكاثرت الظباء على خراش

فما يدري خراش ما يصيد

فابن بطوطة ما كتب عني وما كتب إلي وإنما كتب عن نفسه وإلى
نفسه. وجعلني الموضوع يتنفس. يكتب آلامه ونقده وصفوته وجفوته، كأنه
ساعة أن كتب إلي كان يعيش أزمة خانقة اختنق بها القلم فسال رعاfe أنت
تريد أن أكون غير ما كنت مع أنه لا تبديل لخلق الله، فكثيراً ما أعجز عما
أريد لأكتب ما يراد، وأنت حين عجزت أن تكتب موضوعك كما تريد
أردت أن تكتبني كما أردت.

فحين ألقاك أشعر ببهجة الود وحين قرأتك أو استقرأتك في اليوم الأول
من شهر صفر سنة ١٤٠٣هـ لأنه قد غاب عني أستقرئه يوم كتبت.. حين
ذلك شعرت بومضة الحب، فهنيئاً لي بك. وأرجوك أن لا تشقي نفسك
بمن تقيد كاتباً ولا يستطيع أن ينطلق مكتوباً بابك أو مقروءاً لك. فالقيد

ليس قيد القلب وإنني سأفجعك لأقول إنه قيد الجيب، وأنت ليب بالإشارة تفهم.

أخي.. صاحب الرسالة في المسائية.

أتاني حين استقرأتك أنك أبيت اللعن. ترسل الثناء عليّ تبرقه بالإغراء فأنت أرفع شأنًا من أن ترسل الهجاء. كان ثناؤك يتوازى مع إغرائك أو هما قد تساويا.

فقد برقعت الإغراء ببرقع كالذي على وجوه العرب الأتراب يتنقبن ليتلقفن، تجدهن شرق المدينة أو في حرة خيبر، جعلتني أعيش مع الرقعة هذه حتى إذا أسفرت سافرت إليك بكلمتي هذه أشكرك ولا أكفرك، غير أنه عزيز علي ألا أكتب في «الجزيرة» أو في «المسائية». فالجزيرة وطني. والمساء سكني، ولكن صداقة القلب باقية، والكذب مع الحبيب يحرمني الرديف من زيادة دخل أتوسع به، فقد تقيدت أن أكتب في جريدة «الشرق الأوسط» بأجر معلوم. وأن أكتب في «عكاظ» بأجر كذلك، فهل أترك الأجر أم أضع قلمي في مزاد علني؟ فمن أغلى اعتلى. أتراني فضحت نفسي لأتستر أمامك أم هو كما قال الشاعر:

يقضي على المرء في أيام محنته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

الحسن أن أنتشر كما تبغي. وغير الحسن أن أنحصر في ما أبغي.

إن هذه البرقعة على وجوه العرب الأتراب تبرقعت بها رسالتك فالبراقع عليهن باطنها فيها الرحمة وظاهرها من قبله العذاب. فقد عذب كلامك وفيه الكثير من التعذيب.

أخي علوي الصافي..

قبل أن استقرىء مقالك في مجلة «الفيصل» بدقائق تذكرت أنك نسييتني حتى جهلت أنني كنت على سفر فلم تدر أنني قد وصلت، لقد تعودت منك أن تتلفن إلي فأتلفن مقالتي إليك، ولم تمض تلك الدقائق حتى جاء ابني المحرر في «عكاظ» عبد الكريم يعقوب فقرأ علي مقالك. فجعلتني موضوعاً تتبرقع به بينما كان الموضوع ينبىء عن صفوتك للصفوة من أصدقائك وجفوتك لهم لأنهم لم يصادقوا الحرف في الوقت الذي تريد أو كيفما تريد، كنت أنتظر أن تتلفن إلي ولكني أجلت الانتظار لأنني سأكون في الرياض إن شاء الله يوم الأحد السادس من شهر صفر.

عتبت فلم أغضب. أو أنك أغضبت فلم أعتب، ولكن غضبك لم يكن موجهاً إلي وإنما هي ثورة في نفسك على الكاتب تريده لك وإخوانك القراء ليس عبر مجلة «الفيصل» فحسب وإنما عبر أي قرطاس تسود فوقه الحروف.

فأنا أعرفك لست من أصحاب «الأنا»، فما أحلى الكاتب وما أجمله أن يكون من أصحاب الـ (نحن).

إن هؤلاء الأصدقاء وأنت منهم حين كتبوا أخذت أجتر كلامهم كالناب في مبركها تتخذ من العطن طرفاً فكلما حسنت بظلال شخص رغت تستغيث تظنه راكبها أو ناصرها.

إنني كالناب حين رغت تطلب أن يبعد عنها الناس مع أنها أو مع أنني ما كنت إلا للناس وبالناس، وسكن الأيام قُلْبُ والسنون تجعل من الضعف قوة لحب الحياة، ومن القوة ضعفاً يصيبها القرف من الأحياء.

شكراً لكم جميعاً، وأدام الله عليكم نعمة التفوق في كتابة الحرف وصناعة البيان.

على الهامش: ولعلّي لا أتجاوز على أحد من الكتّاب في جرائدنا اليومية والمجلات حين أدعوهم لأن يتركوا الحماسة جرياً وراء سبق الخبر ولعلّي أخص عكاظ الجريدة التي أكتب فيها بهذه الدعوة يسمع رئيس التحرير أو كاتب أو مخبر. . إلخ. . مسؤولاً تحدث عن قرار سيصدر عن الحكومة في شأن من شؤون الإصلاح، عن التعليم مثلاً أو عن البنات أو عن أي مشروع آخر أو عن نقل موظف أو تعيين موظف آخر فيسرع بنشر الخبر طلباً للسبق، بينما القرار في حيز الكتمان والموظف ما زال معروضاً تعيينه وما أشبه ذلك.

إن هذا النشر قد يكون سبباً في تأخير كل ما نشر، وهناك سوابق أعرفها تأخر إصدار القرار فيه لأنه لا يزال رهن التعديل أو الموافقة، فالسبق معطل والنشر كأنما يضع المسؤول عن إصدار القرار في موقف يحتم عليه أن يتأخر في عرض القرار أو التعيين.

إن صحافتنا ليست مثل غيرها فضفاضة يتسع صدرها لما تضيق به الظروف. لو أن كاتباً نشر خبراً عن تعيين عضو في لجنة كذا فإن هذه كذا. قد يفوتها الصواب أو قد تفوت على من رشحت الإصابة، ليكون عطلاً لا بإصابة الهدف.

إن التآني في نشر الأخبار التي ضربت لها المثل قد يعطينا فوائد كثيرة ولا يكون معطلاً لمصلحة كبيرة، والذين سبقوا بنشر الأخبار عما أشرت إليه يعرفون مدى التعطيل الذي تسببوا فيه، فدعوا الأمور تجري بالتوقيت المحدد لها، فسبق التوقيت يعني خطأ التوفيق.

صور:

«تلفن» إلي أحدهم يسألني: من أين أتيت بكلمة «مهرجوا لشوقي»، قلت: حفظت للإمام علي كرم الله وجهه هذا الاشتقاق، قال رضي الله عنه:

مهرجوننا كل يوم هكذا. من هنا أخذت هذا الاشتقاق. وأزيدك أن الاشتقاق من الجامد جائز فقد تعلمنا من القدامى علماء اللغة كلمة «ذهب» و«فضض» و«حجر» و«جدر» فهم يشتقون من الجامد.. وقد أجاز مجمع اللغة ذلك.

وقد قرأت للأمير شكيب أرسلان أمير البيان كلمة «تلفنت له» فوجدتني أستعملها، كما أنني حين كنت أذيع «كلمة ونص» اشتق من كلمة «برنامج» يبرمجه محمد حسين زيدان وقلدت أهل الحفاظ على اللغة وهم المغاربة فلا أقول التلفزيون وإنما أقول التلفاز وتلفزت لكم وهذا الحديث «المتلفز».

وجدانيات

الحب

وكثر السؤال تلو السؤال صحفياً وإذاعياً ومجالسياً، كل يسأل.. هل أحببت، وهل لا تزال تعيش الحب؟

أخذت هذا السؤال أجيب عنه متأكداً من نية السائل الحسنة، فلعلهم كانوا يعيشون الحب فأحبوا أن يجدوا عجزاً مثلي يقتدون به أو يسترشدون ولكنني انقلبت على هذا الظن الحسن، فالإكثار من السؤال لا يطلب منه التوضيح وإنما هو عملية تشهير.

ولست أخشى ذلك، لأنني لست من أصحاب الازدواجية كالذين يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله..

إنني إنسان، أحب كل الحب. وأتعاطف مع المحبين حتى أصبحت وكأني مستودع السر، بسطت لهم نفسي أفتح صدري مجال البوح لأجنبهم النوح. فليس الحب عندي سراً فأنا جهير الصوت به.

أعشق الجمال. وأشكر الجميل إذا ما صنعه إنسان يعرف معنى إسداء الجميل وشكره. فالشاكرون للجميل هم صناعه والباخلون بشكره باخلون بصنعه.. فالحياة حب.

أحب الصالحين ولست منهم وأرجو أن أنال بهم شفاعة

والأمومة حب، والأبوة حب، والإيمان حب، والوطنية حب، فليس الحب وفقاً على الأنثى أو على الذكر، فلولا الحب لما در ثدي على طفل حتى مطاوعة الحصان حين يعسف لم يكن ذلك إلا عن حب متبادل بين الحصان وفارسه. فلو لم يحبه الحصان لما خاض به معركة.

تذكرت الحصان وحبه، فذكرت سيف الله خالد بن الوليد، كيف أحب حصانه الأشقر، فقد قال له أحدهم وهو يخطط ليوم «اليرموك».

- ما أكثر الروم وأقل المسلمين.

فقال أبو سليمان:

- ما أكثر المسلمين وأقل الروم.. إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان. ولو وددت أن الأشقر بريء من توجيهه.

أحب الأشقر ليخوض المعركة فارساً على حصان.

الحب.. أستملح فيه وصف أستاذنا العقاد لأبي بكر الصديق ولعمر بن الخطاب.

قال العقاد:

«أبو بكر أحب محمداً النبي وعمر أحب النبي محمداً»..

هكذا الحب، ليس سراً، أخفيه وإنما هو جهر أتباهى به..

الحب والوفاء

وطرح علي سؤال.. هل هناك حب بلا وفاء؟ أو بمعنى أدق.. هل
ينجح الحب بدون وفاء؟ وقبل أن يطرح هذا السؤال ليكتبه قال:

ألا تخشى أو تغضب من قارئ يضعك في موضع النقد إذ يقول..
لقد أمسيت عجوزاً، شاب قرناك، وما زلت تكتب عن الحب. هل أنت
تخدع قارئك أم أنك صادق مع الحب؟

إن هذين السؤالين كل منهما أجاب عن الآخر بطريقة يستحلب بها
إثارتي لأعطيه الجواب لا كما يريد لأنني أجهل ما يريد، ولكن الإجابة
أطرحها بعد.

إن الوفاء بالحب لا أراه سؤالاً يتضح به الجواب. فالوفاء بالحب معناه
الأخذ مقابل العطاء. أو هو الأخذ دونما عطاء. وكان يحسن أن يقول
الوفاء للحب، فالوفاء بالحب مطلب مادي، أما الوفاء للحب فهو العطاء له
دون مقابل. ويعني ذلك أن الحب يفرض إرادته.

فالحب كله وفاء. سواء كان وصلاً وهجراً. فلا يقبل المحاسبة، وإنما
هو ينمو بالمعاقبة. لكن.. لعلّ السائل عبر بالوفاء عن العطاء مقابل ما أخذ
منه. توارى وراء الوفاء عبر به عن الوصال. ولكونه في غمرة العشق لا

يقبل إلا الوصال. فإذا كان الوصال هو الوفاء فلا يكون الحب إلا وقد تسربل بالهجران.

فالهجر وصال للحب وإن لم يكن وصلاً للحبيب.

أما السؤال الثاني فإني والله الحمد أعيش الحب للحب. فقد قلت في ضحى اليوم لصديقين عرفت أنهما في متعة فقلت لهما: «تأكدا أنني أمتع بمتعة الآخرين. سأقوم من عندكما أجتر الفرحة بما متعتما».

ذلك الصدق مع الحب وتلك الصداقة معه.

وأنا أعرف هذا المثل الفارسي «شيئان أبرد من يخ.. شيخ تصابى وصبي تمشيخ» فاليوخ يعني الثلج، ولست كذلك.

كما أنني لا أبلغ مبلغ الفراشة، ولا يصرعني الحب صرعة البلبل، فالشاعر الفارسي «الفردوسي» يقول حين خاطب البلبل عاشق الورد، قال:

«أيها المرغي في السحر.. أنت عاشق مسكين، لا تتحمل صرعة الغرام. فالفراشة هي التي تموت غراماً حين تحوم حول حبيبها، النور في المصباح، النار في الموقد. تحوم الفراشة حول النور والنار لتحترق في جوف ما تحب. أما أنت أيها البلبل «المرغي» فلا تتحمل عضة الوصال، تحوم حول الورد في ضوء الصباح فإذا تنشقت أريجها أصابك الدوار.. يغمى عليك.

إن الورد لم تقتلك ولكنك لا تطيق الوصال. أما الفراشة فيحرقها الوصال.

إنها لرمز العشق في تعريف «الفردوسي». أما البلبل فعاشق يخاف الوصال.

- إني لعجوز لا أمنح الكراهية لأحد، لأن الكراهية عطاء تشغل بها وجدانك، ولا مكان عندي إلا للحب.. حب الحب.. فليسترح ذلك الناقد، فمتعتي أن قرأ لي، وأنا أكتب أناغيه، لا بالغضب منه وإنما بالحب له.

عن الغزل

- ودعونا نعتزل الجد لئلا ننزل عن الغزل.

فكاتب هذه السطور ابن المدينة المنورة والمدينة تربة غزلة فأتحدى كل ناسها أن يقول واحد منهم أنه ما أحب، فالحب إذا امتلأ به قلب ترق به العواطف ولا تسترق عقول العاطفيين.

كنت جالساً في مكتبة السيد «عثمان حافظ» بباب الرحمة، وبجانبني أستاذنا شيخنا «محمد عبد القادر الكيلاني التونسي المصري» تلميذ «جمال الدين الأفغاني». والتركي اليوناني والمدني، فحر إنسان تياه قد شبع من جلال الجمال وجمال الجلال فقال الشيخ:

ربّ إن الملاح جاروا علينا وتعدوا حدودهم فأجرنا

فذكرني بما نسيت، ولم أذكر في حينها إلا أبياتاً للمنخل الشكري.

قال هذا الجاهلي كأنه ابن هذا العصر..

ولقد دخلت على الفتاة	الخدر في اليوم المطير
الكاعب الحسناء ترفل	في الدمقس وفي الحرير
فدفعتها فتدافعت	مشي القطاة إلى الغدير
ولثمتها فتنفست	كتنفس الظبي الغرير
وأحبها وتحبني	ويحب ناقتها بعيري

فأنشدتها للشيخ فقال :

- أتلومني إن قلت ذلك البيت ، أم تذكرني بأيام خلت؟

قلت له :

- أنت تونسي ، وتونس ورثت حضارة الأندلس ، فأثر «زرياب» و«ابن

زيدون وولادة» كلها نبض أعراقك وربيع قلبك . .

فقال :

- اغتربنا عن تونس ، وما زالت هي المؤنسة ، فهي تونس كل حبيب .

قلت :

- فهل أنشدك أبياتاً أخرى؟ .

قال :

- فرج كربى أو زدنى كرباً .

فأنشدت من مختارات الحماسة لأبي تمام :

وفي الركب محني الضلوع على جوى متى يدعه داعي الغرام يلبه

تذكر والذكرى تشوق وذو الهوى يتوق ومن يعلق به الحب يصبه

غرام على يأس الهوى ورجائه وشوق على بعد المزار وقربه

ذات عصر غائم

- وجلس يتكلم صامتاً كأنما هو يضحك كيف كان على هذه الصورة بينما هو قد شبع من الاستكناه لهذه الصورة لا بدافع الفرحة وإنما بواقع الترحة أن يرى الجمال يكسوه الجلال فلا يذاق ولا ينال وكان معه صاحبه واسمه عبد الله الماجد فإذا العراك بين اثنين أحدهما قد تولى شبابه والآخر قد أينع شبابه كان الصراع في وجدان أحدهما غيره في وجدان الآخر لكن السبب واحد فإذا عناق الحسرة بالحسرة هو الوفاق بين حزينين استحالا أعني الحزينين إلى فرحتين فالصدمة لم تكن وافدة تحتاج إلى علاج وإنما كانت ومضة من لمحة رأى كل منهما ما أدهش حيث أوحش وما أنس من حيث لم يأنس.

كان ذلك ذات يوم في عصر غائم وفي الرياض وفي شارع عسير ولم يكن الغيم سحابة صيف ولا جهاماً يتجهم الجوبة وإنما كان مزنة ابيضت حين ودق ودقها فماذا رأياً.. لقد أقبلت فتيات ثلاث يستدبرن الشآم كأنهن أخوات الثريا تستهل شامية وكأن العجوز وصاحبه قد تيامنا فإذا هما في لقاء كمخطفة البرق وكن عرباً أتراباً كاسيات عاريات فالأنثى جميلة.. جميلة حين لا تكون عارية.. ومشتهاة.. مشتهاة حين تكون كوصف الرافعي إذ قال يصف العاريات على البحر.

(يا لحوم البحر سلخك من ثيابك جزار) كن كاسيات في خمرهن
السود.

قل للمليحة في الخمار الأسود ماذا صنعت بناسك متعبد
قد كان شمرّ للصلاة رداءه حتى وقفت له بباب المسجد

وكان على وجه كل واحدة البرقع قد استأنف الأنف إلا أن يكون ذا
شم لم يظهر وإنما تظاهر ولكن العينين كانتا فاضحتين لأنهما واضحتان..
العين حوراء لها إشعاع يخترق الشغاف كأنهن التي وصفها جرير.

إن العيون التي في طرفها حور قتلنا ثم لم يحيين قتلنا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا

قالها العجوز ولم يسمع من صاحبه كلمة فاستأنف يلتفت عنهن ليقراً
(ما شاء الله تبارك الله أحسن الخالقين).. ومشى الصديقان فتساقطت الرهبة
التي صنعها الجمال والجلال والستر والأنف والعينان فإذا العجوز ينشد
يحرك الشجن فالمتنبي قال:

(راميات بأسهم ريشها الهد ب تشق القلوب قبل الجلود)

.. فاستراح الصديق وهكذا المتنبي يمنح الراحة للمتعبين.. ثم انجلى
الموقف وخضنا في حديث غيره.

ربّ إن الملاح جاروا علينا وتعدوا حدودهم فأجرنا

ما زلت مشغولاً بها

- وما زلت معها، فكلما غابت عن تذكري لم تغب عن ذاكرتي، فقد حضنتها الذاكرة ويحلو لوجداني أن يتنفس، يخاطب نفسه عنها، كأني قد انشطرت اثنين، أتحدث أنا الأول مع أنا الثاني.. عنها، كأني أخاف نسيانها.. فعملية التجريد واردة، وعملية التجربة كانت وردي الذي نهلت منه.

من هي؟

هي التي أعرفها ولا أعرفها، ولعلي حين رأيته كانت هي التي تعرفني. ولكن أين رأيته وكيف رأيته؟

فلقد كنت نائماً هادئ البال، لا أشعر بأي شيء يحملني هماً أو يسقط عني غمماً. رأيته واقفاً في صحن قاعة كأنها إحدى قاعات المدينة المنورة. وكان الوقت ليس فيه فضيحة النهار ولا وضوح الليل للذين تأخذهم السكينة لا يتضح بها الظلام وإنما يتضح بها شعور الإنسان إذا ما لبس الليل نعمة يهدأ بها.

وأضاءت المكان حين فتحت الباب. كأن الصبح قد تنفس.

استضيء بضوءين.. نورها الذي أشرق، ونور الوجدان الذي شع كأن نورها أضاء الوجدان.

فتحت الباب وأطلت منه، بهرني وجهها وقهرني صمتها. فالجمال كانت هي كله حين بهرت. والجلال كانت هي كله حين قهرت. ما كنت رأيته من قبل، وما رأيته بعد، ولم أر من يماثلها. إذا ما تذكرتها بحث لأرى من شاكلها، كأنها هي التي وصفها عروة بن أذينة:

بيضاء باكرها النعيم فصاغها بلباقة فأدقها وأجلها

ومضة نور لم تقف إلا ثوان، أما أنا فقد وقفت دقائق أنظر إلى الباب الذي امتلأ نوراً، ثم ذهب النور لا أراه على الباب وإنما استقر في وجداني.

من هي؟

أهي واحدة عطفت على الطفل اليتيم، ماتت أمه ولم يعرفها؟ أم كانت هي أُمِّي أبرزها العقل الباطن يصورها في الصورة الجميلة التي قالوا لي إن أمك كانت جميلة. كانت من نبات وادي الرمة، بدوية تحضرت، وحضرية هي التي فتحت الباب، ماذا يقول عالم النفس؟ هل يقول إنها أمك، أشرقت بنور وجهها لترأها؟ وكان صمتها برهان الموت، تجسد في حياتها تحيا لحظة أراها. لو كنت أنساها لقلت إنها أنثى عابرة، ولكن بقاءها في الذاكرة والتذكير برهان على أنها.. الأم.. أرادت أن ترى ابنها وأن تريه نفسها ليحبها أكثر.. حب الأمومة وحب الحبيبة. فما زلت مشغولاً بها، ففي الشباب كنت لا أتذكرها كثيراً. وفي الشيخوخة كانت هي شباب الحياة وحياة الشباب.

إنها أُمِّي. فلا يمكن أن تبقى في الذاكرة حبيبة إلا الأم.

إليها . .

- هناك مثل يقول، وهو من أمثال العامة، «حين يفلس التاجر يفتش في دفاتره القديمة» .

ودفترتي القديم ليس ورقاً وإنما هو ذاكرة فقد تذكرت أنني كتبت رسالة إليها قبل ثلاثين عاماً، ولكنني لم أحفظ، فرجعت إلى «دشت» من الأوراق قد أصفرت، فحتى الورق لا يقوى على قهر الزمن .

وقرأت الرسالة . . هكذا:

أيتها الغالية الفاعية . .

قد منحت موهبة أن تفرضي حبك على من تريدين لترفضي حب من يريد ولا تبغين .

كان صوتك الأَجَش لا يجذب عاشقاً، بينما جمالك الأرق كان يزداد بصرامة الصوت لهذا كان صوتك الأَجَش هو الذي فرضت به حبك علي لماذا؟

لأنني - وبكل مشاعري - أحسست أنك تملكين الامتناع ولا تتصنعين التمتع .

وأنا أمرؤ عاشق لا أتهافت على من يعشقها الكثيرون .

كان صوتك الأجش يدعوني أن أقول أنت لي ، وأحسبه منك دعوة
قلت إنك لي .

غريب أن يكون المبعد فيك هو المقرب لك .

إن جمالك بلون الفاغية والياسمين تملكين به أن تفرضي سلطانك ،
ولكن العذرية التي أعيشها صرفتني عن الولع بالجمال وأعطتني العشق
للصوت الأجش . طاعة أخضع لها كأنها أمر سلطان لجندي فرضت عليه
الجندية أن يكون عذرياً .

أنسيت القبلة التي لم أطبعها على وجنة ولم أرتشف بها رشفة من
شفيتين . وإنما كانت رجفة ارتجفت بها حين طبعتها - أعني القبلة - على
ظاهر اليد وباطن الكف . فذلك تحية الطاعة لا جشع الغرام .

حين قلت . . أنا في فندق كذا . . لم تصدقي ، عرفت أن «الغيران» كان
وراءك فاحتشمت واحترمت ، بينما تعذبت أنا لا أجذك في الفندق وإنما
وجدتك في أحلام اليقظة أعيشها الآن .

فشكراً للكذبة لم تنل من الصدق . .

وسلام أرسله لتلك اللحظة التي سمعت فيها صوتك الأجش نغماً لا
يطرب ، ولكنه التنغيم بصناعة الأنثى ، إن لم يحدث الطرب فقد صنع
العجيب من الحب .

هي والزهور

- والشاب الغزل دخل إلى حديقة ففاح عبير الورد وشذى الياسمين وأريج الفل .

لم يختلط عليه العبير، فأنشد:

حمراء أو صفراء إن كريمها كالغيد كل مليحة بمذاق

أقبل على الورد يشمه، وعلى الياسمين يضمه، وعلى الفل يجمعه،
ينظم قلادة منه وسأل نفسه.. .

هل الورد والياسمين والفل يعرف كل منها ما يفوح منه من عبير وأريج، أم أن كلاً منها سخر للعطاء وحرَم المعرفة لئلا يبخل بالعطاء؟

فقد تخيل أن الورد ومن إليه لو يعرف كنه ما يعطي وقيمة ما يؤخذ منه لبخل بالكثير. ولكن عطاءها دون عمد أو من قد أخذ به عطاء الإنسان له يزرعه، ينميه، يقتنيه، يقطر منه العطور. فعطاء هذه الزهور تأخذ به عطاء الإنسان لها. دون شعور بالمقايضة ودون التلاحي بالمساومة، كأنما هذه الزهور تزف لها الفرحة كلما قطفت، وتزداد فرحة كلما صنعت واستراح الفتى قليلاً يقول لنفسه. ما هذا التخريف؟

وسمع صوتاً فإذا هي هي، تقول له.. أي تخريف أردت؟

أحين نظرت إلي فاجأتك بالحضور تشعر برعشة الوصل تحسب أنك
في أحلام اليقظة؟

إنني أرفض التخريف، فأنا اليقظة أمامك مجسدة.

قال.. دعك من التخريف فما قصدت المفاجأة، بل إنها أيقظتني من
أن أتغزل بالزهور.

وأخذ يحكي لها ما قاله عن الورد، فقالت: لم يكن ذلك تخريفاً،
وإنما كان هو التعريف، أوضحت به مشاعري نحو الجمال. لو كان في غير
الورد غزلك لاعتزلتك الآن.

ولكن الورد هوانا فيه، وهو لا تجده إلا في فكله بعضي.. وأنا إن
كنت بعضه فيعني ذلك أني العبير قال.. لقد ثملت بسكرين سكر ما عزفته
الزهور، والسكر الآخر ما تناغيت به، فالمناغة للزهر هي فاتحة القصيد
تناغيني أنت بها.

وسارا معاً إلى عش الحليل والحليلة، فلم يكونا الخليل والخليلة.

كتمان الحب

- والفتى حين أحب لا يعرف من الحب قوة الكتمان لها، فما أسرع ما يظهر عليه. لأنه لا يطيق أن يعيش ولو لحظة دون أن يعلن حبه. سواء بطريقة البوح إلى المرأة تجسد الحبيبة أمامه، يكلمها كأنها معه، كأنها ماثلة جسداً وروحاً، أو أنه يبوح إلى صديق يخبره أنه يحب ولكنه يكتُم اسم الحبيبة..

فالإعلان بأي صورة تنفس..

من هنا يطفو الحب على السطح. يتأثر بذلك العمق، أما الحبيبة فإنها الكتوم فكلما اشتعل غرامها ترسخ عمق الحب في وجدانها لا ترخصه بالبوح، ولعلّها إن باحت بحبها غير المسمى لا تبوح له إلا في أحلام اليقظة ترى الحبيب مجسداً أمامها، تعرفه بكل ما فيه قبل أن يعرفها، تزن كل سلوكه لا بميزان هواها وإنما بميزان ما ترسمه في خيالها كمثل أعلى.

هي تعتنق الطهر لهذا تريده أن يكون هو الطهر. وما أشقاها حين تأخذها الظنون بأنه على غير ما يهوى عقلها. وإن كانت الشكوى هذه لا تمس ما يهواه فؤادها.. فهي غفارة أما هو فما أقل ما يغفر. لأن أنانية الذكر تفرض سلطانها على سلطان الحب. أما غريزة الأمومة فتفرض كثيراً سلطان الغيرة لا يطغى على الحب.

كانت هذه الحبيبة تستعجل أمل الارتباط تريد أن تحبسه في خاتم الخطوبة. بينما هي حبست نفسها قبل أن تتختم وحين أسعدها الارتباط أملاً تحقق. الذي كان بسرعة الأمل، لكنها اليوم بدأت تجري وراء سرعة الالتصاق.

لأنها تخاف الارتباط أن يطول، وتريد الالتصاق ليطول بقاءها فيه، وبقاؤه لها وبها وفيها.

الحب عند الفتاة عميق ونظيف، وكثيراً ما يكون الحب عند الفتى سطحياً، تعبت به رياح الغيرة وقسوة البعد ورقة المشاعر.

أما الفتى بالأبوة عنده رغبة. وأما الفتاة فالأمومة عندها غريزة. كأنما حب الذكر رغبة لتحقيق الرغبة أما حب الأنثى فأمومة تسير بها بقصر الحب العميق الذي لا تمسه كلمة من فضولي أو من ذات يلبسها الفضول. قلت له:

- أسرع إليها.. فهي قد أصبحت إن لم تسرع بقدمها تزف عروساً فإنها بدأت تسرع بفؤادها، فهي في عرس تسعد به في لياليها..
أشعل الحب فيها بالسؤال عنها والابتسامة ولو على فم السماعة..
الابتسامة رسول ناجح ينجح به الصبر في انتظار ليلة الزفاف.

الحب الفاشل الخالد

- ونشأ طفلاً يلعب معها، ونشأت عروساً لا تنسى أنها لعبت معه،
تبني بيتاً بالطين والحجر، كأنه صبي المعلم البناء يناولها الطين والحجر.
هي لا تعجن الطين ولا تجمع الحجر وإنما هو يشاركها، يصنع كل ذلك،
أما هي فتبني البيت الصغير، لو تعلمت لكانت مهندساً معمارياً. وحين تعلم
هو كان مهندساً بيانياً.

وحين يتعايش الطفل مع الطفلة على أساس نوع من القرابة أو الجيرة
ينمو بينهما حب يعيش طويلاً، لأنه سار على نهج الطبيعة التي نظم الله بها
الحياة والأحياء، فكل نبات ينمو ببطء تطول حياته، كأنما نمو الحب بينهما
بذرة شجرة أو نواة ثمرة احتضنتها الأرض فإذا هي تنمو شامخة تعيش
طويلاً إذا ما تركها الإنسان لحياتها لا يعبت بها إذا ما احتطبها.

وأصبح الطفل فتى وأصبحت الطفلة عروساً تزف إلى عريسها. وكانت
ليلة زفافها قد انسرفت نفسه من نفسه. كان ليلتها جماداً لا يتحرك، كل ما
في وجدانه قد هرب، أو أنه اغترب. يسافر في نومة فقد غشيه النعاس
حتى إن زفة العروس لم توقظه. أهي غيبوبة الغم أم غياب المشاعر حين
يتأزم الظرف بها؟

وغابت عنه طويلاً لا يراها، نسيها وما نسيها، يتناساها ليذكرها، لكنه

تعود أن يذهب إلى بيتها صباح العيد، يطرق الباب بحنان، تفتح الباب قليلاً، تمد أصابعها يصفحها، كأنها لا تريد إذا ما احترقت الأصابع أن يحترق وجدانها. ومضت سنون لا يراها إلا في يوم عيد خلف الباب.

وترملت.. مات زوجها، وفي حضانتها طفلان منه.

وزارها يعزيها فتقبلت العزاء، تارة ترخي وجهها وتارة تلتفت إلى بعيد، يتحجر الدمع في عينيها. فيسأل نفسه. أمن أجله تبكي أم من أجل ترملةا، أم ثقل المسؤولية عن الطفلين؟

وبعد انقضاء العدة زارها، فإذا هي تنتصب، كل عضلة من عضلاتها تريك أنها صلبة، وترى في عينيها الصبر والسلوان والشعور بالمسؤولية.

وأعدت فئجان شاي. فقالت وهو يشرب من رؤية حلاوتها ومن حلاوة شايها. هذه آخر زورة لك. أرجو ألا تأتي.

قال: هكذا كرهت؟

قالت: هكذا أحببت. ما كرهتك قط. بل كل يوم يزداد حبي لك، كأنما أنا أنت في تضاعد الحب منك لي ومني لك. ولكن.. أخشى أن تفكر في الزواج مني وهذا ما أرفضه، لأنني لا أريد أن أحطم أمماً لابنتك، كما لا أريد أن يطفأ زوجي عواطف أبنائي. فزوج الأم على الأبناء وطأة ثقيلة. وأريدك ألا تحضر لأقطع السنة الناس. يقولون ما شأن هذا الرجل يتردد على هذه الأنثى. أخشى كلامهم وأخشى أكثر نظرة أبنائي إليك. لا يعرفونك إلا غريباً، وحتى لو عرفوا أنك الحبيب فإنهم يعيشون في كرب أن تكون أمهم لغيرهم.

وأرسل تنهيدة ودمعة من قسوة كلامها وصدق كلامها وصداقة الحب..

فلو لم تكن صادقة في حبها لاسترخصت نفسها أن لا تبوح بهذا الحب عن طريق القسوة. وامتنع عن زيارتها. ولكن بلغه أن وجهها قد احترق فأسرع يعودها، يسأل عن صحتها.

قالت: أنا شاكرة لهذا الحريق. قد أخذ من جمال وجهي لأعيش في راحة من التفكير بالزواج. ولأطرد الكثير من الخطاب، إن وجهي الآن جميل في عيني الابن والبنت. لأنهما عرفا أنني لهما لا لغيرهما. تعال زرني بين الحين والآخر فقد عرف أبنائي أنك أحد أقربائي كما عرفا أنني لهما وحدهما بهذا الجمال المشوه.

قلت: إن جمالك لم يشوه في وجداني، ولكن السنين أخذت مني وأخذت منك. وما أقل عطاءها حين احترق الوجدان بالحرمان. فأنت وأنا قد أصبحنا في عداد الزهاد، نحب الحب ولا نقرب من الحبيب.

وبعد أن اغترب عن مسقط رأسه سمع أنها ماتت، ولكن حبها لا يزال حياً. فالوضع كما يقول أنيس منصور، الحب الخالد هو الحب الفاشل. فيا حبها زدني جوى كل ليلة ويا سلوة الأيام موعذك الحشر

اللذة بالألم

ودخلت عليه مكتبه، فما رأيته قد أمسك قلمه يكتب على القرطاس ما كنت أعهده كلما دخلت عليه. كأنما القلم والقرطاس أصبحا في وجدانه عشقاً جديداً ترسيخاً لعشقه القديم.. قارئاً أو كاتباً..

وسمعتة لا يتكلم، فالتعبير عبرة في عينيه حبيسة، لم يمنعها الكبرياء، وكثيراً ما كان الألم يمنحها لتعبر على وجنته، وإنما حبسها الحزن الممض. ورأيته قد سمر المسجل على هذه الفقرة من أغنية وردة الجزائرية «العشرة غالية الحب أغلى» فقلت له: ماذا جرى حتى تبكي العشرة بلا دمع.. ويبيكك الحب بهذا الحزن..؟

كان الألم يصنع لك لذة، فالبعاد صانع الألم، وحتى الهجر تخيلت يوماً ما.. أن فيه صناعة الوصل.

فقال: البعاد ظرف لم تصنعه هي، فالقسر فيه اعتذار منها إلي، ومعذرة مني لها، أما الهجر فتصنعها تريد أن تذيبني العذاب بالعذاب.. وما أسرع ما تعود، وما أقرب ما تعودت أن أعود..

أما اليوم فوضع آخر؟

قلت له: لا تضيف شيئاً إلى ذلك، فالأغنية التي سممت عليها المسجل فيها الإجابة عن ما تريد أن تقول.. فالزمن قد شاخ بكما.. والسنون قد

تعرت فلم تعد ذات ظلال عليكما..؟

فقال: إن قلوب العاشقين لا تشيخ.. بل الشيخوخة وحتى العدم تتأتى من عوامل لا يصنعها الزمن.. وليست هي من فعل السنين..

قلت: ومن فعل من..؟

قال: ليس هو الفاعل من.. وإنما الفعل جاء من ما..

فمن الإنسان سواء الغيران، أو من تتآكل به الأعراض تآكل القراطيس من فعل الفيران.. فما كلفها الغيران شتمي.. ولم يستند لها المليك.. وإنما هو شيء آخر.. هو الإنصراف عن الماضي ولو بقهر الحب.. والاعتراف من الحاضر.. ولو بتصنع الكراهية؟

قلت له: سحابة صيف عن قليل تقشع..؟

قال: نحن في الشتاء.. فإذا ما فقدت الدفء فيه أهلكك برده القارس.

قلت: إن القلوب دافئة سواء بالوصل أو بالهجران.. ولكن المصاب جاءك من الوضع الذي أشار إليه المتنبي فقد قطعت أيام الوصال وثباً فأفحمك وأفحمها الجري حتى إذا انتهى الشوط دعاكما السباق: أيكما العاشق؟

فكانت الإجابة أن تستريح هي لتعيش لذة جديدة بالألم تسلطه عليك كما سلطته على نفسها. ولكنها تعب السنين قد أضعاف الفرصة عليكما جميعاً:

فما الذكرى بنافعة.. ولا بشافعة في رد ما كان.

رسالة عاشق

- وما زلت الخلي شجياً، بشجواه، فلئن أصبحت الخلي من الحب .
أماتته السنون وصرفته عن الواحدة صوارف التعلق بحب أكبر هو حب البنين
والأحفاد والأسرة والوطن فإنني ما زلت أحب الحب، أعشق المحبين .

كأنما يدعوني ذلك إلى أن أرى صورة شبابي في هؤلاء العشاق .
جعلوني مرآة البوح . يقفون أمامي . يبحون بشجواهم . فيستحيل البوح
منهم إلى نوح يكتنفي . تدمع عيناى حين أثاروا ذكرى المحترقة . . ذكرى
تلك الفاتنة من نبت السراة . . أصبحت سرية في تهامة . أو تحيا في نفسي
تلك المعطرة بالياسمين . . ماسحة البلاط . . التي غسلها الثلج . فغسلت عن
فؤادي كربه، فإذا هي أحالت الغربية إلى وطن . . والوطن إلى علاقة حين
رأيتها .

وعثرت على هذه الرسالة، كتبها عاشق . نشرها ليعيش فيها حياة الكلمة
على قرطاس صحيفة فقرطسة الحب في الزوايا إماتة، فلتحيا الكلمة عن
الحب، يقرؤها هو . وأمثاله . . وهي ومثيلاتها . منشورة على صفحة
قرطاس . .

والرسالة كأنها ورقة من «أوراق الورد» . . هي .

«حبيتي الجميلة . . الرائعة . .

في كل مرة أمسك بسماعة الهاتف لأكون على طرف الخط.. وتكونني
على طرف الخط الآخر.. أجد في نفسي رغبة كبيرة.. تسيطر علي تريد
مني أن أسمعك همسات حبي.. أن أهمس في أذنيك حباً.. شوقاً..
لوعة.. حناناً.. جداً.. رغبة لهفة.. حاجة إليك..
بالشعر أو بالنثر.. بالكلمة أو الضحكة أو الآهة..
حين أسمعك - على الطرف الآخر - تضحكين..
تضحك لي الدنيا معك،
حين أسمع شهقة فرح تحجز الكلمات في حلقك..
فلا تنطقين بها..
أرى الأرض كلها تشهق..
حتى أتخيل أنك أسدلت رموشك على عينيك.
رضا وسعادة بما تسمعيه مني.. أشعر وكأن السماء أرخت سدولها
على بساط الأرض..
تخفق بنبضك معي..
تعيش فرحتك بي..
وتشارك لحظة من حياتك معي وحياتي معك.
هكذا أنا.. في كل مرة أهاتفك.. لأهتف لك بحبي..
فلا أقوى على إنهاء المكالمة..
كأنما أريدها أن تظل بيننا..
حبل مودة.. يشدنا ببعض

قطرة عطر.. يتل بها وجدانا

نسمة هواء.. تتعش بها رثانا.. ولكني أنهيتها.. المكالمة

لا لأنها.. وإنما لأبدأ معك حياة جديدة..

عبر هاتف جديد..

إني أحبك.. أحبك.. أحبك..

الياسمين

- وأخونا الشجي كنت الخلي قبل أن أكون الشجي بشجواه، زارني عصر يوم يتسم فيه الغيم بالبريق قبل أن تبكي دموع الغيم يحيا بها الحيا. وجلس يكربه النوح المكتوم فأعجزه عن البوح، فإذا هو الشيء قد تقلص كل الشيء فيه، كأنما البوح قد رضه رضا. فوجدتني أثيره لأطعمه البوح، فالبوح علاج مرض الحب.

قلت له: دعني آتيك بعطري الجديد.

قال هات.. عطرتني..

فأنشقتة عطر الياسمين، فأسرعت الدمعة في عينيه، كأنما مسه بارق الذكرى.

قال: لعلك لم تعرف من قبل أنني أحب الياسمين اللون، لبسته صفرة ناعمة في الزهرة الندية، لا أحب الياسمين العطر. فالياسمين اللون أعتر به ولا أبتزه، هو يذكرني بصورتها.. بيضاء قد ابيضت صفرة الياسمين في وجنتيها.

أما العطر.. عطر الياسمين.. فما هو إلا عصارة أحالت الزهرة أرخصت جمالها، يبيعون عطرها بثمان غالٍ بينما هي الزهرة الأغلى.. أعشقها.. قد لا أشمها ولكن لا بد أن أراها..

فاللون عندي هو هي .

إن عطر الياسمين تجارة . والجمال نسترخسه إذا ما كان يستحيل إلى
تجارة فكم من الجواري في سوق النخاسة كن من الجميلات، بعضهن
وردية وغيرهن قمحية والسيدة فيهن هي التي لها لون الياسمين، ولكن
بيعهن في سوق النخاسة بخاسة، لا ترى من اشترى إحداهن عن حب،
وإنما عن متعة الذكر بالأنثى .

أبعد عني عطر الياسمين . إنه يذكرني باستعباد الجميلة . أنا لا أحب
الوردية، ولكن أحب الياسمينية كما أحب الملاحه في القمحية . ألم تسمع
إجابة عمر بن أبي ربيعة حين سأله عن البيضاء الوردية «عائشة بنت طلحة»
وعن الذهبية القمحية «سكينة بنت الحسين»؟

سأله أيهما أجمل، فقال هذا المخزومي يصف التيمية «عائشة» .
والهاشمية «سكينة» . . قال «عائشة أجمل وسكينة أملح» .

إن عمر بن أبي ربيعة شاعر يتفنن، وفنان شاعر . لقد كان كما قال إنه
طاهر الذيل . شاعر قال ما لم يفعل .

ذكرى

- «وتلفت» إلي، وكنت بين شغلين، الذكريات أجترها أطرده أحلام
اليقظة، والأخبار المتلفزة أسمع إليها. كأنما أنا اثنان، فؤاد يجتر وأذن
تجري، وراء الخبر، فما استطعت أن أكون ثالثاً.

قلت لها:

- أجلي السؤال حتى أخلص من الأخبار.

وكانت واثقة معتدة بنفسها. ذكرت اسمها، فإذا اسمها اسم «المحترقة»..
ذابت الذكريات، ولم أسمع الأخبار. وإنما كنت أسمع حفيف شجرة اختفت
وراءها المحترقة، تجسدت أمامي يوم كانت ذاهبة إلى عرس تلبس فستاناً عسلياً
قد أبيض بنور وجهها الذي كان بلون الياسمين.

نسيت كل شيء. وأخذت أجسد النظر إلى المحترقة تجسدت وراء
الشجرة. وكانت الشجرة شجرة فل زرعته بنفسي وسقتها هي بنفسها. كأنما
أنا التنمية لفروع الشجرة أما هي فكانت الأزهار لزهرها.

وامتد التذكر فأراها تدخل علي وأنا بين الموت والحياة. كان أبي
خارج البيت يتمرغ فوق التراب. أشفق أن أموت، غلبت علي الإغماءة.
فالرئتان قد احترقتا التهبتا، أما الفؤاد فقد فرغ من قسوة الحب وقسوة
المرض، ولكنه عضل قوي.

- أدخلوها علي كأنما عرفوا أن شقائي بها. وجلست أمام هذا المسجى
أشفقت أن يموت أمامها فأسرعت تنادي الحياة، وضعت يدها على جيني،
وصحوت من دمة حرى أسقطتها على الجبين.

قالوا.. رشوه بالماء..

قالت.. الدمع هو الذي يرعشه..

فارتعشت.. أناديها..

أنت أعدت الحياة إلي؟

وأنشدت:

وإني لتعروني لذكراك رعشة كما ارتعش العصفور بلله القطر

كانت رعشتي بالدمع هي التي جعلتني أتصرف في رواية بيت الشعر.
وتكلمت.. حتى إذا رأيتني ابتسم أنهضتني أجلس أمامها.

ودخلت عجوز من أهلي فقالت:

ما شاء الله.. تبارك الله..

الله ساقك علشان يعيش.

قلت لها:

- أراك تتزينين بالعقد، كأنك ذاهبة إلى عرس، كما تعودت أن أراك
قالت:

- نعم.. جئت إلى العريس، فحياتك عرسي وزينتي. فلا تحسب أنني
البعيدة عنك حيث لم أكن الحليلة، وما أشرف ما صنعت أنت حيث
جعلتني أختاً ولم تجعلني الخيلة..

ونَهَضْتُ، فإذا أنا أنشد..

ولما رأَتني في السياق تعرضت
أَتَ وحياض الموت بيني وبينها
إِلي وعندي من تعرضها شغل
وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل

ثم أنشدت لتسمع..

أذكرونا مثل ذكرنا لكم
واذكروا صبا إذا غنى بكم
رب ذكرى قربت من نزحا
شرب الدمع وعاف القدحا

ذاتيات وتجارب

صور

- وأقبلت عليه دنياه. فاعتلى منصباً كان يتمناه. حين اعتزل الذي فوقه فأصبح صاحبنا هو الذي فوق وزرته أهنته فقال شكراً.. ولكن ماذا يقول الناس؟

قلت:

دعك من كل الناس الآن. واجعلني ناسك هذه اللحظة. فاسمع ما أقول:

اللهم لا تشمتنا بمدير. ولا تبطرننا بمقبل. وأسأل لك الله أن يدخر لك خير ما تفعل. تثقل به موازينك يوم القيامة. أنت الآن في حاجة إلى عمل الآخرة وإياك أن تغتر لئلا تنحاز إلى مقدمة السفينة. وألا تغوص اللجة تتصاعد عليك اللجة.

انتهى الحوار بيننا فما أدري كيف كان وكيف انتهى ما كان؟

حين يتفشى العبث ينتشر الخبث، فإما التشرذ أو التمرد حتى السعار يتأتى على صورة من هذا التشرذ أو التمرد. وحين يكون كل ذلك يخوض المجتمع النفور همساً والاستنكار جهراً فإذا المجتمع لا يكون الكل للواحد. والواحد للكل. وإنما يصبح كل فرد.. «أنا ومن بعدي الطوفان».

وكان الطفل يلعب تحت شجرة في الحديقة، بعيداً عن أمه جلست

تحت شجرة أخرى. فالتفت الطفل يرى رجلاً يحجب أمه يقبلها. فجرى
الطفل هارباً. أكلته الغيرة.. عقدة أوديب على صورة أخرى.

ونادته أمه، وناداه أبوه، فقد كان الرجل أباه فاستعصى أن يسرع. كأنما
الشك فيه حجب عنه رؤية أبيه وألح عليه بالنداء. فمشى الهوينا يتكسر من
الغيظ فسكن قليلاً ولم يطمئن. فالعقدة فعلت فعلها.

ذلك أن الطفل أبو أمه قبل كل آبائها وبعد كل آبائها.

الوداع وإلى اللقاء

- الوداع لـ «تمر وجمر» .. واللقاء «مع الذكريات» ..

ذلك ما أعتزم المسيرة به، فما أحسبني إلا قد تململت من هذا العمود اليومي تمر وجمر فلم يصبح التمر مأكلي لأنني قد حرمت منه بأمر الطبيب. ولم يعد الجمر في موقدي، فقد طغت عليه الكهرباء.

فلماذا أكرّب القارئ بهذا الاستمرار.

ألا أظن أن قارئى قد ملّ؟

فلكي أبقيه أن أنحو به نحواً آخر، لأنه لا يستطيع أن يصبر على طعام واحد. فما أكتبه تحت «تمر وجمر» قد شدني إليه ما أحسبه نوعية. ويبعدني عنه الآن ما يحسه أناس أن فيه من الرمز ما لا يحمد. فلاترك ما تململت منه، ولاأبتعد عن ما يمل منه القارئ. لأستريح من وهم الظنون. ولأبدأ أستعجل كتابة الذكريات. فقد ألح علي الأصدقاء لثلا تضيع هذه الذكريات أن أكتبها مسرعاً بها خشية أن يسرع علي الفوات، إما بمفارقة الحياة أو بفقدان الذاكرة.

والذكريات رفضت أن تكون مذكرات، فلست صاحبها، وإنما أنا من المشاهدات صاحبها، فقد يكون فيها تاريخ لأحداث. فأنا من جيل عاش أول ما عاش في العهد العثماني والعهد الهاشمي. وأعيش الآن في عهد

الوحدة لهذا الكيان الكبير الذي صنع بالوئام قبل الفصام بين الحاضرة والحاكم، كما أزاح الخصام بين الحاضرة والبادية.

من هنا ستكون الذكريات تاريخاً من التاريخ بل ومن فقه التاريخ. فالمشاهدات أسجلها. والمقدمات من السماع أكتبها. فأعطوني فرصة أن أكتب الذكريات أنشرها في الوقت المناسب وبالشكل المناسب.

وما أسعدني أن أجد قارئاً يواكبني مخطئاً أو مصوباً، فلئن فرحت بالتصويب فإني أتعلم من التخطئة.

نظافة العصر

- وكتبت إليه، وقد كان يشكو من أنه لم ينل حظه. فهو شغوف بالتفاف الأصحاب حوله كتبت إليه كلمة واحدة.

إذا أردت أن يجتمع الأصحاب حولك فاطعم الطعام واستجديهم الكلام. ثم إذا أردت أن تكون النظيف بينهم فغص حمأة الوحل، تلمس القذارة يتسخ بها وجدانك. فبعد ذلك تسمع كلمات الأصحاب حول موائد الطعام، يقولون لك.. إنك الرجل النظيف.

فالنظافة من عطاياك لم تكن إلا من عطاء القذارة. حضنتها فأعطتك وجاءني يهرول. يقول:

- أتحسب أنني حين أتسخ أصبح نظيفاً، أعيش الشاء المكذوب وأسقط من وجداني النظافة الحقة؟
قلت:

- هكذا هم الناس. يوم ذهب الناس وبقيت أنا وأنت في خلف كجلد الأجر.

ألم تسمع قول عاتكة بنت زيد زوج عمر وابنة عمه حين قالت:
«كان ذلك يوم كان الناس ناساً»؟ أو لم نسمع البيت الذي أنشدته أم المؤمنين عائشة.

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجر

أو لم تسمع كلمة معاوية لأهل المدينة..

اقبلونا بما فينا. فإن معروف زماننا منكر زمان قد مضى. ومنكر زماننا معروف زمان لم يأت؟

قال:

- ولماذا أنت لم تتسخ؟

قلت:

- وهل تجد اتساخاً أكثر مما أنا فيه؟

أفعل ما يراد، وأعجز عن كثير مما أريد.

سر في سبيلك، فمنية الطموح يشبعها الجموح.

قال:

- لقد بدأت أفهم ما حولي. راثياً لمن حولي.

قلت:

- لقد وصلت بهذا التزاوج. تضحك لما تكسب، وتبكي على ما

تخسر.

الصديق والغيبة

- ورأيت الصديق بعد غياب طويل، كأنه موكل بفضاء الله يذرعه :
ما أب من سفر إلا وأزعجه رأي إلى سفر بالعزم يزمره
كأنما هو في حل ومرتحل موكل بفضاء الله يذرعه
وفاجأني أن أراه .. فالغيبة إن لم تنس فإنها تبعد بالصديق أن يتذكر ما
تناساه .. ؟

وتعانقنا ثم أبعد أشباراً يصعد نظره إلى أعلى ويسترخي به رويداً رويداً
إلى تحت كأنما يقيسني طولاً وعرضاً، أو يروزي كما وكيفاً .. ولا أدري
ماذا غاب عنه مني .. أو ماذا جد علي .. فالمرء لا يعرف عن نفسه بعض
ما تغير فيه إلا بالتذكير عن هذا التغير .

فقلت له : لماذا أنت هكذا تقيس وتزن .. لعلّ شيئاً قد فاجأك قد
استجد علي .. ؟

فقال : ليس هو الطول والقصر، ولا العرض والسمن، ولا الصحة
والسقم .. وإنما هو الشيء أراه جديداً فيك .. فقد كنت تتعامل مع العبوس
بعض الوقت، وتلتذ بالألم كل الوقت .. وتحاول أن تطرد الحزن
العبوس .. كأنما التقطيب أصبح الكيف المعبر عن التعذيب .. فأراك اليوم

تهش وتبش، لابتسامة عريضة فقد انمحت البسمة «الأكليشة»، وحل محلها سرور يشعر بأن العذاب قد انصرف. وأن العذوبة قد بدأت تتعارف معك. لتغترف منها.. فما الذي جد حتى تغير حال السأم والعبوس.. إلى هذا الاكتناز والاعتزاز بالفرح والمسرة والضحكات المشرقة..؟

قلت: تلك الأيام التي خلت: كان بعض ما يكرب القليل في كمه. وغير المذل في كيفه أفلا تذكر يوم كنا نتعرض إلى مشكلة.. فنطردها بحل سريع أو نتقبلها بصبر شفيق.. فتمضي ترسم العبوس في وقت محدد كأنما أنا وأنت كنا نتوفر بتصنع الحزن ونتوفر على إشعار المشفقين أو الشاقين بأن ما نحن فيه عرضاً عابراً تنفع منه العبرة ولا تسيل منه العبرات.

أما اليوم فقد تكاثرت المزعجات وتناثرت المزعلات، وتراكت الأحزان فلا تمر مأساة إلا وتلاحقها مأساة. إن لم تكن منصبة عليك أو علي، فإنها المصيبة على ما حولك ومن حولك. على هؤلاء الساكنين والمستكنين في أرضك العربية كلها وشعبك العربي كله.

كل هذا من الأحزان والمزعجات المزعلات قد أصابتنا بالتبدل وإن لم نكن من البلداء. فبعد أن كنا الأذكياء في تحمل آلام الجسد أصبحنا نتبدل نحمل ونتحمل كل الأرزاء تصاب بها النفوس، ويتخلل بها الوجدان فيصبح الإنسان غير الإنسان. كأنما ذلك الشاعر الذي قالوا إنه افتخر بهذا البيت.. لم يكن الفاخر وإنما أعلن تبلده وتحمله، فالوضع عندنا الآن هو كما قال: لم نعد بعد ما لقينا نُبالي بسهام رمى العدا أم نبال

أو كما قال الفيلسوف: وفي بلادة بعض الناس فلسفة.

ولكن نحمد الله أن وقع هذا لنا ونحن على عتبات القبور..

الهجاء

- ولا أدري كيف أبداً.. هل أهجو الهجاء أم أتزلف إليه.. أخشاه فقد أصبح حرفة اللسان العربي على المنابر والصحافة والإذاعة والندوات الهامة وما إلى ذلك، وكان العرب أول أمرهم وفي جاهليتهم يتعارفون مع هذا المثل «ذل قوم لا سفيه لهم» فأعطوا للشاعر مكاناً رفيعاً بينهم، إن تغزل تغنوا.. وإن فخر ارتفعوا.. وإن هجا استراحوا حين انتصفوا.. وتغير الوضع الآن فإذا الشاعر لا يهجو ولا يفخر ولا يتغزل، وقليل ما يعبر عن الأحزان وليس لديه فراغ في أن يكون مشاركاً يبكي الأوطان.. فهل أصبح الشاعر غير شاعر أم إن الآذان العربية أصبحت لا تستسيغ الشعر فهي ضائعة في زحمة الأخبار والسباب بين الأمصار.

من هنا سمعنا من الصامتين الذين صاموا عن الفحش في القول ما نصحونا به.. فقد قالوا: أتعرف الصحيفة الفلانية؟ كادت تغلق لأنها مارست القول الفاحش والسباب المقذع ولأسباب كرهوا أن تلغى ولكن كاتب الفحش قد أقصي.

- ومن هنا مرة ثانية حفظنا كلمة الرافعي «إذا اتخذت سفيهاً ليسافه عنك فاحذره في اليوم الذي لا يكون فيه سفيهاً إلا عليك».

وعشت بعض الحملات الصحفية فإذا أحد المسؤولين من الدرجة الثانية

قال ما لي لا أراك قاسياً.. فأنت تحلل ناقداً ولا تضع قلمك يمارس الثلب والمعابة؟

قلت له: لم يكن عندي الجواب.. وإنما هو من عند المعلم محمد بن لادن.. فقد قابلته حين كان قادماً من الرياض في صحبة عظيم.. فإذا هو يقول لي ما يصلح جواباً لك «أنت تجرح ولا تندر الدم» فأنا لا أمارس الكلمة التي تجرح الأعراض.. وإنما أمارس المعارضة للأغراض المشينة، فالحملات بنت وقت، والعلاقات أبوها الزمان.. ومن هنا مرة ثالثة كان جرير يجرح ولا يسيل دماً.. انظر إلى هذا البيت، سمعته أول ما سمعته من الدكتور طه حسين في عصر يوم.. في حفل أقامه في بيته محمد سرور الصبان يرحمه الله تكريماً لطه حسين ومن معه، يرحم الله من مات منهم ويمتعننا بحياة من بقي فأنشد طه حسين، يدفع عن نفسه وعن مصر هجمة أستاذنا أحمد عبد الغفور عطار:

ابني حنيفة أحكموا سفهاءكم إني أخاف عليكم أن أغضبا

هذا أسلوب جرير.. ارتفع به عن أسلوب الأخطل، وما أقل أمثال جرير اليوم.. وما أكثر الأخطلين.. ويعجبني هذا المثل في هذا البيت:

لو كل كلب عوى ألقمته حجراً لأصبح الصخر مثقالاً بدينار

الهيئة

- الهيئة سلاح الفارس قبل أن يستعمل سلاحه . وسلطة الزعيم قبل أن يصدر أمره فإذا ما حرص الفارس والزعيم على أن يفرض كل منهما هيئته فإنهما يحوزان الانتحار كيفما أرادا .

فالفارس بالهيئة ينتحر في الحرب . والزعيم يفرض سلطانه على من يريد . .
هذه المقدمة أسوقها أمام صور ثلاث عرفت منها ما قلت قبل فالصورة الأولى حامت في كلمة لعامر بن الطفيل . أحد السادة في بني عامر وأحد الفرسان في مصر كان من بين الرجال الذين أوفدهم النعمان بن المنذر إلى كسرى أنو شروان فتكلموا باسم العرب جميعاً . وفي خلال الحوار بين كسرى وعامر بن الطفيل قال كسرى لعامر :

- إذا أتاك آت من جهة عينك العوراء . ماذا تصنع ؟

فقال عامر . .

- ما هيئتي في قفائي دون هيئتي في وجهه فكأنما عامر عرف الهيئة وما تصنع .

وأما الصورة الثانية فقبل عشرين عاماً شاهدت فيلماً أمريكياً في القاهرة بعنوان «ذئاب الميناء» يوضح أن عصابة يتزعمها البطل . مارلون براندو ، سيطرت على الميناء فالزعيم قد فرض سلطانه على أتباعه . وله مساعد يعينه

على ذلك غير أن للمساعد أخاً في ريعان الشباب أنكر ما تفعله العصابة من الجرائم فأخذ ينصحهم يؤلبهم على الزعيم فلم يسمعوا له .

ولكن الزعيم حين سمع بما يفعله الشاب جمع أفراد العصابة وفيهم مساعده ونادى الفتى يقف أمامه . يهدده ويشتمه . ثم يضربه كفاً على خده . وكانت تلك حماقة رئيس العصابة . لأن الفتى مد يده يرد الكف يضرب زعيم العصابة .

فانهارت الهيبة فإذا الأتباع ينشطون فرق مال مع الفتى وفريق بقي بعيداً .

وحين سقطت هيبة الزعيم انتهت العصابة .

أما الصورة الثالثة والأخيرة فقد سمعت خبرها من صديق فالدكتور محمود حمودة أول مدير للصحة في المملكة العربية السعودية وهو من طلائع السوريين . نادى خادماً من خدم المستشفى ونهره ثم ضربه كفاً وأراد أن يضربه ثانياً . فقام الشيخ كامل القصاب صديق محمود حمودة وصديق خالد الحكيم الذي كان جالساً ساعتها قام القصاب يمنع محمود أن يضرب الكف الثاني قائلاً :

محمود . . محمود . . بس . .

وقال للخادم اذهب . .

وغضب محمود حمودة من الشيخ . يسأله فماذا يا شيخ كامل .

فقال الشيخ كامل . لأحفظ هيبتك كرئيس لا يضرب لخادم . ما يدريك

أن الإهانة والضرب يدفعه لأن يضربك . فحينذاك كيف تكون هيبتك؟

وتكلم خالد الحكيم فقال : «الرجل الكبير يصون هيئته وإذا أخطأ خادمه

فهناك طرق كثيرة للعقاب» .

حوار مع الشيخ

- وتعودنا أن نزور الشيخ وفاء لعشرة، وإن لم يكن هناك وفاء التلميذ لشيخه، لأن التلمذة لم تستفد منه فقد كان عظامياً في مشاعره وإن كان عصامياً فما ادخر لنفسه. وجرى الحديث فإذا هو يقول أصدق كلمة قالها الشاعر:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
قلت:

- إنه بيت لبيد بن ربيعة.

قال:

- أعرف أنه شاعر جاهلي..

قلت:

- كان من شعراء الجاهلية ومن أصحاب المعلقات فأذكرك بأنه أسلم وأصبح صحابياً.

قال: إنه جاهلي أتعلمني؟! هذا البيت لا يدل على أنه أسلم.

- إنه أسلم وصحابي، ودعني أتناول من المكتبة «جواهر الأدب» أقرب مرجع لديك لتعرف صدق ما قلت.

فغضب وقال :

- أنت لم تتعلم الأدب .

قلت :

- أينما فاته الأدب؟ من يجري حواراً معك، أم من ينكر صحبة الصحابي؟

وضاق ذرعاً، فقمت لثلا يطول الجدل .

وبعد يومين أمسك أذني أستاذي ومعلمي السيد «محمد صقر» يقول لي :

- يا واد.. كيف تسيء الأدب مع الشيخ؟

فلقد شكاني إليه ليؤدبني، ثم أكملت :

- أترضى أن أسكت حين قال إن ليبدأ شاعر جاهلي وليس صحابياً؟

مع أنني تعلمت منك أنه قد قال في إسلامه :

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى اكتسيت من الإسلام سريالاً

والذي قال إن الله أكرمه عن الشعر بسورتي البقرة وآل عمران .

قال الأستاذ السيد محمد صقر :

- إنه أساء الأدب وأحسن الأدب .

وانقطعت عن زيارة الشيخ لا أحب أن أرى الكراهية في وجهه يرحمه

الله .

كيف تكون سعيداً

- سؤال قد يكون محرجاً لأنني لا أستطيع أن أطرح تعريفاً له بينما هو لا يخرج عن كونه صفة عادية يرغبها كل الناس، وهي في الوقت نفسه مطلب غير عادي يعز على كثير من الناس.

قال لي من أمني عليه إنك كتبت عن الحب والجمال والجوى ولم أرك قد كتبت عن السعادة، فلماذا لم تكتب عنها؟ لأنك تتمتع بها وتخفي أسرار وصولك إليها أم أنك ذقت بعضها وأذاقتك بعدها؟

قلت: إن السعادة ثوب فضفاض، ما يسعدك قد يشقى به غيرك، وبعض ما تشقى به قد يسعد به غيرك. فالعادة حرفتها المفارقة، والمتعة بها المعانقة، والمفارق قد يعود إليك أو تعود إليه. والمعانق قد يعانقك في طراوة حتى إذا أحسست أن عناقه بدأ يتسرمد ترفض العبودية لأي سرمد حتى لو كانت السعادة.

فالسعادة التي ينبغي أن يعيشها الإنسان ليس قوامها الترف، وليست شقوتها بالشظف، هي شيء لا يأتي من خارج نفسك. إن بعض الذين يعيشون الشظف لا ترى في وجوههم إلا السعادة، لأن ما في داخل النفس طرد الاهتمام بما يكون خارج النفس. وبعض المترفين قد يتذوقون السعادة فيما ملكوا إذا أحسنوا فيما سلكوا. إن الترف حين يستحيل إلى بطر يتوهم

صاحبه أنه سعيد، بينما نظرة الناس إليه تأتيه بما هو خارج النفس بتلك النظرات التي تحتقر البطر ليشعر صاحبه أنه موضع الاحتقار. وشر ما في الشقوة أن يحتقر إنسان، وخير ما في السعادة أن يحترم الناس غيره ليجترمه غيره. فتبادل الاحترام إثبات للقيمة وارتفاع بالقيم، وتلك السعادة التي تتزوج مع متعة النفس بما هو داخلها، ومتعة النفس بما جاءها من خارجها. بهذا التزوج يفتقد السعيد المفارقة حتى لا يكون الافتراق بينه وبين من سعد بهم وسعدوا به.

فالسعادة منحة تطمئن لها النفس، لكن المتعة بها تكبر حينما يطمئن الإنسان إلى خلقه، يحدده سلوكه مع الناس.

أنا سعيد بكثير مما أشقى به لأنني تعلمت احترام الطرد. سعيد بأني مع الناس للناس، لا أبخل بعون وإن لم يشكر، ولا أرفض الشكر لمن أسدى معروفاً إلي. فشاكر المعروف هو القادر على صنعه وناكر المعروف هو العاجز عن صنعه الباخل به. والقدرة على شكر المعروف وصنعه سعادة.

إذا أردت أن تكون سعيداً فأياك أن تكره أحداً. ولو شعرت بمن يكرهك، لأن الكراهية عطاء كالحب، لأنها أشغال للوجدان، وجدانك يشغل بمن تحب وأنت تشغله بمن تكره، فالكراهية صفة يشقى بها السعيد. إن السعادة أن تكون مسلماً، يسلم الناس من يدك ولسانك.

المغتربة

- وأنشدت .. حين تذكرت أهلها أما وأباً وإخوة:

لعمرك ما فارقت بغداد عن قلبي لو أنا وجدنا من فراق لها بدا

فكلما ذكرت ملاعب طفولتها وتلاعب عواطفها ولعبة آمالها تأخذ كل هذه الألعاب منها كل الجد، الفؤاد حين يذكر اللعبة والتلاعب والملاعب يسقط أنها لعب. فالذكرى تجسدها. تأخذ من الفؤاد عشقه لها. فالعشق هنا ليس لعبة.

وإنما هو الجد أفليس الحزن جداً. أفليس الألم يتجدد بالذكر ..

لقد كانت هذه المغتربة تعيش. تغترف من العلم. فصبرت وصابرت. ولكنها في يوم ما عجزت عن الصبر والمصابرة فأخذتها المكابرة تشتم العجز من هذا التلفون .. لم يكن لديها أن «تتلفن» من مكان أو مكتب قد أبيع أن تسمع صوت أمها .. إنها تذهب إلى التلفون المباح المباع. الهاتف العمومي. تقف في انتظار الدور. فالمغتربون كثر والتلفون قليل. أفليس من الواجب على الذين كلفوا برعاية المغتربة أن يضيفوا إلى نفقات تنفق على هؤلاء المغتربين والمغتربات هاتفاً في مكان محترم، يباح لهم ويبيع، ولا يكلف إيجاد نفقة تبهظ.

وتلفنت إلي المغتربة، وكلما سمعت رنين الجرس رفعت السماعه فلا
أجد الطالب. فالتفون المباح المباع على رأي المصريين «ما يجمعش».
وأكثر من مرة يرن الجرس حتى يحن الخط يجمع. تسأل وتسأل
وأجيب.

هي تسأل بشوق وأنا أجيب بحنان إن الشباب عشق وشوق. أما الشيخ
فرحمة وحنان. وأما الأمل فهو يعيش الرحمة والحنان ويبيت العاشق
الولهان.

الحب لكل أهلك

- قلت له: حينما يصبح الحب معاملة على صورة من المقايضة، فإن هذا أشبه ما يكون بالبغاء حين تستحيل علاقة الصدق إلى التعامل الأكذوبة.

فقال: هل إذا أعطيتك لا آخذ؟

قلت: إن عطاءك لي أخذي منك.. وعطائي لك أخذك مني، تعطيه وأعطيك بلا شرط، بتلقائية التلاقي ولكنك أنت قد زيفت الحب حين اشترطت أن يكون المقابل زيارة بزيارة قبله بقبلة. هدية بهدية. فكل ما اشترطته تعامل مادي. حب مزيف.

وقلت له: حين يستحيل الوفاء إلى مجاملة ابتغاء لتفريغ الوقت فإن بذلك البغي على الأخلاق.

فقال: ألم أسمعك مرة قلت «إن واقع الحياة أفسد فينا أخلاق الكتب»؟

قلت: ذلك لأنك نفس سقطت في الشهوات، فلم تكن كالذي أسقط الشهوات فارتفع بمستوى الأخلاق إلى وفاء لا تحيط به المجاملة.

وقلت له: إنك تكثر من الأصحاب. بينما أنا أستكثر بالأحباب.. فالصحة عندك وقت، والحب لا تريد أن تتقيد به، أنت شديد الرغبة أن تكون صاحباً، أما أنا فلا رغبة لي إلا أن أحب دون أن يكون الحب معاملة، فالعطاء مني وإن لم يكن أخذاً..

من هنا.. فالكراهية لا أملاً بها وجداني لأنها عطاء، ولكنني قد أحتقر وأزدري.

إن مكارم الأخلاق أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك.. فلا يكمل إيمان المرء إلا بذلك.

إن الحب لكل أهلك هو خير ما تصنع،

ويرحم الله حافظ إبراهيم إذ يقول:

أمة قذفت في ساعدها بغضها الأهل وحب الغربا

الحطاب والأرنب

- ودخل الغابة حطاب يقود جملة .. يركب حزوم الغابة لعلّه يجد شجرة جفت .. أو كومة من الحطب تركها المترفون الذين قالوا هناك فطبخوا الأطايب من الآكال وتركوا الزوائد من الحطب.

وفي الغابة يأتي صيادون يصطادون الأرنب وقد غفل الحطاب أن يتعد عن مجال الأرنب فأصابته طلقة كأنه أرنب أخطت الصيد فكان المصيد. لم يعلم به أحد وإنما علمت به الذئاب والثعالب فكان طعامها، أما الجمل فاشتتم رائحة الذئاب فارتقى حزمًا صعباً يصل إلى تل بعيد يتوقى فيه شر الذئاب .. من هنا يتشاءم العرب إذا ما ساروا في طريق فطلع عليهم أرنب، فيقفون يسبرون الطريق لئلا يفاجأون بصياد رأى الأرنب يريد صيداً .. ويتفألون بالثعلب وإذا ما رأوه سلكوا الطريق مسرعين ذلك أن الأرنب يجلب الصيادين فيكون الحطب .. والثعلب حين سرح .. يمرح قد ابتعد عن الصيادين أو لم يصله الصيادون، فتشأؤمهم من الأرنب لا ينصب عليه وإنما على ما يتأتى من الصيادين وتفاؤلهم من الثعلب لا ينصب عليه وإنما لأنه أشعرهم بأنه لا صيادين.

وابتلى الله الجمل بحمار ند من صاحبه أو هلك صاحبه فاستوحش الجمل من الحمار واستأنس الحمار بالجمل. وهكذا تختلف المشاعر. فقال

الجمال للجمال: أنت حين تشيع تتبطر، تصيبك النهقة فإذا صوتك المنكر يجلب علينا الذئب إن أحببت أن تعيش معي فأياك والنهيق ولكن الطبع غلاب والجمال حمار، فحين شيع وتمرغ في الأرض يأخذ مساجاً.. يريح عضلاته نهض فنهق فلحقه الجمال لخفة في بطنه جعلته يتلوى فقال: أتوب ولكنه حمار فلم يمض يوم أو يومان حتى نهق فأقبلت الذئب لأن الضبع آفة الحمار إذا رآه لم يستحمر وإنما يتخاذل، فأخذت الذئب والضباع وكأن الضبع يصيد الحمار للذئب لأن الضبع آفة الحمار إذا رآه لم يستحمر وإنما يتخاذل فأخذت الذئب تنهشه وما كاد الجمال يرى ذلك حتى جرى إلى حيث لا يدري فإذا هو يخرج من الغابة ليراه الناس: هذا جمال فلان فأين فلان (؟) وتحمسوا أن يدخلوا إلى الغابة مسلحين فرأوا الجمال ورأوا عظام صاحبه وبقية من عظم الحمار فساقوا الجمال إلى أهله فما فرطوا به لأنه ذكرهم بعائلهم وعائلهم فقال أحد العقلاء: أمسكوا الجمال تنتفعوا به وترحموا على أبيكم وسبوا الحمار حيناً ولا تسبوه حيناً فهو الذي أتاكم بالجمال إن صاحب السوء قد يسيء وقد يحسن حينما يعرف الإنسان صاحبه.

الازدواجية

- الإزدواجية والعظة في الآية الكريمة. فيها التعليم للإنسان أن لا يكون مزدوج السلوك.. يُحِبُّ أَنْ يَحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ.. يظهر أمام الناس أنه من أهل التقى والنقاء. بينما هو على غير ذلك الآية: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ (البقرة: ٤٤) فلقد طغت الازدواجية هذه الأيام.. إنها في اللغة تسمى النفاق.. وذكرت اللغة لأفرق بين النفاق في الدين والازدواجية في المعاملة.. فالمعلن للإيمان وهو يخفي الكفر هو المنافق في تعريف الدين.. دين إسلامنا النظيف، وما كان العلم به.. أعني المنافق في الدين إلا بالوحي..

فمن هرطق وشك قد نقول إنه منافق لغة أو ملحد إلى آخر ما هناك.. أما أن نطلق عليه لقب المنافق فاللغة تسع هذا الإطلاق.. أما حكم الدين فعلمه عند الله.

هذه الازدواجية عبر عنها المعري بهذه القطعة المذهبة والمهذبة من اللزوميات:

لعمرك قد بليت وأنت حر	بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صباحاً	ويشربها على عمد مساء
يقول لقد غدوت بلا كساء	وفي لذاتها رهن الكساء
إذا فعل الفتى ما عنه ينهى	فمن جهتين لا جهة أساء

وعرفت هذه الازدواجية، سلك طريقها شيخ طريق.. . يجلس يستقبل المريدين، يتلقون منه البركات عامة خدروا بالشعوذات، حتى إنهم رسخوا أعني الطريقين في المريدين الكلمة الوثنية «لو اعتقد الإنسان في حجر لنفعه» فيتقاطر المريدون على مجلسه حتى إذا اكتمل الجمع وقد ساد الصمت والتوقر.. . يصفق بيديه.. . يطلب الحليب فالشيخ لا يشرب الشاي ولا يقدم القهوة وإنما هو الحليب.. . ويأتي الحليب في كؤوس.. . في صينية قد صفت الكاسات كدائرة في وسطها كاسة الشيخ.. . يراها المريدون، يظنون أنها من الحليب الذي يشربون.. . بينما الكاسة مزدوجة الشراب.. . قد ابيض ما فيها كالحليب.. . بينما هي في الحقيقة قد ملئت بالعرق «الزحلاوي» ومن خصائص هذا الزحلاوي كما وصفه لنا العارفون بأنه إذا ما خولط بالماء ينقلب لونه كالحليب.. . فهذا الشيخ يتعاطى.. . يكذب على المريدين بأنه يشاركهم ما يشربون من الحليب.. . بينما هو قد عقر.. . لم يعقر ناقة وإنما عقر الأخلاق.

كأنما العين كانت أذناً

- وأتيت إلى من أملي عليه، أزور موضوعاً أكتبه، ولكن وجدت إنسانة، إحدى بناتنا، كان أبوها صديقاً من عهد الطفولة، إلى عهد الرجولة. فإذا هي تنزع في كل ما خطر في بالي، ليكون سلطان الكلمة منها، بها، عنها، قد مات أبوها، وكان ذا عيال، بنات وأبناء، فأشفقت أن أسمع منها حين سألتها، أن تسمعي الشكوى، وأبت السعادة التي تستسيغ الأذن نبراتها، من جرس عذب، ليست العذوبة، في نعمة الكلمة، وإنما في نعمة الحمد والشكر، لله سبحانه.

وما كادت تمضي، حتى تذكرت قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (النساء: ٩) ..

فمن نعم الله علي، أن كانت هذه الآية، عاصمة حيزتني عن كثير، وإن لم أبلغ ما يجب علي من يحفظها، ليحفظه الله بها.

إن هذه الآية، سمعتها أول مرة، من الدكتور أحمد أمين، صاحب (ضحى الإسلام)، وفي المدينة المنورة، وفي حفل عشاء، أقامته بعثة الجامعة التي يرأسها حين حجت الجامعة، وحج الأزهر معها.

ففي حفل عشاء أقامته بعثة الجامعة، وبعثة الأزهر، لمائة وخمسة

وثلاثين يتيماً، هم تلامذة دار أيتام المدينة، أخذ الدكتور أحمد أمين، يطوف على الأيتام، يمسح رؤوسهم، وعيناه تذرفان.. فما كاد ينتهي من حنانه، حتى سمعته يتلو هذه الآية.

فآية القرآن هي المؤثر الأول، ولكن الموقف من هذا الأستاذ الفاضل، ومنظر اليتامى، منحني أن أحفظها لتحفظني..

والصديق الذي ذكرتني ابنته به، هو الأستاذ عبد الحميد عنبر (يرحمه الله) فقد عرفته من شبابنا، يوم كنا شباباً، فلم أر عليه ما يعيب، أسأل الله أن يكون من الذين يستظلون بعرش الرحمن.

والبشارة وفي بعض ما يرسخها من رؤيتي، سمعت بها، كأنما العين كانت أذنًا، إن عياله، قد أضفى عليهم النعمة، تغمده الله برحمته.

السلوك والأسلوك

- وسرت مع أحد الصحاب هابطين من السلامة نتسوق، وبينما نحن نمشي في الأسواق مر بنا من كان صاحب من قبل فاقرأنا السلام عجباً فقال صاحبي ما باله هكذا عجل لا يقف يصافحنا هل بينك وبينه شيء؟

قلت بيني وبينه أشياء كلها من عمل الخير ولم يكن بيني وبينه شيء من عمل الشر.

فقال صاحبي إذا كان ذلك كذلك فما له مر وازور واكفهر؟

قلت: هنالك سببان فالأول أن العلاقة التي تنتظم بالخير لا يستحي منها فاعل الخير وبالتالي هو لا يتقيها.

أما علاقة الشر فيستمر إلحاح الشر على صاحبيه فلا ينسى أحدهما الآخر ولا يتنكر أحد منهما على صاحبه والسبب الثاني هو أن صاحبنا هذا قد أصبح من أبناء «السلوك» أفلا تراه تلفت وهو يمشي يميناً حيناً وشمالاً حيناً وخلف وأمام.

فالسلك الذي انتظم فيه يخاف منه ولو من شدة المنافسة بين المنتظمين في سلك آخر، ذلك أنه أصبح لا يأمن حين يسلك طريقة السالكين.

قال: وأي سلك تعني؟

قلت: إنها أسلاك كثيرة طرقيون وخرافيون ومتزمتون ومن ينظر أنه
الفوق ومن ينتظر أن يخرج من تحت وهكذا كثرت الأسلاك وكثر
السالكون.

وهذا كلام له خبيء تاهت فيه العقول.

أما فيما سبق فقد كانت الأسلاك خيرة فأبناء الحرف والحمالون
والسقاء، كل فريق يتزامل مع أبناء حرفته.

فالسقاء يحمل القربة إلى البيوت التي تعاقدت مع زميله إذا ما مرض
زميله يشيل حملة لئلا يقطع المتعاقد قيمة القربة أو الزفة. والحمالون كذلك
يتقاسمون الحصيلة آخر النهار وإذا ما غاب أحدهم لسبب أو لآخر كان
قسمة بينهم كأنه حاضر.

وهكذا تطورت الأسلاك وتبدل السلوك.

العقوق

- وكتبنا عن الوفاء خلقاً كريماً نحمد من تحلى به، فأول فضائله أن يزرع في نفسك الثقة بالذين صادقت أو صاحبته. والثقة تملأ وجدانك بالأمان من الذين يمارسون العقوق. كأنما هم يحسبون أن ما صنعت له ضريبة أديتها أو إتاوة يأخذونها، فينسبون ما صنعت لهم، فإذا بلغوا من الخسة مكانها الأسفل تنمروا لك وتثعلبوا أمامك واستذابوا يحاربونك. بل إن أحدهم قد بلغ منه العقوق مبلغاً شديداً الخطورة لئنه اقتصر عليه فلا تراه ولا يراك. وإنما هو قد أخذ أن يكيد لك كيداً خسيساً حتى بلغ أنه يعرضك إلى جفوة من ترجوه حامياً لك أو أنه قد استعرض الأكاذيب يختلقها اختلاقاً لعله يرى تضيق الخناق عليك، بينما أنت غافل.

لقد جربت ذلك وبليت بالأمرين منه، فلا أدري كيف يتمكن العقوق من هذه الأنفس الخسيسة: أكلت من عيشك، وشربت من شرابك وامتلأ جيبها بعطائك. إن لم تعطه مما ملكت فإنك تعطيه بوسيلة من الجاه أو امتلاك الأمر. الكثير، حتى إنه وقد قبض مبلغاً كبيراً من المال حين بذلت رجاءك لمن أعطاه فإذا عيناه تدمعان يقول:

لو أنك أردت هذا المال لك لما صبرت على بدل الرجاء. فقلت له: ألم تفهم الفرق؟ فحين أرجو ذلك لنفسى فإنه يحمل معنى الاستجداء

والتسول. وحين رجوته لك حمل عطاء المعاني حين استجاب من أعطاك
الرجاء.

ومضت سنون حتى رجعت من سفر طويل فلم يأت لزيارتي. وحين
قابلته مصادفة جاء معي يطلب مني أن أكون ممارساً للخسة أطرح وشاية
بفلان.. أنم عن فلان، لأنه يرى أنها وسيلة لكسب المال. فرفضته من
يومها. وأصبحت «الفوق» بالمعاني وأصبح «التحت» حين ألقى عليه نظرة
احتقار.

أحلام اليقظة

- والشيء بالشيء يذكر، فما دمنا قد ذكرنا أحلام اليقظة والأستاذ حمام، نعيد إلى ذاكرة القراء القدامى صورة مما كتبناه من قبل، ونذكر بها المحدثين.

قلت للأستاذ حمام وهو معنا في جدة أيام كنت مديراً لتحرير جريدة «البلاد» وكان يلازمنا، وتلك أيام مسعدة مضت.

قلت له :

أنت مفلس، حتى لا تخاف أن يكون أحد جيبيك قد مزقته الأيام، فلماذا تحارب الشيوعية والاشتراكية، ولا شيء عندك تخشى أن يؤمموه بعملية سلب وبنص القانون؟

فقال :

- ليس عندي مال أخاف عليه، أخشى أن يسلبوه، ولكنهم قد سلبوا مني ما هو أغلى من ذلك. لقد سلبوا مني أحلام اليقظة، حتى إنني أهرب من هذه الأحلام إذا ما كانت عن ثروة تنصب علي.

فالأحلام كما قلت لك أمس، ونحن في القاهرة، إنها «متعة المساكين وثروة الفقراء وجنون النبلاء» فحين أطردها الحلم أشعر أنني فقدت ثروتي، أخاف عليها أن تسلب، ولا أريد أن أفجع يوماً بفقدان الثروة

الوجدانية التي تطرحها أحلام اليقظة. حين يكون ذلك أصاب بالجنون، وهو ليس جنون النبلاء يذهب بهم أهلهم إلى المستشفيات الخاصة لئلا يفقدوا الترف. أما أنا إن جنت فمكاني مع مجازيب الأضرحة، أفرش البيداء وألتحف السماء.

لهذا تأتي كراهيتي للشيعوية والاشتراكية حين تقتل في أحلام اليقظة.
قلت له:

أو لست معي في أن أحلام اليقظة سلاح فيه قوة الطرد لما يصيبك من هموم أو غيظ أو غضب، تضع رأسك على المخدة وتتوالى عليك أحلام اليقظة لتطرد ما أصابك، ولتقصي كل ما أصابك؟
فقال:

- نعم، لولا أحلام اليقظة لدمرتني الهموم.

الأخطر من الأحزاب

- «وتلفن» إلي أحد العرب المشاركة يريد زيارتي فقلت له: يسعدني أن أراك في مكتب جريدة الشرق الأوسط.. وتفضل بالزيارة.. وبعد الحديث تلو الحديث قال لي: أتعقد في بيتك ندوة يجتمع فيها إخوان يجري فيها الحوار؟ قلت له كان ذلك أملاً قد اضمحل، فأنا أحتفل بالحوار أتعلم هذا السبب أو يعطيني الحياة بما هو قديم. كأنه يمنح من الذاكرة ما كان يضيع.. ولكنني اليوم أسقط هذا الأمل واستحال علي أن يكون عملاً وذلك أني تذكرت البيتين للمتنبي، أبي محسد أحمد بن الحسين إذ يقول:

ولما صار ود الناس خبا جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك في من أصطفيه لعلمي أنه بعض الأنام

فالتجربة التي خضتها علمتني أن تتضخم في نزعة البعد عن التجمع والتكتل، لأن في ذلك السلام من الذين ينهبون كلامك أو الذين يتلصصون على كلمة تبدو منك يشوهون بها سمعتك حتى إن بعضهم يكذب كذبة تلقى بك إلى التهلكة، فذلك إنسان قد امتلأت كرشه من عيشي، قد بالغ في إرسال الكذب كاد يرميني إلى تهلكة، وإنسان آخر لم يلحقه أذى مني، أخذ يكذب ويكذب حتى أوصل الأمر إلي الشك في انتمائي وولائي وإخلاصي.. طبيعة الأذى في هذين، من حسن الخلق أن أستر اسميهما،

ومن سوء الخلق أنهما حين عرفا خسران ما فعلا والكسب الذي نلتها، حين عرف من يعنيه الأمر أنهما الكاذبان، فقد بدأ يلحان بالسؤال عني، يدغدغان عواطفني لعلّي أعود إليهما..

لكنني قد غفرت لهما ذلك، واستغفرت الله لهما.. فيكفيهما جزاء الحسرة، وظهور الكذبة.. ولا أحسب أن ذلك كان ندماً، وإنما كان افتعالاً حين عرفا أن إخواناً عندنا قد عرفوا ما افتضحا به.. سامحهما الله.. ثم إنني لبعدي عن التجمعات تجنبت أن أكون عضواً في جمعية أو في أي نادٍ أو مساهماً في شركة.. أريد أن أكون عبداً لنفسي وسيداً لها في الوقت نفسه..

فالتجمع إن لم يكن حزباً يصبح شللاً.. فالحزب قد يكون جهير الرأي، أما الشلل فصناعتها الهمس، وما أكثر الخراب بالهمس.. تجنبت كل ذلك، فلم أحفل بأي ندوة ويكفيني أني خاضع للجماعة، وأنني لم أكن عضواً فيها برأي أشارك فيه على حد قول ابن ريحانة، فارس مضر، دريد بن الصمة:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد
أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصيح إلا ضحى الغد

فسوق الكلام

- ونعود إلى هذا العنوان بطريق العودة إلى عكاظ والعود إن شاء الله أحمد.. نكتب عن فسوق الكلام، فقد أخضعنا أنفسنا إلى نشوء القلم من علامات الساعة ولكننا نأبى الخضوع إلى فسوق القلم لأن فيه التهلك بالسباب تقتل فيه الساعة كأني بكاتب السباب قد أضاع من عمره ساعة ونغص على القارئ من حياته ساعة.

إن فسوق القلم كان المولعون بالهجاء يوم كان التفاخر بالقبائل فأخذوا يقولون «ذل قوم لا سفيه لهم» وقد كان الهجاء سلاحاً سواء لنصرة القبيلة حتى أصبح سلاحاً في نصرة الدعوة.. الإسلامية.. فما كان حسان هجاء مقذعاً وإنما كان مادحاً فخوراً ولكن هجاء الشاعر من قريش دعا حسان أن يرد الهجاء بالهجاء.

وانقضى عصر التهاجي بين الشعراء حتى وصلنا في هذا العصر إلى أسلوب آخر لا يكون فيه الشاعر. وإنما احتلت الصحيفة والمنبر مكانة الشاعر، لأن الإقليم احتل مكان القبيلة.. إن الذين أصبح لهم سلطان قد تخطفوا المنابر ينزون عليها لا تجد في أسلوبهم إلا التعريض بالسباب.. والتفريط في حقوق الأخوان حتى أرضخوا الشعوب تفتش عن الحب كاد يضيع في غمرة السباب.

ويعجبني قول الرافعي وإن كان ذلك قد صاغ سبباً في العقد قال الرافعي مصطفى صادق «إذا اتخذت سفيهاً ليسافه عنك فاحذره في اليوم الذي لا يكون فيه سفيهاً إلا عليك» وهكذا أرحت نفسي.. أسكت عن السبب لو نالني كأني أحترم كلمة «النصيبي» فقد قالوا له «إنك لا تحسن الهجاء» فقال «ألا ترون أنني أحسن فأقول أسأت مكان أحسنت؟».

إن فسوق الكلام خدش لمكارم الأخلاق.

الإشفاق

- كثيراً ما يكون الإشفاق تعبيراً عن الشماعة، ويمكن التعرف على ذلك من خلفيات التعبير التي تظهر على سرائر هذا المشفق، وقليلاً ما يكون الإشفاق رحمة وعوناً إذا لم يكن كلاماً وكان عملاً.

فالمشفقون الراحمون يبذلون العون بصمت، نقرأ على وجوههم معاني الوفاء والرحمة والعون، فإذا رأيت صاحباً يتكلم بالأسلوب الآتي فاعلم أنه قد أعلن الإشفاق وفي وجدانه شماعة.

كأن يقول لمن يتحدث إليه: «والله الزيدان أستاذ طيب.. لكن شايفه تعبان.. يظهر أن عنده حالة.. يا أخي لازم الواحد منا يقول له أشفق على نفسك.. ترى النهاية قربت.. لازم ما نعذره حتى لا يتمادى».

يقول ذلك ويسكت ينتظر سؤالاً، فيقول له واحد: «هيا كمل».

فيقول: «بس خلونا من سيرته.. كم مرة قلنا له ارحم نفسك وارجحنا فلا يسمع».

فيقول الآخر له: «بايش يرحمنا؟».

فيقول: «آه.. إيش أقول.. يرحمنا من اللت والعجن، لا أضيق به وإنما هو يضايق نفسه بهذا كله».

يقول ذلك ويبتسم ابتسامة صفراء دائماً يطبعها على فمه كأنها الإكليشية.

هذا الإشفاق على هذه الصورة يمارسه كثيرون حين يسألون «ليش فلان زعل من فلان، قد كده هو حساس»؟. وهكذا يحاربون صاحبهم يأكلون لحمه بالغيبة على هذه الصورة من الإشفاق.

أهلاً يا دكتور

- ولست زاهداً أتجافى مع لقب الدكتور، فقد حل هذا اللقب قيمة علمية يشرف بها ويفخر من يحمله.. لكني لا أرضى الزيف.. فقد يلقاني أكثر من واحد من الذين يقرأون لي أو يسمعون أحاديثي أو يشاهدونها على التلفاز فيقول لي: أهلاً يا دكتور.. فلا أستجيب، أستريح لهذا اللقب وأنا لا أحمله فأقول لمن خاطبني: لست أحمل هذا اللقب.. فقد فاتني أن أكون خريج جامعة وإن حظيت أن أكون خريج جامع.. فالمسجد قد أعطاني لقب الأستاذ، فدع عنك تلقيبي بـ «يا دكتور».

لا أبغى بحمد الله منزلة غيري أحق بها إذا راما

- شرفت بلقب الأستاذ يوم كنت معلم صبيان في المدرسة ولصق بي حتى إن إخواني وأندادي لا يدعوني كل منهم إلا بـ «يا أستاذ».. ولماذا أكتب ذلك؟ فينبغي أن يكون مكانه في الذكريات التي أنوي أن أكلّمها.. لكنني سمعت أن أحد أبنائنا الذين بذلوا الجهد حين أتاحت لهم الفرصة أن يتحلوا.. يحملون لقب «دكتور» فهذا الابن الدكتور ناداه أحد مخاطبيه يا أستاذ فيغضب غضبة ليست مضرية وإنما مضرة يقول لمخاطبه «أنا دكتور.. لست أستاذاً الأستاذ معلم الصبيان من المرحلة الابتدائية حتى الثانوية» وكأنه نفى على الأستاذ في الجامعة أن يلقب بالأستاذ واحترم

لنفسه ولأساتذة الجامعة أن يكونوا الدكاترة فقط لا غير .

إن لقب الأستاذ يتشرف به الدكتور حين يمارس إلقاء المحاضرات .. فاللغة هضمت هذا اللقب .. عربته من الفارسية فهو يعني المعلم .. واعتلى حتى أصبح لقباً يعطى لأكبر الدكاترة، أستاذ كرسي، أستاذ مساعد، الأستاذ العميد، الأستاذ المحاضر .. وكان لقباً انفرد به رجال تناولوا العلم المعلق بالثريا، ابن سينا .. أبو إسحاق الإسفراييني كما لقب به كافور الإخشيدي وحظي به ابن رشد .. غير أن كثرة الاستعمال حولته العامية إلى معنى المعلم .. ففي نجد يلقبون البناء بالأستاذ .. أحالوا الذال دالاً، وفي الأقاليم العربية الأخرى وفي الحجاز يلقبون معلم الصنعة سمكياً أو حلاقاً أو مصلح ساعات إذا ما استجادوا صناعته .. هذا أسطى .. فكلمة الأسطى انحرفت بهذا اللقب على هذه الصورة وما أظن صاحبنا قد خشي أن يستحيل إلى أسطى، أو إذا كان مهندساً معمارياً يخشى أن يستحيل إلى أستاذ .. ثم ماذا يصنع صاحبنا إذا ذهب إلى القرية وسمع الجيران بأن ابن القرية الدكتور قد حضر .. وهو ليس طبيباً فيأتيه بعضهم يقول له «أنا مريض يا دكتور» لعلّه يضحك فيلاطف هذا المراجع إذا كان رفيقاً بأهله وإذا ما تذكر أن كل طبيب نسميه الدكتور ولو كان لا يحمل إلا بكالوريوس طب .

يا بني هوّن عليك واقبل على تقاليد شعبك .. وإنك لتحمل لقباً شريفاً هو لقب الأستاذ خصوصاً إذا ما كنت مدرساً في الجامعة .. فلا تخطئ طالباً حين يسألك .. يقول يا أستاذ ..

غور الرجال

- قال لي: أراك قد قابلت هذا الذي قد تخلى عن أنصاره، قابلته بالحفاوة والتكريم مع أن ما كنا نظنه إلا ويستقبل منك بالجفوة أو حتى الشماتة.

قلت: صحبة الرجال صنعة يستقيم بها السلوك. ويسلم منها الإنسان إذا ما سلك الطريق بالإغضاء عن الماضي والإحتفال بحاضره ليستريح في مستقبله.

أنت تنكر عليّ الهشاشة والبشاشة والتكريم ألقى بها هذا الإنسان، وكان قد جف ريقه واصطهل بريقه في الإساءة إلي. كان ذلك ماضيه فإذا ما خسرت ماضيه فهل تريدني أن أخسر حاضره ومستقبله؟

لو أنني جفوته الآن لأعطيته راحة الضمير يبرز إساءته السابقة، فلا تكتنفه الندامة، أما أنني حين أكرمته فقد أرحته ظاهراً وأتعبته باطناً. فالكرامة له مني توقظ ضميره يندم على أن أساء إلي، فأيهما أولى.. أن أريح ضميره حين أجفوه أم أستخلص ضميره نصيراً لي عليه؟ فظاهر التكريم فيه المكر من باطن التأليم.

فقال: من يطبق ذلك؟

قلت: يطيقه الذي صبر على الأذى حين استفاق، فإنه سيصبر على أن
أنتقم للأذى بأسلوب ناعم كياد.

فنصيحتي لك أن تسبر غور الرجال، فما كل بيضاء شحمة ولا كل
حمراء لحمة.

الاحتقار

- كنا في حفل في إحدى السفارات العربية، فرأيتني أذهب إلى صديق كريم وكبير قد بلغ شأواً وما أخذت منه الأيام أن يكون شلواً، فلئن تأخر عن أن يكون في القدام فلا يزال له مقام واحترام. فقد كان حريصاً على أن يحترم، وكان أشد حرصاً على احترام الآخرين، فعنده أن من لا يحترم غيره لا يحترمه غيره.

ووقفت أسلم عليه، فإذا برجل الكثير فيه كان من صنع صاحبنا، فتح له الطريق حتى ملأ جيبه، ولكن لم أجده في تلك اللحظة قد شكر ما في الجيب بما يمتلئ به القلب.

ولقد سأله صاحبنا عن شيء فأجابه بما استشعرت منه أسلوب الاحتقار، فقلت لصاحبي أمام ذلك الرجل:

- الناس معادن..

فقال صاحبي:

- ماذا تعني؟

قلت:

- كلمة احتقر بها من احتقرك، أريد أن يسمعها، فلو كان من معدن

نظيف لأجابه بأدب. لقد مات صدى الشكر في وجدانه وعاش فيه صدى الكفر..

قلت ذلك وما خشيت، فإذا صاحبي يسترضي بتواضع الكبراء. يقول:

- كان سؤالاً محرّجاً له، فرأيت ما رأيت.

وانصرف الذي مارس الاحتقار غاضباً، وما زلت أبادله احتقاراً باحتقار.

ثم قلت لصاحبي:

- إن أسلوب التعامل مع من يحتقر إهدار لكرامتك، فبعض الناس

يحتقر عن بغضاء، وذلك يهون، أما الذين يحتقرون عن طبع خسيس فما

أحرى بنا أن نتجنب أسلوب التعامل والحوار وحتى المفاوضة في أي شيء

ولأي شيء. فإن ذلك لا ينفع مع من يحتقر..

الشيخ

- ونشأت مسجدياً أحب الشيخ، وكان بعض أشياخي يتجافون. لا تواصل بينهم. بل قد صنعوا الفواصل، يحتجب بها الشيخ عن الشيخ. ولكنني ما خضعت لهذه الجفوة، بل سعت إلى من يختلف مع من أتلّف، أتمتع بلقائه، أقبل اليد وأزود بالمعرفة. فقد ركبتني عقدة. أشتهي التمتع بها، وهي أن أكون القريب من كل الأشيخ، أزود بالمعرفة وأتجنب إشارة من شيخ يتنقصني بها أندادي.

ومضت سنون وأصبحت موظفاً مرزءاً بالوظيفة. فشر الوظائف ما لها علاقة بمصالح الناس، فإذا شيخ أكبر مني قدراً وإن كان أصغر مني سناً. ما حسبت أنه يجفوني على صورة كدرتني.

فقد كان هذا الشيخ في مجلس عند صديق، فهش وبش من في المجلس، أما هو فقد اكفهر.

- ومضت سنوات وأسعدتني مصادفة في طائرة كنا فيها من الرياض إلى جدة. وحين ذهب لقضاء حاجة وعاد نهضت أستقبله، وأقبل يده. وحسبته يسأل لماذا وإن لم ينطق.

قلت احتراماً للشيخ وإجلالاً للقرآن. فأنت قرآني الأتباع، سلفي العقيدة. وقبل ذلك كنت مثلي تمارس مهنة التعليم التي هي أشرف مهنة

وقد قلت من قبل إن أتعس أيامي أني كنت موظفًا. وأسعد أيامي أني كنت معلم صبيان.

وما لقيت هذا الشيخ بعدها. ولكن بلغني أنه قد رضي عني يوم أسعدني بذلك أطال عمره وأمدته بنعمة التوفيق.

الصيحة

- والشيخ العجوز يطرد أحلام اليقظة حين يستجلب بعض الأفكار، أو حين يستجلب رأيه في هذه الأفكار.

وفي لحظة نامت فيها اليقظة واستيقظت فيها الذكريات وتداعت الخواطر. فإذا بي أتذكر وسائل الهلاك التي صبها الله على من عذب من عباده. وسخرت من الذين يقولون إن عصر الكوارث قد انتهى، فلا ربح صرصر ولا دمدمة ولا الحجارة من سجل ولا الصيحة.

وعندما نطق جرس الصيحة في أذني وجدنتني أسأل ذاكرتي وأستجدي رأيي بهذه المقارنة أو المفارقة.

إن الصيحة من الملك المأمور بها أو مما أعده الله يرسل الصيحة يهلك بها الظالمين جاء الواقع الآن وهو من صنع البشر مؤيد لتأثير الصيحة سوط عذاب.

فالعلم اليوم صنع من الكهرباء أو في الكهرباء صيحة هامة، يسلطها على الحديد الصلب الضخم لا أسمعها، ولا يسمعها من يحرك الجهاز، فإذا بها تشطر الحديد شطرين كما يريد.

وقد صنعوا ثلاجة كهربوها بما يحدث الصيحة، تضع كأساً في مكانه من الثلاجة فلا تشعر يدك بأي حرارة، ولكن الجهاز يرسل صيحة تسخن

الماء في الكأس، تشرب الشاي أو هو الحليب، أو أي ماء أردته أن يكون في درجة حرارة عالية.

فالصيحة تقص الحديد، والصيحة تغلي الماء، تؤثر دون أن نسمعها وهكذا أودع الله القوة فألهم الإنسان أن يصنع ذلك.

إنه ليس اختراعاً، ولا ابتداءً ولا خلقاً ولا صناعة. إنما هو الكشف كشفه الله للذين ما أوتوا من العلم إلا قليلاً.

واسترسل خواطري اسأل..

هل ثمود أخذت تعيش في بيوت تنحتها من الجبال «وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً» يتسترون بها تعصمهم من الريح الصرصر أهلك الله بها عاداً، فلجأوا إلى الجبال يتقون الريح، وحين كذبت ثمود بطغواها أهلكها الله بما لا ينتظرون، وهي الدمدمة ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمُ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ (الشمس: ١٤) توقوا الريح فأهلكهم الله بضيق الأنفاس. فهلكوا حين انعدم الأوكسجين، فلا يتنفسون فهلكوا.

وهكذا الإنسان يطغى، فإذا هو يصنع القنابل الذرية والأسلحة الكيماوية والقنابل الانشطارية ليحفظ حياته مع أنه الآن يعيش الخوف مما صنع. فالقوة في يد الإمبراطوريات مصدر طغيان بل إنها لمصدر خوف ولربما أصبحت هي كارثة الكوارث، وإن لم يكن الهلاك بها. فالله قادر على هلاك الظالمين بكوارث يصنعها جلت عظمته.

فالنذر أمام أعين الناس، فالأعاصير والزوابع والثلوج والأمطار والفيضانات والبراكين والزلازل ما زالت كوارث باقية إن اقتصرنا على مناطق فلا يبعد أن تنتشر في أرض يحسب الطغاة فيها أنهم ناجون.

لا عتاب ولا ملامة

- وقبل سنوات عجب صاحبي من استقبالي لصاحب قديم ما حسبني
إلا كنت صانع معروف له فلم يذكر ولم يشكر. فقال صاحبي:

كيف استطعت أن تستقبل هذا، وما ترك لحظة إلا وقد كاد لك؟
وكيف قد انصرفت عمن جاء قبله؟

لماذا أكرمت الأول وجفوت الثاني؟

قلت:

- إن الأول قد بلغ من الخسة مكاناً دنيئاً فمن الضعف أن أعاتبه فلو
سألته عما فعل لأثلجت صدره حين يراني مكروباً منه.

لهذا تركته وما فعل لأنه لا يصلح للعتاب ولا تصلحه الملامة.

فاستقبالي له هاشاً باشاً هو القدوة لحديث نسب لسيدي أبي الدرداء «إنا
لنبش في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم».

فالبشاشة في وجه هذا الكياد فيها شيء من اللؤم أركبه به لئلا يفرح
بأنني قد حسبت له حساباً.

أما الثاني فقد زل وقد اعتذر، أرسل لي ذلك مع صديق وحين أقبل
تهجمت قليلاً لأمخض زبده، لعلّه حين يقوم من المجلس يفتح باب العذر

ويفتح باب العتاب لينفتح باب الصفح على مصراعيه .
وقام صاحبي وخرج معه الصديق ، حتى إذا اطمأن الصديق إلى خلو
المكان رجع يعتذر ورجعت إليه كأن شيئاً لم يكن .
من هنا . . لا تعاتب من أفرغت يديك منه ، وعاتب الذي ما زالت
يداك مملوءتين بالود والوفاء له . .

المتناقضات

- الحياة في دنيا الحيوان وفي دنيا النبات وفي مسيرتها كلها لا تبرز قيمة الحسن والنافع إلا إذا عرفنا النقيض، أعني القبيح والضار. وما إلى ذلك.

فالإنسان إذا ما عاش المتناقضات فإنه يشعر بمتعة العيش في حياته.
إن الظمأ هو الذي يعطينا لذة المتعة بالارتواء، والسهر يشعرنا بنعمة النوم، والمرض يعطينا الشكر لنعمة الصحة.

فهذه الأمثلة يشعر بها كل واحد، لكن الأمم التي لا تعيش المتناقضات ستبقى في عماية التاريخ، وغيبة العمل لإبراز الوجود.

- كم هو جميل النصر، ولكنه يضار أو يضر إذا ما تسرمد الشعب، يعيش البطر بالنصر.

إن العطاء للنصر أن نحذر الهزيمة له، فتوقع الهزيمة عطاء للحفاظ على النصر.

من هنا تثبت القيمة للتناقض. فأیما إنسان لا يعرف المتناقضات يصبح النقيض لنفسه.

والهزيمة عمل سالب لقوة الشعب، لكن يقظة الشعوب تسقط الهزيمة

إذا عملت على إيجاد النقيض، وهو الانتصار.

والهجر كنقيض للوصال يعطي الحب قوة أكثر من قوة الوصال.

لقد عشت الحب يوماً، ولكنني لم أخف الهجر، وإنما خفت أن يموت الحب ولو بحب جديد. فالحب الجديد نقيض للحب الأول، قد لا يكون عوضاً عنه، ولكن قيمة التعويض هو أنه باعث للحياة في نفسي للحب للتقديم.

وهكذا أرحب بالنقيض فإن السلب داعية الإيجاب.

عشق الحرف

- وعشقت حرفه تقرأه أكثر من مرة، يغبطها حيناً، لأنه يكلفها ما لا تطيق، فهي القريبة بحبها له، والبعيدة بعد المسافة عنه. لم تره مواجهة، ولكنها رآته عبر الحروف تقرأها وتكتب إليه ليقرأها. فهي وهو يقرآن على صورتين.

قراءة الحرف لتأتي بعد قراءة الكاتب والكاتبة.

كتبت إليه لا تعلن اسمها ولا تعلن اسمه على حرفها. اتخذت لنفسها لقباً لم يكن من التراث العربي الأصيل، لم تقل «ليلي» ولا «جميلة» ولا «بشينة» ولا «عزة» ولا «مي» وإنما أخذت اللقب من التراث العربي الدخيل.. «شهرزاد». ولم تطلق عليه لقباً إلا من التراث الدخيل.. «شهریار».

عجيب أن يكون الحب عبر الأقمار الصناعية، أو عبر الحروف على الورق، أو الصورة على الشاشة كبيرة أو صغيرة فقد بعدت أن تحب على هذه الصورة.. صورة القمر الطبيعي.. أبعدت عنها عن قول عياض يرحمه الله:

رأت قمر السماء فذكرتني ليالي وصلها بالرقمتين
كلانا ناظر قمرأ ولكن رأيت بعينها ورأت بعيني

فالقمر الصناعي قد أخذ من صورة القمر الطبيعي، ولكن الحرف الجميل على القرطاس كان قمراً من صنع الكاتب «شهریار» وكان حرفها قمراً صنعته هي لنفسها..

وقرأت، ما كتبت فإذا بي أعيش الأسطورة، رمز الجمال، في بلدها كان اسمها «عشتاروت» أو «عشتار» وفي بلده «الزهرة».

إن الأرض البيضاء تبيض بها قلوب العاشقين، كما أبيض قلبها حين قرأت حرفه على ورق أبيض.

عن الماضي

- وأصبحت أجتر الماضي كتلك الناب قد بركت في عطنها كلما اقترب منها ظل كان منها الرغاء، كأنها تخاف العودة إلى أن يركبها هذا الظل.. . وكأنما إعلان العجز.. . ترسله رغاء إعلاناً ترسله على صورة أخرى.. . ابتعد عني أيها الظل.. . لا أصلح للركوب وحتى لا أصلح أن أكون جزوراً فعضلي يذوب لا يمتنع لأنه فقد الطعم.. .

قد يقرأ كلمتي هذه أعجمي تعرب ولم يستعرب فيجفونا قلت لأنه لا شأن له بالرغاء والجزور والعطن.

إن اجترار الماضي ذكرني حيث كشف بصيرتي على ما أبصرت من رجال كانوا عليه حلية. احترفوا الأدب فاغترفوا أحاسنه وقالوا من الشعر أحسنه. لم يتصعلكوا بالأدب فإذا الأدب قيمة لهم وهم قيمة له من خلال القيم التي أعزوها فاعتزوا بها.

كان في المدينة وحسبما سمعناه من أشياخنا هؤلاء الرجال الأربعة: عبد الجليل برادة، إبراهيم الأسكوبي، أنور عشقي والشيخ محمد العمري. عرفوا بالأدب والشعر نقاداً وشعراء. أما المسجد ففيه الجليل الجليل من العلماء.. .

قالوا: قدم إلى المدينة عالم تركي عربي اسمه «حافظ عثمان» وصفوه

وكأنه المعري ذكاء. وحفظاً وفراصة. وخطر له أن يتحدى، فعرض على الأدباء العلماء في المدينة المنورة هذين البيتين يتحدى من يشطرهما:

وفي الكأس من ماء الخدود عصارة أباح الهوى للعاشقين شرابها
وما كنت أدري قبلها أن وجنة تنفس فيها عاشق فأذابها

وقبل التحدي الأفندي أنور عشقي، وهو من بيت علم ومن أعيان المدينة، فشطر البيتين:

وفي الكأس من ماء الخدود عصارة مشعشة شب القسام شبابها
ومذ كان فيها للأنام منافع أباح الهوى للعاشقين شرابها
وما كنت أدري قبلها أن وجنة هي الشمس صانوا في الكؤوس لعبها
ومن عجبي ياقوتة في زجاجة تنفس فيها عاشق فأذابها

وركب الشاعر أنور حصانه يذهب إلى بيت السيد عبد الله مدني (والد السيدين عبید وأمين) حيث كانوا في ضحى النهار يجتمعون.. وسمع حافظ عثمان التشطير فصفق يطلب العود يغنيها وغناها.

ترف من حظوة الشرف. فلم يكن هناك مجال للقرف.

ويل للقوي من الضعيف

- كتبت عن ذلك من قبل أضع قوة الضعيف قاهرة للقوي في صمود الشعوب، فالتاريخ حافل بذلك.

ولعلّ في ما جرى الآن في لبنان، ولا حاجة لذكر ذلك، برهان على أن قوة الضعف قاهرة للأقوياء، غير أنني أعرف حكاية عن رجال ثلاثة ذكرت الوضع ولم أشرح حالة كل رجل.

إنها حكايات كان يقصها أبي علي، فقد كان رحمه الله قوياً، ولكنه كان يخاف الضعفاء، وإن استعصى على الأقوياء.

قال:

كان في قريتنا في صعيد مصر رجل قوي العضل شديد البأس لا يطاق، إذا ما بطش أعجز وأفنى. ضرب مرة رجلاً نازعه فأعجزه. وكان للرجل أخ قزم أقرع أعرج. فصرخ أمام أخيه يسمعه الزائرون.. سأخذ بحقك، سأقتل عبد الرجال.

وكان هذا اسم البطاش.

وسخر السامعون من هذا الأقرع الأعرج القزم ولكن بعد أيام جاءهم وفي يده ساطور يزغرد، وعلى الساطور الدم، يقول:

لقد قتلت عبد الرجال ..

كان عبد الرجال يجلس أمام سدة بيته، ظهره إلى الباب مفتوحاً فتسلل القزم من الدور داراً بعد أخرى ونزل من سطح الدار فإذا هو وراء عبد الرجال من داخل بيته تسلل الهوينا وشرخ رأس عبد الرجال بالساطور، وأخذ يضرب بجنون حتى تهشم رأس الجبار.

وزغردت القرية، انزاح عنها ظالم، وأصبح القزم بطلاً.

وبعد تأتي قصة الاثنين الآخرين.

غوث التقوى

- ورحلوها هي وزوجها مع أهل المدينة كلهم الذين أجبروا على أن يسافروا إلى الشام فيما عبروا عنه باللغة التركية «سفر برلك» عذمت هي وزوجها ومعهما طفلة صغيرة أن يسافروا قبل أن يسفروا. أو قبل أن يفرقوا بين الزوج وزوجته. فوصلوا إلى الشام ولم يجدوا سكناً. وفي حلب لم يجدوا كذلك. فرحلوا إلى الأناضول في قرية اسمها «الدورتيول» فوجدوا المسكن المتواضع وما يسد الرمق.

وتوالت الهزيمة على الدولة العثمانية، وانتهت الحرب العالمية الأولى، فرجعوا عن طريق حلب ودمشق وينبع إلى المدينة المنورة. وفيها وجدوا مسكناً متواضعاً في باب المجيدي، ليس فيه فراش حتى الخصف، وليس عندهم ما يشترون به خبزاً يغني من جوع فضلاً عن أن يشتروا فراشاً.

أزمة خانقة، وكانت الزوجة على وشك الوضع، وخرج الزوج لعله يجد ما يقيت. وضربها طلق النفساء، لا بصل ولا عسل. لا فحم ولا لحم جوع يتكلم وصمت حزين. فنظرت الزوجة إلى الجدار وهي تعاني آلام الطلق فوجدت غاراً في أعلى الجدار وشيئاً يحركه الهواء، حسبته حشاً. أسرعته تتحامل على نفسها فامتدت يدها إلى «الخرقة» المتحركة بخوف، سحبته فإذا هي صرة تحوي خمسة وثلاثين جنيهاً ذهباً عثمانياً. فصرخت

«الله أكبر».. جاءها الغوث من الله. هو سبحانه أسكنها في هذا البيت، من حرك بالخرقة إلا أمر الله؟ كيف وضعت الصرة في الغار يغيث بها الله الملهوف؟

إنها لعجيبة، وإنها لرحمة الله.

وجاء الزوج.. وجد وجهها مشرقاً وقد وضعت بنتاً.. ناولته الصرة فانفتح الطريق إلى عيش رخي.

أندرون من هي؟ إنها جدة أولادي لأهمهم قد نيفت الآن على الثمانين..
ذلك غوث التقوى.. فالله أكبر.

فول وترمس

- وفي حفل كبير لزائر كريم وقفت أتحدث مع الابن الصديق الأستاذ رضا لاري، وانضم إلينا بعض من أراد أن يتحدث معنا، ومنهم صديق في مكان مرموق ومسؤولة واعية.

قال ليس من التوعية في هذا السرف في النقد، فقد يكون بعض النقد تشهيراً، مع أنه في الإمكان أن توجه الملاحظة إلى المسؤول عن المرفق أو الوضع الذي يرى الكاتب ما يلاحظ عليه، فليست هناك أقفال أو مصابيح حمراء على مكاتب المسؤولين.

وأحببت أن أمارح الصديق الذي أصبح واعظاً نسترشد بوعظه قلت له: معنى ذلك أنك تستطيع الثناء ولا تجفو المدح إذا كان منصباً على ما نراه من خير.

قال: نعم. المدح مرغوب.

قلت: والسرف فيه مرفوض، ولكن هل يعجبك ما أكتب وقلمي رطب بالثناء؟

فقال: يا أستاذ.. «أنت لو تكتب يا فول وترمس» تعجبنى.

وأخذتها على أنها من باب الطنز أي السخرية ولكني الآن أشكره

عليها. لأنها نصيحة فاتني أن أكون بها أستريح من جرائر الحرف وغضب القارئ أو إعجابهم.

لو كنت «بياع فول وترمس» لبقيت رجلاً غير مشغول بالناس. فلا أشغل بحصيلة ما أبيع من الفول والترمس، ولكن الآوان فات.

ولعلي فيما أكتب لم أزد على بيع الفول والترمس، فقد قالوا المكثار لا يسلم من العثار ولكن دعني أصبح ثرثرة في كل يوم أكتب..

الورم

- يتنفخ الوارم، يستعرض عضلاته في تكبر، فهو مذخلاً من الكبرياء ولم يعرف قيمة التواضع تصور أن التكبر وأن هذا الورم يفرض على الناس منزلته. وقد يكون في وضع الرئيس لمرؤوسين، وبحكم الطاعة تفرض على المرؤوس يجد هذا الوارم عطاء القيمة، مع أن هؤلاء التابعين إذا خرجوا من عنده تنفسوا الصعداء.

وما أحسن قول المتنبي ..

أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

فالوارم صفيق، والتورم يثقل به دمه، فلا يكاد يطاق عشيراً. وقد كان صديقنا «محمد العبد الكريم الخريجي» يرحمه الله إذا أقبل الصفيق ثقل الدم قال:

- صبراً.. إنه زكمة.

يعني أن ثقل الدم له تأثير الزكام، هذا المرض الذي لا يتركك معافى، ويطلب منك أن لا تكون مريضاً.

وقد سمعنا حواراً نقل إلينا عن فيصل الدويش وعبد المحسن الفرهم، شيخين قبلين يرحمهما الله. فقد كتب مرة فيصل الدويش أيام كان حال لم

يرض عنه عبد المحسن الفرّ، كتب الدويش إلى الفرّ هذه الكلمة
المجنحة :

«من فيصل الدويش إلى عبد المحسن المتفخ».

فأجابه أخو حسنة عبد المحسن الفرّ :

من عبد المحسن المتفخ إلى فيصل المنفس .

إجابة مجنحة :

هكذا أشياخي، ما كانوا يقرأون، ولكن كانوا يفقهون . .

أمي الغولة

- وحفظنا من حكايات جداتنا اسم «الغولة». ثم حفظنا هذا البيت :
أيقنت أن المستحيل ثلاثة الغول والعنقاء والخل الوفي
وفي شواهد التراث استبدلوا اسم الغيلان بالسعالي :
رأيت عجباً مذ أمساً عجائزاً مثل السعالي خمسا

فهناك حكاية تقول إن أمي الغولة قد استحوذت على أرض الزبرجد،
وقد عرف الإنسان هذه الأرض سمع عنها، فأراد أن يغزوها. ولكن أبت
الإنفرادية أن يجتمع غزاة الزبرجد كل فرد يكتم عن الآخرين، يريد أن
يستحوذ على الزبرجد كله لنفسه. وكلما ذهب واحد اغتالته الغولة تحمي
زبرجدها. فهي لا تعرف قيمته وإنما هي تتمتع بإشعاع الزبرجد. هو نورها
في الليل، ومتعتها في نظافته، استطاعت أن تزيح بعض الزبرجد فأنشأت
مزرعة تروى من شلال ما يجري من الجبل، يسقي الأرض ويغسل
الزبرجد.

وفطن إنسان بأسلوب «تكنولوجي» جاء يزحف. وكان ثديا الغولة قد
ألقتهما وراء ظهرها، فحبا الإنسان حتى وصل إلى الثديين وأخذ يمتص من
ضرع الغولة، فالتفت إليه.. قالت :

لقد نجوت.. أصبحت ابني.. ولكن لن أدعك لأنك خوان. احتلت
علي لأبقيك حياً، وفي غفلة مني تسرق الزبرجد.
لن أقتلك، إني لا ألوث يدي بدم من رضع من ثديي. ولكن تعال..
صارع هذه الأفعى.. إن قتلتها تنتصر عليها، أعطيك ما تريد من الزبرجد.
وإن قتلتك استرحت منك.
وأثارت الأفعى فإذا هي بالفحيح خدرت الإنسان ثم لدغته.. يموت
وفي يده كومة من الزبرجد.

اسكت . . اسكت

- وكان جالساً معي حتى إذا سمع الخبر أن بريطانيا في أزمة جفاف .
تأخر المطر فلم يغاثوا، ففي الغرب شحت المياه وتأثر الزرع والضرع قال :
لا بد أن تصبح أوروبا صحراء مادام قد بدأ الشح في المطر . قلت :

اسكت . . اسكت . . فمن حماقة أن تتمنى أن تكون أوروبا صحراء
مجدبة . . أنت لا تعرف أن حاجة الأوروبيين إلى الزبد والطاقة هي التي
جعلتهم يستعمرون آسيا وإفريقيا . . حين تصبح أوروبا صحراء مجدبة يعود
الاستعمار كرة أخرى بصورة شرسة، لا تستهدف احتلال الأرض، وإنما
أول أهدافها القضاء على ساكن الأرض التي سيستعمرونها . .

فإذا ما أصحرت أوروبا . وحسب دورة الزمان، فإن أفريقيا تصبح الجنة
الخضراء، كما تصبح آسيا أشد خضرة مما هي عليه الآن . وعندها يقتل
الإنسان الآسيوي والأفريقي لتتسع للأوروبي الأرض الجديدة . .

إن ضيق العيش في شمال آسيا وشرقها هو السبب الذي جعل الآري
من القوقاس، والمغولي من الشرق أن يقتحم المسيرة، يسير إلى أوروبا بعد
أن أنجلي الثلج عنها . .

إن ضيق المعيشة هو الدافع الأول يلزم الجياع أن يزحفوا إلى مواطن
الإمراء، فأنت حين تتمنى الشظف والجوع لأوروبا فإنك من حيث لا تدري

تضع آسيا وإفريقيا في مواطن الهلاك، يعيش الطارئ الجديد يقذف بالسكان القديم بعيداً أو يقتله، وقد يبقى بقية يسخرها، فالهجرة إلى الولايات المتحدة قد صنعت ذلك فالحاجة إلى الزبد والدفء والفرار من الطغيان هو السبيل لوجود الإنسان الأوروبي أمريكياً، سكسونياً في الشمال ولاتينياً في الجنوب، وخليط من هؤلاء وهؤلاء في كندا، وخليط آخر من الأفارقة القصار الجعاد، ساقوهم سوقاً يسخرونهم لعمار الأرض الجديدة.

أسكت.. أسكت.. فما أشد ما جهلت.

فقال:

إن دورة الزمن سوف تأتي بالأعاجيب، وتلك الأيام نداولها بين الناس..

إذا عكك الأدنى

- قال لي: أعرف عنك أنك إذا ما خلوت مع نفسك واختلي بك ما تأتي به ظروف تكربك أو مفرحات تطربك، أخذت تنشد شعراً تتعزى به، تطرد كل السلبيات في نفسك، أو تهتز تعلن ما أطغت.. فما شأنك اليوم مع بعض ما تنشد به من الشعر؟.. قلت: حفظنا أن كبيراً عظيماً كثيراً ما كان ينشد هذين البيتين:

إذا عكك الأدنى الذي أنت حزبه فواعجباً إن سالمتك الأبعاد
وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

فعظم المسؤولية التي يحملها قد أعطاه من عقله أن يحلي بصبر
الكبرياء وكبرياء الصبر.. وقد يحلو له إذا ما اهتزت أردافه أن يخاطب
الإخوان والأعوان والبنين بهذين البيتين أيضاً:

البيت لا يبتنى إلا على عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد
لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

ودعني أنصرف إلى نفسي لأنشد قول ابن زيدون أحمد:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا فما أبتلت جوانحننا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا

ثم أنطلق من هذين البيتين إلى بيت أحمد شوقي:
أحرام على بلبله الدو ح حلال للطير من كل جنس

وأعود إلى نفسي مرة أخرى لأنشد قول ابن زيدون:

ما على دهري بأس

يجرح الدهر ويأسو

والمحاذير سهام

والمقادير قياس

ربما أشرف بالمرء

على الآمال يأس

تلك كانت سلوتي الإعراب عن المرارة بالحلاوة، وأرفض أن أجتر
الحلاوة مرة ولكن جاءت المرارة في هذه الحلاوة في قول الشاعر:

جزى بنوه أبا الغلان عن كبر وحسن فعل كما يجزى سنمار

فأعاد صاحبي يقول: حين يمرضك الكرب تعزف لي نغمات الطرب،
وحينما تطرب لا أجذك إلا إنسان نفسك.. قلت: هو هكذا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا
يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (القصص: ٧٦).

أنا وصاحبي

- وتحدثت إلى صاحبي الذي كان شاباً دأبه أن يحترف السلب ضد كل شيء كأنما يريد أن الدنيا تسير على هواه يرفض المتعة لأنه يكره زوالها. ويمتدح نفسه بالرفض حيث يزعم أن رفضه استقلال لذاته.. وكنت على نقضه. أحترم الإيجاب، كل شيء مقبول لدي. المتعة لا أرفضها، لها وقتها، وما يكرهني أنتظر فرجه ليكون الأمل في الفرج متعة جديدة.

ومضت سنون فإذا أنا وهو نتبادل المواقف فقد أصبح إيجابياً كأنه هو أنا فيما مضى. وأصبحت سلبياً كأنني هو فيما مضى. وقلت له: أراك اليوم أصبحت تستجيب للأشياء، لا ترفض المتعة ولا تجزع من الكرب. فهل أنت حين قاربت تصل إلى سن الكهولة قد أتعبك السلب والرفض فأردت أن تستريح إلى الإيجاب؟

فقال: لم أستوح من الكهولة ذلك. وإنما هي الأحداث علمتني أن أتجه إلى الصبر عليها، فالمقاومة لهذه الأحداث أصنع بها حدثاً مكرباً لنفسي. ولهذا أتحمّل كربها فلا أضيف لها كرباً أصنعه لنفسي.

وقلت له: تخريج أقبله، وإن كنت مصراً على أن الكهولة هي التي صنعت ذلك بالتعجيز لا بالعجز. أما أنا فحين أصبحت كما كنت أنت من قبل أجابه الأمور بالرفض والسلب فإن ذلك من فعل الشيخوخة. أعادتني

الشيخوخة إلى طفل جديد. وما أكثر ما قلت إن الشيخوخة طفولة جديدة.
فالشيخ الطفل الآن أصبح رافضاً. فأنت ترى أن الأطفال يستجيبون لما
يرغبون. ويرفضون بعناد كل ما يكرهون.
قال: يسعدني أن أكون الكهل. ويشقيني كشجي بك أن تصل إلى
الشيخوخة.
قلت: أرجو أن تعيش طويلاً حتى تصل إلى مرحلة الطفل الجديد تعود
إلى الرفض والسلب.

الريم

- وسافر في مهمة، حتى إذا وصل إلى «الصمان» وابتعد عن «النفود» طاب له أن يستريح، وأحب أكثر أن تستريح السيارة، فالسفر الطويل يتعب الإنسان والراحلة ولو كانت سيارة وبينما هو يقبل في ظل السيارة لمح في ضوء السراب إنساناً يسير نحوه، وحقق ينظر إليه، فوجد في يده هلالاً أبيض فهمس مجرد من نفسه إنساناً آخر.. يقول:

أتلك قطعة من القمر؟

حتى إذا وصل إليه ذلك الذي لفه السراب وجده يحمل ريماً رضيعاً فتعلق يريد أن يشتري الريم، فابتاعه وليست عنده «بزازة»، ولم يكن يألف أن يحمل الحليب العلب، وفتقت له الحيلة أن يطلب من صاحب الريم عنزاً مازال في ضرعها الحليب.. وأسرع البدوي إلى مضاربه في السيارة يأتي بالعنز.

ورحل صاحبنا إلى المكان الذي أريد يحمل العنز والريم في السيارة التي هي كالجنيبة مع سيارته الصغيرة، حتى إذا انتهى من مهمته وعاد إلى المدينة الكبيرة أطلق العنز والريم في الحديقة الغناء.

وجلس عصر يوم والريم والعنز يرتعان، وعلى جال القنطرة يسيل منها ماء نمير أبيضت الأرض تحته كأن حصارها يصلح حلية للعرب الأعراب،

وإذا الريم يبصر حنظلة يسرع إليها، دعتة غريزة الطباء طعامها الحنظل في الصحراء، واختطف وريقات من الحنظلة لاكلها ثم مجها، فقالت العنز للريم.. أتمجها وهي طعامك؟ قال: لقد أفسدها طين الأرض ووفرة الماء وخيمة الظلال.

وما كان صاحب العنز والريم يعرف لغة الحيوان، فذلك من الملك الذي لا ينبغي لأحد بعد الرسول النبي سليمان، ولكنه فهم الحوار بين العنز والريم كان يعرف الحنظلة في الصحراء والحنظلة على قنطرة الماء.

عن العجرفة . . قال وقلت

- وسألني أحدهم . . ما الفرق بين العجرفة والغطرسة؟

- قلت له العجرفة اختلاق، والغطرسة تخلق، والسيطرة خلق.

قال: وكيف كان ذلك؟

- قلت: التعجرف يتصرف بشيء من التكبر. يتستر على فراغ كأنما مركب النقص فيه يدفعه إلى ذلك. يريد أن يصنع لنفسه قيمة دون قيم. أما الغطرسة فعن قيمة تخلق بها صاحبها لكنه أحال الخلق إلى سلوك، يهدر قيم الآخرين، يعطي نفسه قيمة أكثر مما لديه وأما السيطرة فخلق لم يتأت لصاحبه إلا عن امتلاء بقيم وسلطان لا بد له من أن يفرض قيمته، فيحترم الذين يرجعون إليه، ولا يحترم الذين يرجع إليهم لأن السيطرة تحتاج إلى مدد من قدرة وقوة وكفاءة، وذلك لن يكون إلا لمن يرجع إليه ومن يرجع إليهم غير أن الكفاءة تحتاج إلى السيطرة التي تنظم له السلوك، لا يضع سلطانه إلا لحزم ولعزم، فلا يضيع سلطانه حين يتنكر إلى عطاء القوة له، يفرضها ردعاً للعبث وإنصافاً لكل صاحب قيمة لا يتعدى حدوده، وفي الخير يبذل مجهوده.

فقال: إن هذه «رطانة» عربية تحتاج إلى قاموس.

- قلت : تلك هي العجرفة فيك ..

قال : وتلك هي العطرسة منك ..

- قلت : فبي وبك ضاعت السيطرة.

مشاعر الغربة

- واغتربت .. أربعين يوماً ..

ولم يكن ذلك هروباً .. وإنما هو الخضوع «للعلاج» .. وطالت «الغربة» حيث لم أجد تلك التي أحالت «الغربة» إلى وطن .. والوطن إلى «علاقة» كأنما «التعلق» أحاله السكن إلى «نظرة» تستشف الجمال .. تشرب من رؤيته .. تسمع اللفظة الأعجمية ترتاح لها الأذن .. كأن لها رنيناً جرسه عربي ..

فالفهم للفؤاد هو معنى «اللغة» فقد يستسيغ الفؤاد لفظة أعجمية يرسلها الجمال .. وقد ينصرف «الفؤاد» عن كلمة عربية لا يحس الفؤاد بتأثيرها .. فالعين آلة موصلة .. والأذن آلة كذلك .. أما الفؤاد فهو الذي يتلقى ما يصل إليه .. يزنه فيخترنه ..

كنت حريصاً أن أراها ولكنهم منعوها .. لأنها الأنثى يحسبون أن مطلب الرجل وقد نيف على السبعين مطلب لا يحبونه له بينما لم أكن كذلك حين كانت «العذراء» كنت «العاشق» العذري .. وحين أصبحت الأم كنت الأب «الفطري» .. ما لمستها يد .. وما لامستها بأيدي .. فالقوة تضمحل أمام الجمال .. تستحيل إلى قوة جديدة .. في طهارة «العفة» وعفة «الطاهرة» ..

- كانت مليحة.. وكانت جميلة.. وكانت «فقيرة» فالفقر كما يقول «علقة المري» حارس الجمال..

ففي إحدى الزورات التي رحل بها «علقة» المري الغطفاني إلى عبد الملك بن مروان.. فقال له عبد الملك وكان يعرف أن «علقة» كثير الحفاظ على بناته.. لم يزوج منهن إلا إلى «العلية» من الرجال.. لعلّ منهم بعض بني أمية..

قال عبد الملك لعلقة.. ماذا تركت لبنتيك في الصحراء من حارس يحرسهما؟

قال: لقد تركت لهما الحارسين «العري والجوع» فالعارية الجائعة «لا تتبطر» ولا «تشهى».. وليس فيها مطمع..

لقد كانت هذه الجميلة التي لم أرها إحدى بنات علة.. ولو لم تصهرها الصحراء.. وإنما هي من بنات الثلج.. لا تغطيها البرودة.. وإنما الإنسان فيها.. والجسد منها.. والدم الفوار يحميها من «الثلج»..

حين أصبحت «الغربة» غربة فيها الكثير من الكربة أخذت أنشد:

ما رحمنا للغريب في البلد النا زح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده وما انتفعا

لقد كان المرض بالغيبة عنها وليس بالجفوة منها.. مرضاً جديداً أعفاني من الانشغال بالمرض القديم..

كان مكان ذلك شفاء بينما هو داء على حد قول أبي نواس.. وداوني بالتي كانت هي الداء..

وحين رحلت من تلك القرية.. من تلك الضاحية أنشدت:

لعمرك ما فارقت بغداد عن قلبي لو أنا وجدنا من فراق لها بدا
كفى حزناً إن رحلت لم أستطع لها وداعاً ولم أحدث بساكنها عهداً
نفثة مصدور.. لا وثبة مغرور.. وإنما هي غناء ينزع إلى الألم وينتزع
المسرة بالذكرى والذكرى حلوة.

فقد عرضت وهي تمرضني أن تعطيني صورتها فرفضت.. وعجبت من
«الرفض» فأتيت بالمترجم أقول لها: حين آخذ الصورة منك تنحصرين
فيها.. فلا أراك إلا على وضع واحد.. وأريد أن تكوني الصورة التي
تشغلني دائماً.. فأراك في كل الأوضاع التي لم تبد منك.. وإنما خيالي
يبديها لي..

إن الصورة حصر أرفضه.. وتصوره تنويع أعيش فيه.. أراك في كل
لحظة في أوضاع متعددة فهل أجد في الصورة تلك «العنود» التي أمالت
عنقها في النفق؟

لكن التصور يريني الكثير والكثير مما أراه لك وفيك.. ومنك..
وبك..

أعيش نعمة هذا الخيال. ولا أريد أن أعيش نعمة الحصر في صورة
على ورق.

الشيخوخة

- وكتب إلي يقول: لقد أصبحت كالناب الشارف تلزم مبركها، ترغي إذا ما رأت أي خيال، ولو كنت أنا التي أحبتني ذلولاً وأحبتها مطية، أوصلتني إلى بعيد، فقربتني إلى قريب. أصبحت كهذه. أرفض الحب، لأنني لم أعد أعرفه وأتطلع إلى الإشفاق الذي كنت أرفضه. فهل الشيخوخة تعاف الحب وتتطلع إلى الإشفاق؟ أعطني رأيك. لا أتطلب الراحة فأنا الآن في الراحة المتعبة، يلابسني التعب المريح. كل شيء قد أسقطت التعامل معه «بالأنا» فقد انمحي كل شيء من الأنانية، كأنما الشيخوخة حينما تعود بي إلى الطفولة لن تكون هي هي، فالطفل يعرف الحب، ويفرق في الأنانية. أما طفولة الشيخوخة فشيء آخر.. لا حب.. لا أنانية: كل عطائها. أو بالأحرى كل ما تأخذه من حياتي هو أنها شيء له طعم مرير، ومن الغريب أن أستعذبه. كأنما الذين تفلسفوا بتعذيب النفس، قد عرفوها حينما أصبحوا مرضى بالشيخوخة.

وقلت له: وضعت الأسئلة والخبر وأعطيت الجواب، فماذا تريد مني؟ وكتبت إليه: أن هذه الناب أصبحت خائفة عازفة تفرع حتى منك، فقد مضى عهدا بقوة مذلة فأصبحت تعيش ذليلة لا قوة لها. أنسيت وأنت تركبها ذلولاً كل من يراها تطالعه بكل عضلة من عضلاتها، تهلك الناظرين

من تراقصها ترفاً ورفاهية وتيهاً وعزة، أما اليوم فكل عضلاتها تتهتك ولو لم تتساقط، أصبحت جلدًا على عظم. فأنت لا تكره أن تنحرف فتلك أنانية الإنسان. تريدها جزوراً تأكل لحمها، وقد أصبحت بغير لحم، فلست إلا العاجز عن منحرفها لأنه لا فائدة من ذلك.

إن الشيخوخة تحول إنسانها من ضاحك بالحب أو باكٍ من الهجران يستعذب ذلك لأنه حياة الحياة. أما الشيخ فلا حب ولا هجران ولا متعة وليس ابتعاده عن أحبابه وأصحابه ممارسة للكراهية، فالكراهية عطاء كالحب، وليست لديه قوة العطاء. فقد افتقدها حين فرغت نفسه من الأخذ. إنه يتطلب الإشفاق، لأنه عطاء محض ولو كان مرأً، يحسبه العون وهو في حاجة. فأول الحسرات من الشيخوخة فقدان الفحولة، والفحولة في الإنسان هي الحب والكراهية والهجران والوصل ومطالب الترف وقتل القرف، أما الشيخ فلا وقت لديه ولا رغبة عنده. قد تساقطت كل رغباته وهو لا يدري وتعاونت عليه كل أتعابه وهو لا يحس فالشيخوخة عيشة حي أو معيشة حي، وليست حياة معيشة.

وأجابني يقول لي: لقد ذقت المرارة حين فكرت وتذوقتها جرعة جرعة حين أيدت تفكيري، فأنا سعيد أن أجد هذا الإشفاق منك. قلت له: لقد نفرت من الشيخوخة حين فكرت بما ذكرت أنت وبما ذكرت لك. وأريد أن أذكرك بهذا البيت لشوقي، فقد قطعت به جهيزة القول بيني وبينك. هو بيت من موشحته التي عن صقر قریش ومطلعها هو طالعك وطالعي الآن.

من لنضو يتنزی المأً برح الشوق به في الغلس
حن للبان وناجی العلما أين شرق الأرض من أندلس

ثم البيت الذي فيه العزاء هو من هذا الموشح:

الأماني حلم في يقظة والمنايا يقظة من حلم

«وتلفن» إلي في صوته بهجة وفي خبره بكاء اللهجة يقول لي: لقد
سقطت علي اليوم دنيا من المال من قيمة أرض نسيتهها فماذا أصنع بها،
قلت تصنع به أن تقول:

ولما رأني في السياق تعرضت إلي وعندي من تعرضها شغل
أتت وحياض الموت بيني وبينها وجاءت بوصل حين لا ينفع الوصل

وسكت وسكت الجريح على صوت الصريخ إنه قد مات.

وطن الغريب

- الغريب عن وطنه يتمسك بالشيء القليل باعث المسرة يتلهى به عن كربة الغربة ولكنه حين يفاجأ بشيء لم يحسب له حساباً تتصعد المسرة به إلى وضع يراه قد أصبح نوعاً من الهستيريا.. «الجنون».

ولا أريد أن أفجع العقلاء فما من عقل إلا وتمر به هذه الحالة من فرحة غامرة أو ترحة محزنة، كلاهما يحدث مساً من هذه الجنة، في غمرة تلك اللحظة.

تذكر نجداً والحديث شجون وحن اشتياقاً والجنون فنون

سافرت إلى الهند في عام ١٣٥٢هـ رفيقاً للشيخ محمود شويل يرحمه الله، وبعد شهر ونحن في «ملتان» نعد الشاي ظهراً ونحن قبالة الدَرَج وإذا بعقالين يصعدان الدرج.. السيد عبد الله طه والسيد كامل عبد الجواد، لا أشعر إلا وأنا أقوم واقفاً أضحك بصراخ، غمرتني الفرحة بالجنة، ما أحسبني إذا وصلت إلى المدينة كأمر متوقع وأن أرى زوجي وابنتي أن أكون على حال من هذه الهستيريا. تهدار العناق. لحظات مرت وأنا في غمرة هذه الحالة، أضحك وأضحك. كل ما في جسمي يرقص.

وحين جلسنا هدأت وكأنه لم يكن شيء، وانصرفا. وما شعرت بوحشة حين غابا. المفاجأة في الغربة ورؤية المواطن قد سببت ذلك.

ومضت أشهر ونحن نأكل «الشباتي» و«الدال» فأوحشني «الخمير» وأنواع الأجبان والأسماك. وحين وصلنا إلى «كلكتا» رأيت الشيخ أبا بكر أبا النور المدني وأبا الكلام أزد الزعيم الهندي والمدني المكي. فلم أفاجأ ولم أتهستّر، ولكن هذه الجنة من الفرح رأيتها في السوق التجارية حين أخذني عبد الأحد شويل ابن الشيخ محمود إلى السوق الكبير «سوبر ماركت». فما شعرت إلا وأنا أهتز فرحاً.. أضحك وأضحك.. رأيت أنواعاً من الخبز الخمير والليمون وعلب السردين وأنواع الجبن، شيء حرمت منه ستة أشهر، حين وجدته صرخت في رفاقي: «اشتر لنا من كل شيء، فقد كانت اللقمة من أي شيء هي كل شيء». ما لذ طعمه.

ووصلنا «رانجون» واستوحشنا قليلاً وإذا بمضيفنا السيد داود أتى يرحمه الله يأخذنا في السيارة إلى المطار. كان الناس حديثي عهد بالطائرات، أباح لهم المطار أن يزوروه وأعدوا طائرة يركبها من يشاء بروبيات عشر تحلق فوق المدينة، يعرف أن الطائرة مركب لطيف. وقفنا في المطار ننتظر هؤلاء الذين يطرون ويعودون. الهواء جميل والناس عليهم لمعة الترف، فرؤية الترف في صاحب الشظف قد تكون ممتعة إذا كان من الذين لا يحسدون الناس على ما آتاهم الله. وفي إحدى اللفتات رأينا فتى في يده كاميرا يلبس قميصاً أخضر مفللاً بزهرة بيضاء من الفل أو الياسمين لا يلبس بنطلوناً وإنما قد أطلق على نفسه أن يلبس الشورت. نظرنا إليه بعد الكاميرا يستقبل الطائرة وكان جميلاً جمال نصر بن حجاج، فتنة تمشي على الأرض.

وهبطت الطائرة، فأول من نزل منها فتاة تلبس ثوباً أخضر كقميصه على جبهتها صبغة حمراء الهندوكية، نظرنا إليه وإليها فإذا هما توأمان من شدة الشبه بينهما، التقط لها صورة، أمسك بيدها. نحن لم نر الصورة في

الكاميرا ولكن انطبعت لهما صورة في الوجدان، فقد كان الجمال رائعاً لم أر لوناً كلون الذهب يسطع بياض مصفر صفرة الياسمين كلونها. . كلونه.

سكت وسكت الشيخ محمود سكتة إجلال لا نزوة فيها ولا هيستريا، وكان مضيفنا شعر بما بنا، فقال «ها». . وكان ذلك ضرورياً ليخفي ما بنا ولأن الجميلين قد ذهباً كأنما أخوها قال لها أو هي قالت له «ها». ورجعنا إلى المنزل وصلينا المغرب وأكلنا العشاء وتمطى كل منا على سريريه، ولا أدري كيف ذكرنا المنظر، فإذا بنا نضحك بصوت عالٍ، غمرتنا جنة من الفرحة حيث تمتع الوجدان، بمنظر جميل، ومكثنا نضحك طويلاً ونحن نتكلم بكلام لو دوّن لكان معجباً، وهدأت قليلاً فقد ذهبت الجنة. أقول للشيخ: «لقد أنستنا هذه صلاة العشاء» ولعلّك نسيت راتبك كل ليلة، فاستغفر وقام يتوضأ كما توضأت، فالوضوء غسل للنفس، أنسانا ما كنا فيه. وبعد صلاة العشاء قام الشيخ إلى تهجده وتوقرنا كل منا يطرد أن يذكر ذلك بعد.

فالغربة فاعلة ذلك والرؤية المفاجئة لما يسر انفعال يحدث ما وصفناه

فهل جرب قارئ ذلك؟

الأخير

- وما زالت الأخيرة..

وداعبني صاحبي يحلو له أن يتهمني بالنرجسية، ففي بعض اللحظات الخاطفة استقرؤه ما أملني عليه، حتى إذا رن جرس الكلمة أطرب له ولها، فإذا هو يقول.. أليست هذه من النرجسية؟ فأجيب.. دعني أترجس طرباً بكلمة أملتيتها ولن تراني نرجسياً في غير هذا الموضوع.

وفي مرة أخرى أحب أن يثيرني فقال: لقد نشرت «عكاظ» قبل أيام نتيجة استفتاء ظهر في الصفحة الفنية عن «نجوم النجوم» لعام ٨٣ في مجالات الفنون والآداب والرياضة، فكنت صاحب المركز الثالث كنجم المقالة الصحفية بعد صاحب المركز الأول تركي السديري. وبعد كل من عبد الله جفري وجهاد الخازن وهاشم عبده هاشم الذين تقاسموا المركز الثاني.

وضحكت فرحاً أقول له.. يسرني أن أكون الأخير ما دام هناك الأولون. أكون الأخير رديفاً ورافداً. رديفاً أحمي الساقة ورافداً يزيد بي النهر ولا تنتهر الأرض تحتني، ومعاوناً تشرق نفسي حين أرى الأولين يستضيء بهم المستقبل.

وما كنت قبل هذه الأيام إلا الأخير. فحين زاملت عمر عرب والآشي

وشحاته والعواد وعزيز ضياء والسرحان كانوا هم الأولون وكنت الأخير .
عاشرتهم فما جفوتهم وما جفوني ، ألقب بينهم بالأستاذ ، تلك أولية جاء بها
التأخر . وما شأني اليوم إلا أن أنشد :

لا أبغي بحمد الله منزلة غيري أحقُّ بها إذا راما
لا أذود الطير عن شجر قد بلوت الحلو من ثمره

وما أنا في هذا إلا متأسياً ومقتدياً بالسيد في تميم محمد بن عمرو ابن
الأهثم ، وكانت البصرة وكانت الكوفة كادتا أن تكونا تميميتين كما هو قول
الأحنف . . تميم البصرة أحب إلي من تميم الكوفة» فقد دخل محمد بن
عمرو بن الأهثم مريد البصرة أو مريد الكوفة إذا ما كنت قد نسيت
التحديد ، فقام له كل تميمي فنظر ، فلم يجد الأحنف بن قيس ولا قيس بن
عاصم ولا أباه عمرو بن الأهثم ، فأنشد :

خلت الديار فسدت غير مسود ومن البلاء تفردني بالسؤود

لقد نزع محمد إلى عرق ، أبوه صاحب رسول الله . فلقد أثنى عليه
رسول الله ﷺ يوم تحدث الزبرقان بن بدر عنه ، وقد سبق أن تحدث عن
الزبرقان حتى إذا انتهى الزبرقان من كلمته فلم يرض ابن الأهثم عنه ، فأخذ
يتكلم يعدد المقالب بعد أن عدد المناقب ، فقال رسول الله ﷺ بعد أن
أعجبه كلام ابن الأهثم : «إن من البيان لسحراً» .

هذا الحديث صحيح ، رويته بمعناه ولفظه في البخاري .

لم أجزع أن أكون الأخير ، فما دمت في عداد الناس فلا يضيرك أن
تكون الأخير وإنما يضيرك أن يرهقك الزحام .

ولقد أبدع «رامزي ما كدونالد»، الرئيس الأول لحزب العمال البريطاني ورئيس وزراء بريطانيا، قال له الإمبراطور . «قد السفينة إلى النجاة»، فخرج وهو يقول: «ويل للطالب أن يكون الأول في فرقته» فقد كره الأوليّة تلزمه ألا يستقيل أيام أزمة الصادرات في بريطانيا.

الردىء يطرد الجيد

- كثيراً ما كنت أسمع هذه الكلمة من صديقنا المفتش الكبير عبد الرازق هندواوي يرحمه الله، فهو حين يورد العبارة. لا ينكر واقعها الاقتصادي. وإنما هو ينصرف بها على صورة أخرى، فرغم أنه رجل لا يكل من العمل. فقد يرتاح بعد العشاء إلى لعبة «البلوت» وهنا ينطق بهذه الكلمة على العكس من مفهومها الاقتصادي فالعملة الرديئة تطرد العملة الجيدة في سوق المال. أما في لعبة «البلوت» فالشيخ حين يريد لها يعكس مفهومها، فإذا أمسك بالورق الجيد، يقول الورق الجيد يطرد الورق الرديء ونحن نعرف ما يعني. إلا أن الوضع في سوق الأوراق الرديء للطباعة والكتب، فإن الكلمة تأتي على مفهومها الصحيح. فورق الطباعة الرديء يطرد الورق الجيد لأن الجيد ثمنه باهظ أما الرديء فثمنه أقل، فالمسألة عند الناشر. هي بيع ما ينشره ولا يسأل عن قيمته الفنية في مكتبة يحتفظ صاحبها بالجديد.

مقدمة لا بد منها. فالأشياء الثمينة طردت، وحل محلها الشيء الرديء. حتى الرجل أصبح الرديء الذي لا يمسكه الحياء. يطرد الرجل الجيد الذي يصون نفسه بالحياء.

والذهب. أين هو الآن. والحرير. والكتان كلها طردت من السوق.

وحل محلها رديء. ورديء. والعسل - أعني عسل النحل - لا يكاد يوجد، والمطبخ في البيت، أو في السوق البلدي، لم يعد كما كان. . مطبخ البيت انتهى «بالسندوتشات» و«المعلبات» ومطبخ البيت انتهى بالمحترفين على طريقة المثل العامي أهله سيبوه. والجن استغلوه. وحتى الساكن القديم، والمستعرق في بلده يطرد الساكن الجديد. من داخل المدينة إلى بعيد. وملاحظتي هذه عن الساكن، تعلمتها من الأستاذ حمزة شحاته، يرحمه الله. فقد قال.

الساكن القديم، يطرده الساكن الجديد. وضرب مثلاً فقال «انظر إلى قريش، هم الساكن القديم في مكة طردهم الساكن الجديد إلى «ككب» وهو اسم جبل بين مكة والطائف، وما إليها. وتذكرت ذلك يوم تناولنا العشاء بصحبة حسين شبكشي يرحمه الله في منزل صديقنا محمد حسن طرابلسي الذي لا يعلم الكثيرون عنه، أنه زعيم الإخوان المسلمين في مصر الآن، هو صهر محمد حسن طرابلسي، تناولنا العشاء، وعندما خرجت، قلت له - والجميع يسمعون - أشهد أنك من أعيان جدة. وأشياخ حارة المظلوم. ولكن الساكن أقصاك - بعيداً - إلى «النزلة». وهكذا، تجري الرياح بما لا تشتهي السفن.

العصا والشمسية . .

- في هذه الأيام، ومن قبل . في يدي اليمنى عصاي، أتوكأ عليها، وليس عندي غنم أهش بها عليها، وإنما عندي قدم، أخاف عليها من حفرة، أو من عثرة، فالعصا رجل ثالثة، ويمين ثالثة فحين أتحمس بها، تقيني الحفر . والعثار . وفي يدي اليسرى - هذه الأيام - أحمل الشمسية . . أحفظها في السيارة . أتوقى بها حر الشمس . إذا ما وقفت أنتظر السيارة . خصوصاً في فصلي «الأسد» والسنبلة أتوقى ضربة شمس حين أدخل إلى إدارة الجوازات مثلاً . أو إلى إدارة أخرى لا يجد سائق سيارتي موقفاً . أنزل من السيارة وأدخل الإدارة . فإذا ما خرجت منها انتظر السيارة لأن السائق الذي لم يجد موقفاً يدور ويدور أكثر من مرة، وليس هناك مظلة أستظل بها وأفتح الشمسية أستظل بها . . عجوزاً يخاف ضربة الشمس وجزعت ساعة، حين رأيت سيدة عجوزاً . تقف تنتظر سيارتها . وليس ما يقيها حر الشمس، وتمنيت لو أن لديها شمسية . فهل - أقترح إذا لم توجد المواقف - أن توضع مظلة من الخشب يستظل بها من ينتظرون السيارات . . لعلّه حل مؤقت . . أما الحل الصحيح، فسعة الأرض لا تضيق على أي إدارة تكون في مكان أمامه موقف للسيارات . وهكذا، العصا في يميني والشمسية في يساري . . ومن وجد حيلة، عليه أن يحتال .

صورة

- قلت لصاحبي - حين أردت أن أملي عليه - لعلّي لا أجد موضوعاً
أخرج به عن الواقع. قال عهدي بك أن لديك الكثير قلت إن الموهبة تصنع
الاحتراف. ولكن الاحتراف يباشر القتل تدريجياً لتغنى الموهبة، فالموهبة
صانعة الاحتراف والاحتراف قاتل الموهبة. ولكن لا بد مما ليس منه بد..

العشير

- واستغنى العشراء، أصحاباً أو أصدقاء أو حتى المعارف، عن مواصلة اللقاء واستعاضوا عنه بالتلفون فأصبح التلفون عشيراً، مزعجاً إذا تكلم المثير، ومريحاً إذا ما تلفن الأثير.

وهكذا.. يعيش الذي ابتعد عن الناس أو الذي بعد عنه الناس، ويتربقب الزيارة تلفنة توقظه من أحلام اليقظة.

فالمثير المزعج تتوتر بحديثه أعصاب الشيخ، لكن يعطي قوة لعضل النفس حين تنهض بالمقاومة - أما إذا تكلم الأثير المبهج فعطائه متعة النفس يسترخي بها التوتر العصبي ويشتلل بها الدم في جسد الشيخ.

فهو بين المثير والأثير في مشغلة ما أحسنها حين تقتل الفراغ وتذوب بها أحلام اليقظة.

ومن المصادفة أن تلفن إليّ المثير والأثير في وقت واحد، كلاهما طرح سؤالاً واحداً.

قالا: لقد كنا نسمعك تنشد بيتي المتنبي:

ولما صار ود الناس خبا جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه لعلمي أنه بعض الأنام

فمالك تركت ذلك وبدأت تسعى للتسامح، تصفو من جفاك وتبتسم
لمن أبكاك؟

هل ترى في ذلك أنه إعلان عن فحولة الرجولة أم هو الخضوع
لدواعي الطفولة؟

فالشيخ كما قلت أنت من قبل يصبح الطفل الجديد.
قلت لهما: بعض ذلك فقد كان. فالفحولة عقلاً لم أفقدها، والطفولة
عاطفة ما أحلاها.

ولكن الأمر غير ذلك، حين أعلنت التسامح أقصيت التناطح، وشأنني
في ذلك على صورتين..

فالأولى الاحتفال بالحياة ومعانقة الحياء لأهناً بالعيش.

أما الصورة الأخرى فهي احترام الموت.

فالشيخ متع نفسه حين لا ينسى الموت، تقارب أمدّه فهو لا يبخل
باحترام هذا المصير.

ويعني كل ذلك أنه لم يعد لدي متسع أملاً فؤادي بالكراهية أو
البغضاء، فما أحسن أن أستريح بالحب احتفالاً بالحياة ومعانقة للحياء
واحتراماً للموت.

رسالة من ولدي

- وحين كتبت عن الآخرين والأولين ما كنت أحسب أن يجد ما كتبت تفاعلاً مع بعض الأصدقاء يحمدون لي ما كتبت، أو انفعالاً من بعض الأبناء يحسبون ذلك تنكراً لي أو غصاً من شأني.

فأحد الذين تفاعلوا مع الكلمة فأبدى لي التحية هو الصديق الابن الأستاذ علي العمير، ثم فاجأني ولدي الدكتور فيصل زيدان بهذه الرسالة أرسلها من مقر عمله في واشنطن أنشرها فرحاً به، ليزول انفعاله. والأمر في كل ما عني هو كما قال المعري.

ولو أنني حبيت الخلد فرداً لما أحببت بالخلد انفراداً
فلا نزلت علي ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلاداً

وأعجبني أن ذكر ابني هذا البيت الشعبي البدوي في رسالته، وهو هكذا كاملاً:

الساس طنف.. والطنف عود الساس

وركب الرديف.. وراعي الكور حول

أما رسالة ولدي فكانت كما يلي:

سيدي الوالد المحترم.. أدامكم الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

أكتب إليك هذه الرسالة لأنني لا أستطيع أن أحدثك هاتفياً بالنسبة للمقالة التي تفضلتم بها على صحيفة «عكاظ» في تمر وجمر بعنوان «الأخير».

وبعد أن قرأتها أكثر من مرة قررت أن أكتب لكم لأعرب عن شكي في فطنة المحكمين الذين اختاروك «الأخير»، وذكرت في فاتحة المقالة عن اتهامك بالرجسية.

سيدي.. اسمح لي أن أفرق بين نوعي الرجسية إن كانت هناك فروقات، أو إن صح لي أن أقوم بذلك التفريق خوفاً من أن أكون مسيئاً لفهم «الرجسية».

هناك رجسية العظيم - وهي غطرسة العظمة في تواضع صاحبها لرفع من دونه إلى مستواه.

وهناك رجسية المتكبر - وهي ناتجة عن تعالي الشخص على من دونه للوصول إلى مستوى من العلو لا يستحقه.

فتواضعكم العظيم كان تقديراً منكم لمن تقدموا عليك في القائمة محاولاً الارتفاع من قدرهم إلى مستواكم. فالكبير في استطاعته أن يتواضع لأن تواضعه يرفع من شأنه. وإنني لست مدهوشاً من مثل هذا العمل، فقد نكون في زمان ينطبق عليه القول:

«ركب الرديف وراعى الكور حول».

ابنكم: فيصل محمد زيدان

الدكتوراه الفخرية

ولعلّها ليست مفاجأة أن أعرف عاطفة الصديق الأخ غالب أبو الفرج، فمعرفتي به قديمة وصلّتي به وثيقة إن اقتربت كابنين من أبناء المدينة المنورة فقد اقتربت أكثر حين كان رجلاً في الإعلام وحين كنت في جريدة «البلاد» من رعايا الإعلام.

ولكن المفاجأة أخذتني قليلاً وسوف لا ألتفت إليها طويلاً، ألا وهي اقتراحه أن أُنح الدكتوراه الفخرية.

إن الوضع في هذا قد أنال به شرفاً كبيراً. لكنني أتمتع أكثر وأكثر حين يكون هذا العطاء من الجامعات عطاء لا يقتصر على واحد ولو كنت أنا. فهناك من هو أحق مني وأجدر. فحمد الجاسر جدير بها، وأحمد العربي جدير بها، وأبو تراب جدير بها. وهذه الجدارة يستأهلها أشياخنا الذين هم الدعاة والحماة فقهاً وعقيدة خالصة وحفاظاً على التراث.

ولست في هذا أتواضع. ولست أكثر أتضع، فلئن كان التواضع حلية فإن الانضاع حطة.

إن هذه المنحة قد راودني عليها أشياخ في جامعة عليكرة «عليكرة» في الهند المسلمة، فقد قال لي بعد حوار عن علاقة الهند بالعرب، أتُنكر أن أنكر هذه العلاقة، وأُستَرسَل في سرد المثال كالسيف المهند والهندية

القضب، وأحلى أسماء البنات «هند»، وطريق تجارة التوابل، وتجارة اللؤلؤ، إلى آخر ما هناك. ثم قلت لصاحبي هذا.. لقد أعطيتم طالباً شهادة عالية عن رسالته في موضوع عن الشاعر العرجي. لقد ذكر أن العرجي قد نسب إلى عرج الطائف وهذا خطأ، فالعرجي حفيد ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد نشأ هذا العرجي في عرج المدينة بين مكة والمدينة، وكان هذا العرج ملكاً لعثمان، قد ورثه ابنه عمرو الذي أصبح زوجاً للسيدة سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عن علي وابنه. فسر الأستاذ بهذا التعديل كما سر الطالب يوم زارني وأنا في جريدة «البلاد» فبعد هذا الحدث اقترح علي هذا الأستاذ أن أنتسب لجامعة «عيكرة» أياماً أعد فيها رسالة أمنح بها لقباً. فأعجزتني الاستجابة وفرحت أن وجدت هذا التقدير من هذا الشيخ الأستاذ.

تلك مرحلة مضت بها أيام أعادها إلى الذاكرة غالب أبو الفرج، فشكراً له ومرحباً بمن أجده يعارض هذه الفكرة.

فالإيجاب معك عطاء، والسلب ضدك جلب لعطاء.

حيلة الأرنب

- ويحلو لي حين أهرب من أحلام اليقظة أن أنجو بنفسي إلى يقظة الأحلام، أجدها هنا وهناك. في الذكريات، في الحب، في الألم، بل وحتى في الغرور.

ولكنني في هذه الساعة رجعت إلى أن أتذكر حيلة الأرنب.. هذا الحيوان الضعيف.. لقمة أي صياد، فريسة أي ذئب، بل حتى الثعلب يفترسها.

حيلة الأرنب جسدها ابن المقفع في «كليلة ودمنة»، وما رأيت مترجماً كابن المقفع ينسب إليه الكتاب لأنه ترجمة أكثر من أن ينسب إلى صانعه الأول فارسياً أو هندياً أو هو «بيدبا» الفيلسوف.

إن حكاية الأرنب كانت مع سيد الغاب القسورة الذي كثرت أسماؤه، فقد كان هذا الضرغام قد بسط سلطانه على الغابة يفترس فرائسه. سواء منها ما يأكله والأكثر منها يتركه.

هكذا جريمة الأقوياء، يسلطون قوتهم حين تكون المتعة لهم وأن يستمتعوا من رؤية الدم وأن يسمعوا صرخات المظلومين. فكل صرخة تقع في أذن الطاغية نغماً موسيقياً.

وضجت الغابة، فإذا الحيوانات كلها تجتمع في مؤتمر، يطرحون الرأي

تلو الرأي أن يرسلوا سفيراً، ثوراً كبيراً، يطرح على الضرغام فكرة وهي أن يقدموا له كل مساء حيواناً يأكله، فهم سيقترعون على أنواع الحيوانات، يوماً على الأبقار، ويوماً على الغزلان، ويوماً على الأغنام.

واستمروا أياماً يرسلون ما تقع عليه القرعة. وفي اليوم الأخير وقعت القرعة على مجمع الأرانب، فانتدبت أرنب نفسها وقالت.. دعوني أذهب إليه.

وسارت في الطريق تتلهى، حتى فات الموعد، فزار أبو الأشبال، حتى إذا وصلت إليه قالت: لا تغضب، فقد أرسلوا معي أرنباً أوصلها إليك وكأنك لا تدري أن رنبالاً وصل الغابة فاخطف الأرنب فهربت أنا إليك، تعال أريك مكانه.

فأخذه الزهو وطغيان الانفرادية عليه، فمشى معها، فأوقفته على حافة بئر وقالت: انظر.. ها هو في قاع الجب ومعه الأرنب التي اختطفها. فنظر الضيغم إلى البئر فوجد صورته والأرنب بجانبه، فقادته حماقة الزهو إلى أن يقفز في البئر يأخذ الضرغام الآخر، وما كان غيره، فإذا هو غارق.. يصرخ الأرنب بصوت ضعيف:

أيها الحيوان.. لقد أنقذتكم من الطاغية، فلا تستهينوا بحيلة الأرنب. يقول المتنبي:

لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرف من الإنسان

الروية والصبر

- في أوائل الستينات الهجرية كنا مجموعة من الموظفين كلفنا بعمل في المستودع العام للأرزاق وغيرها في جروول. وكان معنا رجل الأعمال صالح عيسى بوقري يرحمه الله. وفي الاستراحة من العمل يجري الحديث يتفرع كل يأخذ فرصة أن يتحدث. وأخذ صالح بوقري فرصته ولم يكن في ذلك غير متوائم مع ما كنا نتحدث فيه.

كان الحديث عن مواجهة المشاكل بعضنا يفضل طردها. وإسقاطها من تفكيره. وبعضنا يحبذ المواجهة للمشكلة، فتهيأت الفرصة لصالح بوقري فقال: - كان من عادتنا نحن «البوقرية» أن نزور المدينة المنورة في كل عام فالصلاة في المسجد والسلام على رسول الله ﷺ والفسحة في البساتين، واللقاء للأصحاب وبعد انتهاء الرحلة رجع والدي إلى مكة ومعه كل العائلة.

وذهب ليفتح الدكان فوجد الأقمشة قد ساحت ألوانها على بعضها، لأن المطر قد نزل بكم وافر فتساقط على الأقمشة فإذا كل البضاعة قد تلونت بألوان شتى، أبيض على أسود وأحمر على أصفر. فدهش وجزع لأن الخسارة كانت كبيرة، ولكنه تروى ولم ينطق بكلمة، بل أغلق الدكان واشترى «مكيئة» في البيت وتصرف ببعض المصاغ، فسحب الأقمشة الملونة

إلى البيت دون أن يعلم أحد. وملاً الدكان بأقمشة جديدة.

ولكي يثبت أنه لا يزال في سعة من المال وبقية المصاغ، أحدث تغييرات في البيت وشرع في بناء إضافات على البيت ليعلم من حوله من الجيران أو العملاء أنه على سعة، فهو لو لم يكن كذلك لما قام بالبناء.

وعمل من الأقمشة الملونة أثواباً وأقمصة كمشروع جديد يعرضه في الدكان. فصان بذلك سمعته التجارية ونجح في عمله التجاري بهذا التروي وهذا الصبر.

وتحدث آخر يقص علينا حكاية أخرى قال:

- كان أحد تجار اللؤلؤ في الخليج معروفاً بثرائه وكثرة ما يذهب به إلى بومباي من اللؤلؤ. وكان معه تجار آخرون «كل على قدر حاله، وركبوا السفينة من الخليج إلى بومباي. وفي عرض الطريق أغلق باب غرفته ونثر الجواهر التي كانت معه على «طرابيزة» يصنف اللؤلؤ كل حبات على مقاسها.

وبينما هو يفعل ذلك نودي للطعام فلم يجمع اللآلئ، أبقاها منشورة على «الطرابيزة» وذهب إلى قاعة الطعام فخلفه إلى الغرفة الخادم لينظفها فرأى ما عليها وكان منشوراً على مشمع فلف المشمع بما فيه من اللآلئ يحسبها من الأوساخ. لم يدقق النظر أو لم يعرف ورمى بها في البحر من النافذة.

وجاء التاجر ودخل غرفته فلم يجد بضاعته فلم يولول ولم يصرخ لقد كانت الخسارة كبيرة ولكن التروي وإعمال الفكر قد هداه إلى الصمت وخرج يسمر مع أصحابه وكأنه لم يحدث شيء. فلم ير عليه اضطراب ولم يتكلم بما يوحي بالشك فيه.

وقبل الوصول إلى بومباي جمع تجار اللؤلؤ الذين كانوا معه وقال
ستتفرق في السوق كل يعرض بضاعته فيتلاعب بنا من يشتري فلو أنكم
جمعتكم كل ما معكم أشتريه أنا بمبلغ حدده أجزل فيه الربح لم يتوقع
الكسب وإن توقع الخسارة فيمكن أن يكون السوق في بومباي غير قابل
للسعر الذي يشتري به .

فكل، ما أراد هو أن يصون سمعته . حتى إذا قابل عملاءه في بومباي
عرفوا أنه ذو مال كما كانوا يعرفونه . فباع اللآلئ وكل أصحابه يحسبون أنه
ضم لآلئه إلى لآلئهم . فما عرفوا عن المصاب .

ورجع إلى الخليج وأظنه من أهل الكويت سليم السمعة موفور الثقة
ذلك صنيع التروي . يعطي الصابر قوة، فالتروي من الحكمة والصبر رأس
الحكمة .

مسامرات ومساجلات وذكريات

حوار

- طرحت سؤالاً قبل سنوات وفي فندق اليمامة مع الأستاذ كامل مروة صاحب جريدة الحياة اللبنانية. لم أكن أعرفه من قبل معرفة المواجهة وإن كنت تعرفت إليه معرفة الاتجاه.

أعرف أنه شيعي وعربي، وطال الحديث بيننا وكان يرحمه الله ينتظر السيد عمر السقاف حتى إذا قلت له: هل هناك فرق بين التشيع عربياً والتشيع فارسياً؟ قال: ماذا تعني؟

قلت: ما أعرفه أن العربي وعلى أي مذهب لا يكون شعوبياً فأنت في عروبتك رغم تشيعك لا تمت إلى الشعبوية بسبب فهل كانت علاقتك الوطيدة مع شاه إيران علاقة صحفية أم هي مذهبية؟ أنت لا تلام إلا إن كنت شعوبياً.

قال: لست شعوبياً قط.

قلت: هذا ما أردت أن أصل إليه.. ولم يكن الوصول إليه بحديثك معي الآن وإما كان عن حديث جرى بيني وبين العالم الكبير والشاعر النحرير الذي لبس الوقار من قمة الرأس إلى أخمص القدم محمد رضا الشيببي أحد السادة الصيد في بغداد. كنت جالساً في فندق (جراند أوتيل) في القاهرة في الزاوية التي تطل على الشارع فأقبل رجل طويل القامة ضخم

الهامة في عباءته السوداء وعمامته السوداء.. جلس على كرسيه ولم يقرئنا السلام.. وحن العرق إلى العرق فقامت أخرج لأعود لأرى القرطاس الذي بين يديه أعرف منه اسم صاحبه.. ونظرت فإذا الاسم محمد رضا الشيبلي. وعدت أجلس فقلت كأنما أسأله:

أنت؟

فتنة الناس - وقينا الفتنة - باطل الحمد ومكذوب الشناء

قال: نعم، أنا هو؟ وكان هذا البيت من شعره.. فقلت له: وأنت من أنت تدخل علينا ولا تقرئنا السلام.. هل أصبحنا كلنا غرباء عن بعض؟ قال: لا.. ولكنها الكربة لا الغربة..

وقلت له: وما الشأن مع نوري السعيد؟

فقال: قد مله الناس..

قلت له: كلمة تشيع بها من تشيع ضد الفاروق وذو النورين.

فقال يرحمه الله: تلك أمة قد خلت ونحن اليوم في حاجة لأن نكون كلنا الواحد لا الاثنين ولا الأكثر. ثم التفت إلى كامل مروة أقول له: إن الشعوبية إن أخشى أن تكون بعد.. العصا في يد الشيوعية؟ فقال:

والليالي من الزمان حبالى مشقات يلدن كل عجيب

إن هذه ليست ملامح عما كان ولعلها الملامح لما سيكون.

حمزة شحاته وشوقي

- وقبل أن يسافر حمزة شحاته إلى مصر وأيام كان رئيساً لنقابة السيارات اتصلت بنا العشرة. نتناول الغداء سوياً والعشاء، وأحياناً ينام عندي في الدكة وفي بيتي في جرجول.

طالت هذه العشرة وما أصعب أن تطول عشرة حمزة مع أحد وجاء ذكر شوقي. وتجنبنا أن أذكر موقف الأستاذ العواد من شوقي. فإذا حمزة شحاته وعلى طريقته في طرح الحوار يغيظ من يتحدث إليه لتشتد الحماسة، فهو من أبرع من عرفت من المتحدثين. «مين يقول إنو شوقي شاعر». قلت:

«وما أظن أحداً يعجب بشعر شوقي مثلك. لأنك قبل أن تكون شاعراً كنت ذواقاً حفيلاً، بالمعنى واللفظ، فأنت قد تأثرت بالشريف الرضي ومهيار وما ابتعد شوقي أن يؤثر فيك، كما أثر المتنبي أيضاً». فأعجبه هذا الثناء مع أنه كان يريد أن أنحو غير هذا النحو. وانتصب حيله يقول:

«اسمع...»

وأشد البيتين لشوقي، يصف عالم الآثار الذي كشف عن آثار الفرعون «توت عنخ أمون».

أفضى إلى ختم الزمان ففضه وحبا إلى التاريخ في محرابه
وطوى القرون القهقري حتى أتى فرعون بين طعامه وشرابه

أنشدهما حمزة ثم قال:

«أليس هذا شاعراً؟ إنه لشاعر رغم أنف العواد».

قلت:

«وقد أرغمت شاعرية شوقي أنوفاً ألا تعجب من هذا التركي كيف
استعرق في العروبة. يثبت عظمة تأثيرها في الذين رضعوا لبانها. وعشقوا
شيحها، وقيصومها، وآمنوا بلغتها من إيمانهم بالقرآن؟».

قال حمزة:

«إن لغة العرب التي جعلت ابن المقفع والجاحظ وأبا نواس وابن
الرومي في قمة الأدب شعراً ونشراً لهي لغة فرضت سلطانها على هؤلاء
الذين لم يكونوا عرباً أعراقاً وإنما كانوا العروبة استغراقاً».

وسكت حمزة ليتكلم التاريخ ولتسجل الذكريات ليقال إن «توت» تعني
الطفل، فنحن نقول للطفل. «تاتي تاتي.. توته توته.. خلصت الحدوته»،
و «عنخ» تعني العنقاء الأم في أسطورة يمنية فرعونية و «أمون» تعني الأب
«يعني الشمس».

احماضة

- وأستاذنا أبو تراب علي أبو محمد لا يهجر مكة وإن كانت إقامته في جدة، ففي أيام الجمع ولياليها يصعد إليها صلةً لرحم واتصالاً برحمة. وهو لا يحب أن ينفرد بنفسه يتأكل في أحلام اليقظة، بل إنه يريد أن يحيا مع الناس، فإذا لم يلزمه البحث وتدعوه المراجعة فإنه يترك الخلوة مع الكتاب إلى التحلي بزيارة الصحاب..

وحالا له أو هو استملح ذلك فذهب إلى ندوة الأخ الصديق عبد الرحمن فقيه، وإذا هناك جمع من الصحاب الذين يحبون أن يقرأوا له إذا ما كتب، حتى إذا استراح في مجلسه وبعد تبادل السلام والتحية والسؤال عن الصحة الغالية والأعمال العالية خرجوا عليه بسؤال، يتفكرون بهذه الإحماضة. فقال أحدهم:

- «شايقين الأستاذ أبو تراب؟»..

فقالوا:

- عن أي شيء؟

فقال:

- لقد قرأنا ما كتبه في «كبوات اليراع» وهفوات الكتاب فإذا هو قد كال أصواعاً من النقد كأنما هو قد سلقهم بلسان من حديد، فعل كل ذلك

معهم جميعاً، ولكنه قد سل الزيدان كشعة من عجين، فانصفه وما استهان به
وما بكته، كأنه لا يرى له هفوة ولا كبوة.

فأجابه آخر:

- معذور أبو تراب، ماذا يصنع والزيدان في كثير مما يكتب يعتمد
عليه، يلجأ إليه، فقد أعده المرجع الأول له. فلا يقول إلا «أستاذنا أبو
تراب». «شيخنا أبو تراب». فيرطل له الزيدان أرتالاً من الشاء فلا يستطيع
أبو تراب إلا أن يكون المرطل بأرتال أكثر.

كان كلهم حبيباً، كلهم صديقاً، إن أحبوا أن يتضحكوا، يبنشوا أبا
تراب، يسح سحاً بقطرات من ندى المعرفة. كان ذلك شأنهم وشأنه. أما
شأنني فأحب أن يعرفوه، وهو أنني لم أصنع شيئاً يستحق النقد حتى توجد
فيه الهفوات والكبوات. مقالات سوقية أتسوق بها، ولا أتسلق بجهد يعطي
بحثاً تكن فيه الهفوات والكبوات.

في استطابة أبو تراب كان وفاء الصديق للصديق، وهو بعيد أن يمكر
بي ليعلن عن الهفوة الكبرى وهو أنني لم آت بشيء يستأهل ما يحمل أبا
تراب على الغضب، سواء للغة أو للفكر والتاريخ. لقد تركني حين تركت
ما تأتي به الهفوة والكبوة.

هذا اعتراف أعترف به مودة أولئك، وأحترف به البعد عن جفوة،
فالإضحاك قد وصلني حتى أضحكني ولو أمكنتني القوة لذهبت زائراً إليهم،
فأنا حريص على المودة، فلا أحسب أن واحداً منهم أراد التنقيص من قيمة
أبي تراب أو التنغيص على الزيدان!

حوار

- وكنت في مصر وقد اعتدنا أن نجلس في ندوة بعد المغرب مع جماعة من الصحاب، سعوديين ومصريين، فمن السعوديين السيد ياسين طه. ومن المصريين شاعر الكرنك المذيع بالجرس المنغم أحمد فتحي. والظريف كل الظرف والأديب شاعراً وناثراً الأستاذ محمد مصطفى حمام.

وكانت ندوات ممتعة فيها الأدب والظرف، كأني كنت أغتسل من هم النهار بما يمتعنا به هؤلاء. وفي إحدى الليالي سقط علينا أحد الباشوات القدامى من رجال القصر الذين انتهى بهم الحال حيث لا لقب. وحين رأى الباشا الأستاذ حمام أزورَ واكفهر، ولعلَّ الأستاذ حمام شعر بذلك، فقام يتنفس لينفس. ولا يغيب برهة إلا ويعود، فاهتبلها الباشا فرصة وقال لي:

أنا أعرف أصدقاءك من عليّة السعوديين - وطرح أسماء - وهم أيضاً أصدقائي ..

وأطمع أن أكون صديقاً لك بغير هذا الحمام!

قلت له :

يشرفني أن تكون صديقاً، ولكن هل كل أصدقائك أمس هم أصدقاؤك

اليوم؟

نحن هنا أنا وأصدقائي السعوديين نستروح، نتجنب أن نكون خشباً مسندة، ولا نجد في الأستاذ حمام والآخرين الذين تراهم إلا متعة نستروح بها فالمقامات لأصحابها، والقيم ليست وفقاً على أصحاب المقامات.

إن الأستاذ حمام لا يرزؤنا بشيء. بل هو يرزقنا من الفكاهة والأدب ما تتسع به صدورنا حين تضحك. لك مقامك اتزاناً ووقاراً. وذلك يقتضينا أن نتواصل في حدود الوقار والاتزان. وصعب أن يكون ذلك سمردياً. فلا بد للإنسان من راحة يضحك بها على دنياه أو حتى يضحك دنياه عليه. والأستاذ حمام قد جمع الضحكتين، ضحكت الدنيا عليه حتى أبكته. وأضحك منها حتى كانت الدموع في عينيه تضيء بها شموع الفكاهة والأدب.

فقال الباشا:

قلت:

- ألم تمتع نفسك يوماً بما تمنعه عنا الآن؟

قال:

- صدقت..

قلت له:

- لقد رجع الأستاذ حمام. ودعني أسأله.. ما رأيك في أحلام اليقظة؟

قال حمام:

- هي متعة المساكين. وثروة الفقراء. وجنون النبلاء!

ولم يسع الباشا إلا أن يودعنا!

وأنشدت بعد أن خرج، لبيت من الشعر للسيد توفيق البكري،
صاحب، صهاريج اللؤلؤ:

قد كنت أحلم قبل اليوم في سنة فصرت أحلم بعد اليوم يقظانا

فقال حمام:

- إنه النيل الذي جن رغم أنفه!

أحب معانيها

- «وتلفن» إليّ الصديق الدكتور عبد الله مناع يقول لي :

- صحيح أنك بدأت تقرأ الرومنسيات، تعود إليها في «أوراق الورد»
وفي شعر العذريين ودموع ابن زيدون؟
قلت :

- ذلك صحيح، فمن خبرك بسري؟
قال :

- إنه السيد عبد الله جفري، كتب مقالاً لـ «أقرأ» وكان هذا الحديث
قبل أن أقرأ المقال. وعقبت عليه أقول له :

- لقد عدت أقرأ الرومانسيات لأجد الدفء في حرارة العواطف وبعبارة
أخرى، فالرومانسيات أقرأها لأنها كليمون «بنزهير» أطرده بذلك الغثيان
والقرف من الذي احترف فاغترف، وإذا هو يهرف بما لا يعرف، أو يخرب
بعض ما عمر.

وهنا خطر على بالي حوار أجرته مع الصديق إياه. قلت له :

- أتعرف من أحببت؟ إن اللاتي رأيتهن حزن إعجابي واحترامي، تقديراً
لما متعن به من فكر وعقل واتزان، أما التي أحببت فهي التي لم أرها،

لأنها عرفت عني ما لم تعرف أنت، ولأنني لم أعرف عنها إلا ما خبأته
عنك.

فالحب الذي أكنه لها عذري إلى فوق لأنني أحببت معانيها، ولأنني
عشقت مغانيها ولأنها كانت فوق لأنه لم تكن لك وإنما كانت بك.
فالطهر والعفاف هما قوة العذري، لأن بهما ضعف الحيوان حين يسمو
إلى إنسان!

جيل الحمد . . جيل التجربة

جيل التجربة

- ونحن جيل التجربة مرة أخرى قد ذقنا أشد الحرمان من فقدان الطبيب والتطبيب. ليس لأن علم الطب لم يتقدم في العالم كما هو الآن وإنما كانت أوضاعنا المتأخرة قد حرمتنا من طبيب يوثق به، ولا أعني أنه غير أهل للثقة وإنما الطبيب الواحد المحصور فيما اكتسب حتى أخذ إجازة الطب لم يكن على صلة بالجديد فانهصر في قديمه كما انحصر الناس في الطبيب الواحد. فالحمى لا نعرف إلا أنها واحدة، تعلمنا من الطبيب أنها «المالاريا» ثم هو لم يذكر لنا أنواعاً أخرى من الحميات، فأى حمى غير المالاريا كالتيفوئيد (مثلاً) تعالج بالكي في قمة الرأس، ويكون الشفاء بإذن الله فيؤمن الناس بالكي كعلاج ذات الجنب والفتاق واليرقان، كلها لا تعرض على الطبيب وإنما تعالج بالكي على الأطباء المعروفين لدى الشعب، يثقون بهم كل الثقة. وبقيت مشكلة العيون فقليل نجاح الطبيب في علاجها، وكثيرون يفقدون أبصارهم دون علاج.

ولماذا التعميم فلأذكر ما جرى علي، أصبت بذات الجنب مرتين فعالجوني بالكي، لأن والدي كان كما يقول يعرف مضاربها، فكلما أحسست بوخزة وضع المسمار في النار وكوناني تلك مشكلة أصبحت سهلة، ولكن المشكلة المعقدة أن عمت الإصابة بالتهاب اللوزتين، يسمونه «الحدار» ولا يعرفون اسم «الدفتريا» فأصيب السيد «أبو الهدى رفاعي» بذلك فتوفاه الله،

وأصيب «ياسين الرواف» معاون إمارة المدينة فلم يعالجه الطبيب الذي كان هناك واسمه «محمد علي الطرابلسي» وقالوا إنه كان زميلاً للدكتور «محمود حمودة» أول مدير للصحة في المملكة العربية السعودية. ولكن أرسلوا سيارة نقلت السيد «ياسين الرواف» إلى جدة أو مكة فعولج هناك.

وأصبت بالتهاب إحدى اللوزتين وكانت اليمني، وانسد فمي، فإذا البيت كله في رعب. سيموت كما مات «أبو الهدى الرفاعي» وإذا بعجوز لا أعتقد أن طولها أكثر من متر وكانت من صعيد مصر الذين سكنوا المدينة، فذهبوا إليها فأتت وأرادت أن تفتح فمي فلم تستطع فقالت: عندكم نخالة؟ إذ لم تكن نخالة عندكم عيش ناشف؟ بل هي قالت «عندكم لبة ناشفة؟!» قلنا: نعم. وضعت العيش الناشف بعد أن دقته.. سخنته على النار فردته على خرقة ولا يزال حاراً فوضعت على حلقي كأنه لبخة «انفولوجستين» التي عرفناها بعد، ولم تمض ثوان حتى سال الدم من اللوزة الملتهبة بفعل هذه «اللبخة البلدي» وفتحت فمي فدهنت اللوزة المنفجرة برماد فلفل أسود وأبلعتني بيضة مسلوقة، وشفيت أعيش بحمد الله إلى الآن!

فأي حرمان أكثر من هذا؟ وأي وجود أقل من هذا؟

ولكن انفتح الباب لألف طبيب وطبيب ولألف مستشفى فوجب على جيل التجربة أن يكونوا جيل الحمد، فالحمد لله على ما مضى والشكر لله على ما أعطى، ثم هو الشكر لشباب من أبنائنا عمروا المستشفيات التي عمرتها الدولة لأقول للدكاترة «حسان رفة» و«رضا خليفة» و«حسن سليمان سليم» و«عصام قدس» وأمثالهم.

هذي المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادت بعد أبوالا

ولعلي أكرر بعد عن تجربة أخرى على هذا النحو.

مع الأجيال

- وتختلف الأجيال في طموحها وعواطفها وأمانيتها وحتى فيما يرضيها أو يغضبها. . فالجيل الذي قبلنا كان يعيش الخوف كل قرية مدينة، كل مدينة إقليم. . فلقد فرض التخلف الاختلاف فرقة وشتاتاً، فلا تجد واحداً من ذلك الجيل إلا ويعيش القناعة، دون إقناع؛ كأنما كل شيء قد فرض عليه. . فإذا الخوف يمنعه من الرفض وجاء جيلنا لا يعيش الخوف، فكل مخافة له هو في أن لا يستتر به الحال. فالتطور يتلاحق فأصبحنا نفرق بين ما يغضب وما يرضي، إذا ما لبسنا القناعة كانت عن اقتناع. وإذا ما رفضنا الاقتناع. كان الامتناع بأسلوب واضح. فلن يكون إلا ببرهان. نعيش الأمان. فالطموح لدينا هادئ مريح حين استرحنا من كروب الماضي وارتحنا إلى آمال المستقبل. فالحمد كان شعارنا، والتجربة كانت طريقنا. حتى إن الأماني قد تتجسد في أحلام اليقظة ليتضح بعض ما تحقق منها في يقظة الأحلام.

وكنّا نعرف أن الإفراط في الأماني هو التفريط في تحقيق الطموح. لكن الأماني دعامة الطموح.

وجاء جيل بعدنا لا يقتنع بالهويناء يسير بها التطور، حتى تخطى الطموح إلى الجموح. أحلام اليقظة لديه عريضة، ويقظة الأحلام يريد منها أن تكون

مخضعة للواقع لا خاضعة لها. . الخوف لديه ألبسه القلق، والأمن في يديه لم يلبسه الطمأنينة، لأنه لا يخضع لواقعه، وقد جاء ذلك من الفصام بين وضعين، وضع الانطلاق والحرية للفرد الواحد، يعيش كما شاء لا بما يشاء المجتمع، ينطلق بكل ما يملك حتى ليضيع منه كل ما ملك. . أما المجتمع فيكتنفه القيد، فما زال خاضعاً للتقاليد الموروثة، وللأخلاق الكريمة، فالفرد حينما يأتلف به المجتمع مقيد، وحين يكون الواحد بعيداً عن المجتمع ينجرّف مع الانطلاق. لكنها طبيعة النقلة تفرض على الطموح أن ينطلق، وترفض الإستكانة خضوعاً للواقع، لأنه يرغب الواقع أن يخضع لما هو متوقع. حال لا بد منه في ظروف التحول حين أشرقت المعرفة، وأصبح الإنسان ليس ابن القرية أو المدينة أو الإقليم، وإنما هو سواء أراد أو لم يرد، ابن الدنيا كلها. فلا خوف فالوارثة دنيا وتراثاً وأرضاً ستحيل الجموح إلى طموح متزن، والرفض إلى رضى يسطع منه برها، فما زلت أعرف لجيل الشباب أنه سيكون الحرس لكل ما نملك من تراث وميراث. فالمجد أن نرتفع بما نصنع ارتفاعنا بما صنع أوائلنا. . والخير كل الخير في - المواءمة بين مطلب الشباب وعطاء الشيوخ:

وأخيراً فقد أستريح لقول شوقي:

الأماني حلم في يقظة والمنايا يقظة من حلم

الترف في أيامنا

- كان الترف قبل أيامنا هذه ظرفاً وتجبلاً يضيفي على صاحبه الرضا
بالنعمة ويمنح صاحبه الفيض على من يستأهل العون مما أنعم الله عليه .

فالمترف «أيام زمان» مضى يفتح بابه، يرحب بالزائرين . وقد كان
الترف على قسمين، قسم الجيب المستور وقسم النفس الساترة لما هي فيه .

فالجيب المستور يظهر على صاحبه الوفرة ليس فيها طفرة . والنفس
الساترة لما هي فيه عرفناها في أشياخ لنا، بعضهم كان يسكن في غرفة في
أي رباط . لكن إذا ما زرناه وجدنا الغرفة نظيفة نظيفة ولو كانت قطعة الزل
مرقعة؟ أو الحنبل تظهر فيه الشقوق، لكنه نظيف . والآنية، أتمثل منها
فنجان الشاي، لا تجد فيه رائحة كريهة . . أبيض . . أبيض كأن لدى الشيخ
صيدلية فيها دواء يلمع به هذا الفنجان . وإذا ما جلست إلى أحد هذين
المترفين، المستور والساتر لا تسمع إلا أنظف القول .

فقد أخبرونا أن أحد المجالس التي يجتمعون فيه ضحى أو بعد المغرب
يلعبون الشطرنج أو الكنجفة والداما والبشيش . قالوا إن في صدر هذا
المجلس، ولعلّه كان في بيت النعمان الحنابلة المؤذنين لوح مكتوب عليه
هذا البيت من الشعر:

بهذا الشرط يا خلي إذا أذن فقم صل

فإذا ما سمعوا الأذان استأذنوا يذهبون للصلاة. أما شأنهم بعد العصر فالخروج إلى خارج المدينة يستنشقون الهواء الطلق. هكذا كانوا، ترفاً يحكمه الذوق ويصنعه الجمال في النفوس. لا تسمعوا الشكوى بل تسمعوا الحمد.

أما المترفون اليوم فقد تغير الحال، غطسة تتبطر وبطر يتطير كأنهم بما امتلكوا هلكوا وهم أحياء ذلك أن الترف في وجدانهم عيش، والتصرف في مسيرتهم فيه الإقصاء للحياة، إذا ما افتخروا كان بما يملكون، فإذا هم في قلق لأنهم فقدوا الرضا، ولكنه حال كأنه بوتقة صهر لا بد وأن يعودوا إلى ترف نظيف ومسيرة نظيفة، لا يفترق الواحد عن الآخر حين يزول البطر.

كل الأيام مباركة

- شهر شوال تضاربت عليه أحوال من العادات . . فقد كنا نتشاءم من الزواج فيه بحجة أن الزواج بين العيدين، عيد الفطر وعيد الحج، لا يكون مباركاً . . وأكثر ما كانت هذه العقدة أو هذه العادة رائجة على حد ما أعرف في المدينة المنورة . حتى إن أول زواج لي حتمه علينا أن يكون الزفاف (دخلة مخفية) في رمضان . ويعني أن ذلك تعجيل للزفاف لأنهم لا يحبون أن يكون في شوال . فبعض الأقارب للعروس وفي نطاق محدود يحضرون حفل الدخول . فقد كانوا يسمون حفلة الزفاف (الدخلة) وحين شببت عن الطوق، فقد حملني التوق أن أعرف السبب في هذا التشاؤم . فوجدت سببين :

الأول أن «غزوة أحد» كانت فيه . وما أشد قسوتها على الأنصار والمهاجرين . فأهل المدينة ييكون شهداء أحد . وما أكثر البواكي حينذاك على «حمزة» فأحسبهم تشاءموا من شوال لهذا السبب . والسبب الثاني العامل الاقتصادي يبدأ مجيء الحجاج من رجب، ويتكاثرون في شوال . فيشتغل أهل المسجدين في استقبال الحجاج والتعامل معهم . ينفعون ويتنفعون . فيزدحم العمل وتضيق الفرصة على عمل الزفاف . فالحزن على شهداء «أحد» وضع شوال في هذا الموضع والعامل الاقتصادي أضاف شهر ذي القعدة إلى ذلك الامتناع .

ولكن وقد اشتهر ذلك في عهد أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله «عائشة بنت أبي بكر» رضي الله عنها وعن أبيها، فاشتد نكيرها على هذا التشاؤم حتى قالت: ويح، فقد زوجت إلى رسول الله ﷺ في شهر شوال، وليس هناك زواج أيمن من زوجي برسول الله ﷺ وقد أصرت السيدة عائشة على أن يتم زواج نسائه في هذا الشهر تيمناً به. وقد امتد بي والله الحمد زمني إلى أن أرى الجفوة لهذه العقدة. فإذا أهل الحرمين كثيراً ما يتمون التزواج والزفاف في هذا الشهر. ذهبت العقدة وتطور العامل الاقتصادي لا أنسى أن في ذلك خيراً. فالأيام كلها مباركة إلا ما قدر الله أن يكون نحساً يصب العذاب فيه على من عصاه.

العملة وانتمائها

- وفي كلمة سابقة، جاء ذكر «الريال أبو فرج الله» الذهبي والغازية والمشخص، ونسينا المحبوبي والمحمودي.. وما دام الشيء بالشيء يذكر أحب أن أشرح التسميات للعملة التي تعامل بها العالم العربي في أكثر من إقليم.

فنحن جيل التجربة، عرفنا «الجنيه المسكوفي» ولونه أصفر، أقل من صفرة «الجنيه العثماني». فالمسكوفي نسبة إلى موسكو والعثماني نسبة إلى بني عثمان، كما عرفنا «الجنيه البنتو» الجنيه الفرنسي، ولونه أشبه بلون الجنيه «الفرنجي» أي الإنجليزي، الفيكنتوري، أو الأدواردي أو جورج. وعلى أحد وجهي هذا الجنيه صورة القديس «بطرس» أحد الحواريين، يركب حصاناً ويطعن التنين، وأحياناً نسميه «الجنيه أبو خيال».

وكنا نتعامل بالعملة الفضية والأكثر تعاملًا هو «الريال المجيدي» نسبة إلى السلطان عبد المجيد، و«الريال الحميدي والرشادي» وقد غلبت عليها كلها اسم المجيدي لأنه أول ما وصل إلينا.

ثم هناك «الريال الفرنسي» ونسبته إلى فرنسا كانت على أساس وصوله عن طريق حملة نابليون، وإلا فهو في الأصل «ريال النمسا» فالصورة التي عليه هي صورة الإمبراطورة النمساوية «ماري تريزا» أم الإمبراطورة «ماري

أنطوانيت» زوجة لويس السادس عشر، اللذين قتلا بالمقصلة في الثورة الفرنسية.

وأحياناً نرى عند الصاغة. وفي مكة على الأكثر «الريال البرم» وهو عملة هولندية، أتننا عن طريق الحجاج الجاويين.

أما العملة النحاسية فـ «البشلك» قيمته خمس قطع «اسطمبولية» يعني «خمسة قروش» وأحسب أن اسم «البشلك» مأخوذ من العملة اليهودية «البوشل» أو أن هذا «البوشل» في إسرائيل الآن مأخوذ من «البشلك».

وهناك «الهللة» فكل قرش بأربع هللات، كما أن كل قرش يساوي رمزاً أربعين بارة، والبارة معربة عن الكلمة التركية «فري» فالتركي يقول «فري يوك» يعني ليس عندي مال.

ويأتي تأثير العملة بوصولها عن طريق الغزاة، أو عن طريق الاتصال التجاري.. فالجنيه في المغرب اسمه «لويزا» مأخوذ من اسم «لويس» والهللة عملة يونانية «هاللو» والدرهم بالعربية هو «الدرخما» باليونانية.

وفي بلاد الشام يسمون كل العملة المتداولة «مصريات» في سوريا، أو «مصري» في لبنان، ترسب ذلك لديهم من حملة إبراهيم بن محمد علي إلى الشام.

التكريم

- الأخ الأستاذ علي العمير أكرمني حين أثنى على احترام الكبار ورحم الصغار وما ذلك إلا خلق الإسلام ليس منا من لا يحترم كبيراً ولا يرحم صغيراً، أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

لقد تعلمنا احترام الكبير من التربية فقد كان اليوم يوم الجمعة في أوائل الأربعينيات من السنة الهجرية وكنت في الدكان فإذا أستاذنا محمد سعيد المدرس والد الدكتور عبد العزيز المدرس جاء إلى الدكان، فاكتمل قدين مدين من الحنطة. وقال لأبي: «نادي لي يا أخ حسين من يحمل الحنطة» فالتفت إلي والدي وقال، أحمل ذلك تصل به إلى بيت أستاذك فوقفت ببضع وخمسة كيلو من الحنطة فوق رأسي أحملها دون أي استكراه لذلك من سوق الحبابة إلى آخر «ذاروان» التي يسميها أهل المدينة «ضروان» مسافة لا بأس بها وقد كنت فتى يافعاً في السنة الرابعة من المدرسة الرابعة تياهاً بنجاحي، فلقد كانت اللحظة تزرع في وجداني «الاحترام» للأستاذ والوالد وغير ذلك كثير.

وكان رسول الله كريم المعاملة لأصحاب القيم. فقد كرم قيس بن عاصم المنقري السيد في تميم يبسط له رداءه ويقول «هذا سيد أهل الوبر» كما كرم جرير بن عبد الله البجلي، يبسط له رداءه ويقول «ما وصف لي

رجل في الجاهلية إلا وجدت وصفه دون ما هو عليه حين رأيته إلا أنت» .

وقد ورد عنه في مثل هذه المواقف إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه» .

وحدثنا وهو من أهل المدينة ومن أبنائنا واسمه «سامي حفطي» قال :

نزلت ضيفاً حين ذهبت إلى مصر على السيد «محمد بدوي بك» والد «عبد الحميد بدوي باشا» فرأيت الباشا عبد الحميد - وهو من هو قيمة ومقاماً وعلماً وفقهاً - يصحو مع الفجر يقود أباه إلى الحمام حتى إذا قضى حاجته أخذ يصب الوضوء على مغاسل الوضوء ثم يصلي إماماً بوالده .

كذا يكون التكريم . . وقالوا إن محمد باشا البدرابي لا يكبر أخاه السيد البدرابي إلا بستة أيام فهما أخوان من أب ولكن كان سيداً ينادي أخيه محمداً «يا باشا» ومحمد لا يناديه إلا «يا سيد» مع أنه باشا مثله فإذا ما ناداه يقول «لييك» .

ودخل مرة ونحن في مجلس أمير كبير اثنان من أصحاب الملايين وكان المجلس غاصاً وكنت جالساً في مكان مرموق فلم التفت إليهما فجلس كل منهما حيث انتهى بهما المجلس وجاء الشيخ «محمد فتيح» وهو من أهلنا مدني مثلي وأكبر سنأ مني وأجل قدراً فبعد أن سلم قمت أخلي مكاني له ، فأكبر صاحب المجلس ذلك رأيت التكريم منه إلي في عينيه ثم رأيته يكرمني عملياً لأن التكريم لزائر المجلس الكبير تكريم لصاحب المجلس الكبير .

هكذا لم نفقد بعد في كثير من شبابنا هذا الخلق وجئت أنت الدليل على ذلك . . فشكراً للوازع فيك لا شكر المقايضة وإنما هو شكر الخلق .

الأسودان

- والنخلة معشوقة الفلاح في أرضنا هذه ذخره وإن استعان بالخضار والفواكه والبرسيم والأنواع الأخرى من الشري أي الخربز والبطيخ والكثاء والخيار والدباء.

يعنى بالنخلة لأن أرضنا كثيراً ما عاش ساكنها على الأسودين الماء والتمر حتى سمعنا أن بعض حكام هذا البلد فيمن سبقوا يوم قالوا له «إن الأرزاق قد شحت في المدينة المنورة».

فقال: «لن تجوع المدينة وفيها الأسودان» والتمر كالجمل . كالفرس . كالسيف عدة الفتح المبين والعضيد، ما بيني وبين الجنة إلا هذه التمرات فألقاها يستعجل الشهادة في يوم الشهداء يوم بدر يوم الهلكى من الصناديد .

قالوا جمع هذا الفلاح النجدي القصيمي أبناءه وقال سترثون بعدي ما كنزت من المال دفنته تحت نخلة فإذا مت ابحثوا عنه تحت إحدى النخيلات ومات الأب وحفروا الأرض تحت كل نخلة فلم يجدوا كنزاً.

فذهبوا إلى شيخ كبير يسألون رأيه فقال: ألم تنظروا إلى النخل وقد أخضرت وأثمرت فهاجت عراجينها واستغلظت شماريخها وكثر زهوها ورطبها وتمرها «ذلكم هو الكنز».

أوصاكم أن تحرثوا الأرض لتخضر كل عمة من عماتكم ألم تسمعون
حديث رسول الله ﷺ (كرموا عماتكم النخل).

كان بيننا وبين النخل نسب المعموم للعمة.

أما القصة الثانية فقد أغرم زراع النخل في المدينة بـ «حلوة العلا»
يسمونها «القَطْمَة» لأنها أقصر من الحلوة الشقمية في المدينة وأشد حلاوة
منها وطلب والدي صنواناً من هذه الحلوة تأتي بالقطار فبُئِل الأُصْنِيَة حتى
إذا ما أعرفت حفر لها مقراً أي حفرة كبيرة ينقل لها الصنو البقيل، يضع
التراب والسماذ فهذه الحفر تستعرق بها النخلة فتستغلظ تقوى على الصمود
إذا ما هبت الريح فقل أن تسقط نخلة من نخل المدينة إذا ما هبت عليها
رياح لأن عراقها من العمق البعيد.

وحين انتهى من هذا الصنو نظر إلى أصبعه وكان يلبس خاتماً ثميناً
عرف أنه دفن مع تربة الصنو فعز عليه أن يحفر ليخرج الخاتم، كانت له
قيمة تساوي أكثر من مائة صنو ولكنه تركه ليعيش الصنو فإذا هو النخلة
الحبيبة لديه.

هكذا كانوا يجعلون من النخلة ذخراً ومن التمر زاداً ومن القناعة كنزاً
لا يفنى.

الفلاح

مدرسة الفلاح في مكة المكرمة وفي جدة أخرجت لنا من تلاميذها وطلابها نموذجاً ما أحسب أن مدرسة قد طبعت بصمتها على خريجها بالقدر الذي عرفناه من مدرسة الفلاح .

فالذين تخرجوا منها وهم كثر قد منحتهم المدرسة كبيئة قوام الشخصية، اعتزازاً دون ابتزاز. فقد عنيت أن أعرف الأسباب التي كوّنت قوة الشخصية في هؤلاء. فمن زمن بعيد وقد تمتعت بعشرة كثير من هؤلاء أو بالتعارف معهم. أو حتى المقارنة مع بعضهم، حرصت أن أبرز أثر المعلم الشيخ في غرس هذه القوة في تلامذتهم.

ولكن الذي أثارني اليوم ما تحدث به - مع حفظ الألقاب - علي فدعق، عبد الله بلخير، هاشم زواوي، كلهم تحدث عن مدرسة الفلاح إذ كانوا من تلامذتها، في الأمسية التي أقامها الابن عبد المقصود خوجه تكريماً لعلي فدعق.

ولعلي مطالب بإقامة البرهان أعدد من عرفت من هؤلاء التلامذة أصبحوا رجالاً تميّزوا باستقلال الرأي وقوة الشخصية فمن مدرسة الفلاح بجدة عبد الرزاق هنداوي، تحسبه من عامة الناس، ولكنه في عمله لا تراه إلا قوي الشخصية ينفرد بحصيلة الرأي يفرضها في تقاريره.

ومحمد حسن عواد لا تراه إلا شخصاً قوياً امتنع من أن تناله وسائل الضعف التي سلطت عليه. وقل مثل هذا في حمزة شحاته وأحمد قنديل ومحمد علي مغربي وغيرهم وغيرهم.

وتعال إلى فلاح مكة، فعلى سبيل المثال إبراهيم النوري، حسن حسين، علوي مالكي. إسحاق عزوز، حسين سرحان عبد الوهاب آشي. وأمثالهم لا تجد واحداً منهم إلا وهو ذو رأي، ذو شخصية، ساهم في نهضة التعليم ونهضة الرأي ونهضة الأدب وفقه المسجد.

هل هي البناية. الجدار، كراسي الطلبة، الأحبار والأوراق؟

لا كل هذا ما تأتي إلا من المعلم ما كانوا يدعونه «الأستاذ» وإنما كان يدعى «الشيخ».

لا أعرف مدرسة كوّنت أمثال هؤلاء إلا المدرسة الإعدادية الحميدية في المدينة المنورة، فقد خرجت رجالاً في أواسط العشرينات الهجرية، كأنهم ورجال الفلاح صنوان. ماجد عشقي، محمود أحمد، إسماعيل حفطي، حسين طه، محمد مغربي، مصطفى عطار، محمد خاشقجي، أحمد زارع، أحمد أبو بكر حمد الله، كامل شاكر وقبلهم جميل أحمد.

طراز من الرجال أدوا واجبهم.

مُلح

- وحين نفتقد أبوة الأستاذ هذه الأيام، تثور بنا الذكريات غير حاقدة على ما يجري الآن ولكنها الحنين إلى ما كان.

كان الأستاذ في أيامنا أباً، نهابه ونحبه، الهيبة في حزم الدرس والحب في عزيمة العاطفة التي يحنو بها علينا فلولا أبوة الأستاذ لما كنا قد وصلنا إلى شيء.

ومضت الأبوة ترتاح بعد أن كبرنا إلى صداقة، ولكن الصداقة لم تسقط الاحترام، نخشى ونستحي أن يطلعوا على معابة الجيل.

فقد كنت أستاذاً زميلاً لأبائي، ولكن لم يخاطبني واحد منهم، إلا بما يجعلني أحس بأنه أبي.. حتى إذا ناداني أحدهم يذكر اسمي مجرداً من لقب «الأستاذ» وأحياناً ينادي «تعال يا واد»، وكان الـ «واد» يعني «الولد» لقباً محبباً إلى نفسي.

وأذكر ملحّة الغز بها إلينا عن كلمات تقرأ من أول السطر، ومن آخر السطر، فاجأنا يكتبها على السبورة، وقال: هيا اقرؤوها فقد كانت ملحّة مليحة.. فقد كتب هذه الكلمات «سر فلا كبابك الفرس» «دام علا العماد» «بلح تعلق بقلعة حلب» وقد جاءت هذه الكلمة الأخيرة في هذا

البيت من الشعر على تلك الصورة:

مودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم؟

فالملمحة مريحة يفتق بها الذهن فيها ترف التلاعب بالألفاظ.

هكذا نحن جيل الحمد وجيل التجربة.

اجتماعيات

الرجال حصون

وحفظتها حكمة خطها الكاتب العظيم «أبو بكر الخوارزمي»، فقد كان نشره حكمة، وشعره أحكاماً، كأنما «المتنبى» كان يصفه حين وصف الشعر فقال:

إن بعضاً من القريض هراء ليس شيئاً وبعضه أحكام
منه ما يجلب البراعة والفضـل ومنه ما يجلب البرسام

أي إن الشعر، يجلبه الفضل والبراعة، إذا كان جيداً، إلى فوق، أو يجلبه «الجنون». جنون الجهل، حتى يسفل إلى تحت.

والكلمة قالها «الخوارزمي» «الرجال حصون يبنّيها الإحسان». . . وليس هناك بد، من أن نجري حواراً، عما أراده بـ «الإحسان»، فهل هو اليد العليا، فوق اليد السفلى؟ أم هو الإِجادة، وتحسين الصنع؟ وقد أنعم الله على صاحب «جوامع الكلم» الرسول النبي محمد ﷺ، فقد عرّف لنا «الإحسان» على صورتين. . . فالصورة الأولى حيث قال «إن الله كتب عليكم الإحسان، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة» فسن لنا، أن لا نعذب مقتولاً في حد، وأن لا نسيء إلى ذبيحة تؤكل.

أما الصورة الثانية فتعريف الإحسان، العبادة، كأنما هو الأمر بتجويدها،

حين تكون الطاعة كاملة (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك) والعمل كدعامة من دعائم الإيمان، يجب الإحسان فيه، إخلاصاً لأن يبرز جيداً، سواء كان عملاً لنفسك. أو عملاً مقابل أجر تأخذه، فالرجال حصون يبنّيها الإحسان، إذا ما أجادوا أعمالهم، والأعمال إحسان، إذا ما أخلصوا لوجه الله، فأحسنوا أداءها.

والذين يقودون الرجال، في ميدان جهاد، أو في ميادين الأعمال، أو في مصارعة الضلال الظلم، فإنهم إذا ما أرادوا الكفاءة، تحسن بها أعمال الرجال، فينبغي أن يحسنوا إلى رجالهم، تهذيباً، وتوعية، وأداء حق، وإشادة بفضل، وحرباً على أن يحرموا من المزايا، كل على قدر ما أعطى، وهكذا يصبح الرجل حصناً، إذا ما أحسن وإذا ما أحسن عليه.

الشيء بالشيء يذكر

والشيء بالشيء ذكر، فقد انطوت السنون عن ذكرى حظيت بها يوم فهمت مقالاً في مجلة المقتطف، وكان ذلك قبل خمسين عاماً. واجترار الذكرى دعاني إليه ما كتبه في حوار مع أبي الضياء الأستاذ عزيز عن مقاله في المقتطف.

ولقد كانت المقتطف من أولى المجلات التي قرأتها. وما كانت تصلنا في تلك الأيام، ولكنني قرأت ثمانين عدداً منها، من الجلفة للجلدة يوم كنت أنام في مكتبة، لم يكن أنيسي إلا الكتاب الأم. قضيتها سنوات ثلاثاً أعيش في أعراس القراءة وقد أعارني هذه الثمانين عدداً من مجلة المقتطف صديقنا رشيد الغزير رحمه الله وهو أبو هاشم رشيد، شاعرنا في المدينة المنورة ورئيس النادي الأدبي. كانت الأعداد الثمانون مجلفة أيام رئيس تحريرها يعقوب صروف يزامله فيها فارس نمر، يكتب فيها شبلي شميل والأساطين من العلماء. قرأت الأعداد الثمانين، فكانت الباب الذي فتح لي على ثقافة العصر الحديث، وأرجعتها لصاحبها. ولا أدري هل ابنه محتفظ بها الآن أم هي ذابت حين تذيب الغوالي عوامل الإهمال. كما ضاعت مني مكتبتي الأولى، تركتها في المدينة، ولم تصل مع أهلي إلى مكة.

إن مجلة المقتطف ما أحسب أن مجلة قد سدت الفراغ بعدها. فمجلة

الهلال والرسالة وأمثالهما كن على غير شاكلتها وإن أفضن علينا ثقافة الأدب وأدب الثقافة.

والذكرى عن المقتطف كانت ذات يوم. فقد ذهبت أشتري بعض العطارة من الشيخ عابدين البغدادي، حفيد موسى البغدادي عين الأعيان في جدة، يوم كانت للأعيان قيمة. وتأخر لا يزن لي ما أطلب من العطارة، يناولني عدداً من المقتطف، يقول لي اقرأ هذا المقال وأفهمني ما تفهم منه. وقرأته واقفاً ثم جلست أعيد القراءة. فقلت لا أستطيع أن أعطيك ما فهمت لأنني لم أفهمه بعد. فأعزني إياه ليلة، أنكب على دراسته لعلّي أفهمه. فقال وقد سره ذلك. خذه ليلة أو لياالي فإني واثق أنك ستفهمه. فلست كهذين. وقد عرضته على أستاذ رياضي فاستعجل ولم يتم قراءته يريد أن يفهمني، فلم أره قد فهم شيئاً. وعرضته على الآخر وهو أستاذ أديب فإذا هو كالأول. قلت له: إن الأستاذ الأول لا يعرف العربية جيداً لأنه تعلم بلغة تركية. أما الثاني فقد طبع على ألا يقول لا أدري. يريك أنه يعلم كل شيء.

وأخذت المجلة، ودرستها وفهمت المقال. كان عن الفرق بين القوة والطاقة. فالقوة متفاوتة الطاقة. ذهبت إليه، قلت له، أتعرف البطارية قوة ستة فولت و١٢٠ أمبير، قال نعم، قلت الفولت هو القوة والأمبير هو الطاقة، وهناك مثل آخر عندك حمالان. كل منهما يستطيع أن يحمل الكيس من السكر على ظهره، فالأول يحمله من باب المصري إلى البلدية والثاني يحمله من باب المصري إلى مسجد الغمامة، فقوة حمل الكيس لدهما واحدة وطاقة التحمل متفاوتة، وفرح بهذا الجواب فانعقدت صداقة بيني وبين عابدين بغدادي يرحمه الله.

التحية لسموه

- وسمعت الإذاعة تذيع تصريحاً أدلى به صاحب السمو الملكي وزير الداخلية الأمير نايف بن عبد العزيز، فالخبر كان عن البطاقة الشخصية، ذلكم إجراء تقليدي قد لا يثير حماسة كاتب، لكن الذي أثار حماستي وجعلني أتقدم بعد أن تأخرت كثيراً أنشر التعليق على الخبر المهم عندي ما تحويه هذه البطاقة ألا وهو كتابة فصيلة الدم.

ومالي أهتم بذلك؟ فأرسل التحية لسموه أن خطا بنا خطوة حضارية، تصون الزوجين من عقابيل قد عرفت، وكثيراً ما يتوقاها زوجان عرفا ما يحدثه اختلاف فصيلة الدم. إن هذا الخبر كنت قد طرقت بعضه مع صاحب الفضيلة والمعالي وزير العدل الشيخ إبراهيم بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ حين كنت أجلس بجانبه في صالون الاستقبال نسلم على جلالة الملك فهد أيده الله بنصره.

قلت لفضيلة وزير العدل:

«ألا يمكن أن تصدروا أمراً إلى المأذون الشرعي قبل أن يتم العقد أن يعرف سلامة العروسين من الأمراض المعدية؟ فإننا الآن في عصر اتصل به العالم كأنما هو رقعة واحدة فلا ننكر أن عدوى هذه الأمراض قد تنتقل بصورة أو بأخرى فهل هناك ما يمنع من أن تصدروا هذا الأمر؟ فالخاطب

يحمل تقريراً عن صحته ولا بد أن تكون فيه فصيلة الدم، والمخطوبة تحمل تقريراً عن صحتها كذلك».

وسمع الشيخ فإذا هو يجيني:

«لا مانع من ذلك، إذا ذكرتني فإني سأبحث الموضوع». ولم أذكره وإنما كان تصريح سمو وزير الداخلية قد أعطى كل القوة ليكون تذكيراً لمعالي وزير العدل.

لقد كثر الناس من هؤلاء العاملين، وتكاثر السفر إلى الخارج، وشاهدنا بعض الزيجات تعاني الأمرين من هذا التخفي. ما أردت أن أكون كالنعامة، كل ما أريده أن تتم السعادة بين الزوجين وأن ينجبا الطفل الصحيح.

وما كنت أعلم قبل أن أُملي هذه الكلمة أنه لدى إدارات المرور أمراً بوضع فصيلة الدم على رخصة القيادة لكل من تعطى له.. لقد علمت ذلك الآن وكان سببه الأول أن تعرف فصيلة دم المصاب ليسعف المماثل. ولا أحسب الأمر إلا أنه إلزام لا يباح لسائق أن يتفلسف من ذلك.

وبعد فالتحية لسمو الأمير نايف بن عبد العزيز ثم التذكير والتحية لمعالي الوزير الشيخ إبراهيم بن محمد بن إبراهيم.

الوفاء (٢)

- ومعدرة لقارئ يمل التكرار إذا ما كتبنا مرة ثانية عن الوفاء . إن الوفاء قيمة للوفي من مكارم الأخلاق ترسخت القيم الفاضلة في فكره وتفكيره وامتلأ بها وجدانه فهو لا يطيق أن يجفو صانع جميل كأنما الوفاء شكر عملي .

لقد علمت حادثة تجلّى فيها وفاء الرجال . كان صاحبها وصانع الوفاء هو عبد العزيز بن إبراهيم وكيل إمارة المدينة المنورة في أوائل الخمسينات الهجرية، وضعوا بين يديه معاملة، أخذ يقرأها لبيت في الحكم في القضية التي شرحت أمامه، فإذا هي عن دين مطالب به أحد أعيان المدينة المنورة وهو «علي برادة» والد الأخوين عارف برادة وكاظم برادة يرحمهما الله وأخييهما الأصغر كنعان برادة.

قرأ القضية فإذا السجين الذي ركبه الدين علي برادة، فألقى المعاملة عبد العزيز بن إبراهيم أمامه على المكتب وقال :

- من علي برادة، من أبوه؟

فقالوا أبوه عباس برادة.

فأصدر أمره في الحال بإطلاق سراحه من السجن وقال : أنا أسجن ولد عباس برادة؟ أطلقوه.

وسوى الدين .

وأراد أن يخبر سامعيه عن السبب فقال: عباس برادة صنع معي جميلاً
يوم ربطني الأتراك في المدينة، فهو الذي أطلقني من السجن، فهل جزاؤه
مني أن أسجن ولده؟

قيم الأخلاق إذا لبسها الرجال وضعتهم على القمة يلبسون بها قيمة بعد
قيمة!!

والحادثة الثانية كان صاحبها محمد سرور الصبان، فحين استقر به
المقام وأصبح مذكور الاسم جاءه رجل فقير يقدم ورقة جاء فيها أنه يسكن
بيتاً أجرته مائة ريال يطالبه مالك البيت بدفع الأجرة وإلا أخرجه .

قرأ محمد سرور الورقة وقال للرجل: تعال بعد يومين، فعجب الرجل
وتعجب السامعون فهل محمد سرور في ذلك الوقت لا يملك مائة ريال،
أو أنه قد بخل أم ماذا؟

وجاء الرجل بعد يومين فأرجأه إلى أيام أخرى وهو يطرق من الحياء
لهذا الأرجاء.. فمحمد سرور قد قلنا فيه من قبل «شيمة الحياء فيه تحمل
على الاستحياء منه» .

وجاء الرجل بعد أيام فأجلسه محمد سرور بجانبه وناولته صكاً بملكية
البيت، فقال: قد اشتريناه لك جزاء ووفاء لما صنعت لي من جميل . ألم
تكن خادماً في السجن «الفرن» بأجياد بجانب مطبعة أم القرى، واحتلت
تأثيني بتعميرة جراك تدخل الشيشة من وراء الحراس؟ كان ذلك صنيعك،
فمن الوفاء لك أن يكون هذا البيت ملكك!

وفاء.. فصناع الجميل يعرفون معنى الوفاء شكراً عملياً!!

الضم

- «وتلفن» إلي يستحضرني إلى مكتبه، أتلقى أمراً أو أجيب عن وضع ولما يبدأ سائلاً أو أمراً أمسك سماعة التلفون.. تستريح على أذنه قليلاً أو هو يستريح يفكر فيما يأمر فإذا هو يطلب كاتبه.. يقول له اذهب إلى المستشفى اللبناني وادفع تكاليف العلاج لفلان.. بل واذهب بنفسك إلى المستشفى تسأل عن هذا المريض، فلعله بعد خروجه يسافر وسأخبرك بعد ماذا تصنع له؟..

وتكلم مرة أخرى يأمر بمثل هذا العطاء لفلان آخر، وكنت أسمع على مضض لأن هذين الفلانيين لم يكونا من الشاكرين بل كانا من المنكرين عليه والمنفرين عنه.. واستأذنت أعود إلى بيتي فإذا هو يدعوني أتناول الغداء معه كأنما صنع من التصبر قد أكربه وإن تخفف بالعطاء.. فالتصبر ثقيل على الأكرمين أما العطاء ففيه عطاء التنفس من الكرب.. لأن ما يؤذي الكريم أن لا يجد شاكراً لما يصنع.. وقد قلت مرة إن الشاكر للمعروف هو القادر على صنعه لو استطاع.. أما من ينكر المعروف فهو العاجز عن صنعه.

وذهبت أصحابه إلى المائدة فنظرت فإذا هو قد علق لوحة مكتوب عليها شعر بخط جميل لونت مذهبة.

وقرأت القطعة الشعرية فإذا هي التي تنسب إلى المفوه الأودي إن لم أكن قد نسيت.

وإن الذي بيني وبين بني أبي وبين بني عمي لمختلف جدا
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

إلى آخر هذه القطعة.. رائعة الحكمة. فقلت له: لم تعد هذه تصلح لك، ليتك إن لم ترفعها من مكانها.. تضع بجانبها لوحة أخرى مطرزة بهذين البيتين للسموأل بن عادي «صموئيل» العربي السلولي الذي تهود.. صاحب القصر المنيف في تيماء..

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس إلى حسن الثناء سبيل

قال لماذا؟ قلت: لأن الضيم صنع منك هذا الرجل قال: «لا تحملني أن أغيظك»، فإني قد جلبت بما أنعم الله علي أن أكون في موضع أدفع فيه ضريبة.. زكاة.. شكراً لأنعم الله.. فمن هو؟!

هو يعرفه أصدقاؤه.. هو من افتقده أعداؤه لأنه إن لم يكن حياة في أصدقائه فقد كان عيشاً لأعدائه يكسبون من وراء الدم وما أكثر الذين مارسوا السباب عليه حتى نالوا الثواب من كارهيه.

إنه محمد سرور الصبان يرحمه الله!!

إلى الكاتبة المكية التي تكتب بجريدة الندوة باسم سميرة زيدان أرجو أن يكون توقيعها بإضافة اسم الأب أو الجد حتى يكون التفريق بين اسمها وبين اسم ابنتي سميرة محمد حسين زيدان لأن الالتباس قد كثر عنه سؤال الناس.. هذا رجاء.

جوع المجتمعات

- المجتمع الفقير يأكل جهود شبابه، ولا يعني هذا أنهم يعيشون على كده أو يسخرونه ليرتزقوا من ورائه وإنما هم وقد شعروا بأنهم المقلون في كل شيء المحرومون من أي شيء الغارقون في الجهالة المتبطرون بدعوى أنهم في الأعالى. فينقسم المجتمع بهم إلى مترفع يتعالى وإلى بسيط ينزلون به إلى تحت.

ونشأ شاب من أسرة ليست فوق وباعتزاز لا يجعله التحت، فأصبح يناضل عن قيمته فقد تكوّنت لديه معرفة فتثقف والتقف فأصبح التثقف اللقف يريد أن يلبس لباساً من فوق. لأن عدوى المجتمع قد جعلته طبقياً فإذا وصل إلى نوع من المعرفة ونظافة في الخلق أحب أن يتبارى مع الذين وضعوا أنفسهم فوق. فانتصبوا له يحاربونه في كل مرصد فقد شغرت وظيفة لا بأس بها فلما رشحه بعضهم من الذين يعرفونه لهذه الوظيفة قالوا «إذا كان بدو يعيش يتعين كاتب برتبة جندي».

كان أكفاً من الذي عيّن في الوظيفة ولكن هذه الكفاءة لم تنفع لأن التفاوت الطبقي حال دون ذلك!

ولكن مضت السنون فشبع الجياع وتحاذت الطبقات حين توفي «العتاولة» من الطبقيين. فإذا الشعب يحدث في الشعب بعد المساواة حتى إن

صاحبنا وقد اكتهل أصبح المرموق يحتذون حذوه ويسترضون عواطفه فإذا هو بينهم لا يكون في الطبقة العليا لأنه يكره الطبقة وإنما أرادهم أن يكونوا في الطبقة الوسطى التي هي صانعة البناء في أي مجتمع.

وهكذا وجد نفسه لا يندم على ما فات بل يعمل على تحقيق الذات حين يحترم كل الذوات.

جوع المجتمعات نكبة سواء كان جوع المعدة أو جوع الفكر أو جوع المعرفة أما الشعب فنسأل الله ألا يكون بطراً تضيع به القيم وإن تبارت به القيمة.

الطموح والفراغ

- وفي الحديث الصحيح: «الخلق عيال الله، أحبهم إليه أبرهم بعياله»
أي أكثر الناس براً بمن خلق الله.

وقد وضعت هذا التفسير لأنه قد سبق، من زمن غير قريب أن بعضهم
قد قرأ مذاعاً: «إبراهيم بعياله». فقد جعل أبرهم اسماً هو إبراهيم.

فالبر هو في كل وقت. ومن أحسن الأوقات هو ما تشعر به أو فيه عن
حاجة إنسان تعرفه أو هو قد جاءك يعرض حاجته عليك. ومن أحسن
الأوقات شهر رمضان الكريم.. فالخيريون قد تعودوا أن يتصدقوا فيه وأن
يخرجوا زكاة مالهم.. ولكن صاحب الحمار والعم جعيدان لم يعرفا معنى
البر.

فصاحب الحمار يأتيه بعض من يريدون أن يستدينوا منه: سلفاً مائة
جنيه على الموسم.. حاضر، بس اشتري الحمار وبيعه ويأتي المحتاج
المضطر فيشتري الحمار.. هو طلب مائة دينار، ولكن صاحب الحمار يبيعه
له بمائة جنيه.. هيا اكتب سند بالمائتين.

أخرج الحمار من العزلة، يمشي الحمار قليلاً ثم يقول صاحبه:
للمديني صاحبه، أين تذهب به مين يشتريه منك؟ هيا بعني الحمار.. ولا
يدفع ثمناً لحماره الذي باعه بمائتين إلا المائة التي يريد أن يستدينها صاحب

الحمار.. إنه يتحايل بحجة أن هذا بيع وشراء وليس فيه شيء من الربا.. مع أن التحريم في الربا وارد. فهو غير محتاج إلى حجة فقيه فعنده دافع الطمع. أما العم جعيدان، فقد سكن في خرابه. لا نعرف من أين جاء. أهو بدوي قد تحضر أم هو حضري قد تبدى. فالريبة لا تتضح بها معرفته.. جمع أكياساً من الفحم. يأتيه الذين يحترفوه دلالة الغنم من الماعز والضأن، الذين يسمونهم في المدينة الفلتية. يقول لجعيدان: سلفني عشرة ريالات. طب علينا ضيوف الليلة. فيقول جعيدان أبيعك عشرة أكياس فحم، وثمانها سلفة عليك. هيا اكتب سنداً. حتى إذا وقع السند قال له: دعني اشتري منك الفحم بعشرة ريالات. وكان الثمن الذي يبيع به أولاً أكثر من عشرين ريالاً.

وهكذا يصنع الطمع والفراغ من الرحمة في القلوب القاسية ما يصنعه صاحب الحمار.

وصاحب الفحم.. وعلى هذا فقس..

الاستعراض

- وتفضل زائر بعد غيبة طويلة، ولم تكن هذه الغيبة برحلة في الشرق أو الغرب، وإنما كان يرحل من شارع إلى شارع بالحاسة السادسة «الاستعراض»، أي التفتيش عن الأراضي.

واستقبلته مرحباً، وبعد الترحاب أطبق علينا صمت فقال: ما لي أراك تضحك؟

قلت: تعلمنا أن كثرة الضحك تमित القلب، وأن بعض الابتسام سخرية، لهذا أتجنب أن يموت قلبي وابتعد أن أسخر.
قال: ما عهدتك إلا متفائلاً.

قلت: اسمع يا هذا.. إن نفسي قد انكسرت من هول ما أسمع من صدمات الرؤية على كثير، حتى رؤيتك أنت أفلم تسمع قول المتنبي:
ماذا أريد من الدنيا وأعجبه أنني بما أنا شاكٍ منه محسود

قال: من يحسدك؟ وعلى ماذا يحسدك؟

قلت: ذلك الثري يريد أن يشاركنا البيان، فهو يتكلم عن بعض ما يسمع فيهرف بما لا يعرف حتى قلت له مرة: لقد كان حظك أن تكون ثرياً. فلا تتعب نفسك أن تكون بيانياً.

قال: هل هذا يزعجك؟

قلت: إن المزعج أن بعض الذين لهم قيمة يهدرونها حينما يسمعون لهذا. ويزعمون أنهم الصوانون لها حين لا يسمعون لمن يجيد الكلام. تعرف أن الأمر قد انقلب حتى أصبحت أنت وأمثالك تنشرون هذا البيت هكذا.

يهون علينا أن تصاب «عقولنا» وتسلم «أعراض» لنا و «جسوم»

أنتم تنشدون هكذا. أما نحن فهكذا:

يهون علينا أن تصاب جسومنا وتسلم أعراض لنا وعقول

وأخيراً فإن النسبة إلى الأرض «استراضي» من تعابير حمزة شحاته

يرحمه الله.

إذلال الأبوة

- ذهب الأب وابنه كالعادة إلى الدورية. فالدورية تتم لجماعة من الأصحاب كل ليلة في بيت واحد. وحين اجتمعت «البشكة» وتحلق أربعة منهم يلعبون «البلوت» جلس الأب رفيقاً لابنه. فاحتدم اللعب وظهر الغلب على الابن وأبيه. فأقبل أحد الصحاب وقد جاء متأخراً، وحين رأى وجه الابن مربداً جازعاً من الغلب قال: «ما أقول إنك وجه غلب؟!».

فقال الابن بغضب وجزع يمد أصبعه نحو أبيه. رفيقه في اللعب فقال. «مهو أنتا شايف هادا اللوح اللي قدامي.. أهو كتبه!».

عجب بعض الذين يحترمون آباءهم فاشمأزوا من كلمة الابن أهان بها أباه. وضحك الآخرون الذين يسخرون من كرامة الأخلاق ويفرحون بسوء الأخلاق..

وكان حال الأب محزوناً ابتلع الشتيمة حين أكلته الشتيمة، لو قالها غير ابنه، لكانت مزاحاً بين نديد ونديد، فإما أن يقولها الابن فشيء لا يليق، فالأمر كما قلنا في «انتحار الأبوة» قبل هذه هو من سوء التربية. فالأب لم يعلم ابنه احترامه، وهو لم يحترم نفسه أن يلعب في حشد من الناس رفيقاً لابنه..

إن الآباء الذين يفرحون بتدليل أبنائهم يتجرعون هذا الإذلال للأبوة..

ومضت الليلة نكدة على الأب، لكن الابن لم يكن كاسف البال وإنما كان شديد البلبال. وهكذا الآباء يفسدون الأبناء. وما أكثر هذا الإنسان حين انتشر فانهزمت الأخلاق وانتشر سوء الأخلاق..

ظاهرة حضارية

وأذكر كلمة «حضارية» رغماً عني، فكما قلت من قبل وذلك أن كثرة الاستعمال مسموعاً أو مقروءاً أو متلفزاً قد أوحش من كلمة الحب وكلمة الحضارة، حتى لأحسب أن كلا منهما قد ابتذل. ولكن وجدته أعبر عن عدم استعمال «البوري» في مدينة جدة بأنه مظهر حضاري تمشي في أي شارع وتنام في بيتك في أي محلة فلا تسمع أبواق السيارات. لقد ذهب بهذا المظهر الحضاري الإزعاج الذي كان بهذه الأصوات.

كأنما النكتة التي أطلقوها على أحد أغنياء الحرب قد أصبحت عملاً لسائقي السيارات هذه الأيام، فقد قالوا إن هذا الثري كان صاعداً إلى مكة وقد أسرف السائق في استعمال البوق «المنبه» فقال له:

«لا تزمري يا ولد.. بعدين يخلص البنزين»!!

ودهش السائق، وسكت عن التزمير، لا اقتناعاً برأي سيده وإنما امتثالاً لأمره.

إن سائق اليوم في جدة يعرف أن البنزين لا علاقة له بالبوق، ولكن الوعي هو الدافع له ألا يسرف في استعمال البوق.

وظاهرة حضارية أخرى هي أن كثيراً من راكبي السيارات أصبحوا لا يلقون بأعقاب السجائر وبقوارير «البيبسي» ولا الفضلات الأخرى في

الشارع، لأن نظافة الشوارع ألزمتهم بذلك، حتى إن سائقاً خلف سائق رأى من يرمي عقب سيجارة في الشارع أصبح ينكر عليه ذلك.

إنني أغفر لنفسني أن تعاملت عن هذين الموضوعين أصفهما بأنهما ظاهرة حضارية. مع أنهما في الواقع ظاهرة حضارية.

فالحضارة ليست هي السيارة ولكن بالأسلوب الواعي والذوق في أن يحترم الإنسان أخاه الإنسان، وأن يحترم نظافة الشارع.

لا تعط الصعاليك

- وكنت أتحدث إليه، أعني أي إنسان يسمع حديثك، أو إنه إنسان يجعلك تجتر كثيراً من مكنونك ليفتر هو بالكثير من التفهم والكثير من التعليم لك. فالحوار أستاذ يختفي ثالثاً بين اثنين يتجاوران، يعلمك ما لم تعلم أو يذكرك بما تعلم أو يجعلك تطرح فهماً جديداً لما علمت من قبل أو مما تعلمت أثناء الحوار.

قلت له :

إن الصعاليك لا ينبغي أن نعطيهم أكثر من عطائهم لأنفسهم، وليست الصعلكة تعني الفقر أو الشظف. فالصعلكة خلق وسلوك قد يلبسها الثري ولكن لا يلبسها السري، فالسراوة قد يلبسها من وهبه الله الخلق وتواضع الكبرياء وكبرياء التواضع.. إن الصعلكة تجعل إنسانها لا يقيم وزناً للقيم، لأنه ليس صاحب قيمة. وقد عبر المتنبي بهذا البيت عن بعض ما تعنيه الصعلكة..

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

كان الولد قد امتلاً جيبه وركب هو وأبوه الحافلة، فقال الأب للابن:

أعط الجابي الأجرة.

فقال الابن :

«هو أنت راكب السيارة وما معاك فلوس، تبغاني أحاسب أنا عن الأجرة؟».

ونزل الأب من الحافلة. ودمعة في عينيه، فأخذ لا يدعو على ولده بالشقاء وإنما أخذ يدعو له بالهداية. فالأب يمثل السري، والابن مثال الصعلوك.

إن بعض الذين لا يجدون طعام ليلتهم يبذلون الطعام لجارهم كأنهم من الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

قال كبير يتكلم عن شاب كثرت أخطاؤه فإذا ثريان من أصحاب الملايين قبل أن تكون البلايين: «إيش بو؟! ما هو غني. ليش يسوي كده؟!».

فقلت للكبير :

إن هذين يجعلان الغنى مقاس الأخلاق، ويجعلان الفقر السبيل لسوء الأخلاق. تلك صعلكة في التفكير فكثيراً ما يجر الثراء إلى الأخطاء، وكثيراً ما يهدي الفقر إلى الصواب. وما أحلى قول صفي الدين الحلي:

إن الزراير لما قام قائمها توهمت أنها صارت شواهينا
ظنت تأني البزاة الشهب عن جزع وما درت أنه قد كان تهوينا

فقد يسكت السري عن الإجابة لما أجزعه ترفعاً عن الدنية، وهكذا فإن الصعلكة خلق وسلوك، والسراوة خلق وسلوك.

المسؤول والمراجع

- قبل سنوات عدة إذا ما دخلت على مكتب أي مسؤول لا يسرك الوضع الذي كنا فيه.. المسؤول لا صبر له على المراجعين، وحتى أي موظف لا تجده إلا مشغولاً يقرأ جريدة أو يشرب الشاي.. وفي الناحية الأخرى تجد الصوت يرتفع من المراجعين، مع أن السنوات التي مضت لم تتضخم المسؤولية ولم يكثر المراجعون ولم تتعقد المشكلات.

وأما اليوم فحال يسر ووضع مشرف.. فما أكثر المراجعين للجوازات بكل فروعها وتعلم المرور لكل أقسامه وللبلديات والتلفونات والمستشفيات وحتى البنوك والمحاكم وكتاب العدل.. كثر المراجعون وكثرت الفروع فإذا ما دخلت إلى أي مكتب من هذه المكاتب لا تكاد تسمع صوت مراجع يرتفع ولا تزاحم بالأكتاف بين المراجعين، ولا تكاد ترى على وجه المسؤول تقطيباً ولا على لسانه كلمة نابية.. وقار المسؤول واحترام المراجعين.. اذهب إلى مكتب الجوازات مثلاً كمراسل صحيفة.. تضع «ريبورتاجاً» ستري ما يصلح للنشر كأنما أنت تعلن على ناسك أن سلوك المراجعين وأداء المسؤولين قد تقدم إلى ما هو أحسن وأكمل.. لا أدري ما هو السبب الذي تحسن به هذا السلوك (!؟) لا بد أن هناك تعليمات.. لا بد أن هناك من الحزم ما تعلم به المراجع أن يكون على وقار.

وميزة أخرى شهدتها في الجوازات وهي مؤسسة حساسة لأنها تحمل مسؤولية المحافظة على نظافة البلد وأمن البلد.. تلك الميزة أنك لا تجد في أقسام الجوازات والإقامة بالذات.. وكذلك الحقوق المدنية إلا شباباً من أبناء هذا البلد.. فلم تبح لنفسها أن تترخص في التعامل مع المتعاقدين كموظفين.. فإعطاء الإقامة وما إلى ذلك مسؤولية كبرى ففي الحفاظ عليها وضع يدعو إلى الشكر.

قد يلومني بعض القراء أنني أمارس بعض الثناء على ما أراه حسناً.. أو على من أحمد له موقفاً فليعلم أولئك أن الثناء على من أحسن عملاً وحقق أملاً وأجاد التصرف فيه شيء من الحض والحث على أن يلزم هذا المسلك، فعيب علينا أن نكون على هذين الوضعين ألا وهما الشماتة فيمن لم ينجح وممارسة القدح والغض على الناجحين فالغض من قيمة الناجح كراهية يسقط من قيمته.. والقدح غيبة.. وزررها على القادحين:

ما أقبح الشماتة.. وما أذل الحط من قيمة الناجحين!!

داء السرقة

- وقرأنا كثيراً من الروايات .. عن الذين ابتلوا بداء السرقة .. فقد يكونون من الأغنياء .. ولكن داء السرقة قد ركب أعصابهم فتخلفوا به لا يسألون عن معابه لأنهم مرضى (!!).

وليس المقصود أن يسرق شيئاً ثميناً، فكل ما يسكن داءه أن يسرق قلماً .. كتاباً .. جورباً .. حتى إذا أمسك بالسرقة استفاق من غفوة المرض إلى صحوة الضمير ..

وقد حفظنا من أمهاتنا .. ونحن في سن الطفولة حكاية «مسعودة» فقد قالوا: إن رجلاً ابتلي بداء السرقة فإذا أكلته يده تدعوه إلى أن يسرق يحاول منعها: خافي الله يا مسعودة .. عيب يا مسعودة ..

وفي أحد الأيام نزل ضيفاً على صديق، وبعد تناول العشاء أخذ الضيف والمضيف مكانهما للنوم، فإذا صاحب البيت يسمع ضيفه يقول: أسكتي يا مسعودة .. عيب .. لازم نستحي من صاحب البيت .. كيف نؤذي الصديق .. حرام يا مسعودة نعامل صديقنا بهذه المعاملة ..

وسمع المضيف هذه الكلمات فكرب أشد الكرب .. لأن زوجته كان اسمها مسعودة .. فظن بزوجه الظنون ولكن الزوجة نائمة في مكان آخر .. والضيف معه في الحجرة .. فأخذته الحيرة .. وفتح عينيه فإذا الضيف

يتسرب من الحجرة إلى المطبخ وكان بعيداً عن غرفة الزوجة.. فامتدت يد هذا المصاب بداء السرقة وبسرعة لئلا يراه أحد.. فاختطف يد الهوند ورجع بها وهو يقول: هيا استريحى يا مسعوده.. جينا لك ما تريدين.

وفي الصباح سمع صاحب الدار يقول: هيا يا مسعوده أعدي الفطار.. فانتبه المريض بالسرقة إلى ما صنع فجثا على ركبتيه أمام المضيف يقول له: لا تظن سوءاً فمسعوده هي هذه اليد.. لا تنام إلا أن تسرق.. وقد سرقت من مطبخك يد الهوند.. فسرى عن صاحب البيت فإذا هو يقول لا حول ولا قوة إلا بالله..

هذه الحكاية أسوقها لأن داء السرقة وبصورة علمية قد فشا حتى بدلاً من أن يكون داء صار أداء بأسلوب علمي.

حمر مستنفرة

- وذهبت إلى صديق أزوره، فقد تعودت ونحن جيل الحمد، جيل التجربة، أن نمتع أنفسنا، حين نزور أصدقاءنا، نهنتهم بالشهر الكريم.. وفي الوقت نفسه، فإنهم إن لم يلتفتوا إلينا زائرين، يكتفون حين «يتلفنون» وإذا ما بعدت الشقة بيننا وبينهم، أرسلوا بطاقة في البريد. أو أبرقوا، ذهبت إلى هذا الصديق في مكتبه، فقالوا إنه مسافر. وثنيت إلى آخر. قالوا إنه سافر، وثلث وربعت، فإذا الجواب هو الجواب نفسه.

وعدلت أن «أخمس» ثم تنهدت الصعداء، فتمثلت بقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ۖ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ (المذثر: ٥٠ - ٥١). حاشاهم أن يكونوا «حمرًا» وأعوذ بالله أن يكون رمضان «قسورة» ولكن واقع الفرار من البلد، الذي لا يحلو الصيام إلا فيه، ولا ينعم أهل الحرم بنعمة الصوم إلا في رحاب الحرم. معتمرين، أو مصلين في المسجد النبوي..

إن هذه العادة، قد أسأنا بها إلى أنفسنا، وكم كان آباؤنا أكثر إحساناً منا، عمل بالنهار، وصلاة بالليل، وصلاة لذوي الرحم والأصدقاء تحلو الدوريات والسهرات.. كان «الشمعدان» و«الأتريك» أكثر نوراً في نفوسنا من نور الكهرباء دليل البصر، ونور «الشمعدان» وما إليه نور البصيرة، فهل كانت البصيرة أقوى في تلك الأيام؟ وبعيد أن أتهم الأيام، ولكن الاتهام

مازال قائماً على الذين أخذوا يلتهمون الوقت، تخفق بهم أجنحة الطائرات، إلى مكان لا متعة للصوم فيه، بل إن المتعة ذابت، يوم لا أجد صديقاً آنس به، ولا أجد جماعة ألعب معهم، أو يلعبون أمامي.

بعيد أن أذم الأيام، وما أحسن قول «الخنساء» رضي الله عنها:
إن الجديدين في طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسد الناس
وقريب منه قول الشاعر الآخر..

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا
واسترجعت، وما زلت أكتبها كلمة بعد أن تمثلت بها (حمر مستنفرة
فرت من قسورة) فالقسورة ليس رمضان، وإنما هي من الوجدان بعد
الحرمان وإذا هو «الحرمان» رغم الوجدان.

الكرامة

- وليس بعيداً أو غريباً أن تخوض الكرامة معركة مع المادة، فالمادة جيب قد امتلأ، والكرامة فؤاد لن يفرغ. فإذا ما وقعت المعركة بين الكرامة والمادة فإن المادة قد تكسب الجولة الأولى أو أكثر من جولة، أما الكرامة فإنها لن تخسر، ذلك أن صوانها لديه من قوة الثبات وبراعة الإثبات ما هو أصلب من الصوان يستبرق كالمرمر. فجهر المادة قد يجد هتافين سواء كانوا من المنتفعين أو من الذين يحاولون الانتفاع ولو بسمّة الاتباع لمن امتلأ جيبه.. أما صاحب الكرامة فجهر الصوت ولو لم يتكلم، فقد تستطيع المادة أن تسكت الجهر، ولكنها لن تستطيع أن تسكت الهمس!

فالجهر وقت تكسب به المادة بعض ما تعلن به انتصارها، أما الهمس فزمن يعطي الكرامة ابتسامة الراحة انتصاراً بكثير من الصادقين والأصدقاء الذين لا يجرفهم الجهر وإنما هم يحترفون الصبر ليحترق الجهر بالهمس.

إن المادة حين تزف بالانتصار تخضع ضمير صاحبها إلى إغفاءة حتى إذا صحت بدأت تفتح دفترها تحاسب نفسها، لكن ذلك قد يطول ما دامت هناك قوة تصنعها المادة. وهناك قصة رويت عن «الإمام الأصمعي» يرحمه الله، فقد سمع الأصمعي سقاء يحمل القرية على ظهره وهو ينشد:

وأكرم نفسي أنني إن أهنتها وحققك لم تكرم على أحد بعدي

فقال له الأصمعي :

- وأي كرامة في ذلك وأنت تحمل هذه القربة سقاء؟

فقال السقاء :

- ألا تراني قد أكرمتها - يعني نفسه - عن سؤال لئيم مثلك؟!

فأعجب «الأصمعي» بالجواب، وعرف أن الكريم يجود على نفسه وإن
بخلت عليه الدنيا بما أعطته لغيره.

ويرتفع المتنبي بهذا المعنى حيث قال :

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

كما قال :

أنا في أمة تداركها الله .. غريب كصالح في ثمود
ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

إن الكرامة لن تخسر معركتها وإن كانت المادة قد تكسب الجولة في
صولة.

ازدواج السلوك

- آفة هذا العصر عندما تبدل الحال من كون الأخلاق كانت ملاك وضع الإنسان أمام نفسه وأهله ووطنه وشعبه، فلا تحرك إلا ويحاسب نفسه حياء أن يسيء وشيمة ليحسن ومروءة ليعين وعفة لئلا يتعدى على جار في ماله وعرضه ..

انقلب الوضع من السلوك الأخلاقي إلى الوضع الجديد حين أصبح المال هو قيمة الإنسان وملاك أمره، كأنما الدنيا كلها قد «تأمركت» فهناك مثل أو قاعدة أمريكية تقول الدولار مقدار الرجل، قرأت هذا المثل لأمير بقطر عن كتابه «الدنيا في أمريكا» فإذا الدنيا كلها الآن أمريكا!

الأخلاق تصون الأمانة، أما المال فينبغي أن تصونه الأمانة، وفرق بين من يصون بطبيعته وبين من يحتاج إلى صيانة. وقد افترى المال هذه الفرية وهي ازدواج السلوك، يلقي الرجل بوجهين. وأنت لن تبرأ من لقائه بالوجهين، حتى إنك لتحار في الصدق مع نفسك، تظن أن الكذب عليك أو الكذب منك صدقاً أو صداقة بعامل التصديق تفرضه ازدواجية السلوك ..

قبل سنوات أعرف رجالاً ائتمنوا على ألوف الجنيهاات ومئات الجنيهاات لا يعرف عنها أحد، فالمؤمن قد ذهب ومن تصله الأمانة في طريق الذهاب بعيد أن يناله بأي مطالبة ولكنه لأمانته ولسلوكة الواحد غير المزدوج يسرع

بإيصال الأمانة، أو يعترف بها لدى بيت المال تسلم للوارثين.. فهل أجد ذلك اليوم؟!

لا أريد أن أظلم أحداً، ولكنني أتظلم من هذه الكثرة. ولقد أنصف ثاني الأحمدين أحمد المعري وصف ازدواج السلوك بهذه الأبيات الأربعة:

لعمرك قد بليت وأنت حر	بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صباحاً	ويشربها على عمد مساء
يقول لقد غدوت بلا كساء	وفي لذاتها رهن الكساء
إذا فعل الفتى ما عنه ينهى	فمن جهتين لا جهة أساء

أعراض الأمهات

- والأنثى تعطيها الأمومة، مكانة عالية، ليس عند أبنائها وبناتها وأهلها جميعاً فحسب، بل في المجتمع كله.. وحين جرى حديث، عن أحد «الفلانيين» قال شاب: إنه قد تزوج فلانة التي كانت.. فلا أدري كيف غضبت؟ لكنني أدري لماذا غضبت؟ أليست الأنثى أمي وابنتي وأختي، فأخذت أزجره: لا تعد إلى مثل ذلك، تخلق بخلق الإسلام، إنك تغتابها الآن، لكنك ذكر، تغتفر لنفسك كل ما يعيب، وتحسب على الأنثى، أقل ما يعيب، إن في هذا السلوك، ما يظهر منه، أن الذكر يتعالى، ولو كان معيباً مسرفاً على نفسه، وينزل إلى أسفل حين يغتتاب الأمهات، مع أن الخلفية، لا تعطيك التعالي، وإنما أنت حينما تصف أي أم بما وصفت، تستكبر أن تكون هي كذلك، فالإكبار للأنثى، هو الذي يجعل الرجل يتلسن، كما تلسنت.. وخذ مثلاً، إن أي امرأة، وقع بينها وبين أخرى خصام بعيد، ويكاد أن يكون مستحيلاً، أن تسب امرأة أخرى، بما يجرح عرضها، ولو كانت تعرف عنها ذلك، فالمرأة عفيفة اللسان. لا تذكر عمن تخاصمها، ما يشين عرضها، فإن هي سبت، فإنها تسبها: هي عدوتي. طويلة لسان. غجرية. تكره الجيران. إلى آخر هذا السباب، الذي لا يتناول العرض..

فأشرف ما في الأمهات أعراضهن، أما الرجل فيسب الرجل الآخر،
بكل أنواع السباب، التي تتناول العرض، فالأم، أعني الأنثى أين كانت،
على أي مكانة، فإنها من احترامها لنفسها ستارة، لا تعيب الأعراض..

قال: لم أكن أقصد، وأرجو أن تسامحني..

قلت: أرجو أن يعفو الله عنك، وأن يأجرني حيث أدبتك..

باعها لزوج

- في الماضي لا يؤخذ رأي الفتاة تستجيب لمن يخطبها أو تأبى الاستجابة. لا تعطى حرية الاختيار فالأب يفرض عليها الزواج. . بل ولقد كان ابن العم يفرض نفسه على ابنة عمه، أي يمنع زواجها من غيره. فقد أمسك في يديه حكم التقاليد. . تزف إليه ابنة عمه راغمة، أو يتوجه إليه وجهاء يرجونه التنازل عن هذه الرغبة فيبيع لابنة عمه أن تزف لغيره.

وفيما رأينا من الأخبار. أو هو الخبر الذي أقض مضاجعنا. أن الرجل الكبير، الأب قد تقدم لخطبة ابنته الفارعة طولاً البارعة جمالاً رجل في التسعين من عمره قعيد الفراش كسيحاً لا يتحرك يذهب إلى المرحاض. لديه جارية ملك يمين تباشر خدمته إذا ما أراد أن يبول أو يتغوط.

فهذا الرجل المسن كان ذا مال، خطب الفتاة من أبيها. فروحها له راغمة. ما سككت وإنما بكت. رأيته تقف أمام سريرته الذي لا يتحرك منه فخرجت أبكي وأنا في سن المراهقة.

صبرت. كان الحزن يمضها وفرحة الامتلاك في العجوز تهتز بها عضلاته أما عضلة الفحولة فقد أماتتها الضحولة.

وسافرت الفتاة مع أمها وأبيها يوم كان فخري باشا يبعثر أهل المدينة بالتسفير. . وفي ينبع خطبها شاب. وجاء شاهدان إلى المحكمة يشهدان بأن

زوجها العجوز قد مات.. فأصدر القاضي حكمه بفسخ النكاح من زوجها الأول بحجتين.. حجة الشهادة بأنه مات وحجة أنه قد غاب عنها دون أن ينفق عليها طوال مدة بلغت عامين.

وزفت إلى الخطيب الجديد. وحين دخل بها كانت بكرًا. سر أبوها وزغردت أمها. أما هي فقد شع على وجهها نور حين استراحت. حين وجدت زوجاً أهلاً.. لأنه فحل.

قصة عجيبة مضى زمنها، وجاء زمان يسأل الآباء البنات عن الموافقة على من يخطبهن.

كان ذلك استبداداً أضر، وأسأل الله أن لا يكون الضرر من حرية الاختيار.

عن الكلاب

- وكأني أكتب في «تمر وجمر» كشكولاً أو مخلاة لا أخرج من هذه التسمية، فقد سبق إليها عالم كبير هو الأستاذ العاملي فقد ألف كتابين بهذين الاسمين، كأنه تقمص لباس درويش يتعامل مع تسمية الدراويش. فقد علمت من زمن بعيد أن لفظة «درويش» بفتح الدال تعني الزاهد أو العازف عن الدنيا، بينما هي بضم الدال تعني المجازيب ومن إليهم. ولا أدري أهذا صواب أم خطأ، فأرجو من عارفي اللغة الفارسية أن يصححوا ذلك.

لا أخرج من كلمة «كشكول» لـ «تمر وجمر» حين أكتب عن الكلاب في جدة. فلقد أبيدت الكلاب بسبب أو بآخر، وكان رد الفعل أن أخذ عشاق الكلاب يجلبونها «من بلاد بره»، يدفعون أجرة راكب في الطائرة، يدخلونها منعمة في البيت باسم الحراسة أو بدافع الطرافة أو التطرف. بعضهم يتقن حبسها لا تخرج إلى الشارع، ولكن النباح يقلق الجيران وبعضهم يكلف الحارس ذا الحراسة المزدوجة حراسة البيت ورعاية الكلب أن يخرج به إلى الشارع، كأنما الكلب قد دللوه إلى درجة أن يفسحوه.

وفي غفلة الحارس وعند مرور أحد المارة، أمأً أو بنتاً أو أباً أو طفلاً، يقفز الكلب على المار هات يا صراخ! وهات يا شكوى!

ذكرني هذا كله بكلام نجيب الريحاني في فيلم «غزل البنات»، هو يعمل أستاذاً بلقمة العيش وسد الرمق دراهم معدودات أما حارس الكلب فيعطى أضعاف ما يأخذه الأستاذ نجيب الريحاني كممثل لدوره، فسألوا هؤلاء الذين يجلبون الكلاب كم يكلف الكلب مما يصرف عليه أو مما يشقى به الجيران؟

وقد تحدث حارس الكلب، وهو مسلم تعلم أن الكلب نجس، والكلب يتمسح به، فقال لأحد أصحابه:

- لقد تركت الصلاة، لأن الكلب ينجسني، ولم يدر صاحبه أن يجيبه لأن الاثنين يجهلان أن الكلب طاهر في مذهب مالك وحين قلت لمن أخبرني «أقنعه بأن الكلب حي طاهر أما ترك الصلاة فأمر لا يجوز، إما القتل مسلماً أو القتل كافراً».

فقال من أخبرني:

- هل أتبع مذهب مالك وأترك ديني؟

قلت:

- أنا شافعي.

فكدت أصفعه، ولكنني هدأت قلت له.

- الأئمة ومذاهبهم نحترمها كل الاحترام، دونوا الفقه فهم أصحاب المذاهب، ومذاهبهم ليست ديناً. إنك يا بني لا يصلح أن تتمذهب إلا بما يفتيك به العالم، فالعامي لا مذهب له. المذهب مذهب المفتي، وأنا قد أفتيتك. إذا ما لحسك كلب فتوضأ وصل، فالكلب ليس نجساً، وإنما نجاسة النفس وخبث الروح أن يترك صاحبك الصلاة لأن الكلب قد نجسه.

أليست هذه آفة من آفات الكلاب والجهل والتمذهب؟!!

إن جلب هذه الكلاب تقليد للغربيين ولقد صدق رسول الله ﷺ:

«لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر أو ذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه».

ويعني ذلك أنهم اقتنوا الكلاب لأنهم يحبونها يوم كانت الكلاب تحرسهم من ذئاب الثلوج، فالأوروبي صديق للكلب أما العربي فلا يعرف الكلاب.

أسماء الشوارع

- لكي يصل إليك البريد ولكي يعرف بيتك الصديق، ينبغي أن يعرف اسم الشارع الذي تسكن فيه مقروناً باسم الحي الذي أنت فيه. وبدأت الأمانة في جدة تسلك هذا الأسلوب. فأخذت تسمى الشوارع بأسماء بعض الشخصيات. كشارع باسم أحمد قنديل ومحمد حسن عواد وحسن يمانى وحسين شبكشي. ولا أنكر ذلك ولا أتذكر له، غير أنني ومعى حسن الظن في الأمانة أنها تحتاج إلى أسماء من أهل جدة الذين كان لهم مقام فيها. فلعلّي أعرض قائمة بهذه الأسماء: هزازي موسى بغدادى، عمر نصيف «الجد» أحمد هزازي، فرج يسر، مصطفى درويش، محمد علي زينل، أحمد محمد صالح باعشن، عثمان زكريا، الخفجي، عمر فيروز، محمد السليمان التركي. إبراهيم الصنيع، عثمان باعثمان، محمد أبو بكر باخشب، إبراهيم زهران، أحمد لاري، حمزة شحاته عبد الرؤوف جمجوم، محمد صالح جمجوم، الشيخ حسين مطر، مدير الفلاح، أحمد ناظر، محمد الطويل، عبد الرحمن باناجة، أحمد باناجة، سفيان باناجة، قاسم زينل - عضو مجلس المبعوثات، محمد حسين نصيف، علي العماري، سليمان النانية، عبد العزيز جميل.

هذه الأسماء كانت لها قيم في جدة جدير بالأمانة أن تذكرهم. ولعلّ

بعضهم قد سميت باسمه شوارع. هذا إذا كنا حريصين على وضع الأسماء التي تستأهل التذكرة بها. ثم أقترح وضع خريطة مفصلة بأسماء الشوارع توجد في البريد وفي مكاتب البرقيات وفي المؤسسات ودور الصحف والمجلات.

ولقد ذكرني بذلك أن ضاعت علي رسائل وهدايا وإشعارات. فحين علمت بها بسؤال عارض، جزعت لفقدائها، لا لأنها ضاعت. ولكن لأنني لم أعرف ما فيها. إن الدليل بأسماء الشوارع ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها. وأذكر أن بلدية جدة يوم كانت في حجم أصغر من حجمها الآن قد وضعت أسماء لعظماء في تاريخنا فأحسننت، وأصبحت هذه الشوارع معروفة، ولماذا لا نسمي بعض الشوارع في جدة بأسماء تاريخية كابن جبير وابن بطوطة ولحيان وجهينة، وأمثال هؤلاء.

وأذكر مفارقة، فقد كان موظف البلدية محمد الريو في السبعينات الهجرية، كان هو المكلف بالتسمية. فحين وضع اسماً لشارع هو المدخل لبيت محمد سرور الصبان سماه باسم شاعر القنفذة. وقد تخابث في ذلك، كأنه أراد أن يغيظ الشيخ محمد سرور، مع أنه لا غيظ في ذلك. فالريو يعرف أن الشيخ محمد سرور قد ولد في القنفذة.

وقد كتب هو نفسه هذا التاريخ في ترجمته في الكتاب «أدب الحجاز» ولكنه التخابث حيناً والمجاملات حيناً.

قصة التليفون

- وهل للتليفون قصة..؟

نعم له قصص.. فما من شيء في الوجود يتحرك أمامك.. أو يتحرك بك أو لك.. إلا وله قصة..؟!

سواء كانت هذه القصة خاصة بينك وبينه.. أو متفشية منتشرة بين الناس.

ففي حياتنا الأولى كان أكثرنا لا يعرف التليفون.. بل إني أول ما رأيته في بلدية المدينة المنورة.. وكان المتكلم فيه جميل باشا الراوي الحاكم العسكري في المدينة حينذاك.. عجبت من سلك يوصل الكلام.. ومن لفظة ألو.. ثم عرفته في إدارة المدرسة..

وما أحسبني تكلمت فيه قط.. كأنما كنت أبداً أجفل من التليفون كما كنت أجفل من حصان إبليس (البسكليت)..

وأخيراً دخل التليفون حياتنا جميعاً.. كان أول الأمر كمالياً، ثم أصبح الآن ضرورياً.. فما من شيء دخل بيتك وهو كمالي إلا وقد أصبح ضرورياً حتى الفيديو..!!

وهذا التليفون الضروري قد انتشر حتى أصبح في الشوارع.. ويعطي بكل الكفاءة المطلوب منه في الاتصالات الشخصية وفي الأعمال

التجارية.. إلا أنه الآن تمر بنا أزمة معه..؟

من ناحية واحدة.. هي الاتصال ببعض المديرين أو رؤساء المؤسسات الحكومية بالذات..؟!

فأنا أو أنت في وضع يكرمنا أن نتصل بالرئيس أو المدير اتصالاً مباشراً زيارة لمكتبه أو لأي مكان يحجز نفسه فيه. فنلجأ إلى التليفون.. ولكن لا تكاد تعطى رقمه المباشر إذا ما طلبته.. وإن تحصلت عليه بوسيلة أو أخرى لا يجيبك هو وإنما تجد الجواب عند من جعله رديفاً ولا أقول (ستبن) يجيب نيابة عنه.. انتظر قليلاً. الرئيس أو المدير مشغول إلى آخر الأعذار.. حتى قال بعضهم هات رقمك إنه الآن في السيارة يعني أصبح تليفون السيارة مكتباً متنقلاً بعيداً عن أن نتصل به تليفونياً.

فالتليفون الذي هو وسيلة ميسرة أصبح الوسيلة المعسرة لا تكاد تتصل بواسطته بواحد من الرؤساء أو المديرين.. فهل أركب سيارتي في زحام الطرق وأجري وراء المراجعة.. رفقا بالقوارير.. فكثير من أصحاب المراجعة إن لم يكن القوارير من الأمهات فهم بحكم القوارير وإن كانوا الآباء..!!

لمسة خفيفة.. ذقنا طعم التمر وما أحلاه حين فرحنا بالتليفون.. فلا تذيبونا حرارة الجمر يا أبناءنا الأعزاء.. فمن حق المركز الكبير أن يكون التصرف له وبه التصرف الكبير.. فنحن شعبكم يملكننا هذا المثل (لاقيني ولا تغديني).

الطين والمطر

- بعد عصر الأحد ١٤٠٣/٦/٢٠ خرجت من حي «الروضة» الذي اتسعت به مدينة الرياض، كأنه أحد أجنحة اتساعها، حتى إن هذا الحي أبعد نفسه يختلف رقم التليفون فيه عن الرقم العام في الرياض. وما كدت أركب السيارة أذهب إلى «الدارة» (دائرة الملك عبد العزيز) في الساعة الخامسة والنصف حتى وجدت المطر غيثاً يسح سحاً منعشاً فتمنيت ساعتها وقد تعودنا على المطر «مطر نيسان» يتلقح به اللؤلؤ في البحرين، لؤلؤ الخليج، أن يكون هذا المطر على الخليج هاتلاً غدقاً ليحرف إلى المحيط الهندي بقع البترول، يأخذها التيار، تضيع في المحيط الهندي، تضيع في المحيط، حتى يصبح الخليج نظيفاً، والأسماك حية، والروبيان يعود إلى حجمه الفاخر بعد أن أصبح ضامراً تمنيت أن يستمر هطول المطر على الخليج. وأخذت أنظر إلى شوارع الرياض. فلم أجد الفرحين بالمطر، لم أجد الأطفال يصفقون كما كنا نفعل، لم أجد ذوات الحبال يحجلن في الشوارع التي سالت على الأسفلت، كأنما الأطفال وذوات الحبال قد فقد كل منهم الطين بهذا الأسفلت، كأنما أرادوا أن يكون الطين هو الإعلان لثمرة الغيث، فالماء بلا طين لا شيء يذهب تجرفه السيارات. أترامهم انصرفوا عن الفرحة لأنهم لم يروا الطين؟ فهم إما أن أشفقوا على التراب أصلهم، أو أنهم أشفقوا على الثمرات لا تكون إذا لم يكن الطين. ما

أرادوا أن تكون مدينة الرياض مزرعة، فالعاطفة لا تتفلسف، هم سألوا عن الطين ولا أكثر.

عجيب ألا يفرح الأطفال بالغيث، وألا تضرب ذوات الحبال وقد
اشتملن بخمرهن، كأنما هن يحبين الزغردة للمطر مع الطين أو للطين
بالمطر!

لو كان لي رأي لخرجت بالأطفال، بنات وأبناء، خارج الرياض أمتعهم
بنظرة الطين، يفرحون بالمطر.

الزراع والضراع

- وأخذت حقيبتني أضعها في سيارة «لوري» أتوجه بها من الخراج إلى الطائف. كان ذلك في بداية الستينات الهجرية. وإذا بأحد المهندسين الأمريكيين العاملين في الخراج يقف يسألني إلى أين؟ قلت: إلى الطائف.

قال: إلى جنتكم التي تحبون؟!

إننا نستطيع أن نجعل من رمال الدهناء جنة، فالماء تحت هذه الرمال بحر إذا ما استخرجناه تصبح الدهناء جنة.

قلت: إنه رافد البترول، فالبترول من عطائه، فإذا استفدنا من البترول طاقة نستعملها وطاقة مالية نستثمرها، فإن أرضنا حول الدهناء تصبح جنات.

قال: ذلك أمل سيتحقق.

ومضت سنون فإذا بنا نشهد هذا الأمل قد تحقق هذه الأيام، فهذه الجنات حول الدهناء.

القصيم جنة وجنة، جنة بما أثمر من الزراع والضراع، من التمر والقمح والأنواع الأخرى التي تسد حاجتنا اليومية.

وجنة لأن الاكتفاء الذاتي بالقمح فيه الوقاية من الاستيراد ومن الجوع .
والأحساء جنة . والواحات الأخرى في كل مكان، إنها جنات .
وبالأمس كنت أتسوق في بقالة فأمسكت بحبة من الطماطم «الباذنجان الأحمر» . أروز ثقلها، استكنه ربها ولبها فالتفت البائع يقول لي . .
«إنها طماطم تبوك!» . .
فكبرت أحبي وادي القرى ، لا أنسى العلا وتيماء إذا ما ذكرت تبوك .
وقلت للبائع : زن لي ثلاثة أكيال وخرجت بها فرحاً . .
وفي الصيف وفي مدينة جدة بالذات نجد البرحية والروثانة والسويداء
وزهو الحلوة من القصيم والمدينة والعلا وتيماء . والجوف . أما بيشة فذهبوا
إلى سوق التمور في جدة لتجدوا عطاء بيشة .
واسألوني . . لماذا لم أذكر جيزان؟!
ما نسيتها . ولكني الآن أذكر بها عاونوا طبيعة أرضها التربة الخصبة
فكثيراً ما تزخر بالذرة والدخن والقطن وإنها لصالحة لزراعة قصب السكر .
فالخطوات المعمرة قد بدأت ولن تحرم منها الإنسان .
أما المدينة والطائف فتربة الأعناب والرمان ، فحين سح الماء في عالية
المدينة نهض الرجال بعون الدولة يزرعون العنب شرق المدينة، فإذا هو جم
امتلاأت به أسواق المدينة، ومن الغريب أن أصبح النوع الوسط أحلى من
العنب الحجازي وحلاوته أشبه ما تكون بالعنب الشريف .
والطائف كالمدينة، حين قلت الأعناب فيه نشط الرجال يزرعون العنب
حوالي الطائف . وكذلك الرمان .

ليست المشكلة في بخل الأرض وقلة الماء. وإنما المشكلة من اليد العاملة. فقد انصرف بعض المالكين للأرض إلى أن يملكوا غيرها. ولكن وزارة الزراعة والمياه بالعون والإغراء قد زرعت الجنات. فلم تعد لدينا جنة وإنما هي جنات.

تخيروا لنطفكم

- ولعلّي قد كتبت عن ذلك من قبل . ولكن الكاتب إذا ما تحرك للموعظة والعبرة لا يعاب أن يكرر نفسه .

كان أستاذنا الشيخ محمد طيب الأنصاري والد الدكتور عبد الرحمن الأنصاري يتمتع بقيمة كبرى لدى عارفه .

أما الذين لم يحبوا أن يعرفوه فأبعدونا عنه . وحين امتلكت قيادة نفسي وفي ظرف معين حظيت أن أكون ذا صلة به . وقد زرته في بيته وكان البيت في «ذاروان» (ضروان)، وجرى الحديث عن مرض جلدي أصاب طفلاً . وتشعب الحديث فقلت له :

- لعلّها الوراثية .

فقال بكبرياء العالم :

- «أنا لا أوّمن بالوراثية» .

فأجبت بتواضع الطالب :

- إنك يا سيدي تحفظ هذا الأثر . . «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس»، وتحفظ هذا الحديث «لعله عرق انتزع» . أفليس في هذين الخبرين الإثبات للوراثية؟

قال بتواضع العالم أمام الحق:

- الآن آمنت بالوراثة.

وليست الوراثة قاصرة على الأب دون الأم، وليست تعني النظرة إلى من علت في أسرتها أو أنها من بنات الأسر التي لم تتعال بأسباب وأسباب.

إن التخير يعني الانتقاء لمن كملت تربيتها، فربما ذات أعراق أفسدت أعراقها التربية، ورب فتاة من طبقة وسطى حسنت تربيتها فإذا هي عصامية بالخلق الحسن تفضل العظامية التي لم تكن مثلها.

إن التربية هي ما يعنيها الحديث بالدمن والخضر «إياكم وخضراء الدمن». فقالوا: وما خضراء الدمن؟

قال المرأة الحسنة في المنبت السوء..

فالتربية هي المنبت.

إن الفقر قد يكون من عناصر التربية الحسنة، لأن الشظف تقوى به عضلات النفس. وكثيراً ما يكون في الترف التلف!

ولا يعيبني أن أعيد إجابة ذلك الأعرابي «عُلِقَ المِرِّي». فقد كان يغلي، يحافظ عليهن، حتى صاهر الأمراء من بني أمية. وسأله عبد الملك يوماً:

ماذا تركت من حارس لابنتيك في الصحراء؟

قال: بشمخة الأعراق فيه:

لقد تركت لهما الحارسين.. الجوع والعري.

خدمكم حشمكم!

- ودخل علي صاحبي أملي عليه مساء يوم الاثنين غرة شهر ربيع الأول، فوجدني وقد أخذتني غصبة على خادم. طلبت منه لقيمات فنسي أو تناسى، فمسنني جوع فإذا بي لا أتروى ولا أحلم على الخادم، وإذا بصاحبي يقول لي.. لقد عرفتكَ بعيداً عن الغضب.

قلت له: لكن الجوع كافر!

وحتى إذا جلست تذكرت الحديثين أحدهما عن سيدي سويد بن مقرن أحد الإخوة التسعة المؤمنين، أشهرهم أكبرهم سيدي النعمان بن مقرن، وهم من مدينة تعيش بقيتها اليوم حول وادي الرمة في عالية نجد القصيم، والتي عاشت في الإسلام قمة.

فالنعمان بن مقرن صاحب الفتوح «نهائوندا» شهيدنا، هناك بكاه الفاروق حين نغاه للمسلمين وهو على المنبر.

ومن مزينة سيدي عتبة بن غزوان من السابقين الأولين، بصر البصرة بأمر عمر بن الخطاب.. «بصر البصرة على الأدنى من حدود العرب».

فالحديث عن سويد بن مقرن قال ما معناه.. «وكنا إخوة تسعة ولدينا خادم، فضربها أحدنا، فذهبنا إلى رسول الله ﷺ نسأله عن الكفارة فقال النبي ﷺ بنور الرحمة:

«كفارتها عتقها».

أفكل من ضرب جارية مولاه كفارتها عتقها؟ أم إنها القربى للبررة خاصة بهم. يدعوهم رسول الله ﷺ إلى الزيادة في البر؟ ذلك ما ارتاح إليه فتعساً للذين قالوا إن الإسلام استعبد الرقيق.

والخبر الثاني عن خويدم رسول الله ﷺ سيدي أنس بن مالك، قال: خدمت رسول الله ﷺ بضع سنوات. . ما قال لشيء تركته لم تركته، ولا لشيء فعلته لم فعلته. بل كان يقول. . ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

ذكرت الحديثين فثبت إلى رشد، واتقيت الله في الخادم، وأعوذ بالله من الغضب.

فإن هناك خبراً آخر. . «خدمكم حشمكم». . فاتقوا الله فيهم.

انتصار البنوة

- وما دمنا كتبنا عن انتحار الأبوة فلنكتب عن بعض أبناء قتلوا الأبوة
يوم شاخ أبوهم، واحتضنتهم بنوة الابنة، وقد كاد يئدها حية فكيف كان
ذلك؟

كان ذلك حين أخبرني أبي أن أحد أبناء عمي في صعيد مصر يكره
البنات ويحب البنين فولدت زوجته بنتاً. ولما بلغت اليوم السابع من ولادتها
وتلهمت أمها عنها تقف أمام الفرن تخبز الأرغفة فالبدواة وأمها الفلاحين لا
تنام في الفراش تتأوه بل تنهض بعد الولادة كأنها ما حملت وما ولدت.

واحتدمت الكراهية للبنات في وجدان الأب فاخطفها في غفلة من أمها
وذهب بها يئدها في اليم أعني النيل ولكن عز عليه أن يلقي بها تركها على
الشاطئ سمراء الجبهة كالخمرة في النور المذاب لعل أحد الصيادين أو
الزارعين يلتقطها كما التقطت السيارة الرسول النبي يوسف الصديق عليه
السلام. وذهب إلى السوق وظنت الأم أنه أخذها يستنشق الهواء الندي أمام
البيت أو غير بعيد على شاطئ النيل.

ومرّ فلاح كان قد رآه وهو يتركها. انتظر قليلاً لعل الأب يأتي وبكت
الطفلة فحن الفلاح عليها واحتضنها يحملها إلى بيت أبيها وأمها، فتناولتها
الأم منه وهي لا تدري ماذا كان يراد بابنتها؟

لم تعلم بشيء من ذلك فقد استحيى الأب أن يكشف سريره. ومرت شهور وأيام وسنوات حتى زفت الابنة إلى زوج، وحتى تزوج الأبناء فإذا الأب تعجزه الشيخوخة، ذهب إلى بيت أحد الأبناء فضاقت زوجة الابن به. وعرف ثقل الهم على ابنه فخرج إلى بيت ابنه الثاني ثم إلى بيت الابن الثالث كلهم اجتواه وما احتواه.

وعرفت الابنة حال أبيها فخاطبت زوجها فذهبا إلى الأب يدعوانه إلى بيتهما فإذا حنان البنوة وكرم الزوج يجد منهما كل الراحة. فقال:

الذين احتويتهم هجروني والتي اجتويتها انتصرت البنوة بها.

إن أبوتي قد قتلها الأبناء وأحييتها البنت.. وقص على ابنته القصة فضحكت ولم تبك وأعلمت القرية بما كان فبصقوا على الأبناء وافترت ثغورهم بالثناء على البنت.

وهكذا انتصرت البنوة في هذه البنت التي كادت في عصر يوم يبتلعها النهر موءودة.. وبينما الأب في المسجد سمع قارئ القرآن يتلو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ. بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (التكوير: ٨ - ٩).

وأضحت القرية ذات يوم تزف البنات تتصرف عن الجفوة لكل بنت، ولا تنبذ الصفوة للأبناء ولكنهم عزموا أمرهم على أن يشعروا أبناءهم بما يستأهلون من التربية. وبالمساواة بين الذكر والأنثى في حدود من شرع الله ليقتلوا قول الشاعر.

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأبعاد

حذروا بعضهم ليعطى للذكر مثل حظ الأنثيين. ليحذروا الوقف الجَنَفَ لأولاد الظهور دون أولاد البطون.

إلى عميد شؤون المكتبات بجدة

- «وتلفنت» إلي طالبة في جامعة الملك عبد العزيز تسألني هل تجد لدي المجلدات الأولى التي جمعت فيها جريدة «المدينة المنورة» أيام كانت تصدر هناك. فأجبتها بأنها ليست عندي، فقد ركبني التبذير حتى في مكتبي، وعجزاً مني ألا أحتفي بالجمع. ولعلّ كثرة التنقل من المدينة إلى مكة فالخرج فالطائف فجدة بعثرتني.

وسألتها.. لماذا تبغيها؟

قالت.. أريد أن أحضّر لدراسة عليا، فإذا ما اطلعت على هذه المجلدات تتم عندي الفكرة، فقد أسعفني الأستاذ عبد الله بن خميس فما بخل علي بما عنده، ولكن عزّ علي أن أجد مجلدات «المدينة» وما كنت أعرف أنها عند أحد غير مؤسسها السيد عثمان حافظ، فكلمته أطلب إعارتها فقال لي.. تعالي إلى غرفة خاصة تكون المجلدات بين يديك في مكتبنا في مقر الشركة العربية للأبحاث والتسويق، وهذا لا يمكنني من الاطلاع الدقيق.

وأجبتها.. سأذهب إلى الصديق السيد عثمان حافظ لعلّه يسمح بإعارتها لك.

وزرت السيد فاعتذر، لأن المجلدات وكانت أكثر من نسخة فقدت،

استعارها الذين لم يردوها، وبقيت نسخة واحدة، ولا يسمح لنفسه أن يفرط فيها.

وسألته أن يصورها على الميكروفيلم فسوف. واجتمعت بالدكتور عباس طاشكندي أسأله.. ألا توجد في مكتبة جامعة الملك عبد العزيز هذه المجلدات.. فقال لا توجد..

قلت.. أطلب من السيد عثمان أن يصورها الجامعة على الميكروفيلم. وأخيراً.. أخذت أبحث، فوجدت أن في وزارة الإعلام نسخة كاملة من هذه المجلدات، وفي شركة «أرامكو» نسخة كاملة، وعند الصديق محمد خليل عناني نسخة كاملة، لم ييخل بإعارتها لمن طلبها من قبل.

إن هذا العرض ما هو إلا دعوة لعمادة شؤون المكتبات بجامعة الملك عبد العزيز وعميدها الدكتور إبراهيم العلاوي.. أن تسرع بأخذها من وزارة الإعلام فهي أولى، أو شرائها من العناني أو على أقل تقدير أن يصورها من نسخة وزارة الإعلام أو نسخة العناني. أما أن تبقى مكتبة الجامعة بدون هذا الرافد الثقافي فذلك أمر أحسب أن الجامعة لا ترضاه.

أرجو من عمادة شؤون المكتبات بالجامعة أن تسرع لإيجاد نسخة مجلدة أو نسخة مصورة.

فدائية الخدم

- عنوان غريب، فهل يصلح الخادم أن يكون فدائياً لحماية سيده؟! قليل ذلك إذا ما كان السيد يعطي الخادم احترام ذاته والرضى عن تصرفاته في سبيل رعاية نفسه، ليتم بذلك احترام سيده والرعاية الكاملة لكل ما يلزم سيده وما يليق بسيده..

ولكن الكثرة من الخدم جدير بأن نرفع من شأنهم حين لا نطلق عليهم لقب الخدم، لنطلق عليهم صفة الأتباع..

إن هؤلاء الأتباع فيهم من الوفاء بعضه خلق نشأوا عليه، وبعضه يتخلق بالوفاء لينال الرضى، ولئلا يعاقب بالجفاء..

أعرف صديقاً وآخر قد اختص كل منهما تابِعاً يلزمه كظله «هات يا أحمد.. خذ يا علي.. نادوا أحمد فين راح.. لا يا علي لا تتأخر علي ويجيب التابع بانحناءة من الرأس وانفراجة بين الشفتين «حاضر.. حاضر»..

وفي إحدى الجلسات الخاصة أخذ سيد في المجلس يضع يده على كتف السيد صاحب المجلس، فإذا الخادم «أحمد» يسرع يقول لصاحب اليد «ارفع يدك.. ليش تحطها على عمي؟!»..

وتابع آخر هو «علي» يقف كالديدبان يدفع عن سيده حتى رمشة العين!

وليس الأمر قاصراً على الأفراد، بل إنه لأشد وضوحاً وأقوى فعلاً بين المتفردين فإذا ما تفرد سيد بقيمة كان الأتباع مفتحة عيونهم في يقظة حتى ليهشون الذباب عن وجه هذا السيد المتفرد، وحتى لا يطيقوا سماع أي كلمة عنه.. فلو أن هذا السيد جاءته رسالة فيها كلمة نابية، فمن اعتداده بنفسه أن يضحك منها.. ولكن بعض الأتباع إذا ما سمعوها أجهشوا بالبكاء، وضغطوا على أسنانهم ينتظرون أمر سيدهم بالانتقام..

وهكذا يفعل الأتباع طاعة وانصياعاً. يأخذه السيد على أنه الإخلاص وما يدري ما قاله المتنبي:

والذل يظهر في الذليل تودداً وأود منه لمن يود الأرقم
والناس قد نبذوا الحفاظ فمطلق ينسى الذي يولى وعاف يندم

العجوز

- وكنا في الطائف نمارس بعض الألعاب، لعلّ منها «طرة والا كتابة»، وكان الخاطيء يضرب بالمعكارة. وأخطأ صديقنا محمد خوجه فقسا عليه ضارب المعكارة. فرطن الخوجة كلمة بالتركية فإذا لها جرس حلو. فسألناه.. لا تتراطن وأفصح.

فقال: معناها «الذئب لما يكبر يصير مسخرة الكلاب»!

وكنا لفيفاً، حمزة شحاته ومن إليه وكاتب هذه السطور وآخرون من الذين كانت تجمعهم صداقة، وما أحسن التجمع يوم كان الطائف طائفاً، أو يوم كنا نرى الطائف جنة حين تمطر السماء.

إنه هذه الدهلزة أدهلنز، أكتب عن العجوز، لم يصل بعد إلى مسخرة الكلاب، وأن تكالب عليه كلب مسعور.

إن العجوز عاد طفلاً.

ابتعد عنه الأصدقاء والأصحاب، وأصبح كثير المعارف، فإذا هؤلاء المعارف أحباب.

مشاعر طفل أو هي مصائر الرجال حينما يشيخون فتشيخ صداقة الأصدقاء وتهرم مودة الأصحاب.

لعلّه هو السبب في بعد الأصدقاء والأصحاب، لأنه يركبهم بالملل،
يثقل عليهم بالعتاب حين الغياب، أو هم يستكثرون عليه أن يكون في
موضع احترام.

وهكذا يصبح العجوز في غربة، إن لم يكن قعيدة البيت فإنه وقد عاد
طفلاً أصبح بأحلام اليقظة يثير العقد، لا يطردها بقوة الشباب وإنما تضطر
إلى البوح وحتى النوح!

والأصدقاء والأصحاب يخافون البوح ولا يطيقون النوح. أما المعارف
فيفرحون به حين يرون الدمع في عينيه، والشموخ ترسله شفتاه.

إن العجوز يحمل الكرب ولا يطيق الصبر عليه فهو يكره بالبوح
ويتشامخ بالنوح لا يستدر بذلك عاطفة ولا يستجدي عوناً، فقد فرغ من
الأمنيات، حتى إنه ليتمنى الآن ألا يكون ما تمناه من قبل.

ويعجبه أن ينشد هذا البيت لشوقي في موشحه عن صقر قريش عارض
به موشح لسان الدين بن الخطيب، فقال:

الأماني حلم في يقظة والمنايا يقظة من حلم

ما أبدع هذه الصياغة، عطاء ثلاث كلمات تغايرت معانيها وما تنافرت
ألفاظها.

الصفيق

- الصفاقة خلة ذميمة يمارسها من يريد فرض شخصه على غيره، كاتباً أو متحدثاً أو حتى لاعب شطرنج أو غيرها من الألعاب.

وكان صديقنا محمد الخريجي - يرحمه الله - يعبر عن الصفاقة والصفيق بقوله: إن فلاناً هذا «زكمه» أي زكام، كأنما هذا المرض مزعج كما يزعج الصفيق.

وقالوا إن الصفيق من يلبس لباس الصيف في الشتاء، ويلبس لباس الشتاء في الصيف!

فالصفيق يزعم أنه خفيف الدم. يستمرح وليس هو المرح. فلو كان فيه شيء من الكبرياء يصون نفسه لما تصنع الكبر يغثي الناس بالهراء من التصرفات.

وقرأت للكاتب المصري أمير بقطر في كتابه «الدنيا في أمريكا» أن صفيقاً كان في عربة القطار وأمامه أمريكي آخر، وكان الأمريكي الآخر يشعل السيجار تلو السيجار مرات ومرات، فإذا الصفيق يقول له:

إنك تكثر من هذا السيجار وهو غالي الثمن، فمن متى بدأت تدخن!!؟

فقال الآخر: من سنوات بعيدة.

فأخذ الصفيق يسكت برهة ثم قال: لو لم تدخن هذا السيجار لاشتريت بثمانه هذه العمارة.

فقال الأمريكي الآخر: أهذه العمارة ملكك.

قال الصفيق: لا..

فقال صاحب السيجار: عد هذه العمارات في الشارع. إن هذا الكم من العمارات هو ملكي أنا، فلماذا لا أدخن السيجار؟!

وخجل الصفيق، وما أقل حياء الصفيق!

وهكذا ترى في بعض الناس أشباهاً للصفيق ولصاحب السيجار!

كل يغني على ليلاه متخذاً ليلى من الناس أو ليلى من الخشب.

السعوط

- يرحم الله المتنبّي حين قال :

كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا

ففي كل لحظة نجد الجرائم يقتربها طلاب المنافع مما أنتجته المدينة لا
تقصد منه الخير، فإذا أهل الشر يسرقون من الخير جرائمهم تفتك
بالإنسان.

إن الصيدلية مستودع الدواء ما وصل إليها الدواء إلا بعد أن شقي
العلماء بالاكتشاف والاستقراء والتتبع والخيال والتصنيع. فكل عمل خير
حاله المجرمون إلى شر.

وهذه الآفة من المخدرات ومن هذا النشوق لم يصنعها إلا عالم. وما
كان صنعه لها إلا إسعافاً أو علاجاً، فإذا المجرمون ليملؤوا جيوبهم
بالدولارات يغشون الدواء إلى درجة التسميم وينشرون الأدوية. فالآفة أزمة
في الأخلاق حيث لا وازع من الدين ولا رادع من السلطان.

المجرم يجد من يدافع عنه، والسلطان يتحرى الديمقراطية وحكم
القضاء. مع أن أزمة المخدرات والسموم تتطلب إعلان الأحكام العرفية
ليفعل السلطان ما ينبغي وليضرب بيد من حديد.

إن المستشفيات من حق السلطان أن يرحمها، لا أن يكثر فيها الذين سقطوا بأفعال المجرمين.

إن انتشار المخدرات والسموم لا يقل خطره عن حرب أهلية داخل الوطن وحين تكون الحرب من دولة على دولة أخرى يتعطل القضاء والمحامي ومن إليهما ليأخذ السلطان بيده عقاب المعتدين كعقاب المجرمين للقضاء على الحرب الأهلية، كما هو القضاء على عدوان الدولة المعتدية.

وليس الأمر قاصراً على الدول الكبرى. بل إن التقليد والبطر جعل كثيراً من الشعوب تزرع تحت هذه الوطأة التي تدمر الشباب، يحدث منها الفصام في الأسرة والخصام بين الآباء والأبناء.

قسوة الضعف

- وهل يتصور أحدنا أن للضعف قوة؟!

نعم، فالإنسانيون من أصحاب النفوس الراحمة والمشاعر المحسة بإنسانية الإنسان حباً ورعاية لا بد أن يسيطر عليها الضعف بقوة ليست هي من ذات الضعيف، أعني أنها ليست في عضلات الجسد، وإنما هي في عرض ما تشعر به أو ما ترسله عين الضعيف. وما تختلج به نفس الضعيف.

إن الحب لم يكن إلا من قوة الجمال الذي لا بد أن يكون الجميل في منطقة الضعف، فهو مستهدف تأكله النظرات، تبتلعه الإشارات، فإذا عملية الطرد من الجمال القوي ما هو إلا بضعف الجميل يرفض كل النظرات ويقصي كل الإشارات، ليبدو ضعفه قوة حينما يستحوذ على إشارة واحدة أو نظرة واحدة.

والمساكين أقوياء حين يعرفهم المحسنون، فضعف المسكين قوة جاذبة لرحمة المحسنين، واليتيم لا تلبث إلا أن تمسح رأسه حين استحوذ عليك بقوة الضعف فيه، يحدث فيك ضعفاً ليكون التزاوج بين قوة الضعف فيه وضعف القوة فيك كفاءة جديدة حدثت من القوة الجديدة حين اقترنت قوة الضعف بضعف القوة!

قلت لصاحبي: ليس من الضعف أن أحترز من طغيان الأقوياء ولكن أجدني بقوة ذاتية أستطيع الاغتصاب لقوة الضعيف. فالضعفاء أصحاب سلطان علي. إذا تكلموا سمعت، وحتى إن شتموني صفحت.

قال مرة أحد الذين كان لهم سلطان وظيفي:

إن هذا يعينني، يفرض علينا الندادة، يستكبر أن يخضع لنا، بينما هو شديد الأخذ من نفسه، يخضع لضعيف عرض عليه مشكلة.

فقال له الآخر. وكان مثقفاً علمته الأيام أن يعرف أخلاق الرجال، قال: إن فلاناً هذا يستعذب أن يكون قوياً أمام الأقوياء بعامل الدفاع، وإنه يستعذب الطاعة للضعفاء بقوة الرحمة، فأنت لا تعرف أن هذا الإنسان لا يكاد يحتفل بما هو له وأنه لأكثر احتفالاً بما هو للناس.

إنك تعيش قوياً بين أتباع يستمدون من سلطانك سلطاناً على غيرهم أما هو فيحيا بين أصدقاء هو عون لهم وهم عون له.

ثم قال: إن فلاناً الذي هو مثلك قال له إنك تخاطب هؤلاء الموظفين الكبار كأنك نديد لهم، فأجابه:

إن الندادة قيمة هي له حين يصرف نظره عن ضخامة المكاتب، فهو كما قال مرة.. الندادة بينه وبين هؤلاء يوم يستعرضون قيمتهم في الشارع.

فقال المتحدث الأول:

لكن هذا يجبر عليه أو هو قد جر بالفعل أن نكون نحن الكبار في ترفع عنه.

فقال :

أوليس هو حين يفرض الندادة عليكم قد ارتفع بينكم وأجبركم طائعين
أو كارهين أن تكونوا كما أراد؟

ولم يلبث هذا الموظف الكبير أن سحبوا الكرسي من تحته، فإذا
التعالي هو الذي قاله له : «لقد أصبحت أنت الآن .. طز!!» .

عن الحجاب

- كلمة قالها عربي من غير السعوديين وقد تزوج سعودية. سكن إليها وسكنت إليه، حياتهما سعيدة، وفي زورة لمدينة جدة تزور الزوجة أهلها صاحبها زوجها، كأنه في إجازة يؤدي العمرة، يتعرف على أهلها كلهم.

وبطبيعة الحال كان بعض الأهل يحتفلون بالزوج والزوجة، إلا أن بعض من ليسوا محارم عن الزوج يدعون الزوجة وحدها. كما أنها تدعى لحفلات الزواج.

وفي أكثر من مرة تذهب مع أمها أو بعض قريباتها تلبية لحفلة الزواج، أو لحضور حفلة تكريم لها. تلبس زينتها، تركب سيارتها، تذهب إلى الحفلات.

ومن الطبيعي أن يجلس هو في البيت. صبر المرة الأولى والثانية، وفي الثالثة لم يمنعها وإنما قال:

«عجيب» الحجاب في السعودية منح المرأة الحرية، تذهب إلى الحفلات. بينما الرجل يفرض عليه حجاب من نوع جديد. يبقى في البيت طوال الليل ينتظر عودة الزوجة!

سمعت ذلك منه فقلت له:

- لماذا تضيق بمتعة الفرحة لزوجك؟ أليست حين تتزين أول من يراها

أنت، وإذا عادت أعطتك متعة هذا التزين؟

إنك لم تسئ الظن بالحجاب، فما دخلت عليك إلا وأنت تعرف أنها من المحجبات، إنك لا تضيق بالحجاب فهو معروف لديك، وإنما الضيق كل الضيق هو أنك تريد الاختلاط. كما هو هناك.. بعيداً عن السعودية.

فهناك تذهب أنت وزوجك إلى الحفلات، حيث لا يمتنع الاختلاط. أما هنا فاختلاط الرجال بالنساء ممنوع، وهذا هو المفيد من الحجاب.

فالمراة لا تتستر راكبة سيارة، أو ماشية. وإما كل التستر لها هو أن تحتجب عن الاختلاط بالرجال. لا يراها إلا زوجها ومحارمها.

إنك هنا حرمت الاختلاط فعبت الحجاب.

قال:

- يمكن.

قلت:

إن الخروج مباح لك في كل وقت، فلماذا تبخل على الزوجة أن تلبي حفلة زواج أو دعوة تكريم؟ أفليس ما يمتع الزوجة هو جالب المتعة لك؟

قال:

- قلت أنت رجل «حجابي»!

قلت:

وأنت رجل «اختلاطي»!

الأمهات مصارعات!

- سعيد هذا الإنسان طفلاً في حضانة أم، وتعيش هذا الإنسان حين يرى الأمومة قد فقدت الحنان والأنوثة وتراقصت في حلبة المصارعة.

لقد رضي الإنسان أن يرى الإمبراطورة والملكة ورئيسة الوزراء والرئيس الأعلى في جمهورية أخرى والعضو في البرلمان. واغتصب الرضا لنفسه حين رآها راقصة وممثلة ومطربة. واعتراه الغضب حين رآها عاملة في مناجم الفحم ومسخرة ترصف الطريق بالحجارة.

كل ذلك قد كان ولكن هذا الإنسان قد فقد السعادة والتعاسة والرضا والغضب حين أصبح لا يدري كيف يرى هذه الأم في حلبة المصارعة ذات عضلات تسترجل بها؟

فشعور الإنسان بالأمومة هو اقتناعه بأنها أنثى، أما أن تكون «رجلاً» مصارعاً فذلك شيء لا يطاق.

إن التعبير قد يخذلني حين يختلط الأمر علي بين النظرة الطبيعية للأم وهذا التفاعل الشنيع، يخرج الأنثى عن طبيعتها، تصبح مصارعة! لقد رأينا الفجيعة موجعة لشعور الإنسان الطفل بقية الأمومة، ومتعة الزوجة، ورحمة البنت، وحذب الأخوات. حين استحالت الأم إلى ذكر خثى.

الأنثى في الغابة كانت تحارب لحراسة الكوخ وحماية الطفل، وتعمل

لعون الرجل ولكن اليوم أصبحت الأنثى مصارعة، حتى إنني أتخيل أن هؤلاء المصارعات لسن إلا دمي حركوها بوسائل العلم الحديثة.. . لتتصور أنهن أمهات من البشر!

وستأتي الفجيعة غداً.. . حين تطلب إحدى المصارعات أن تصارع بطلاً عالمياً على شاشة التلفاز.. . فتصوروا بشاعة المنظر وسقوط الأخلاق وانتحار الأمومة وفجور الرجل يوم تشاهدون مصارعة يصرعها البطل أو هو يتصارع له؟ أم لها!

فحتى الغزل بين ذكر وأنثى ليس بعيداً أن يكون في حلبة المصارعة بين ذكر وأنثى!

وأحسبني أدعو شاشة التلفاز ألا تضع أمامنا مشاهد المصارعة للرجال، لنحول دون فتنة النساء، مثلما امتنعنا عن أي صورة متلفزة يعرض فيها النساء الفاتنات خشية أن يفتن الرجال.. . ففتنة الذكر برؤية الأنثى مثلها فتنة الأنثى برؤية الذكر.

عن الكمال

- وما دمنا تحدثنا عن النقص وعن الشاعرين به، وعن الكمال وعن العارفين بالقيم فلدي ذكرى عن رجال ثلاثة كانوا في العلية من المصريين.. أسوق بعض ما قالوا لنعرف من ذلك احترامهم للقيم، لأنهم كانوا أصحاب قيمة.

ولعلي أضع الترتيب الزمني لما تحدث به هؤلاء، فأولاً عن الدكتور محمد حسين هيكل «باشا» الأديب الكبير والوزير فقد وصل إلى المدينة المنورة بعد أن أدى فريضة الحج، فأسرعت مع الدكتور سعيد بك مصطفى الطبيب المصري مدير الصحة بالمدينة المنورة نسلم عليه ولما ينفذ غبار سفره. يسأل: ما بال الوافدين يكون الآن على الدستور الأعرج؟

فأجابه الدكتور «هيكل» زرعنا فأكلوا ويزرعون فنأكل.. لقد حفظ قيمة قومه على العكس من آخرين لا يحفظون القيم لوطنهم وأهلهم.

وجاء «طلعت باشا حرب» إلى المدينة المنورة وكنت من بين زائريه في «بيت الخريجي» فقال عبد العزيز الخريجي يرحمه الله: نحن نشكرك على ما بذلت من التوفيق بين المملكة العربية السعودية ومصر.

فقال «طلعت حرب» حين تم ذلك لم أكن في مصر فقد كنت في العراق، الذي فعل ويستحق الشكر هو «علي ماهر» فلم يتفخ طلعت باشا،

ولم يدع أنه صنع ما صنعه غيره.

فقلت: «إن علي ماهر باشا في وزارة المالية يوم قد حفظ تاريخ مصر ومكانة مصر حيث شجع القصر وألف بين الأحزاب يصارعون خبث الإنجليز وفعل ما لم يفعله غيره فقد سمع نصيحة الشيخ الثاني بعد محمد عبده مصطفى المراغي». . . فطرد الحاخام اليهودي «ناعوم». . . لا يعود عضواً في مجلس الشيوخ حيث نصح المراغي ألا يبقى شيخ الأزهر وأنبأ عضوين في مجلس الشيوخ.

فقال طلعت حرب اسمع. . «علي ماهر». . سيحج العام القادم فقل له هذا الكلام. . ولم يحج علي ماهر ولكنه لا يزال في تاريخ مصر حجة برهانها أنه رجل عرف كيف يدير أسلوب الحكم.

أما «أحمد أمين» فقد جلس في صالون المدرسة في المدينة المنورة وقد امتلأ الصالون بالجامعيين الذين حجوا معه، وجاء يزورهم أحد كتّاب «المقطم» الصغار وهو «محيي الدين رضا». . عمه العلامة السلفي السيد «رشيد رضا» فقال «محيي الدين»:

«أهو هيكل بقا باشا» يعني الدكتور «محمد حسين هيكل» أصبح وزيراً في وزارة «محمد باشا محمود».

فقلت: لماذا تستكثر على الدكتور «هيكل» هذا اللقب إن الدكتور «هيكل» أكبر من هذا اللقب الذي يباع لمن لا يستحقه، ولكنها إحن «المقطم» ضد جريدة السياسة. إنك تتكلم بلغة خليل وكريم ثابت».

فقال «أحمد أمين» ولتخوضوا في حديث غيره. . أعلن غضبه من هذا العائد بأسلوب رفيع وكريم.

الجامعة والطبقية

وسمعت تلفاز القاهرة. فلم أعد أستطيع أن أقول «شاهدت». سمعت الأستاذ حافظ محمود يتحدث عن أثر التلفزة في القضاء على الطبقة. قال يجيب سائله أو هي سائلته في يوم الاحتفال بمضي أربعة وعشرين عاماً على التلفزة المصرية.

«إن هذا الجهاز ليس هو التوعية وحدها. وإنما هو التعبئة للجماهير كلها تشترك في مشاهدة تمثيلية أو ما إليها. بينما كان الأمر قبل التلفزة يحرم الجماهير من الاشتراك في المشاهدة. فأیما تمثيلية كانت تعرض يحدد مكانها وزمانها ومشاهدها».

وأعجبني هذا الرأي من الشيخ حافظ محمود الذي عرفناه شاباً من شباب جريدة «السياسة» ومجلة «السياسة».

وبقي لي أن أفقه هذا الرأي. أسأل تلفازنا.. هل حقق ذلك؟!

نعم.. تلفازنا لم يفتعه فالتبكية عندنا قد تلاشت حين تم هذا الكيان الكبير وتلاشت أكثر يوم انتشر التعليم في الحاضرة والبادية يوم أن فتحت الجامعات أبوابها. لا تسأل عمن يدخل إليها، من أي طبقة هو، من أي قبيل جاء. في أي مدينة أو قرية نشأ. فما دام هو ابن هذا الكيان الكبير فالجامعة تحتضنه.

فالجامعات عندنا كلها كانت الدعائم أزالَت الطبقيّة.

فأنا أعرف من ينتسب إلى العلياء أصبح صديقاً إلى من كان أبوه يكتسب العيش ولو افترش الأرض. ولو نبت في الدهناء وأصبحت الفتاة ابنة من كان يقول «أنا فلان من آل فلان» أصبحت وهي تحمل لقب الدكتوراه صديقة وفيّة لمن لم يكن أبوها يقول شيئاً من ذلك.

فمقعد الدراسة وتلقي المحاضرة والحديث عن الآمال. كل ذلك ساوَى بين الطبقات.

التلفاز ليس الأول عندنا. المسجد هو الأول ووحدة الكيان الكبير هي الأول والمدارس والجامعات هما الأول. فعلى من يتنطع أو يتفیهق يقول «أنا»..

معونة مرافق

- والاتكالية التي كتبت عنها في حكاية صاحب العمارة الذي لم يرفع أو يزل المخلفات ذكرتني بموضوع أطرحه، تطرد الاتكالية به، أسميه «معونة مرافق» نساهم جميعاً في ذلك. ولا أريد أن يظن أنه ضريبة، إنما أدعو لأن يكون تبرعاً. فمثلاً. لدينا إسراف كثير في الكماليات وشرب الدخان وحتى في الضروريات.

أريد أن أحصر عدد شاربي الدخان أي المدخنين بنسبة قد تكون معقولة. فلربما أعتقد أن عدد المدخنين في هذا البلد سواء كانوا «مجرّكين» أو «مغليّنين» أو «مسجّرين» يمكن أن يكون عددهم أربعة ملايين مدخن. فلو اقتصد كل مدخن من قيمة الدخان انتقاصاً أو إضافة ريال واحد في اليوم على الأقل أو لبعض القادرين ريالين على الأكثر: لو كان ذلك كذلك لتوافر لدينا مبلغ أربعة ملايين ريال يومياً، مائة وعشرون مليون ريال شهرياً، ألف وأربعمائة وأربعون مليوناً سنوياً.

هذه المبالغ توضع في صندوق معونة المرافق، حصيلة كل بلدة لإصلاح مرافقها عوناً للمكلفين بذلك، وتعليماً لأنفسنا بأن يكون لنا عمل خير.

أما أن نترك كل شيء للحكومة حتى إذا رأينا مرفقاً قد تأخر قليلاً بدأ

الهمس، ولكي أطرده الهمس أصرخ في أذن كل إنسان في هذا البلد أن يدفع ضريبة المواطن تبرعاً منه ليسترشد حتى يوطن نفسه إذا ما التزمنا بدفع ما ينبغي من ضريته وفاء لهذا الأمن.. وفاء لحرية رأس المال.. وفاء لحرية التنقل.. وفاء لحرية الامتلاك.

إن الدولة قد تكلفت كثيراً في حمايتكم حين قتلت الرجعية التي كانت تلصق بنا، وأصبحنا ونحن اليمين المسلم ندعى تقدميين، فصيانة هذا التفوق والتقدم أن نعطي إليه الصون بالعون، ولعلّه يمكن أن نوفر من السرف في الكماليات وكثرة الكلام في التلفونات والتبهرج والتزويد الكثير والكثير.

حماقة أب

- وتزوج الرجل امرأة ولدت له بنتاً وبنتاً. فحلف عليها ينذرهما إن لم تنجب ولداً فإنه سيطلقها. وبكت الزوجة تسأل هذا الأحمق.. أهى التي تصنع الولد، وكيف إذا جاءت بنت ثالثة.. هل تسمح له عواطفه أن يطلقها.. يهمل بناته لتعيش لهن، أم إنها تتزوج زواجا آخر لا تضمن منه رعاية بناتها؟

وهل إذا أخذ البنات وهو يعلن الكراهية لهن يمنحهن الحنان والرعاية، أم إن زوجة الأب بصورة أو أخرى تنتزع منه عاطفته لتضيع كل بنت؟ ودعت الله تسأله أن يقيها شر الطلاق وحماقة هذا الإنسان. وأنجبت ولداً ذكراً، فطار الأب فرحاً به، وارتاحت الزوجة قليلاً حيث أمنت الطلاق.. ولكن ماذا جرى بعد؟

لقد حمل الأب ابنه بين يديه.. يُدَلِّله.. يقبله.. وفي لمحة خاطفة سقط الطفل من يدي أبيه ولما يبلغ الشهرين فارتطم رأسه بحجر القاعة فإذا هو ميت!

وبكى الأب، وبكت الأم وجاء صديق يعزي، فقال له:

إن موت هذا الطفل عظة لك، لئلا تتجنى على الأم مرة أخرى.

أسأل الله أن يعوضك غيره، ولا تكره البنات.

فإذا الأب يندم على ما فعل، حتى إذا اعتدل رزقه الله بأكثر من ابن عاشوا له وعاشوا به حين تاب من هذا الفعل الرديء.

من غشنا فليس منا

واشتريت كمية من لسان الخروف من مكان أحسنا الظن به، عرفنا فيه النظافة فلم نشعر في أي وقت بأي غش في أي نوع من أنواع اللحم. هو مكان مشهور. لا أريد أن أسميه.

وحين وصلت البيت لأوزع الألسنة فإذا هذه الألسنة عفنة. البعيد تزكمه الرائحة العفنة. وكان الجزار لم يضعه في كيس عادي، بل في كي سميكة برشمه لا يفتح إلا في البيت.. وأرسلت هذا اللحم إلى المكان استرد العشرين ريالاً قيمة الكيلو من هذه الألسنة.

لقد فجعت بهذه المفاجأة حين وجدت أن في هذا المكان غشاً. أليس ذلك من العيب، بل ومن كفران النعمة؟ كأنما العاملون فيه قد طردوني من أن أشتري منه مرة أخرى، وأخشى أن يستمر الطرد لغيري. فبعد أن كان هذا المكان مصدر الثقة يصبح مصدر الريبة والشك.

وفرن مشهور، والفران قد أنعم الله عليه بالسمعة والثروة وإقبال الناس فأرسلت سائق سيارتي يشتري لي كمية من الشابورة المصنوعة من الحنطة. وفتحت «الكيس أتذوق الشابورة»، فإذا الدقيق مر وزاد المرارة مرارة أن دلت بدل السمن أو الزيت بالودك، أي الشحم. فإذا الشابورة صبر وإذا الودك قهر.

لا أعتقد أن صاحب الفرن يلجأ إلى هذا الغش، فإن أراد أن يفنى الدقيق المر المخزون لديه لا أعتقد أنه أعطاهم إذناً بأن يمزجوا الدقيق بالودك.

هذا غش، حرمني أن أشتري الشابورة منه، ويعني ذلك أنه سيطرد من يشتري غيري حين يأكل المر ويبلع الودك.

لا أقول إنه ضعف الرقابة، ولكنه ضعف الطامعين، لا يشبعون بالكسب الحلال وإنما يريدون أن يشبعوا بالسحت الحرام.

كانهم لم يعلموا بقول رسول الله ﷺ «من غشنا فليس منا».

ما أرخص الغوالي!

- وهبطت من عالية جدة أو هو من شمالها ومن حي السلامة بالذات إلى أسفلها، أتسوق، أمتار. فالمسافة حين تبعد ينبغي لرب الأسرة أن يشتري زاد أيام يحترز من النزول يومياً مسافة طويلة ومشقة مستطيلة في زحام السيارات. فقد أصبح حي السلامة يضم الشارع الموصل إلى المطار. ودخلت دكان خضري أسأل.. أعندك من الرطب شيء؟ فقال.. عندي «روثانة» و «برحية» و «حلوة».

هكذا رتبها درجات، اعتلى بالروثانة وانخفض بالحلوة. وزاد الاعتلاء ابتلاء فقال: الروثانة الصندوق بثمانين ريالاً، والبرحية بخمسين ريالاً، والحلوة بثلاثين ريالاً.

«وبكى الحلیم أنا وضحكت الشکلی أنا». وقلت: ما أعجب أن تسترخص الغوالي: الروثانة عالية غالية ذات أصالة، لكنها لا تؤكل إلا رطباً، ولأنها تجنى مبكرة تأكل السوق. ولكن البرحية عالية غالية. تؤكل زهواً ورطباً، حتى إنها كانت نادرة الوجود لدينا في المدينة المنورة. هي نخلة البصرة، ثم هي نخلة القصيم. فلماذا نرتخصها تصبح أقل من الروثانة!

غواية الجهل بالأصالة!

وأدهى من ذلك أن يكون صندوق الحلوة - وهي العالية الغالية في المدينة والعلا وتيماء والجوف كأنها سيدة النخل في المدينة وفي وادي القرى حتى دومة الجندل - رخيصاً إلى هذا الحد، تعلوه البرحية. وتعلو البرحية الروثانة. ذلك أن الاحتفال بالأصالة في كل شيء قد طرد من السوق. فالعملة الرديئة تطرد العملة الجيدة.

وقد أصبح هذا المثل هكذا «البضاعة الرديئة تطرد البضاعة الجيدة». ولا أغضب الروثانة فهي جيدة، ولكنني أغضب للبرحة والحلوة أن يكون هذا شأنهما.

انظروا إلى أنواع الأقمشة فقد طرد الحرير والبريسي والسليمي واللاس والرشوان والكشميري وحتى الكثير من المنسوجات القطنية. وحل محلها نوع من القماش يسمونه نايلون أو تترون! من هنا ضاعت القيم. فالأصالة أصبحت ضالة. والرديء مكان الجيد. والسادة في زوايا النسيان!

وما أصدق هذا الأثر.. «كل عام ترذلون». ولا أنسى فإن الحلوة تؤكل بلحاً «سربان» وزهواً ورطباً.. وتمراً..

مركب النقص

- قالوا إن أول من عرف مركب النقص أو أول من وصف به من يستأهل ذلك هو «معاوية بن أبي سفيان» فقد استأذن طالباً الدخول عليه الأحنف بن قيس السيد في تميم. بل هو أحد الشوامخ في مضر يوم كان الناس ناساً كما استأذن مثله «محمد بن قيس بن الأشعث الكندي» وهو رأس من رؤوس كندة فأذن للأحنف قبل ابن الأشعث فإذا الأخير قد دخل عليه قبل الأحنف فقال معاوية.

لقد أذنت للأحنف قبلك فلماذا أسرعت بالدخول قبله؟ وما ذلك إلا نقص فيك.

إن هذه الحادثة أو الحكاية تعطينا الصورة لرجال يشعرون بالنقص فلا تجدهم إلا يتظاهرون يكرمون الناظرين إليهم بالتحرك والنزوع إلى الكلام. كأن الواحد منهم يقول «انظر إليّ . . أنا أنا».

كل ذلك من «فعل الظُّهَرَة» وما أكثرهم إذ فتح الباب الصعاليك فإذا العلية يغلقون على أنفسهم الأبواب قرفاً واشمئزاً من بعض ما يجري في دنياهم.

ولدينا موقف آخر نعرف منه كيف أن ذا القيمة يحترم القيم فلا يتظاهر بما ليس فيه لأنه لا يحب أن يحمد بما لم يفعل. فقد حفظنا أن «محمد

بن عمرو بن الأهتم» أحد الشماريخ الذين تسنموا الذروة في تميم، قد دخل على مريد البصرة يوم كانت البصرة الجامعة الثالثة في هذا الإسلام جامعة الفقه واللغة جامعة الخليل وسيبويه.

دخل «محمد المربد» فإذا الجالسون من قبيلته «تميم» وقد كانوا كثيراً في البصرة قد قاموا احتراماً له فنظر يمنة ويسرة لم يجد الأحنف وتساءل في نفسه.. أين قيس بن عاصم وأين، «عمرو بن الأهتم» فأنشد يقول:

خلت الديار فسدت غير مسود ومن البلاء تفرد بالسؤدد

ذلك أنه ابن أبيه فأبوه كما في حديث البخاري وفي الحوار بينه وبين «الزبرقان بن بدر» أثنى عليه رسول الله ﷺ حين أعجبه كلامه فقال صاحب جوامع الكلم محمد رسول الله ﷺ. إن من البيان لسحراً.

وقد توارث ابن الأهتم البيان فكان آخرهم خالد بن صفوان.

بلادة الروتين

- وسمعت في «صوت العرب» ما أضحك الشكلى من بلادة الروتين وعسف الموظفين واعتساف الموظفين الآخرين.

قالوا: في أواسط الثلاثينات الميلادية أيام كان هتلر على قمة الزعامة في ألمانيا وعلى ذروة التخويف للعالم كله كأنما كان هتلر في تلك الأيام أشد تخويفاً من أسلحة اليوم المدمرة، لأنه وحده كان سلاحاً مدمراً.

في تلك الأيام جرت الألعاب الرياضية وفي حمل الأثقال نال الجائزة الأولى البطل المصري «خضر التوني» وزميله «سيد نصير» فإذا هتلر يبدي إعجابه بقوة «الإسبرطي» فهتلر كان إسبرطي الفكر وإن لم يكن إسبرطي العضل.

قلد البطلين المصريين الميداليات الذهبية وطلب من التوني أن يقيم في ألمانيا فأبى المصري إلا أن يعود إلى مصر، لأن المصري لا يهاجر من مصره إلا تحت ما يكرهه/ ما من شعب أحب أرضه حب أبناء النهر والسهل.

ورجع سيد نصير وهو موضع الحديث وقد كان موظفاً، ذهب يمثل مصر في الألعاب الأولمبية حتى إذا عاد طووا قيده، رفتهو يخرج إلى الشارع لأنه قد غاب مدة أطول من الإجازة تمسكوا بالروتين بحرفية القانون

الحمار ونسوا أنه بطل عالمي أنه شرف وطنه، نسوا كل القيمة وقالوا له «لا وظيفة» .

ولكن الرجال الذين يعرفون قدر القيم سخرؤا من هذا الروتين السخيف البليد المتعسف، وأعطوا السيد نصير وسيلة العيش . .

إنه الحي في تاريخ مصر وفي أضواء الصحافة، ولكنه الذي لم يعيش حياة يفرضها التاريخ وإنما أعاشوه بعاطفة المحسنين وقدروه ببلادة الروتين . .

إنها عجائب . . . وما أكثر ما تقع!

فحين سافرت إلى الهند في إجازة في عام ١٣٥٢هـ وتغييت قليلاً وجدتني في الشارع لا أجد وظيفة الأستاذ في المدرسة فقد عيّ فيها وكيل. ولقد كان في ذلك الخير حيث أصبحت معلم صبيان في دار الأيتام فبذلت من الجهد ما شرفني . .

فضلات العمائر

- وكان صاحبي كثيراً ما كنت أراه. ولكن مضت سنون قد باعدت بيني وبينه لمشاغل حياته.

وكثيراً ما كنت أتذكره. ووقفت يوماً على بقالة جديدة تحت عمارة جديدة، ودخلت إلى الدكان أتحسس الطريق بعصاي من الجراويل التي أمام العمارة من بقاياها، حتى إن بعض الإسفلت قد تكسرت حوافه.

وسألت البقال: لماذا لا تزيلون هذه الجراويل، ولماذا لا تصلحون الطريق؟
قال: اسأل صاحب العمارة..

قلت: من هو؟!

قال: فلان بن فلان.

وإذا هو صاحبي الذي ذكرت وما كدت أعد نفسي للخروج حتى دخل إنسان عزّ عليّ أن أعرفه لأنني أعشى. وكاد يبتعد. غير أن البقال قال:
يا أستاذ.. ها هو صاحب العمارة.

وحين سمع اسمه عجل إلي أهلاً يا أستاذ.. أنت هنا.

قلت: أهلاً «فلان».. أين أنت؟! مبروك العمارة. الحمد لله أن زالت متاعبك. وحذار أن تأكلك مشاغلك.

فقال: لقد بنيت العمارة «بدم قلبي» أستظل بأجرة الشقق.

قلت: لقد كثرت ظلالك. وأرجو أن تقلع من كثرة تضليلك. لقد تم بناء العمارة واستأجر السكان الشقق منك والدكاكين، فلماذا لا تنظف مدخل العمارة وترفع الجراويل والقمام وتصلح ما خربته تجهيزات العمارة؟

فقال: هذا مو شغلي..!

واجب البلدية تيجي ترفع..

قلت: أنت صنعت هذا الخراب، أفلست بلدية بيتك؟!

فقال: يا أستاذ.. أنت من أبناء الأمس، وأنا طلقت الأمس فأصبحت من أبناء اليوم! لماذا أصرف ريالات من جيبي على التنظيف والبلدية عندها ميزانية كبيرة؟

قلت: ما بالك لو أن البلدية فرضت عليك نسبة مئوية من تكاليف العمارة، ٢٪ مثلاً.. تقبضها منك قبل إعطائك الإذن ضماناً لتصرف على إصلاح الخراب الذي أحدثته.

لو أن البلدية فرضت ذلك أما كنت تطيع وتدفع للبلدية هذه الضريبة؟

فقال: اصح يسمعوك تجر على الناس مشكلة.

قلت سأدعو البلدية لأن تفرض هذه الضريبة، لتطرد الاتكالية ولتعلم أمثالك أن يربحوا النظافة ليكسب البلد نظافته. فكل شيء تريدونه من البلدية. أرجوك أن أمر بعد أيام فأجد أنك قد زلت هذه الجراويل.

فقال: في المشمش!!

فقلت: أرجو من البلدية أن تذيق من أمثالك طعم الحنظل.

عيب أن نصل بالاتكالية إلى «المشمش»!

ابن أبيه!

- واحتفلت الأسرة بزواج ابنتهم الغالية على زوج اختارها واختاروه، فعاشت سعيدة في كنف زوج أحبها وأحبته، وأنجبت طفلاً سموه حازماً.

ولما بلغ الطفل من العمر خمسة أشهر مات أبوه بالحمى الشوكية، وكانت الأم جميلة يعرفها كثيرون من الجيران والأهل. ويرطبون ألسنتهم بالثناء عليها صابرة شاكرة هادئة تقية. فخطبها رجل من أصحاب القيم فأعرسه به، وكان رفيقاً بابنها، قال لها: «إنه ولدي، سأرعاه رعايتي لأمه».

وكان للطفل أعمام لم يتصلوا به قد اكتفوا بأنه يعيش سعيداً في رعاية زوج أمه، وفي كنف أم حنون، لم يتصلوا به لأنهم ما أحبوا أن يلفتوا نظره حين يسألهم من هم، فيقولون أعمامك، فيعرف أن هذا الأب ليس أباه.

وبهذا التساهل تركوه، وتساهل زوج الأم أيضاً فضمه إلى تابعيته ودخل المدرسة مقيداً باسم زوج الأم. ولما بلغ العاشرة من عمره أحب أحد أعمامه أن يعلم الطفل أنه ابنهم حين علموا أنه قد ضم إلى أب غير أبيه، فقال له عمه وقد لقيه خارج المدرسة: تعال يا حازم فقال الابن لماذا: من أنت؟

قال: أنا عمك أخو أبيك.

فقال الابن: ما رأيك في بيتنا تزور أخاك.

فقال العم إنه ليس أبك، هو زوج أمك، أبوك اسمه ناصر.. أخونا!!
وجزع الطفل، يجري إلى البيت، فقال لأمه: «من أبي؟!» قالت: إنه
الرجل الذي تعيش معه في بيتي، هو زوجي.

فقال الابن: إن عمي سعداً قال إن أبي مات، وقد أخفيت ذلك عني..
فقالت الأم: ما أردت أن تعيش في حسرة فقدان الأب.

فقال الابن: لقد جعلتني أعيش في حسرة أن أعيش بدون أب.
وجاء زوج أمه وسمع ما جرى فقال: إن الحب لك حملنا على الخطأ.

فقال الابن: عدل الخطأ واسحبني من تابعيتك. أين شهادة الميلاد؟!!

فقالت الأم: هكذا الكرب علمك، وأعطته شهادة الميلاد وفيها اسم
أبيه ورقم تابعيته، وتولى أعمامه إخراج تابعيته له فيها اسمه واسم أبيه.
ولكنه سأل عما ترك والده.. فقال زوج الأم إنه في حرز حريز مسجل في
هذا الصك، سأحضر أعمامك حتى إذا رأوا أن يكون أحدهم وصياً عليك
سأكون راضياً..

فقال الابن: إن الذين تركوني طفلاً لا أترأ منهم، ولكنني أبرأ إلى الله
أن أجفو من رعاني وهو أنت. إنك أنت الوصي. حفظت الأمانة، من قبل
وأنا لا أعلم، وأنت لها حفيظ الآن..

وهكذا بعض التساهل قد تحدث به المأساة، ولكن الحب والرعاية
سقطت بهما المأساة.

خفية !

- ونحن بشكة كما هو التعريف القديم جماعة من الأصدقاء أو الأصحاب نجتمع في مكان أو في بيت أحدنا. وأكثر ما يكون في بيتي أيام كنت أسكن في الكندرة.

وغاب عنا أحد الأصحاب. وبينما نحن نتحدث عنه. نسأل لماذا غاب عنا، فإذا هو يصل. فقال أحدنا «ذكرنا القط جانا ينط» وبعد التحية والسلام والسؤال عن عزيز خاطر سألته.

- مالك قد غبت عنا طويلاً.

قال:

- مشاغل.

قلت:

- أي مشاغل لك وأنت على حد قول حافظ إبراهيم لإمام العبد، يا ربي كما خلقتني.. ومركوبك رجلاك والثوب جلدك؟!

فقال:

- إن كل ذلك هو السبب الذي أشغلني عنك لقد جئت اليوم أودعكم، فأنا مسافر إلى بعيد.

قلنا له :

- وإلى أين؟!!

قال :

- ليس هو السفر خارج جدة. وإنما هو السفر في البعد عنكم وأنا أعيش في جدة فقال أحدنا :

- بدأ أخونا يتفلسف.

- فقال هذا المسافر :

- قريباً وإلى بعيد. أنا سأبتعد عنكم لأنني لا أريد أن أضركم أو أضّر نفسي.

- فقلت : من أين تعلمت هذا الكلام؟

- فقال : من «الشغلانة» أنا لا أريد أن أحضر مجالسكم، لا ينالكم مني ما يسوء. و لا ينالني منكم ما يسيء أنا الآن «خفية».

وضحكت «البشكة» كلها إلا أنا لأن أعضاء «البشكة» ولا أقول، «الشلة» لا يعرفون معنى كلمة «خفية»، لأنهم ولدوا بعد عهد حكومة الأتراك فأحببت أن أفسر لهم هذه الكلمة.

- إنها تعني أن صاحبكم هذا أصبح من رجال المباحث أو الاستخبارات. فالأتراك كانوا يسمون رجل المباحث أو رجل الاستخبارات «خفية».

وقال أحدهم :

- طيب. ليكن ما يكون «فلماذا يبتعد؟!».

فقال :

- أنا صديقكم وأنا رجل شريف فكثيراً ما يكون الشرف حليف الشظف. أخشى أن أسمع كلاماً منكم فلا بد أن ابلغه إلى من يلزم فإذا فعلت أسأت إليكم. وإذا سكت أسأت إلى نفسي فالبعد عنكم غنيمة أنتم تغتمون السلامة مني، وأنا أغتتم السلامة حين لا أخون واجبي. دعوني وشأني.

فقلنا له على لسان واحد:

- لقد عاشرتنا طويلاً، فهل سمعت منا ما يكون مشبعاً لحرفتك الجديدة؟

فقال :

- لا. ولكن حسن الظن ورطة وسوء الظن عصمة:

إن سوء الظن من أقوى الفتن.

قلت :

- إن الرجل «الخفية» ينبغي أن يكون كل مواطن يحرص على سلامة وطنه، لا يحترف النميمة عن سلوك الأشخاص، الذي لا يضر بأمن الدولة وأما ما يضر بالأمن والسلامة فأنا والإخوان كلنا سنكون من رجال «الخفية» الذين يحاربون كل من يفسد ويعبث بالأمن.

إنك حين ذكرت ما ذكرت كنت كريم الخلق، شريف المنزع، فتعال إلى مجلسنا كل ليلة ولا أقال الله لك عشرة إن سكت عن أداء واجبك.

فقال :

- على شرط.. أعتبر المزاح جداً. فليكن المزاح في ترويح الأرواح،
لا في صنع الأتراح، هيا.. ما تبغوا تلعبوا بلوت؟!
قلت:

- بعد العشاء..

وكان العشاء «فول وسمن ولبنة وجبنة» إن هذا الرجل أعجبني لا أكثر
ولا أقل.

الرقم خطأ !

- «وتلغنت» إلى مطبعة دار البلاد، وما كنت أنا الذي يضرب الأرقام، وإنما كان الخادم.

ألو.. ألو.. وقبل أن أعلن اسمي أعتذر عن الخطأ، لأن التي أجابت كانت فتاة قالت:

- الأستاذ زيدان؟

فدهشت، ولكنني ابتهجت. لم أعلن اسمي ولكنها عرفت صوتي. فأخذت أعتذر عن الخطأ.. وبكل الأدب ناولت التليفون لأخيها أو هو زوجها، قال:

- فرصة سعيدة يا أستاذ..!

وسألته: من؟!

فإذا أنا أعرف أسرته، آباءه وأعمامه.

والمسرة ملأت نفسي بذكاء الفتاة واحتشامها، فما نفرت تجاه من أخطأ، فإذا هي تشعرني بأن في الناس أخياراً، يعفون عن الخطأ ويصادقون من يشعرونه بالرحمة.

فكم هي سعادتي أن عرفت أنني ما زلت معروفاً. فالحياة الكئيبة أن

تكون قصياً عن الناس، وهي أشد كآبة أن تكون مقصياً من الناس.

وحينما تذكرت بيتي المعري..

ولو أنني حببت الخلد فرداً لما أحببت بالخلد انفراد
فلا نزلت علي ولا بأرض سحائب ليس تنتظم البلادا

وهكذا، كنت الأثير عند نفسي حين كنت الأثير بما لقيت من أدب
الفتاة، وما كنت المثير إلا لعواطفني. فمهما تجرد من يدعي المثالية، من
الأنانية فلا بد أنه يخضع إذا ما توتر بما يغضب، وإذا تأثر بما يرضى.

بياع المقلية!

وهما شابان نشأ في حوش واحد.

أحمد أبوه «بياع مقلية» وحاتم أبوه بقال: تصادقا تلميذين في المدرسة وتخرجا في سنة واحدة، وابتعثا إلى الولايات المتحدة، فرجع أحمد يحمل شهادة الدكتوراه مهندساً. ورجع حاتم يحمل شهادة الدكتوراه جيولوجياً.

وعملا في المدينة نفسها. فأحمد ابن «بياع المقلية» رجع إلى الحوش وبيت الطين، حاتم ابن البقال وجد أباه قد بنى فيلا فخمة خارج البلدة. وما زال «بياع المقلية» على حاله.. كرسي «قعادي» وطاولة قديمة و«طاجن» القلي.. لم يتغير.

وحتى أحمد لم يتغير.. كان بعد صلاة العصر من كل يوم يذهب إلى «مبسط» أبيه، يدخل الدكان ليساعد في تحضير لوازم «المقلية».. «صالونة» والصحون وما إلى ذلك، واستمر الجلوس لا يتخلى عنه أحد، فإذا الزبائن يتكاثرون، يشترون «المقلية» فرحين بهذا الفتى، لا يعتر من أبيه، فيقول أحد الزبائن للآخر «شوف ما شاء الله أحمد.. باشمهندس.. دكتور.. يساعد والده».. وقال الآخر لزميله: «ما تعرف أننا كنا ننادي الأب يا عم صالح يا معلم.. لازم دحين نناديه.. يا أبو الدكتور!» وتكاثر زبائن «المقلية».

ونظر هؤلاء الزبائن يركبهم الفضول إلى ابن الحوش الثاني «حاتم» أين هو؟!

فقال أحدهم.. سمعت أن أباه طلب منه أن يساعده في قيد الدفتر،
يقيد على زبائن البقالة ما يستدينونه، فقال لأبيه:

«أنا ما أقدر أجي الدكان.. الشارع غبار.. والزبائن رائجتهم كريهة. يا
أبويا جيب الدفتر في الليل أقيد لك!

فقال له الأب.. لو كنت أحصي ما يأخذه الناس ما في لزوم
للدفتر.. ثم قال الأب.. «انتا مانت شايف أحمد كيف يساعد أبوه»؟

ما يشمئز من رائحة الزيت.. عمره ما قال لأبيه عن رائحة الزبائن..
«انتا مانت مخطئ يا ولدي».. أنا المخطئ.. دلعتك كثير وظهرت أمامك
بمظهر الغني.. أما صالح يباع المقلية فأعطى ابنه الحب لا الدلع، وما ستر
عليه شيئاً من حاله، فعرف أحمد قيمة الفقر ترتفع به همم الذين لا يعترفون
من أي صناعة يحاربون بها الفقر.

روح يا ولدي الله يسترك ويرضى عليك..

الشك

وقبل أعوام مضت رأيته قد سمر أذنيه على سماعة التليفون، فألقاها بغضب. ونهض يستأذن.

قلت:

- إلى أين؟! إلى أين تذهب وأنت غاضب؟ قال: إليها: لقد وضعت سابراً يخبرني عن الذي يدخل عليها في غيبتني.

قلت:

- ولماذا السابر؟ أتقتل نفسك بالشك!

قال:

- سمعت أن رجلاً يدخل بيتي. سأقتلها!

قلت:

- لا تقتلها وإنما أقتل صديقك الذي يطأ فراشك.

قال:

- هو خائن، ولا حق لي عليه، وإنما هي الخائنة آخذ حقي منها.

وتركته يذهب.

وفتح الباب فوجد الرجل لم يكن غريباً. كان أخاها. لم يعرفه السابر.
وجد رجلاً دخل فأسرع يخبر عنه ليقبض الأجر.

قالت له:

- «عسى خيراً».. جئت مبكراً.

قال:

- ولا شيء أوحشني ابني، علمت أنه لم يذهب إلى المدرسة.

قالت:

- قل غير ذلك. ابنك ذهب إلى المدرسة.

فقال أخوها:

- إنه جاء ليراني حين عرف أنني لديك.

قالت:

- ومن أعلمه؟

قال:

- حين دخلت رأيت شاباً يتصفح وجهي، يقف حتى يراني أدخل.

فلعله أسرع يخبر صهري كأنما السابر يحسبني الغريب.

لقد احترق زوجك بالشك أتعرفين من السبب؟

إنها جارتك، وسوست له تريده لنفسها بعد أن تعنست كل يوم ترسل

له وشاية.

واحتار الزوج ولبسه الخجل فقالت الزوجة:

- دعني أذهب مع أخي ما دمت تعيش الشك.

فقال أخوها:

- لا.. لا.. إنه قد تلقى درساً لا أحسبه يعيش في الشك الذي يقتل
الحب.

ورجع إلي يتهاطل العرق من جبينه كأنما ضميره أصبح سوط عذاب،
وعرفت القصة فقلت:

- استرجع واتق الله في زوجك وابنك، واترك الواشية التي حملتك ما
لا تحتمل.

وطرد الواشية طرداً قاسياً، وعاش في «تبات ونبات». فالغيرة حريق
والشك محرق والثقة سكينه.

نشر الغسيل

- تعودت ألا أكتب عن بعض السلوك السيئ. اسمي ذلك «نشر الغسيل» فالغسيل حين ينشر على البلكونات عمل لا يليق. وكذلك فضح السلوك لبعض الشباب كنت أتجاوز الكتابة عنه.

وكم زورت في نفسي أن أكتب عما يمارسه بعض الشباب في تليفون الشارع. ولكن سمعت بمحض المصادفة برنامجاً في الإذاعة كان من شكاوى الجمهور من المعاكسات التلفونية، فأبحث لنفسي ما أباحته الإذاعة.

قبل عامين وبعد منتصف الليل رن التليفون، قلت «من» قال:
- «أعطيني أمك أكلهما».

وذكرت له اسمي فما احتشم، وكرر الطلب قلت له:
- أمي ماتت قبل ثلاثة وسبعين عاماً، ودفنت في بقيع الغرقد.
فقال: «طيب أعطيني أختك»!

قلت له وبكل هدوء:

- لم تبق لي أخت فهن قد دفن في البقيع أيضاً.
وعجلت أقول له:

- اسمع.. وارفع يدك إلى السماء.. وقل آمين.

فقال: آمين..

قلت: أسأل الله أن يحرمك نعمة الريال الذي يجري في يدك، تحتاج إليه، تتسول الناس في الطريق.

لم أشتمه، وإنما ثبتني الله بهذا الدعاء بعدها بأشهر تكلمت فتاة. تلفنت تقول:

- محمد زيدان الله يعميك.. آه لو أشوفك أقلع عيونك.. عسى وجع يقطع قلبك».

وتناولت أخرى التلفون منها وقالت:

- يا أستاذ..

قلت: نعم..

وكلمت صاحباتها:

- أي والله هو الأستاذ أعرف صوته من التلفاز..

فقال الشاتمة:

- هاتي..

وأخذت تشتم، وبكل العصب البارد قلت لها:

- أحسب أنك حين تتغزلين تشتمين كبعض الفتيات من قومك يقلن..

يا زين عيونك عسى وجع.. يا حلاوة شكلك عساك بلاء!

وأغلقت السماعة، وأسأل الله أن يصونها من كل سوء.

ومن المؤسف أن أكتب عن المقصود من هذه «الجمرات» وهو أن شاباً

خرج إلى الشارع في مبادلة.. ثوب قصير دالع الصدر لا يغطي رأسه
وأمسك بمسجل ودخل في تليفون الشارع. يسجل ما يسمع كأن المسجل
أصبح آلة التهديد كما الصورة والخطاب فيما سبق. يسجل كلامها ليساومها
ليعبث وإلا فالتهديد يرسل التسجيل لولي أمرها.
أليست هذه جريمة؟!

رحلات

في الهند

- وحين الأوبة من رحلتي إلى الهند كان المقرر أن نبقى في بومباي أياماً، فعز علينا وجود مكان في الباخرة لأن العودة كانت في أشهر الحج، فلجأنا إلى الرجل الكريم عبد الرحمن القصيبي والد الدكتور غازي القصيبي، وكان في بومباي. وله قيمة هناك فسهل لنا طريق الرجوع، وانعقدت بيننا صداقة، فشاكر المعروف هو القادر على صنعه، وناكر المعروف هو الباخل أن يصنعه.

ونزلنا ضيوفاً على بيت شرف الدين أخوال مدير جامعة الملك عبد العزيز الدكتور عبد الله نصيف فكانوا من الأكرمين. وفي يوم من أيام بقائنا هناك أخذونا إلى «سيرك» ألماني كان يعرض ألعابه في بومباي لعل اسمه «سيرك هوفمان» جلست أنا والشيخ محمود شويل يرحمه الله كل على كرسيه وبهرتنا الألعاب الحيوانية، وجاء دور كلاب البحر.. كلاب ثلاثة يتلقفون الكرة يقذفها الكلب إلى الآخر تسقط على الأرض.. يتناوبون ذلك. كان منظراً مثيراً معجباً. ولا أدري كيف التفت إلى الكراسي التحتية فنظرت إليها، فتاة «بارسية» أي (من نسل الفرس) الذين هربوا إلى الهند وبقوا على مجوسيتهم. نظرت إليها وقلت كأنها هي هي، هكذا يعظم الشبه، لقد تركت تلك في المدينة، فهي التي كانت تلعب فقد أدركها

الكرب سنتين وهي طفلة، أخذها عسكر فخري باشا وأمها وأختها يجرونهم جراً إلى القطار دون أب، فالأب قد فر. فأى قسوة أمر من هذه! وأي ضيم أشد من «هذه» بل أكثر من ذلك أن أمها ماتت وأن أختها ضاعت، ورجعت وحيدة إلى أبيها. وكانت بيننا وبين أبيها قربي نسب. كانت جميلة كالبارسية تلك. ألهتني النظرة إلى البارسية أن أنظر إلى كلاب البحر، فقد أثارت الشوق إلى هذه التي كأنها أخت، أو إلى هذه وأنها للحب الأول، حب لا يدرية المراهق إلا بعد، أن يصبح شاباً، وبعد فوات الأوان!

ونزلت إلى ميناء جدة فسمعت نهيق الحمار، فطربت من أنكر الأصوات، ذلك أنني لم أر حماراً في الهند مدة ستة أشهر! ورأيت «تكرونيا» ففرحت كأنه من سمات بلدي، فالحمار والتكروني كل منهما أعطاني الفرصة أني أطمأ أرضي، وهكذا النفس تحدث فيها الفوارق، فالفارق كبير بين الفتاة البارسية وبين الحمار والتكروني!

الفارق أن تلك أثارت الشوق، وهذان أثارا الفرحة!

حوار في أمريكا

- وذهبت في أول زيارة للولايات المتحدة بدعوة من وزارة الخارجية الأمريكية وقد شغلنا في هذا البلد بما جرى نحو ثورة اليمن وحرب اليمن كما شغل العالم كله بأزمة الصواريخ في كوبا.. كانت رحلتي في تلك الأيام في عام ١٩٦٢م.

وصلت إلى واشنطن العاصمة فاستقبلني المكلف بالتخطيط للزيارة عن جامعة شيكاغو وكان يحمل لقب «هدلي» اسم «هدلي» معروف لدينا نحن المسلمين بذلك اللورد البريطاني الذي أسلم عن بحث واقتناع فشاع اسمه بين المسلمين وقد عرفنا الكثير عنه بما تحدث به شاعرنا الكبير عمر أبو ريشة.

وحين استقبلني المستر «هدلي» عرفت أنه ينتمي إلى هذه الأسرة وجرى حديث فقال إن سكان إفريقيا قد انحدروا عليها من الشمال، قلت له ساميون أم آريون؟ يعني من العرب البربر أم من الأوروبيين فقال أوروبيون، قلت فلماذا التعنصر ضدهم حتى كانت الحرب الأهلية قادها الأمريكي العظيم، إبراهيم لينكولن.. وأين ذهبت حين تخرجهم من أنهم من نسل حام هم في التاريخ زنوج وتعاملونهم في أمريكا على هذا الأساس، إن سكان إفريقيا لم ينحدروا من الشمال، ولم يكونوا من أنسال القارة التي

خسفت، قارة الأطلنتيد التي غمرها المحيط الأطلنطي. إنهم قد انحدروا إلى إفريقيا من الشرق فهم من نسل أبينا نوح عليه السلام.

نحن العرب ساميون وأنتم يافثيون، وهؤلاء السمر في إفريقي حاميون. إن لغة الإفريقيين ليس في أصلها شيء من لغة أوروبا. إنها من لغات الشرق فسكت ولم يجب.

وذهبت إلى ولاية، كلورادو ومكثت في عاصمتها «دنفر» وصعد بي المترجم وكان فلسطينياً اسمه فؤاد قري إلى أعلى الجبل. وكانت الريح قوية الهبوب، لا أستطيع أن أمشي وحدي دون سند، وبدأ المترجم يأخذ لي صورة فإذا شاب أمريكي يقول عربي تحلم بالملك، فقلت: أنا من بلد صدر الأباطرة والملوك والأئمة والحضارة، أما أنتم اليوم فترسلون السخرية على أسرة كينيدي. تتهمونه بأنه يريد أن يكون ملكاً. وكان هذا في عهد الرئيس كينيدي. فأخذته الإجابة وذهب.

متفرقات

التفاؤل والتواكل

- حين يستحيل التفاؤل إلى تواكل يصبح المرء عاجزاً يضع نفسه مأكلة لغيره لا يحسن التصرف يقف ينتظر، فالتواكل عجز النفس والعصل، انشغال بالفراغ. والفراغ مشغلة قاتلة..

وحين يستحيل التشاؤم إلى يأس يصبح المرء شرساً معجزاً يصب أذاه على الآخرين تسود الدنيا في عينيه حتى إنه ليأكل نفسه.. والأمة العربية بعضها استحال تفاؤله إلى تواكل، وبعضها استحال تفاؤله إلى تشاؤم. ولكن المخرج من هذا بادرة نصر تسترد بها النفوس العربية تفاؤلاً لا يحدث البطر، إنما تطرد به اليأس وليد التشاؤم..

قالوا.. إن فيلاً كان يعيش في الغابة يأكل من ثمارها كأنما أعالي الأشجار تتدلى تعطيه ثمرها، طال فاستطال، وكان من عبث الإنسان أن جاء صيادون يطلقون الرصاص على ما يريدون صيده فاحترقت الغابة، وانتظر أياماً ليأكل فإذا لا شيء أصبح يسف العشب المترب ولبسته الشراسة من اليأس فأخذ يطأ ما بقي من الحيوانات الصغيرة.. يتقصدها.. الأرناب والفئران حتى إن خوفه من الفئران لم ينزع الشراسة منه. كأنه قد جن!

وقصد وادي النمل فأخذ يطأ ويطأ ولكن النمل لم يستسلم، لم يدركه التواكل ولم يثبطه التشاؤم، فأجمع بعض النمل أمره فضل فريق طريقه إلى

خرطوميه، فبنفرة واحدة سقط النمل، تجربة لم يعتد النمل إلى أن يفعلها، فتسلق بعض النمل يدخل أذنيه، جعله يتخبط، حك الأذنين في الشجر فأحدث جروحاً فأغتنم النمل تلك الجروح فأخذ يوسعها.. يشرب من دمه.. كبرت الفتحات.. تسلط عليه نمل كثير يتناوب الانتقام فأولاً أبعادوا عن طريقه يتكتلون زرافات زرافات تركب الجروح، فخار وارتمى. فجاءه الثعلب.. هل تريد أن أنقذك من النمل؟

قال: نعم..

قال: ولكن بشرط. تحملني في هذا النهر العريض لأنني لا أستطيع قطع المسافة وأنا أعالجك..

كان الثعلب خبيثاً، لم يقل له أغطس في النهر يذهب عنك النمل، بل أخفى ذلك عنه فركبه يسير به حتى يصل إلى شاطئ النهر الآخر، وحين نزل الثعلب قال الفيل: أين العلاج؟

قال: يا كبير الجسم ويا صغير العقل، لقد عولجت ساعة أن غطست في الماء تسير بي، غرق النمل في النهر.. تبعثر. فأنت الآن لا تحس بأي نملة في جرحك. إياك وأن تستهتر بالصغار، فالنمل الصغير أذاب جسمك، والثعلب الصغير أحيا عقلك..

وأنشد الثعلب:

لا تحقرن ضعيفاً في مخاصمة إن البعوضة تدمي مقلة الأسد

ثم أنشد مرة أخرى:

لا تحقرن كيد الضعيف فربما تموت الأفاعي من سموم العقارب
فقد هد قدماً عرش بلقيس هدهد وخرب حفر الفأر من سد مأرب!

أمثلة

- وأمثلة لشعوب نابغة تعبر عن مشاعر الشعوب، سواء كانت مشاعر عن مسها بالضييم أو عن حسها بما تسخر منه، لأن السخرية من الشعوب ضرب من المقاومة للذين سخروها لذلك الضييم أو سخروا من قيمها. فقد ورثنا عن أجيال ماضية في المدينة المنورة وفي غيرها، فالحال واحد فيها وفي غيرها، أمثلة أسردها كالتالي:

الولد اللي ما بال على كراعي.. ما أحطه على شاتي راعي.

أرادوا بهذا المثل ما يعنيه المثل الآتي..

«ما حك جلدك مثل ظفرك، فتول أنت جميع أمرك».

والمثل الثاني لعلّ فيه توضيحاً للمثل الأول:

«غنمة» بلدي تحب التيس الغريب».

وتأتي السخرية حارة في المثل التالي، يعنون به المدينة المنورة..

«مكتوب على سورها.. خيرها لغيرها»..

إن هذه الأمثلة لم تكن وليدة اليوم وإنما هي ميراث أجيال مضت، معبرة عن أحوال مضت، فيها شيء يعبر عن الماضي وما جرى فيه لا أكثر ولا أقل.

كلمات هتلرية

- قالوا لهتلر يوماً ما إن «جورنج» قد بنى حماماً زخرفه بالذهب.. قال وماذا في ذلك؟! دعوه يشبع فلقد جاع كثيراً.

إنني لا أريد أن يخدمني رجال من أصحاب المبادئ.. إنما أريد رجلاً من أصحاب المطاعم.. إن أصحاب المبادئ قد يتعكر صفو العلاقات بيني وبينهم وقد لا يأتُمرون بأمرى إذا تعارض ذلك مع مبادئهم.. أما أصحاب المطاعم فإنهم من أجل مطاعمهم يطيعون أوامري ويرضخون لرغباتي.

وقال هتلر: الرحمة خور في الطبيعة.. وهي ليست كلمة، جاءت بها فلسفة هو مبتدعها، وإنما هي من فلسفة نيتشه وروزمبيرج.. فلسفة لا بقاء للضعيف ولكننا قلبناها عليك فقلت: والقسوة طبيعة الخور.. فقلّ أن تجد فارساً شجاعاً يسفك الدم.. وما أكثر الجبناء الذين طغوا فإذا بهم المسرفون.. يمارسون سفك الدماء.. فهل تجد لهاتين الكلمتين معنى قائماً في تصرف الأباطرة الطغاة.. ومن النكد على إنسان هذه الأرض أن الأباطرة لم يكونوا من السراة العظاميين وإنما هم من غير هؤلاء.

وما أصدق قول رسول الله ﷺ «الناس معادن.. خيارهم في الإسلام.. خيارهم في الجاهلية.. إذا فقهوا».

وعن الفئران !

- وحين كتبت عن تكنولوجيا الفئران وجدتني تحت ضغط الفئران فما كنت قبل أن أكتب عنها أراها في البيت فعلى طريقة هذا المثل «ذكرنا القط جانا ينط» يصبح مثلاً آخر «ذكرنا الفأر نط من الغار فدخل الدار» .

لا تحسبوني أسخر أو أكذب أقسم أن ذلك قد وقع حتى نمت ليلة الأحد الماضي وقد أصبح الفأر وراء المكتبة فأنا لا أخافه ولكنه قد ثار مني فأزعجني!

وعلى رأي هذا المثل الذي يجهل شر الذباب، «الذبان ما يقتل لكن يخبث النفس» وقد أخبث هذا الفأر نفسي ولكن المصيدة له بالمرصاد وضعناها ولعلها تصيده .

ولا أريد أن أسكت عن الفأر فحين انتصرت الفئران بالخطة التي نجح فيها فيروز الثاني «تكنولوجيا الفئران» وحيث استراحوا من القط عقدوا مؤتمراً يبحثون فيه مشكلتهم مع العقارب وبحثوا عن فيروز ذي الرأي السديد فلم يجدوه، كأنه ليس «خلق الجنتلمان» أدى خدمة أنقذ بها رهطه من الفئران فأحب أن يعتزل ولكنهم سعوا إليه ليرأس المؤتمر!

فقام خطيبهم يعرض مشكلة العقارب لا بد أن نقضي عليها فتكلم فيروز قائلاً إن بيننا وبين العقارب مصالحة وقد أنقذنا أنفسنا من القط بمعونة

العقرب الصفراء فهي التي لدغته وقتلته.

فإذا ما أعلننا الحرب على العقارب وقضينا على قوة السلاح الذي تملكه
فإننا نكون غادرين بعهد المصالحة!
ثم ما يدرينا أن قطعاً آخر سيأتي ولن نقضي عليه إلا بالأسلوب الأول
«معونة العقارب».

فالإبقاء على العقارب هو من صالحنا عوناً لنا على أي قط يأتي إلى
أكوام القمامة التي تعيش فيها، فسمعوا لفيروز وصفقوا له غير أنه أعلن
اعتزاله يعيش في كوم قمامة آخر!

صور كاريكاتيرية!

- ولنترك الاستطراد لنكتب فقرات كصور كاريكاتيرية .

أستملح هذه الصورة الكاريكاتيرية صورها المتنبي أبو محسد أحمد بن الحسين وهو يسخر من كافور الإخشيدي:

وأسود مشفره نصفه يقال له أنت بدر الدجى

وقرأ أحدهم أو رأى صورة كاريكاتيرية في جريدة «الأهرام» رسمتها ريشة الفنان صلاح جاهين، عبر فيها عن الفقر الثقافي، فقد رسم صورة لشوقي وبجانبه صورة لحافظ ينظر إلى بعض الشباب وكأن أحدهم سأل: من هذان فأجاب واحد منهم: أحمد شوقي أبو فريد شوقي، وحافظ إبراهيم أبو عبد الحليم حافظ!

أهو فقر الثقافة أم جناية التلفاز والإذاعة وضيق المناهج؟!

قال أحدهم وقد جنح الكلمة:

نحن نحتفل بعلف العجول ولا نحفل بعلف العقول!

هذه الكلمة تصور سلطان المعدة وتترف الكروش. أما العقول فلا سلطان لها.

ومرت سيدة عجوز من أمهاتنا على حديقة من حدائق جدة فغطت أنفها

لئلا تشم الرائحة المنبعثة من الحديقة. مفارقة محزنة ألا تشم رائحة الحديقة حتى إذا طال مشوارها وبعدت عن الحديقة قالت:

«يا ناس إيش بنا. نسقي الحدائق بمياه البيارات والمراحيض. إذا كان ما في موية أخروا زرع الحدائق».

وكانت بجانبها عجوز أخرى فقالت:

«والله إنتي مانت دارية.. أصحاب الوايتات متوالسين مع المستشفيات علشان يكثر المرضى وتكسب المستشفيات!».

عبارة قاسية لا أدري هل إذا قرأها معالي وزير الصحة بالنيابة يصنع شيئاً؟!!

وسافر أحد الأثرياء قبل زمن من الذين كانوا يسمونهم «أثرياء الحرب» التي انقلبت الآن هذه التسمية فأصبحت «أثرياء الأرض». وأطلق السائق «البوري» فقال الثري:

«يا أخي بلاش بوري.. لا يخلص البنزين!».

بعد انتهاء المؤتمر الإسلامي الأول الذي عقد في مكة المكرمة وصل إلى المدينة المنورة الزعيم التركستاني موسى جار الله، ونزل ضيفاً على والد الصديق محمد نيازي.

فذهب لزيارته (محمد زيدان) أعرف نفسي:

فقال:

- هل أنت قريب جرجي زيدان؟!!

قلت :

- لا، ألا تراني مسلماً أمامك في المدينة وهو كاثوليكي لبناني وبعيد
أن يسلم الكاثوليك؟

قال : كيف اتحدثما بهذا اللقب «زيدان»؟

قلت :

- إنه شاعر الربابة يقرأ قصة «أبو زيد الهلالي» ومن فرسانها ابن أخت
أبي زيد واسمه «زيدان» فانتشر هذا الاسم نشره شاعر الربابة، فهو اسم
شائع في الأرض العربية كلها.

الرهق الأسود

- وتلفن إلي قارئ.. أعجبه التعبير عن «الرهق الأسود» المارد من الجن وضعته الأسطورة مجنداً تحت إمرة سيف بن ذي يزن.. يحطم صخور الجبل ينساب النيل إلى واديه، أعجبه أن أصف «الرهق الأسود» بقولي «تكنولوجيا العصر القديم» ذلك أن كلمة تكنولوجيا أصبحت فتنة العصر لأنها التقدم في هذا العصر.. يتفنن فيها احترافاً واغترافاً صانعوها.. ويفتنن بها الذين يجرون وراءها ليصنعوا بها تقدمهم.

ولست بهذه الصفة إلا معبراً عن قوة العلم في العصر القديم.. ولم يكن علماً صانع مدينة فحسب وإنما كانت صناعته الحضارة في كل مجال.. فأرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد وشمود الذين جابوا الصخر بالوادي.. وفرعون ذي الأوتاد لم يكن كل ذلك إلا من صنع التكنولوجيا القديم.. فحين انبهر كاتب التاريخ وصواغ الأساطير والبكاء على الحقائق والعاجز عن إدراك العلم سخر الجن فجعلهم هم البناء.. وحكاية الجن نؤمن بها ولا نتنكر لها، فإن لم تكن في حياة سيف بن ذي يزن فإنها كانت في تاريخ ومسيرة الرسول النبي سليمان بن داود.. ورد ذكرها حقيقة قرآنية، عفريت من الجن، مردة بينون القصر الممرد من قوارير فالعفريت من الجن قد منح من القوة أن يأتي بعرش بلقيس من صنعاء إلى

بيت المقدس قبل أن يقوم الرسول النبي من مقامه.. ويعني ذلك الوقت القصير جداً.. تلك فعالية القوة الجنية، أما العلم وما أحسن هذا البيان في إثبات العلم في القرآن الكريم فقد نطق الذي عنده علم من الكتاب بهذه الآية القرآنية: ﴿أَنَا إِلَٰهُكَ بِهٖ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ (النمل: ٤٠) فالقصة في سورة النمل وأليس ذلك سواء كانت قوة العفريت أو قوة العلم إلا التكنولوجيا إن تقادم عليها العهد فهي بارزة القوة في حجر ثمود، في البتراء، في الأهرامات، وفي شوامخ الآثار في أسوان وفي حدائق بابل والهيكل في بعلبك.

إن هذه التكنولوجيا القديمة لم تمنح آثارها السنون وإنما الذي ذهب بخل العلماء الذي ذهب بها وبالأسس التي تم البناء لها هو بخل العلماء الذين يكتنزون العلم.. فالميزة التي امتاز بها الغرب الآن هي أن لا يكتنموا كشفاً أو اختراعاً ولو عرف العلماء الأقدمون تعميم النفع وبقاء الانتفاع لما بخلوا بما لديهم ولما حبسوا عن وراثتهم ذلك التراث العظيم.

إن أديسون قال كلمة أحسبها تسجيل المؤاخذه على القدامى فقد قال صاحب الألف اختراع.. الذي أهدي المصباح الكهربائي لدنيا الإنسان قال: «إن التفكير في الاختراع سهل، وإبراز الاختراع قد يكون من السهل أما تعميم النفع من الاختراع فهو الصعب» ولعلكم تعرفون أن حقنة البنسلين التي عولج بها تشرشل في الدار البيضاء قد عولجت بها عجوز بدوية بعد أشهر في الطائف فلم يحجز البنسلين في قصور الأباطرة وإنما عمّ انتشاره أكوخ البادية.

المدينة والحضارة

- وابتدأ الإنسان أن يكون مدنياً وحضارياً فيما بعد من ضغط الحاجة فحاجته إلى التجمع والمسكن والمأكل والأمن من الخوف دعت به إلى أن يكون في جماعة كانت تسمى القبيلة في قرية من «مدر» أو في فريق من بيوت الشعر ولكن الوسيلة الأولى في تحقيق ما تدعو إليه الحاجة لا يأتي بها الطلب إلحاحاً للحصول على ما يحتاج وإنما كل العطاء بتحقيق الحاجة وإنشاء المدينة وبناء الحضارة لم يكن إلا بالشيئين الخيال أولاً والعلم ثانياً فالخيال يسرع بالإنسان إلى العلم . . والعلم يسرع بالإنسان إلى التفوق فلا قوام لأي شيء في الحياة يعطي للإنسان بناء وعمدانياً وإقامة دولة وإرساء حضارة إلا بالخيال فالبدواة قليلة الخيال ولا أقول إنها تعيش العدم منه وإنما العدم للخيال وقتله لن يكون إلا بسقوط الإنسان في هاوية المأساة تشغله عن التفكير والتخيل فالمأساة موت بطيء للخيال في الإنسان الواحد أو في الجماعة أما الكارثة وإن هدمت بعض ما ملك الإنسان أو كل ما ملك فإنها تعود به إلى أن يتخيل الجديد لبنى الجديد .

إن الخيال تصور يضع أمام الذهن والفكر والعقل والعاطفة صوراً شتى لما ينبغي أن يصنعه الإنسان . .

قالوا إن الدبابة قد صنعها المهندسون من خيال تشرشل فقد تخيل

ونستون هذا السلاح في الحرب العالمية الأولى يحارب المأساة يتجنب الكارثة .

وقالوا فيما يروون عن «أديسون» صاحب الألف اختراع أو هو كما زعم، صاحب الألف اكتشاف لأن كل ما صنع أديسون كان من إلهام الخيال وكان موجوداً في طبيعة الكون، فالخيال فتح له طريق الاكتشاف ليصنع فقد قال مرة إن التفكير في الاختراع سهل وإبراز الاختراع قد يكون من السهل لكن تعميم النفع بالاختراع هو الصعب وقد أتعبه المصباح الكهربائي فحين صنعه أنار لكن بأي الأسلاك يصنعه . . بأسلاك من الذهب . . من الفضة . . من أنواع مرتفعة الثمن فيكون النفع للأباطرة والأثرياء ويحرم الآخرون حتى قالوا إنه استعمل أكثر من ألف نوع من الأسلاك ليكون المصباح الكهربائي نوراً في بيت الإمبراطور وفي الوقت نفسه نوراً في أي قرية في أي كوخ . . عند أسرة أي عامل أو فلاح .

إن مجد إديسون لم يكن في هذه الوفرة من الاختراعات وإنما في ذلك الخيال الواسع في تلك الرغبة التي حدد فيها معنى الانتفاع بالاختراع وقوة الاندفاع لتعميم هذا النفع . .

فالعربي اليوم لا أقول إنه فقد الخيال وإنما كانت الحصيلة ضئيلة فعليه أن يتفقدده ليكثر لديه ليخرج من مدنية البداوة إلى تفوق الحضارة . . إن أديسون قد سجل على علماء الشرق في العصر القديم سواء أكان علم الكهنوت أو علم الكهنة الكتم والإخفاء لما وصلوا إليه يوم كان الخيال لديهم عظيماً فلم ترث حضارة الشرق إلا ما قام ماثلاً في بناء أما كيف بنى . . كيف حنطت الموميات، من أي مادة صنعت الأصباغ؟ كيف صنع من قشر السمك والحوت صباغ الأرجوان؟ كل ذلك كان سرّاً فحرمنا منه . .

إن إبرة البنسلين التي عولج بها تشرشل في الدار البيضاء لم تمض أيام حتى عولجت بها بدوية في الطائف.. فالشرق حين كتم حرم والغرب حين أذاع أصبح السيد.. وهناك كلمة عن الخيال كأنها تجمع كل ما كتبت فقد قالوا لـ (والث ديزني) إن مدينتك قد وصلت إلى الكمال لا شيء بعد ذلك تفكر فيه فقال ليس هناك شيء كامل ما دام هناك خيال.

المسؤولية

- وما ذهبت إلى مكان إلا مغرضاً لقضاء حاجة ..

فالتبرع بالزيارات استجداء «للمودة» أو هو الوفاء لها .. ولكن المغرض
- كما اعترفت - يحترف أن يتوكأ على عصاه، يذهب بعد مغرب يوم يزور
مؤسسة .. فلا يجد إلا الكبير فيها .. لأن المسؤولية تحتم على الرجل
الأول أن يدفع «الضريبة».

إن البقية من العاملين معه قد وزعت عليهم أعمالهم وحدد لهم التوقيت
فهم لا يحضرون إلا في الوقت المحدد ليؤدوا عملهم .. لقد ذكرني ذلك
بالحوار الذي جرى بين «الإمبراطور» جورج الخامس ورئيس وزرائه
«رامساي ماكدونالد» رئيس حزب العمال .. قبل «إتلى» فقد وقعت الأزمة
في بريطانيا من كساد الصادرات خصوصاً في مانشستر، كادت تفلس بعض
مصانع النسيج، بل وقد أفلس بعض التجار من العرب الذين كانوا لا
يستوردون إلا ما صنع في لندن من الأقمشة وما إليها .. وكان السبب في
هذه الأزمة ما تصنعه اليابان من الأقمشة، تباع بسعر رخيص .. فأقبل
المستهلكون على ما يسترخصون. وقد كانت بريطانيا متشبثة بالسعر العالي
للجنيه الأسترليني، فالجنيه من الورق أغلى سعراً من الجنيه من الذهب،
سعر الإسترليني (١٠٠ قرش مصري) أما سعر الجنيه الذهب ف (٩٧,٥).

إن هذا الفرق الضئيل بين سعر الذهب وسعر الأسترليني، هو الكثير جداً كفرق في ثمن البضاعة المستوردة من بريطانيا، فمئات الألوف من أطنان الأقمشة تعني أن الفرق باهظ.

وحين اشتد هذا الكرب في بريطانيا.. تقف بين غزو اليابان الاقتصادي وجفاف الامتصاص الأمريكي وجفوة الامتصاص الألماني.

كان ذلك قبل الحرب العالمية الثانية بأربع سنوات أو أقل.. فأخذ الملك جورج يطلب رئيس وزرائه.. يستعرض معه الأزمة.. فقال «ماكدونالد». إني أضع استقالتي أمام الملك.

فقال الملك جورج: لا.. ليس الطلب أن تستقيل.. أنت قائد السفينة الآن.. فقدتها إلى النجاة.. فأطاع «ماكدونالد» أمر الملك.. وقبل أن يخرج من الباب قال «أعني ماكدونالد».

«خير للطالب أن لا يكون الأول في فرقته» فالأولية «مسؤولية» إذا لم يحترمها الأول فسيحترمها الثاني والثالث.

ونجح «ماكدونالد» فخرج عن قاعدة الذهب وأصبح الأسترليني الورق هو الأساس.. والذهب سلعة في ذهبه.. بينما أصبح الذهب عملة في أي بلد لم يتعامل بعد بورق البنوك.. ولكن انتهى عهد الذهب كعملة وجاء عهد أصبح الذهب.. هو السلعة الرديف للبترول.. كلعبة.. يرتفع إذا كان الارتفاع في صالح الشمال.. وينخفض إذا كان هذا ما أراد الجنوب أن يجعل منه رصيذاً.. يتوطأ به.. أن يكون رصيده خارج حدوده.

الغيث

- وأمطرت السماء في الوسمي ، فإذا الكمأة «الفقعة» يملأ أرضه التي تنبت بها ، وإذا أنا في الرياض يبشرني الكثيرون ممن أعرف بالفقع ، فقد نشأت من آكليهِ والفرحين به ، لأنه الدليل على إمراع الأرض وأفراح المنتجين .

فحين تمطر السماء في الصحراء في الوقت الذي نظم فيه الله الكون إذ تهتز الأرض وتربو تنبت من كل زوج بهيج ، وحين كنت أذهب إلى الخرج بالسيارة كانت المرة الأخيرة قد شاهدت فيها «نفود السر» التي كنا لا نمرها إلا ليلاً وفجراً خشية الرمضاء وقسوة الرمال وتغريز السيارات . خرجنا من مكة كان معي في السيارة «عباس صيرفي» والسماء كانت تمطر من قبل وحين سفرنا . فماذا وجدت في النفود؟

لقد وجدتها بستاناً مليئاً بالزهور كأنما الرمل قد استحال بالغيث إلى أن ينبت الغيث .

قلت لعباس صيرفي :

- دعنا نمشٍ وئيداً .

فأطاع رحمه الله ، ومكثنا نشاهد هذا البستان قد أحاله الغيث بقدرة منظم الكون إلى جنة فيحاء . وحين خرجنا من النفود قلت لصاحبي :

- إن الشاعر العربي لم يصف الزهر والعطر إلا حين شاهد أرضه ينبت

فيها ذلك، فالمطر في حينه تهتز به الأرض وتعطي من مكنونها المعجب والمفرح.

من هنا وفي تلك اللحظة فقحت كلمة الفاروق أبي حفص عبقرى هذه الأمة «عمر بن الخطاب» للعباس بن عبد المطلب حين أراد يستغيث في عام الرمادة.. عام القحط، فقد قال العباس:

- يا عباس.. أرقب لنا نوء كذا.

فجاءه العباس بما راقب فاستغاث «أبو حفص» فأمرت السماء، وأغاث الله الناس.

إن السماء لا تمطر فينسب المطر أنه من فعل النوء، وإنما الأنواء نظمها الله في سنن خلقه، وقبائلنا تعرف الوسم وتسال الله أن تغاث به.

وكان «عام الرمادة» قد أجهد العرب فأنحازوا إلى «المدينة» يطلبون الطعام فأطعمهم «عمر»، كان يأكل معهم، فاستحال لونه وهو الأبيض الطويل إلى سمرة لأنه كان لا يطعم إلا ما أطعم، فاستغاث فأغاثه الله.

والشيء بالشيء يذكر، فقد كتب إلى «عمرو بن العاص» فاتح مصر وأميرها حينذاك كتاباً قال فيه:

«يا لكع بن لكع.. تريد أن تعيش أنت ومن معك لأهلك أنا ومن معي؟!».

فأجابه عمرو:

«ليك ثم لبيك.. هذه العير أولها عندك وآخرها عندي».

وأكل العرب حتى إذا شبعوا وأمرعوا، قال ابن الخطاب: «هيا هيا إلى بواديكم».

عبقرية الشعوب

- وجرى حوار مع طالب جامعي، وعن فتنه العصر «التكنولوجيا»، أو هي تقدم العصر كما يشتهون. فقال الطالب: لقد سمعت الأستاذ العالم، وسماه، يقول: إذا لم نصل في السنين العشر القادمة إلى مستوى دول الغرب فإننا سنصبح في عداد الأتباع. هكذا قال الطالب. فقلت له: عشر سنوات؟! نصل بها إلى مستوى الغرب؟! ذلك حلم ليته كان خيلاً.

إن شعوب آسيا وإفريقيا قد ينبغ فيها العبقري الذي يعرف التكنولوجيا كما يعرفها أي عبقري في أوروبا. نحن لن نعدم العباقرة ولكن أين عبقرية الشعوب؟! أعني أين الجماعة التي تستفيد من العبقرية، فإذا ما اكتشف أو اخترع احتضنت اكتشافه أو اختراعه فانتفعت به وصدرته إلى الخارج؟ أعطني وحدة شعور الجماعة إن لم يكن فيها الممول الكبير لتصنيع الاختراع، فعبقرية الجماعة قد تجد في نفسها أن تكون الممول.

إن «أديسون» صانع المصباح الكهربائي صاحب الألف اختراع لم تكن تستطيع عبقريته وحدها أن تنفع بما اخترع، وسيد اختراعاته المصباح. إن الذي نفع ونشر المصباح هو الشعب. الشركات الممولة، فلو لم يجد من يصنع اختراعه لأنطفأت العبقرية ولما أضاء المصباح.

إن «أديسون» قد قال، كأنما هو يوضح ما كتبت: (إن التفكير في

الاختراع سهل، وإبراز الاختراع قد يكون من السهل، ولكن تعميم النفع بالاختراع.. هذا هو الصعب!).

ولكي يعمم «أديسون» الانتفاع باختراع المصباح جرب ألف سلك من كل مادة ليجد المادة رخيصة الثمن لتعميم النفع. فأضاءوا البيت الأبيض بالمصباح الكهربائي، وأضاءت الدنيا كلها في القصور والأكواخ غرفها وحجراتها وشوارعها بالمصباح الكهربائي.

إن عشر سنين قد ينبغ فيها عباقرة ولكن عبقرية الشعوب لا تكفيها السنوات المائة..

عن خليل الزياتي

- وانصرفت عن كرة القدم، أنجو بأعصابي من التوتر، وأترفع عن الانحياز لفريق دون فريق. فالكل أبنائنا وإخواننا، والكل رياضيون والرياضة سبيل الخلق النظيف، ولكني الآن وقد فرحت بانتصار منتخبنا الوطني في أكثر من جولة، فشعرت أنه قد رد الاعتبار، لا لأنني أفخر به، إلى مرحلة من التقدير لوطنه ومن أجل وطنه.

ولعليّ أزعّم أن هذا الفوز بعد تلك النكسات خطوة اكتسبها المدرب خليل الزياتي. فلئن كان مفكراً ومدرباً فلا أحسب إلا أنه كان ضميراً وحباً وشعوراً بما يجب عليه بما يكتسب من حق لبلده.

ولئن كانت هذه الخطوة للزياتي أرجو دوامها عليه بما ينعم الله به من التوفيق، فإني أعزو هذا الانتصار إلى الجولات السابقة التي امتلأت بالسلبات. وما أحسن السلب وما أحسن الفشل يدعونا أو يحفزنا إلى الإيجاب فالنجاح.

إن فريقنا الوطني مدين لمشاعره، كما هو مدين لما أسبغ عليه من تقدير وتهان. وأكثر من ذلك أحسب أنه المدين للفشل، للخطأ، قد وصل حين رفض الفشل والخطأ إلى النجاح.

لكن.. أضيف إلى هذا التقريظ شيئاً آخر. وذلك مسؤولية هذا الفريق

في لوس أنجلوس، فهل أطمع أن أجده في القمة وألا أجد نفسي وأعوذ بالله أن أكون في الحضيض؟

إن رعاية الشباب قد أعطت شبابنا الكثير من العناية والرعاية، وما دمنا قد تعودنا الجميل من رعاية الشباب، فلنصنع نحن الجميل.

تحية لرعاية الشباب في شخص رئيسها العام ومساعديه، وإلى كل اللاعبين والمدربين، ولخليل الزيانى قبلة احترام، فهنيئاً لك تلك الخطوة، وأسأل الله له المزيد.

عن الموسيقى

- قبل أيام مضت، وفي حفلة التكريم التي أقامها الابن عبد المقصود خوجه للموسيقار طارق عبد الحكيم، ألقى كلمة لأبرح الحفل حين أدت واجبي لأستريح فقد كنت مرهقاً، قلت:

إن هذا الموسيقار «طارق عبد الحكيم» ظالم ومظلوم في وقت واحد.

فهو ظالم إن قالوا إنه للموسيقى في هذا البلد قد خلق، ومظلوم إن قالوا إنه اختلق. والإنصاف أن يقال إنه تخلق فخلق! حيث فتحوا له الطريق فانفتح له باب الموسيقى دون تعويق.. ذلكم أن هذا البلد عريق في الغناء، حتى لقد أغنى اللغة الشاعرة ذات الجرس والرنين بما سجله أبو الفرج الأصفهاني في كتابه «الأغاني» كأنما طارق عبد الحكيم قد عرج إلى العرج ووج والعقيق، فلم يتعارج به الانتماء إلى العراق يوم كان العراق يحرم الغناء.

فالبئة النشأة هي التي تطبع إنسانها وقد طبع مغنياً ولم أعرج على ذكر أخيه الفقيد هاني، ذلك الفتى الذي كان في الطليعة في أهل «المجرور» فقد كان هاني ثقيفاً سفيانياً كأنما المثناة مازالت تشني عليه، يرحمه الله.

إن الموسيقى في هذا البلد، وفي مكة والمدينة قد استعقرت إلى أعماقه، وقد عرفت أن نسبة كبيرة من شباب المدينة يجيدون الأنغام حتى

لو تكلم إنسان بكلام عادي كان منهم من هو مغرم بأن يرجع هذا الكلام إلى نغم من الأنغام. فقد رأيت من الجيل الذي قبلنا «البناني» وعبد الستار بخاري والشيخين كامل توفيق وأسعد توفيق وعمر عبد السلام الحداد المثقف ثقافة موسيقية عالية. وفي مكة سمعنا حسن جاوه وسعيد أبو خشبة، ولا أنسى أن محمد سرور الصبان وحمزة شحاته وطلعت وفا وغيرهم كانوا يجيدون الأنغام، يأنس بهم أصحابهم حين يضرب بعضهم العود أو حين يغني الآخرون.

وتبع هذا الجيل محمد علي سندي والآخرون الذين نظرب لهم حين نسمع لهم.. طلال مداح ومحمد عبده وابتسام لطفي وغيرهم. فالموسيقى.. الغناء ما زلنا نقول إنه عريق في سمع إنسان هذه الأرض وعلى لسانه وحتى يطرب منه جنانه.

إن طارق عبد الحكيم ذكرته بذلك التحريف الذي اضطر إليه حيث غنى هذين البيتين حرف منهما الشطر الأخير. هما في الأصل هكذا:
أذكرونا مثل ذكرانا لكم رب ذكرى قربت من نزحا
واذكروا صبا إذا غنى بكم شرب الدمع وعاف القدحا

فقد حرف الشطر الثاني من البيت فجعله هكذا:

(ذاب وجداً وتمنى الفرحا)

أحرجه ذكر القدح فإذا هو حين حرف

للشعر قدح!

حول القصيم

- قبل زمن غير بعيد.. سمعت حديث سمو الأمير فهد بن عبد العزيز.. وقد جاء فيه أن إنتاج القمح لدينا قد بلغ أربعمئة ألف طن.

وحين سمعت هذا الخبر وجدتني أزف نفسي فرحاً بهذه الوفرة من الإنتاج راجياً أن يزداد. فما دامت الخطوات الأولى قد صنعت لنا ذلك فإن ما يأتي بعد سنجني منه الكثير حنطة ولا ننسَ تمرّاً.

ثم تذكرت القصيم حول وادي «الرمة» وقد سبق لي أن سميت القصيم «أوكرانيا» جزيرة العرب.. فأوكرانيا.. قبل أن يتوافر القمح من أمريكا وأستراليا وكندا كانت هي المنبت للقمح الوفير.

إن القصيم، ذكرته مرتين.. فالأولى كانت يوم خرج فخري باشا من المدينة وتسلم السلطان فيها حكم الأشراف.. تحت سلطان الحسين بن علي يرحمه الله، شاهدت الجمال السود والعدول السود تأتي سريعاً من القصيم تحمل الحنطة بأنواعها «اللقيمي».. والمعينة.. والحنطة» فإذا المدينة تشبع بعد جوع، حتى إن بقية الدقيق «الفينو» الذي يرد إلى المدينة من ينبع قد رخص ثمنه إلى حد أن خسر جالبوه، وكان أبي أحد الذين خسروا حين اغتنت المدينة بحنطة القصيم..

وأهل المدينة يعشقون القمح. «فاللقيمي» و«شيشه».. جريش..

«شورية رمضان» والمعينة «الفطير». فهي ذات عرق، حتى إن أهل مكة كانوا يقولون: أهل المدينة حراريف في الرق «أي الفطير» المطبق.. والمشلتت.. مع أن الحرافة والجودة كانت من «المعينة» نفسها، وهي من نبت القصيم.. ونبت المدينة أيضاً على حد سواء.. لا فرق بينهما.. لوناً وطعماً وصنعة..

ولكن الدقيق «الفينو» ألغى الفطير من «المعينة» فغاب الصانع الجيد واحترف الفتح الفطير.. الكثير والكثير «أهلّه سيبوه والجن استلقوه».

وأما الحنطة «فللخمير»..

وكثر قمح القصيم في المدينة.. وما أكثر التمر الذي وصل والسمن والأقط.. كأنما القصيم قد «أمرع» ليغيث المدينة.. أو أنه اختزن ليغيثها..

والمرة الثانية لحنطة القصيم.. كان فيها عون لمكة وللحكومة، لأن عبد الله الجفالي وعبد الله السليمان قد اشتريا كل هذا الوارد وحولوا الباعة.. بالقيمة المستحقة إلى إحدى الماليات التي أسست في المنطقة الشرقية.

كان ذلك العون كبيراً.. له تاريخ في التاريخ.

ولا أريد أن أنسى «حنطة الظفير» فرغم وجود القمح الكندي أيام الحرب العالمية كانت حنطة الظفير تملأ الطائف.. والحنطة الكندية من التموين المقرر تباع بثمن مناسب.. وحنطة الظفير أغنتنا من غيرها. وهي نوعان: «القيمي - والحنطة» ويعني ذلك أنه ليس في الظفير «المعينة».

واللقيمي يسمونه النقرة.. وهما كما هما في القصيم.. من حيث الاستعمال..

ولا أنسى حدثاً طريفاً له معناه في منطقة الخرج . فقد زرعنا في «خفس دغره» الحنطة وحصدناها المسؤول عن الخفس . . الأخ إبراهيم الحبودل وزرع مكان تلك الحنطة . . الذرة . . وحين حصدنا الذرة . . وجدنا كميات من الحنطة قد نبتت تحت الذرة، مع أن الذرة زراعة صيفية، والقمح زراعة شتوية خريفية، ولكن الذرة حين تكاثفت صنعت بيئة باردة نبتت في ظلها الحنطة، ويعني ذلك أن هذا النبات من الحنطة الخلقة قد ارتفع سوقه وجنينا منه اربعين كيساً من الحنطة الجيدة. وتلك تكنولوجيا صنعتها الذرة ولم نصنعها نحن . .

وأخيراً فالرجاء أن يكثر القمح إلى أكثر من (٦٠٠,٠٠٠) طن إذا ما اعتزم الرجال . . وإذا ما أخلص الرجال .

صوتان أعشقهما

- صوتان عشقهما صاحب الأذن السماع، صوت محمد رفعت وصوت فيروز، ولا أريد أن أتكلم عن قيمة الطرب والغناء والموسيقى وإنما هي ملاحظة عرضت فأحببت أن أستعرض السبب القوي الذي أخال الأذن، وهي تسمع الكثير والكثير والقوي والمعجب أن تدخر نفسها محصورة على ألا يكون الصوت الرصين تسمعه إلا صوت محمد رفعت، إلا صوت فيروز. . مع أن أم كلثوم قد بلغت الذروة، كأنما كل أذن عربية قد فتنت بسماعها (تتغنى كأنها لا تغني) كما هو وصف ابن الرومي لوحيد، وهو قول ابن الرومي أيضاً في وحيد.

مد في شاو صوتها نفس كان كأنفاس صوت عاشقيها مديد

كل هذا يدعو إلى أن أسأل عن السر المستكين والظاهر في صوت محمد رفعت وصوت فيروز، إن السر هو في قوة الضعف صوتان ضعيفان، إذا ما تكلمنا كانا يهمسان، وإذا ما قرأ رفعت أو غنت فيروز استمال الضعف إلى قوة أخاذة من الانفعال بالإنصات، صوت أم كلثوم قوة تبرز به القوة، أما صوت هذين، رفعت وفيروز فضعف تبرز منه قوة الاستقبال بالسماع، لا قوة النداء منهما «تعال اسمعني لأنك مرغم بقوة ما أغني أن تسمعني» لم يقولوا ذلك نداء وإنما فعلاه استجابة دونما نداء.

في صبيحة ذات يوم، قبل أكثر من عشرين عاماً كان يبيت عندي وفي بيتي في مكة وفي ليالي الصيف وليس في البيت إلا أنا وهو ننام تحت السماء على الدكة، والخادم اعتاد أن يفتح الراديو يتحين قراءة رفعت، فلما قرأ الشيخ قال حمزة شحاته، ماذا تريد من هذا الصوت الضعيف؟ قلت: سيخدعك بقوة الضعف حين تنصت. وأنصت يتظاهر بأنه مرغم، كأنما أملت عليه ذلك، فهو صاحب أذن موسيقية، يجيد الضرب على العود، ويعرف السلم بكل الأنغام، رأيته قد أطرق، قال: لقد سخرتني وسخرت مني، هل هناك صوت يسمع أجمل وأعظم من صوت رفعت؟ دعوتني إلى أن أطرب بالخشوع والخضوع، ولو كان العود في يدي لاستجلبت ما استكهننت، فحسبي الله عليك.

قلت: أليس في هذا الوصف أطلقه على رفعت أن قوة السحر في صوته هي في أنه لا يصرخ وإنما يهدد الوجدان بصوته الناعم الرخيم.

وعرفنا بعد ذلك فيروز، فإذا هي على نسق واحد مع محمد رفعت، لا تصرخ لا تدعو أحداً يسمعها، وإنما كل من رن صوتها في أذنه قد استجاب لأن يسمعها.

إن رفعت قد مات يرحمه الله، وينبغي أن أترحم على الذين اختلسوا منه أن يسجلوا صوته في هذه الآيات التي يقرؤها.

وأما فيروز فهي تعيش رغم أن لبنان قد مات. ليس في وجدانها ولكن من فعل العشاق. فهل تعيش فيروز لتعود لها الحياة جديدة في حياة لبنان الجديدة؟ أليس من الجور أن تخاف فيروز في لبنان وهي العندليب الذي أعطى لبنان الصورة الجمالية كأنما هي أعطته جمال الجمال الذي هو فيه:

فهل أقول قول ابن الرومي في وحيد:

يا خليلي تيمتني وحيد ففؤادي بها معنى عميد

حرب على الشريط

- وآليت على نفسي ألا أستجيب لسائل يريد حديثاً لجريدة أو مجلة لا يحضر دفترأ ولا يمسك قلمأ. ولا يكون معي حين أتحدث وإنما كل ما أتى به المسجل أتحدث إلى الشريط.. يلقي السؤال وأسرع بالجواب.

آليت ألا أستجيب لذلك لأن حضرات السائلين حين يستنسخون الكلام من الشريط لا يرجعون إلى المتحدث يقرأون عليه حديثه يستنسخون ويدفعون إلى المطبعة.. ويأتي المصحح لا يعني بالحديث كأن ما دفع إليه وثيقة لا تحتاج إلى تعديل.

تحدثت إلى جريدة «اليوم» فإذا الأخطاء شوهتني أما القارئ.. وتحدثت إلى جريدة «المدينة» وحين بدا صاحبي يقرأ لي كدت أمنعه ألا يتم القراءة، فقد شطرت الأخطاء الحديث إلى شطرين.. شطر مفهوم وشرط مبهم. والقارئ له الحق أن يسأم قراءة المشوّه، وقراءة الأخطاء.

لا أدري.. هل أتهم السائل بعدم الفهم؟! أم أن الاتهام الصحيح هو الاستعجال كلف بأن يسأل فأرسل الإجابات لا يعنى بتفهمها. لو كان محتفلاً بالجواب ومحترماً للجريدة والمجلة والمتحدث والقارئ لما أهمل.

إن السائلين أذكاء. ولكنهم التحفوا بالغباء فأسقطوا قيمة الحديث وأهدروا المتحدث.

فاعذروني إن أعلنت رفضي للتسجيل فمن أراد أن يسأل فليحضر دفترًا وقلمًا وورقًا أملي عليه ثم استقرئ ما أملت. فإذا ما جاء الخطأ كان - طبعياً - في الإمكان تصحيحه.

وزارني في بيتي مندوب صحيفة من أزد عمان الحبيبة التي أجلت البرتغاليين وعمرت الشرق الأفريقي واحتفظت بالأثر والكتاب والعلم، حتى أضاء لها سلطانها قابوس قبساً للتقدم أزهرت به شقائق «النعمان» بالألفة بين الشقيقات الحكومات العربية سواء الأشقاء في مجلس التعاون أو الأشقاء غرب السويس.

أحضر هذا الصحفي العماني المسجل في يوم من أيام رمضان، وأجبتة عن كل سؤال وكان المسجل حرباً على المسجلات اليابانية فهو لا يعمل إلا بالكهرباء لا بالبطاريات وخرج بعد المقابلة شاكراً. وفي اليوم التالي تلفن إليّ يعتذر بأن الشريط لم يسجل كلمة واحدة وأرسل إليّ الأسئلة لأجيب عنها وأبعثها إلى عنوانه في عمان واحتراماً له سأجيبه عنها إذا ما توافر الوقت لمن أملى عليه.

لست أخضع في هذا إلى غضب، وإنما هو إعلان عن الكرب والتعب. فارحمونا من المسجل والشريط. فلن أقول بعدها قد «كست» لكم أيها السائلون!

وتشبع النفس والعين

- والإنسان يعيش المتعة حين يرى الجمال في كل شيء، في الجبل وتضاريسه ومساقط الماء كأنه قد انشق جداول، وفي الشجر وفي كل شيء..

في كل شيء له آية تدل على أنه واحد جل جلاله خلق الإنسان ومتعه، خلقه في أحسن تقويمه، ويتم حسن التقويم في الخلق إذا أتم الله النعمة على الإنسان بحسن الخلق، ولا تحسبوا أن عشق الجمال في كل شيء ينافي حسن الخلق، بل إن الخلق الكريم ينمو بحسن الذوق، فالذين لا ذوق عندهم يتعثر سلوكهم..

إن الجمال ليس في اتساق النسق وإنما في تنافر الشكل، أنت لا يعجبك جبل أملس كأنه حصاة واحدة وإنك لتعجب من جبل ذي تضاريس، نتوء يبرز به شكل وكهوف وجداول فإن هذا الاختلاف يكسو الجميل جمالاً..

كل هذه المتع يتذوقها الإنسان.. يعشقها.. يسرح ويمرح بين السطح والقمة.. تحت جذع النخلة أو حين يرقاها يجني رطبها، الجمال في النخلة هو في النسق غير المتسق بين جريدها التي أصبحت كل جريدة ليفاً وكرناً، وحتى العراجين تتلون شماريخها متعة للنظر وإمتاعاً للذوق..

كل هذا تشبع منه النفس والعين وحتى القلب، لكن شيئاً واحداً قد تفوق في تذوقك له ومتعتك به.. هو الكلمة البيانية شعراً و نثراً، حديثاً مرسلأً أو مذاعاً أو متلفزاً، ذلك لأنه يجمع بين متعة النفس والعين والقلب ويزيد عليها بمتعة العقل ومتعة الاحتفاظ.. كل جميل غير الكلمة البيانية قد ينتهي إلى الذكرى، أما الكلمة البيانية فإنها لا تنتهي بالذكرى لأن متعة العقل بها يجعلها حاضرة ناضرة بالتذكير كأنها وقد امتلأ العقل بها أصبحت تذكرك بنفسها دائماً.. فأصحاب البيان لا تكاد تنساهم، فالبيان لهم عنك بعيد أن يكون لأن الإبانة منهم قرب عقل ونزهة روح!

ويكفي البيان ثناء قول رسول الله ﷺ كما هو في الحديث الصحيح: «إن من البيان لسحراً» ودعني أضرب لك مثلاً بكلمة أو كلمات. قال الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - «إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره، وإن أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه».. وكلمة خليل مطران شاعر القطرين يصف جنازة مسيحية يذهبون إلى القبر بين الطبل والزممر، فقال:

عظة جنت

فغنت في الطريق

وكلمة الرافي مصطفى صادق: «إذا اتخذت سفياً ليسافه عنك فاحذره في اليوم الذي لا يكون فيه سفياً إلا عليك!» وكلمتي: «الأباطرة كانوا يحتكرون الموبقات فأصبح السماسرة أباطرتها!».

إن الكلمة البيانية متعة النفس والقلب والعقل والروح!

نابليون والمرأة

- الشاعر العربي اللبناني أديب إسحاق تفرغ لترجمة بعض الأقوال للإمبراطور «نابليون» وتلك نزعة ثقافية أو هي من عمق الصلات بين أديب إسحاق ومن إليه مع فرنسا وقد حفظنا عنه وصفاً لنابليون هكذا:

قال لنابليون ذات عشية إذ كان يرقب في السماء الأنجما
هل بعد فتح الأرض من أمنية فقال: أرقب كيف أفتتح السما

لقد تخيل نابليون ذلك وجاء خيال العلم بسفن الفضاء والأقمار الصناعية.

إن العلم اليوم قد وضع أمامنا الصورة التي شوهدت جمال القمر والأنجم والشموس، بينما خيال الكلدان والفراعين ومن قبلهم ومن إليهم أعطانا صورة الجمال، فعلم الأقدمين نظرة إلى المعاني، وعلم المحدثين تنظير إلى المادة.

وكما حفظنا لأديب إسحاق ترجمة كلمة نابليون «فتش عن المرأة»، حيث نظم هذه الكلمة هكذا..

إذا رأيت أموراً منها الفؤاد تفتت فتش عليها تجدها من النساء تأتت

إن نابليون كان إمبراطوراً عظيماً حفزه مركب النقص إلى أن يصل إلى مركب الكمال، فالطموح في نابليون وأمثاله يبتعد به الحد حتى ليصبح هزلهم جداً إذا ما استدأ الحظ، وحتى ليستحيل جدهم هزلاً إذا ما خانهم الحظ.

ونابليون أأال جده إلى بعض الهزل حين أأب «جوزفين»، كان أأرأطور الدنيا يومها وكانت «جوزفين» الأأرأطورة على الأأرأطور، لم أأأكم بأسمه وإنما أأأته. كم كان يود أن أأفرأ لسأطان أأأكم به الناس الذين كانوا أأأ أأأطانه، ولكن الأنأى أأأ إلا أن أأأكم من أأأها، كأأما هو قد مضه أأب، أما هي فقد أمضته حين أأأته العذاب بسأطان المأأة وما أرأص المأأة أأأ لا يكون أأب، وأنه ليدوم أأب ولو لم أأأ مأأة. فالمأأة قد أأأب أأرة أأب، أما أأب فإنه ليشأأل إذا لم أأأ المأأة.

ونابليون مرة أخرى نسي أن الرجل يألم المرأة بهذا أأأ، فالأوة فيه أأأ يراها أأأأأل أمام الضعف بأورم الأأأراق في وأأانه فيأأأر بهوان الأوة وأأأأأها أمام ضعف المرأة الذي هو سلاحها الأوي. فالضعف في الأنأى مصيدة الأأر، والأوة في الرجل سلاح صأأ. وكأأراً ما ينبو السلاح في أيأ الصيأين!

قاتل الحضارة

- إن أوروبا ومن إليها قد صنعت المدنية بكل الوسائل وبكل الإحاطة بالعلم، صنعت كل ذلك على أوسع ما تكون وأكمله، حتى كأن الدنيا مدينة واحدة بسرعة المواصلات، فقد تقاربت المسافات ولكن أوروبا شرقها وغربها وأنسالها في الأمريكيتين وأستراليا وما إليها قد صنعوا وسائل التدمير للحضارة، فقد أحالوا كل ما صنعوا للمدنية إلى سبب للتخاصم والخلاف. فاستغلوا العلم المتمدن فأحالوه إلى أسلحة مدمرة.

لقد آمن الإنسان بوسائل المدنية إذ يعيش معيشة سهلة مترفة ولكنهم أحالوا هذا العيش إلى حياة يلبسها الروع والخوف، ينصبون الصواريخ تجاه الصواريخ، والأساطيل المواخر في البحر تجاه الأساطيل.

وحين منّ الله عليهم بهذه النعمة استحالت بأعمالهم النعمة إلى نقمة، وكل ذلك لا يقتصر عليهم ولا ينحصر فيهم، فهل المدنية قاتلة الحضارة؟! نعم، لقد فسر «أينشتاين» ذلك حين قال:

إذا ما وقعت الحرب الثالثة فسوف لا تجد البقية من سكان الكهوف سلاحاً تقاتل به وإنما سيتقاتلون بالحجارة.

ومعنى ذلك أن يعود الإنسان ساكن كهف، فلا يجد وسيلة من وسائل المدنية ولا يعرف إن كان في الأرض حضارة.

لقد ضلت عقول العلماء حين سخرهم الساسة لأن يصنعوا هذا البلاء،
كل الجمال على هذه الأرض أخذت به زخرفتها وأزينت سيضيع هباء
بأعمال صانعي المدنية.

ولكن، لعلّ الخوف الذي يعيشونه يمنعهم من أن يهلكوا به.
إن آسيا وإفريقيا تعيشان الخوف الآمن، أما أوروبا ومن إليها فتعيش
الآمن الخائف!

إن هذا الخوف قد تكاثر حين انسحب الاتحاد السوفياتي من
المفاوضات حول الصواريخ في أوروبا، فإذا المسيحي في أوروبا يصحو
الطفل فيه حيث تصحو تعاليم الكنيسة يخاطب الإلحاد فيعلن أن مسؤولية
الكارثة تقع على الاتحاد السوفيتي.

وفاتهم أن الكارثة حين تقع لا يوجد من تحتكم إليه المسؤولية. وفاتهم
مرة أخرى أن اليهودية والإلحاد لا يعرفان المسؤولية، ولا يؤمنان بالعقاب.

اهرعوا إلى الطبيب

- وحين تصاب بالزكام تهرع إلى الطبيب لتأخذ الدواء. ولعلك تأخذ أكثر من الدواء حين تعلمك الوقاية من هذا المرض، وحين تغتام السماء العربية بقتام الخلاف والفرقة، كل حدث تمتد آثاره إلى أن يصبح وباء يصيب الشعوب العربية بزكام يكمن في هذا السؤال: كيف نحن؟ ماذا يراد بنا؟ أو ماذا نصنع؟ كأنما الشعوب العربية قد أصيبت بأوبئة كثيرة: إسرائيل ومن وراءها. إسرائيل ومن أمامها. فإنها ومن وراءها وباء طغى وبغى.. وإن من هم أمامها، فإنما أصبحوا مرضى بالزكام «الشتات» حتى «الضياع» وليت هذا الزكام اقتصر على ذلك. بل أصبح الشتات نقطة تحول.. سلاماً مع العدو قد أعلن، وسلامة منه على صورة تستغل هيئة الأمم لفرض الاستسلام مبرقاً بهدنة غير معلنة، أو هو سلام المطلوب منه لمن هم أمام إسرائيل أن يحافظوا على البقية الباقية ليحفظوا أنفسهم من الدخول في معركة مع عدوهم. إن العرب كلهم أمام إسرائيل، ولكنهم وراء أنفسهم، قد صبوا على شعوبهم العجز، بينما لديهم قوة لو تحالفت وتآلفت وتعلمت صناعة الموت لأعطتهم شعوبهم القوة قوة قد تخسر بها ألوف القتلى، إذا ما قاتلوا وقتلوا في سبيل الدفاع عن عقيدتهم وأرضهم وعرضهم، كانوا شهداء. كانوا حياة التاريخ. ليكتب بدمائهم تاريخ الحياة للأمة العربية كلها.

إن المتقاعسين عن الحرب، أصبحوا يملكون قوة الرفض كأنما هم يعطون لما يفرض عليهم من اليهود حق السكنى، لا على الأرض وإنما في الدم العربي والأعصاب العربية حين نسيت أرضها، أعطت السكنى لليهود، وفي العقل والنفس.

ويأتي عربي اليوم يفكر عن رجل يصنع التاريخ، صناعة جديدة، كأحد الرجال الذين فعلوا ذلك من رجال الأمة العربية، ويأخذ يسأل أهو عمر بن الخطاب، أهو خالد بن الوليد، أو هو معاوية بن أبي سفيان، أهو صلاح الدين؟ فلا يستطيع إلا أن يترضى عن هؤلاء.. ولكنه من قسوة الجوع، حين افتقد الرجل، لا يجد أمامه إلا واحداً اسمه الحجاج، فالعرب أمام إسرائيل بحاجة إلى الحجاج، يحمي الدولة ويستغول في الأرض، ويعطي الفتح كل جهد، إن العربي لا يسأل الحجاج أن يفتح الأمصار، وإنما يسأل الحجاج أن يكون جبوتاً على الذين أسكنوا اليهود في وجدانهم وأعصابهم، خوفاً على الحياة، مع أنهم بذلك قد قتلوا الحياة.

فالحجاج قال: «وهذا أوان الشد فاشتدي زيم».

وعن الحجاج قالوا:

إذا نزل الحجاج أرضاً مريضة تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها غلام إذا هز القناة سقاها

والشيء بالشيء يذكر، فقد حفظنا حواراً نضعه حلية على ما سبق..
فقد كان في المدينة أستاذنا الشيخ «كامل القصاب» الزعيم السوري المعروف، ومعه الضابط المدفعي «مراد بك الاختيار»، ويومها كان القصاب مديراً للمعارف فذهب هو ومعه «مراد بك الاختيار» وأستاذنا الشيخ «عبد

القادر شلبي الطرابلسي» وكنت في معيتهم إلى زيارة أستاذنا السيد «حسين طه» العالم الرياضي خريج المدرسة السلطانية في دمشق. وضم المجلس كلاً من السيد طه والد السيد حسين وكامل القصاب، وممراد الاختيار، والشيخ عبد القادر شلبي. وكاتب هذه السطور. وفي احتدام الحوار بين الاختيار والقضايا قال مراد بك. لو كان لي سلطان من الحكم لقتلت تسعين في المائة من هؤلاء «المعممين» الذين هم أساس التأخر. فرد عليه الأستاذ القصاب: أنا لو كنت صاحب سلطان لقتلت تسعة وتسعين من المائة من هؤلاء الشباب الذين فسقوا عن أمر ربهم وحاربوا الدين فقتلوا التقدم. . وانتهى الحوار.

ولا أدري أكنت يومها مع «القصاب» ضد «الاختيار» أم أنني كنت ضد الاثنين.

أعجوبة

- وهذه الأعجوبة تحكيها سيدة أصلها من اليونان. أخرجتها الحرب العالمية الثانية هي وأسرتها يفرون من قنابل النازية والفاشية ذهبوا إلى رومانيا لعلها تصبح بعيدة عن هذه القنابل وحتى إذا أطمأنوا في ضاحية من ضواحي رومانيا حول بوخارست لحقت بهم الغارات، وكانت غارة. فقدفت الطائرات حمولتها من القنابل تلقيها جزافاً دون تحديد الهدف. فسقطت كثرة من هذه القنابل على المقبرة.

وماتت قبل هذه الغارة بيومين عجوز من الأسرة هي أم زوجة أخيها، فدفنوها في هذه المقبرة وكان إلقاء القنابل أشد ما كان على هذه المقبرة. فنسفت جسراً وبعثرت القبور، تطير التوابيت في الهواء حتى إذا انتهت الغارة ونزلوا إلى فناء البيت، فإذا هم يجدون العجوز التي دفنوها قبل يومين قد عادت إلى البيت.

وكانت أعجوبة تنسج حولها الخرافات، مع أنها ليست أكثر من مصادفة، وأجلت الحرب هذه الأسرة إلى نيوزيلندا، إلى بعيد، ثم إلى أبعد، فقد ضاق عليها سبيل العيش، فتذهب هذه السيدة مهاجرة إلى الولايات المتحدة.

إنها قصص كثيرة. فقد دمرت الحرب العمار والنفوس، ولكن هؤلاء

الغربيين أو هم الأوروبيون ومن إليهم ما زالوا يبنون للحرب، فكم أحسنوا إلى الدنيا كلها بهذه المدنية. وكم أجرموا على الدنيا كلها بهذا السلاح دمر المدنية مرتين ودمر النفوس. ولا ندري ماذا سيكون حين تشتعل نار الحرب الثالثة؟!

فهل يعيش إنسان بعدها يحكي حكاية عودة العجوز إلى فناء البيت؟! أم ستكون الإجابة كما قالها الدكتور طه حسين. سألوه مرة لماذا لم تسافر هذه السنة إلى أوروبا، أنتخشي أن تشتعل الحرب الثالثة؟!

فقال حين تشتعل الحرب الثالثة فإن ما سيجري على أوروبا هو كالذي على كل بلد آخر.

أو كما هو قول اينشتاين: «إذا وقعت الحرب العالمية الثالثة فإن البقية من بني الإنسان سوف يتقاتلون بالحجارة». يعني تبدأ الإنسانية عصراً حجرياً كبدايتها الأولى حين يضع كل شيء!